

رواية

نجع الموتى

د. حسين السيد

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب



كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل رواية نجع الموتى للكاتب د. حسين السيد الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

نجع الموتى

روايـة

د. حسين السيد

إهداء..

ضحكته هي نفس الضحكة..

والفرحة التي تشرق في العينين، فتتسعان وتدمعان بخجل هي نفسها..

ظلك حين يسقط على ظلي يتطابقان..

وغضبك حين تثور هو غضبي الذي أعرفه..

أورثتك الكروموسومات فجئت كصورة مصغرة في مرآة.. تجادلني وتحيرني، وتبهرني، وتفرحني، ويدمع الفؤاد من اجلك لو توجعت لحظة أو تأملت..

لو كان للفرحة يا فرحة العمر عنوان فالعنوان هو ابتسامتك المشرقة..

ولو كان للحب في قلبي تاريخ فأنت بدئه..

الى الفرحة الأولى (السيد)

أحبك

☆ ☆ ☆

انفجرت الصرخة المذعورة بغتةً في الظلام. كانت مألوفة، وحين هبَّ (علوان) من فراشة متوترًا؛ أدرك منذ البداية إلى من تنتمي. هرع على الفور، وهو يتمنى لو كان مخطئًا. لكن الباب الخارجي للبيت الذي وجده مفتوحًا، ومواربًا؛ لم يدع في صدره مجالًا للشك، فخفق قلبه في عنف.. إنها صرخة طفله الصغير. إنه (سعدون)، هذا الشقي الذي لا يكف لحظةً عن إثارة المتاعب بأفعاله الخرقاء. شعر بالكارثة المقبلة، وهو يفكر في طفله ذي الأعوام الستة، والذي اختار أسوأ وقتٍ ممكن؛ ليغادر البيت. أي شيطانٍ هذا الذي زين له مغادرة البيت في وقتٍ مثل هذا؟! وإلى أين يعتقد أنه سوف يذهب في تلك العتمة؟!

يا للغباء!!

أقسم أن يكون العقاب عسيرًا؛ حين تقع يده عليه. لو عاد سالمًا فسوف يلتهم حنجرته؛ كي لا يفعلها ثانيةً. لكن المهم الآن هو أن يعثر عليه أولاً.

تأمل في ذعرٍ الضباب الرماديّ الكثيف القابع خلف الباب الموارب دون أن يتسرب إلى داخل البيت، وهو يفكر في خطواته التالية. في الواقع؛ كان الأمر محسومًا. سوف يخرج للبحث عن ابنه الذي ابتلعه الضباب. تذكر في تلك اللحظة التحذيرات التي يرددها الجميع منذ هبط الضباب بغتةً على النجع قبل أسبوع. وطفا في خياله ما رآه بعينيه من أهوالٍ تحدث في قلب هذا الضباب الملعون في الليالي الكئيبة الماضية.

تذكر كل من أهلكهم الضباب طوال أسبوعٍ كامل في النجع دون أن يفهم أحد؛ ما الذي حدث لهم؟. والآن جاء دوره ليعلم بنفسه؛ ما واجهه هؤلاء البائسون في قلب الضباب قبل أن يموتوا.. ابتلع ريقه في صعوبةٍ، وهو يتمنى أن يعاود الطفل الصراخ ثانيةً؛ ليتأكد أنه ما زال حيًّا. أرهف السمع للحظةٍ، وهو يغالب خوفه، وتردده، ثم فتح باب البيت بحزم، واقتحم الضباب، قبل أن يتوقف بعد أمتار، وهو لا يدري أن يبدأ بحثه. السكون كانَ مقبضًا، والهواء باردًا ثقيلًا، والظلمة حالكة من حوله. حاول أن يخترق بعينيه الضباب، لكنه لم ير أي شيء. لم يكن هناك أي شيء حوله غير البخار والظلام، والخيالات المرعبة في عقله، والتي لم تنجح الأضواء التي تطلقها المنازل الناعسة في تبديدها. رفع صوته مناديًا: "سعدون.". فخرج الصوتِ مخنوقاً مرتعشاً، قبل أن يقطعه بغتةً، وكأنما يخشى أن ينتبه له أحد ما..

هنا صرخ الطفل ثانيةً للحظةٍ واحدةٍ. قبل أن يصمت. بدا الصوت مستنجدًا، وكأن هناك ما يخيفه، لكن (علوان) علم الآن؛ أين يذهب؟.

تحرك في الضباب مسترشدًا بالصوت محاولًا ألا يتعثر، وهو لا يرى موضع قدمه، وبدا جسده في تلك اللحظة كشبحٍ يتسربل بالظلام، وبعد أمتارٍ قليلةٍ؛ وجد نفسه أمام الطفل. كان مكومًا حول نفسه، وهو يحرك عنقه في كل ناحيةٍ في توترٍ غريب. انحنى (علوان) نحوه ليحمله، قبل أن يدرك بهلعٍ أنهما ليسا بمفرديهما! وبعينين مذعورتين؛ رأى هؤلاء الذين يلتفون حول الطفلَ في صمتٍ مريبٍ دون أن ينتبه لوجودهم في البداية. وحين حاول التراجع بالطفل عائدًا للبيت؛ اكتشف الآخرين

الذين يسدون طريق عودته. انزاح بعدها الضباب قليلًا عنهم، فتيبس في مكانه، قبل ان يتحركوا نحوه بلا صوتٍ. هنا رأى؛ كيف يبدون للمرة الأولى؟.

الآن علم؛ لماذا لقي مصرعه من سبقه في قلب الضباب؟. ثم أدرك برعبٍ الآن أي حماقة اقترفها؛ حين غادر بيته في هذا الوقت العصيب.

لكن هذا كان متأخرًا.!

للغاية.!



(1)

"قبل أسبوع"..

لأكثر من ساعةٍ؛ كان عليهم أن يتوغلوا في قلب الجبل؛ كي يبلغوا تلك النقطة النائية الوعرة التي لم يصل إليها أحد. ضاق الطريق أسفل أقدامهم أكثر وأكثر، وصار أكثر خطورةٍ ووعورة. من سوء حظهم أن تلك الدروب لا تصلح لسير السيارات، أو حتى الدواب. بل، وفي الواقع لا يصلح للوصول إلى ذلك المكان الذي ينشدونه غير المروحيات، وطالما لا يملكونها، فلم يكن أمامهم غير أقدامهم يستعملونها. في النهاية، وبعد أن ارتقوا عشرات المرتفعات، وهبطوا عشرات المنخفضات، وبعد أن شارفت قواهم على الانهيار؛ بلغوا مأربهم.

لقد وصلوا أخيرًا!!

لكن تبقى تلك الصخرة الضخمة التي انتهى عندها الطريق. كان عليهم أن يرتقوها؛ ليصلوا للمغارة، وبالطبع كان تسلق صخرةٍ ترتفع لنحو أربعة أمتارٍ بحاجةٍ للكثير من اللياقة والمرونة التي يفتقدها البعض بالطبع. في البداية؛ صعد بعض الملثمون من رجال (سليم) قبل أن يأتي الدور على الحاج (حسنين) من بعدهم.

بدت المحاولات الحثيثة التي يقوم بها الحاج (حسنين الخلفاوي) لصعود تلك الصخرة الملساء مضحكةً، ومثيرةً للشفقة في ذات الوقت. عاونه ملثمان من المطاريد، فدفعاه من قدميه لأعلى؛ بينما رقد ملثمان آخران على بطنيهما أعلى الصخرة، وقد تدلت ذراعيهما لأسفلٍ نحو الرجل لالتقاطه من ذراعيه، بينما حاول الرجل العجوز الالتصاق بالصخرة، وأظفاره تبحث عن نتوءٍ ما يتشبث به؛ كي لا يهوي.

ألقى الحاج (حمد) ببصرة لأسفل نحو الأخدود العميق المظلم الذي يقفون على حافته، فشعر بالدوار، وهو يتخيل أن يهوي صاحبه نحو تلك الهاوية مع أي خطوةٍ خاطئة. أبعد بصره عنها بسرعةٍ، وعاد يتأمل العجوز الذي مازال يحارب ليصعد. انتظر الحاج (حمد) بقلقٍ أن يتعثر، أو يسقط أثناء تلك المحاولات البائسة، قبل أن يفكر في رعبٍ؛ أنه التالي في الصعود من بعده. عندها خفق قلبه بسرعةٍ، وقد شعر أنه صار عجوزًا على مثل تلك الإثارة، فالتفت إلى (سليم دياب) الذي يقف بجواره، وهو يرمق ما يدور بوجهٍ جامدٍ لا يحمل أي تعبير. قبل أن يهتف في رجاله:

" - حذارِ أن يسقط يا رجال.. تمسكوا به جيدًا، وارفعوه بقوةٍ أكبر".

تساءل الحاج (حمد) في سره؛ إن كان (سليم) يسخر من الشيخ (حسنين) وهو يراقب محاولاته البائسة؛ لارتقاء الصخرة، أم أن تحذيره لرجاله حقيقي. لا يدري! نظر إلى الرجال الملثمين الذين يحرسون المكان بتحفزٍ، وكل منهم يقبض على سلاحٍ آلي لا يرحم. لماذا كل هذا الحذر؟!. كانت تلك البقعة من الجبل موحشةً غير مطروقةٍ أبدًا. إنها مجرد صخور، وجروف، ومرتفعات، وأخاديد لا تؤدي إلى أي مكان. لهذا لا يتوقع أن يفاجئهم أحد بالظهور أمامهم في مكانٍ كهذا. لكنه عاد، وتذكر أن هذا لا

يعني شيئًا لهؤلاء المطاريد. إن أرواحهم صارت تنتمي للذئاب التي يعيشون بينها، والذئب لا يفارق حذره، وشكوكه إلا أسفل قبره. أوشك الحاج (حسنين) على الصعود في تلك اللحظة، وقد تلقفته السواعد الأربع القوية في الأعلى، فالتفت إليه (سليم) وقال بهدوء:

" -إنه دورك يا حاج حمد".

احتج الحاج (حمد) وقال بضيق:

"ألم يكن ممكنًا جلب سُلم خشبيّ، أو حتى واحد من الحبال.. لم تعد عظامنا تقوى على تلك الألعاب البهلوانّية يا سليم".

"كان هذا يعني المزيد من الساعات الأخرى الضائعة في الانتظار. إنها ساعة النصر التي انتظرناها طويلًا، ولن نفوتها هذه الليلة من أجل تلك عائق صغير كهذا. تقدم ولا تخف يا رجل، مازلت شابًّا، وها هو الحاج(حسنين) قد فعلها قبلك."

لكنه أكثر من يعلم أنه ليس بالشاب. وأكثر من يدرك أن عنقه سوف يدق لو تعثر. تقدم نحو الرجال، وتحسس بكفه الصخرة الملساء. قبل أن يشعر بالأذرع القوية التي ترفعه لأعلى. لم تنجح قدمه في التشبث بالصخرة، وانزلقت لمرتين قبل أن تدركه الأذرع القوية، وتشده إليها، ثم وجد نفسه في النهاية وبعد لحظاتٍ من الرعب إلى جوار الحاج (حسنين) الذي مازال ينفض ملابسه من الغبار، وعيناه تتألقان على ضوء المشاعل النارية التي يحملها رجال سليم وبعد رجاله، وهو يشير للمغارة التي تتوهج أضواء المشاعل داخلها، وقال في انتصار:

" - لقد وجدناها أخيرًا يا حاج (حمد). إن المقبرة أمامنا"!

ضرب وجهه هواء الليل البارد، فارتجف للحظةٍ، ثم قال ببطء:

"هذا ما أرجوه هذه المرة. لقد سئمت البحث عن تلك المقبرة المزعومة لسنواتٍ لا تحصى بلا طائل، ففي كل مرةٍ كنا نعتقد أننا عثرنا عليها قبل أن ندرك الخدعة".

"قلبي يحدثني؛ أن هذه المرة مختلفة. أكاد أشم رائحة الذهب من هنا. صدقني هذه هي مقبرتنا، وهي بانتظارنا"!

لم يعقب الحاج (حمد) وهو يراقب (سليم) الذي ارتقى الصخرة المرتفعة في رشاقةٍ دون أن يعاونه رجاله، ثم صار أمامهما بعينيه الداكنتين المخيفتين، والتي تذكره دومًا بعيني ذئبٍ، وقال (سليم) وهو يشير لهم أن يتقدموا:

" - ماذا تنتظرون أيها السادة؟.. دعونا نتحرك، الرجال بالداخل في انتظارنا"!

أشار الحاج (حسنين) لأبناء عمومته، وأتباعه الذين صحبوهم أن ينتظروه مع باقي رجال سليم من المطاريد، ثم تحركوا وراء (سليم) واخترقوا المغارة. كان هناك الكثير من المشاعل النارية المعلقة على الجدران الحجرية، ومن قلب المغارة؛ ترددت دقات المعاول التي تنقض على الحجر في إصرار. امتد الطريق أمامهم مستقيمًا لبعض الوقت. قبل أن ينحرف بزاويةٍ قائمةٍ حادة نحو اليمين. اتبعوا

الطريق، وبعد أمتار قليلة بلغوا درج حجري يهبط لباطن المغارة. هنا صار الممر منخفضًا، فاضطر الجميع للانحناء، وهم يهبطون السلالم حتى وصلوا لنهايته حيث ظهر ممر حجريّ جديد امتد أمامهم. لكنه كان مختلفا؛ لم تعد الجدران الصخرية المدببة العارية هي المميزة للمكان كحال المدخل. تغيرت الجدران، وقد غمرتها النقوش، والأحرف القديمة، والصور الملونة.

بدت غريبة للغاية هذه المرة. كان هذا ما شعر به الحاج (حمد) وهو يقرب بصره الضعيف منها؛ ليراها بوضوح. لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها مقبرةً فرعونية، ولم تكن المرة الأولى التي يرى النقوش التي تزين المقابر.. لقد ألفها، وحفظ ترتيبها بعد أعوام كثيرةٍ من العمل في التنقيب على الآثار، والتجارة فيها؛ ولهذا، فقد كان ينتظر أنّ يرى النقوش الجنائزية، وليس تلك النقوش الغريبة المخيفة، ورغم أنه بالطبع لا يفهم ما كانت تعنيه الرموز، لكنه أدرك أن ما يراه مختلفًا عما رآه من قبل. كان هناك الكثير من نقوش بنات آوى، والحيات والثعابين، ورجال تلتهما تماسيح لها ايد واقدام بشرية، وصور لآلهة عابسة على الجدران يؤرقها أمر ما. كان هناك شيئًا مقبضًا تحمله تلك النقوش، وتبثه في المكان.

لم يكن وحده من شعر بهذا. رأى هذا في عيني الحاج (حسنين) الذي تبادل معه النظر في صمت، كما رآه على وجه (سليم) الذي راح يتحسس النقوش بباطن كفه بوجهٍ جامد، وقال الحاج (حسنين): "هناك خطأ ما"!

أجابه (سليم) وأنامله تنزلق على نقش لرجل يعذب؛ وينتهي بعينين مطموستين: "إنها تلك النقوش.. بعضها أراه للمرة الأولى".

همس الحاج (حمد) وهو يزدرد ريقه بصعوبة: "وما الذي قد يعنيه هذا؟"

" -لا أدري!.. ربما كنت واهمًا؛ لكن لنلق كل هذا خلف ظهورنا، ونواصل طريقنا".

واصلوا التحرك، وبعد دقيقتين بلغوا نهاية المغارة. كان هناك رجلان يعملان بمعاولهم بنشاطٍ على أحد الجدران، ومن خلفهم على بعد أمتارٍ خمس؛ توقف باقي الرجال الملثمين يتوسطهم الشيخ (عتمان) الدجال العجوز الذي قادهم بسحره، وفنونه المظلمة لاكتشاف هذا المكان. كان يرمق الجدار الآن بعينٍ جاحظةٍ لا ترمش، وفم لا يكف عن همهماته الغامضة، وقد غاب عقله عن المكان كله. توقف الجميع في ترقبٍ، ولاحظ الحاج (حمد) الجوال الصوفي الضخم المستند إلى الحائط الذي يحرسه أحد رجال (سليم) بتحفز. إنه القربان حتمًا. أشاح ببصره بعيدًا في ضيقٍ، وحاول ألا يفكر في هذا الأمر البشع الذي يحدث أحيانًا.

يعلم أن الكنوز القديمة محفوظة بالرصد، والرصد لا يفكه غير السحر، والقرابين. إنها المتلازمة المرعبة التي يحفظها كل من يمارس عملهم.

توقف الرجلان اللذان ينقبان الجدار فجأةً عن عملهما، والتفتا. رمقهما الجميع في تساؤلٍ، فأجاب أحدهما: "هناك صخرة لا تستجيب للضرب عليها.. نضربها منذ دقائق، ولم نقتطع منها شيئًا".

التفت (سليم) للشيخ (عتمان) على الفور، فقال الأخير للرجلين باقتضاب: "تراجعا".

تراجع الرجلان على الفور، فتقدم. طرق الجدار بعصاه الخشبية السوداء، وألصق أذنه به للحظات، وهو ما زال يتمتم، ثم انحنى نحو الأرض الصخرية أسفله، وبلوحٍ من الطبشور الأحمر؛ راح يخط الكثير من النقوش،

والخطوط، والأحرف العربية والأرقام، راقبه الجميع في صبر. وقد أيقنوا أن تلك الصخرة مرصودة ولن يزحزحها من مكانها غير سحر الشيخ (عتمان) وقربانه..

انتهى الرجل، فأشار لأحد الرجال الملثمين، فجلب إليه جرابه. أشعل الشيخ العجوز المزيد من البخور، فانتشرت في المكان الرائحة العطرية الثقيلة، ارتفع صوت الرجل في كلماتٍ غريبة، وابتهالاتٍ غير مفهومة. طالما كره الحاج (حسنين) تلك الطقوس التي تشعره أنهم يمارسون الكفر. لكنه علم منذ البداية أن مقابر الفراعنة، وسحرهم لا يجلوه الا الاستعانة بسحر الجان، وشعوذة الشياطين، وغيرها من تلك الطقوس المريعة. وعاد ليتذكر الخطوة التالية المشئومة. تمنى لو انتظر بالخارج حتى ينتهي الأمر، لكنه خشي أن يفقد احترامه بين الرجال لو فعل.

انتهى الشيخ من طقوسه، وقد ملأ الدخان المكان، حتى صارت الرؤية ضبابية تمامًا. أشار الشيخ نحو الجوال، فتعاون رجلان على حمله، ثم أرقداه أمام الشيخ، قبل أن يخرجا من به. كان شابًا صغيرًا لا يتعدى العشرين من عمره. كان مخدرًا بالطبع، ولهذا لم يقاومهما. أمرهما الشيخ عتمان أن يقبعا مع الشاب في قلب النجمة الخماسية التي رسمها ثم تراجع للخلف، وهو يشير للجميع أن يفعلوا مثله. رفع أحد الملثمين عنق الشاب المخدر، وفي اللحظة التالية؛ هوى زميله بخنجرٍ غريبٍ على عنق الشاب، فتفجرت الدماء على الفور..

ارتجت الجدران للخطة.. قبل أن تهوي الصخور التي يقف عليها الرجلان، والقربان بغتةً، وفي لمح البصر ابتلعت الأرض الرجلين، والقربان معًا. تراجع باقي الرجال في خوفٍ وتوتر، وهم يتبادلون الهمسات الخائفة، وتقدم (سليم) نحو الحفرة التي تكونت فجأةً أسفل أقدامهم، وابتلعت رجليه، والشاب المذبوح. لم ير فيها غير الظلام.. ألقى بمشعله في قلبها؛ ليرى أين تنتهي؟. فرأى بدهشة؛ كيف هوت الشعلة، وظلت تهبط لوقتٍ طويلٍ، حتى اختفت دون أن تبلغ نهاية الحفرة؟!. بدت الحفرة، وكأنها بلا قرار.

لماذا ظهرت تلك الفجوة؟ ولماذا ابتعلت رجليه؟ وأين ذهبا؟ ولماذا لم يصرخ أيهما، أو يستغيث؟.. رمق الشيخ (عتمان) في حيرةٍ، وعقله مثقل بالأسئلة، فأجابه الشيخ باقتضابٍ، وكأنه يقرأ ما يدور برأسه: "الرصد عظيم، وحراس المكان من المردة شديدي القوة، والبأس. كانوا بحاجةٍ لأضحيةٍ عظيمة".

وفي اللحظة التالية؛ رأى الجميع الصخرة التي كانت تعوق تقدمهم، وقد تحركت بمفردها، وانزاحت قليلًا؛ لتكشف عن فجوةٍ جديدةٍ خلفها تقودهم للمقبرة.

☆ ☆ ☆

هبت في وجوههم بغتةً؛ ريح قوية حارة ظلت حبيسة المكان لقرونٍ لا تحصى فور أن تزحزح الباب الحجري للقبر القديم. حملت الريح لأنوفهم الرائحة المريعة النتنة

للقبر القديم، لكنها كانت أسوأ من أي رائحةٍ لقبرٍ قديم شمها أحدهم يومًا. شعر الجميع بالاختناق، وسعل الحاج (حسنين) وقد شعر بأنفاسه تضيق، وغطى الحاج (حمد) أنفه بوشاحه، وغمغم معترضًا: "أي رائحةٍ بشعةٍ هذه.. من أين أتى هذا القبر بمثل تلك الرائحة؟.. وما الذي يحتويه؟"

لم يهتم أحد بإجابته، وانتظروا قليلًا، حتى خفت حدة الرائحة، قبل أن يتحركوا نحو الباب الحجري، تقدم رجلان من رجال (سليم) بلا ترددٍ، أو خوف. تحسس أولهما الأرض الصخرية التي انهار معظمها مخلفةً تلك الفجوة العميقة التي التهمت الرجلين، والقربان. بدت الأرض متماسكةً صلبة، فعبراها بحذرٍ.. هنا تحرك (سليم) والشيخ (عتمان) قبل أن يلحق بهما الحاج (حسنين) والحاج (حمد). كانت الفجوة التي خلفها الباب المزاح بالكاد تكفي مرور رجلٍ واحدٍ في المرة الواحدة لو دخله بجانب جسده.. دخلوا فرادى في صفٍ واحدٍ، وبعد لحظاتٍ؛ كان الجميع في قلب المقبرة.

شهق الشيخ (حسنين) مبهورًا، وقال دون أن يشعر بنفسه: "يا إلهي. مغارة علي بابا؟"

ودارت عينا الحاج (حمد) في محجريهما بغير تصديقٍ، وغمغم: "انظروا الي كل هذا الذهب. لابد أنها تتجاوز عشرات الملايين بلا شك. لا أصدق ما أراه"!

مسح (سليم) المكان بعينيه صامتًا دون أن يبدو على وجهه أي أثرٍ مما يعتمل في أعماقه من انبهار.. تلال من الآثار الذهبية في كل مكان حوله.. تماثيل، وحلي ثمينة، وأثاث. وكل قطعةٍ صغيرةٍ منها تساوي الكثير. إنها بلا ريبٍ أكبر مقبرةٍ اكتشفها أحد لأحد الفراعنة. بل إنها تفوق بلا شكٍّ مقبرة (توت عنخ آمون) بكل كنوزها، وذهبها.. تألقت النقوش على الجدران على ضوء المشاعل، فتحرك نحوها، وقد التقط مشعل أحد رجاله، وقرب عينيه من الجدار.. رأى الرسوم العجيبة التي تشبه تلك التي رآها في المغارة بالخارج. لا يدري؛ لماذا عاوده الشعور بالانقباض؟! وإحساس مريب يراوده أن هناك خطأ ما. ثم سمع نداء أحد رجاله وهو يناديه من مكان قصي في المقبرة: "سليم! هناك ما يجب أن تراه"!

أفاق الجميع من نشوتهم، وسحر الكنوز التي ذهبت بعقولهم، وتحرك (سليم) نحو الرجل الذي توقف خلف كومةٍ من الكراسي المذهبة، والطاولات الخشبية المزخرفة بخيوط الذهب.. وعلى ضوء المشعلين؛ رأوا الجثث الثلاث الجالسة، والمستندة بظهرها على الجدار متجاورة في انتظام وقد فصلت رؤوسها عن اجسادها وإن أعادها أحد ما لمكانها.. توتر الجميع، وقد شاهدوا الرعب مجسدًا محفورًا على وجوه الجثث الثلاث. العيون الجاحظة، والفم المفتوح عن آخره، والأيد المتيبسة الممتدة عن آخرها للأمام، وهي تقبض على الفراغ، وكأنها تدفع شرًّا غير محتمل. الجثث الثلاث كانت في نفس الوضع تمامًا، والغريب أنها ظلت على حالها، فلم يصبها التحلل رغم أنها غير محنطة، وكأنما ماتت اليوم.

اكتنف الرعب الجميع. حتى (سليم) شاركه إحساسهم هذا؛ رغم أنه يفتخر دومًا أن لا شيء يمكنه أن يخيفه.. ما يراه في تلك اللحظة على وجوه تلك الجثث كان الرعب

النقي.. ما الذي أرعب هؤلاء؟! ولماذا ماتوا هكذا؟.!

هنا قال الحاج (حسنين) وقد شعر بألمٍ في صدره: "من هؤلاء؟.. وأي شيطانٍ رجيم فعل بهم هذا؟"!

تراجع الشيخ (عتمان) متوترًا، وقال: "ربما قتلهم مردة المكان الذين يحرسونه"

ارتجف الحاج (حمد) وقال: "لا تقل هذا أرجوك.. لا وجود لمثل تلك اللعنات".

ثم التفت إلى (سليم) منتظرًا منه التفسير، وقال: "ما رأيك يا سليم؟"

أجاب سليم، وعيناه معلقتان بهم:

" - ربما دفنوا مع صاحب المقبرة. وربما كانوا عبيد صاحب المقبرة، وقد دفنوهم ليؤنسوا وحدته، سمعت شيء كهذا من أحد الانجليز"

لكنه انتبه لأمرٍ آخر دحض تفسيره.. إنها ملابسهم؛ كانت متباينة، وتنتمي لعهودٍ مختلفة.. هذا يعني أن الثلاثة ينتمون لعصورٍ مختلفة بلا شك.. لذا أكمل كلامه ببطء، وهو ينحني نحو الثلاثة: "كلا إنهم لم يدفنوا مع صاحب المقبرة.. لقد دخلوها بعدها بوقتٍ طويل".

رأى الأسلحة الحادة الملقاة أسفل الجثث.. كان هناك سكين، ورمح، وسيف.. هل حاول الثلاثة الدفاع عن أنفسهم من شر ما فشلوا؟. وعاد الحاج (حسنين) لأسئلته: "من هؤلاء إذًا؟"

"قد يكونوا لصوص مقابر".

"إذًا من قتلهم؟.. ولماذا جلسوا متجاورين هكذا؟"

نظر (سليم) إلى الركن المقابل؛ حيث كان هناك المزيد من الأثواب التي تمتلئ بثرى ناعم، وكأنه بقايا جثثٍ متحللة.. كان هذا يعني المزيد من الألغاز، فغمغم باقتضاب:

" - لا أعلم".

قالها منهيًا الجدال العقيم. لم يعد مهما الآن من يكونون، ولا كيف، أو لماذا ماتوا؟. لقد حملوا أسرارهم معهم إلى عالمهم الآخر، ولا مبررًا للنبش عن تلك الأسرار ثنية. إن تلك الكنوز الكثيرة من حوله هي ما يستحق اهتمامهم في تلك اللحظة بلا شك، وقال، وهو يتراجع للخلف، وعيناه تأبى أن تفارق الجثث الثلاث:

" - دعونا نفتح التابوت الحجري؛ لنرى ما يخفيه".

غالب الجميع توترهم، وهم يطيعونه، ويتراجعون مثله.. لقد فقدوا شهيتهم، وفضولهم لاكتشاف المكان.. لقد ذهبت الجثث الثلاث بالمتعة؛ مخلفةً وراءها التوتر، والخوف. تحرك رجاله الثلاث الذين بداخل القبر نحو التابوت الحجري المزخرف برسومٍ غامضةٍ منذرة، وكأنها تحذرهما مما هم مقدمين عليه. ثبتا المشاعل بالجدار ثم تعاونوا لإزاحة الغطاء الثقيل.. دفع أحدهم الغطاء، وفي الجانب الآخر كان الأخرين يجذبانه.. لكنه قاومهم بشدة..

رأى (سليم) أنهم بحاجة للمساعدة، فاندفع نحو الذي يجذب، وقال مشجعًا: "ادفعا بقوةٍ أكثر يا رجال.. لكن بحرص كي لا تتلفوه، أو تتلفوا ما بداخله".

اندفع الأدرينالين في عروقهم؛ مؤازرًا، فتضاعفت قواهم. فعملوا بحماس حتى استجاب الغطاء، وتحرك للخلف قبل أن يتوقف رافضًا التحرك ثانيةً.. وفي اللحظة التالية هوى الرجل الذي يدفع التابوت أرضًا مرةً واحدةً بلا حراك.. اندفع الباقون نحوه، وتحسس أحد الملثمين شريان عنقه، والحاج (حسنين) يهتف بقلق: "ماذا حدث له؟"

أجابه الرجل الآخر باقتضاب: "لقد مات".

تبادل الجميع النظرات المرعوبة، ونهض (سليم) بتوتر من فوق الرجل، واقترب بنظره من الفجوة المظلمة التي كشفها الغطاء الحجري الذي يغطي التابوت. هنا شعر بفزع لا حد له، فقفز للخلف بسرعة البرق.. قبل أن يتعثر في جثمان رجله الميت، فيقع. وقد أدرك الهول الذي أطلقوه!!



رمقت الحاجة (كوثر) الأفق الغائم القادم من خلف الجبل بتوتر، وقد انقبض قلبها توجسًا. ضيقت من عينيها، وفتشت في السماء عن الشمس التي توارت خلف الغيوم الكثيفة التي برزت فجأة من العدم. وبعد دقائقٍ من الترقب، ومحاولة الفهم؛ حلق فوق رأسها سربٌ ضخمٌ من الغربان السوداء قادمة من ناحية الجبل، وقد سبقها نعيبها المنذر، فتحققت في نفسها العلامات. رددت في سرها: " اليوم نحس. اليوم سيء الطالع؛ ليرحمنا الله،

ولينتهي اليوم بلا أذى كبير.".

كانت تؤمن دومًا بالحظ، والطالع، وتعتقد أنها تجيد قراءة العلامات، وما تراه الأن في صفحة السماء لا ينذر بالخير. لحظات بعدها، ولاح الشبح المنحدر من الجبل، وهو يعدو بلا هوادة. ويصرخ بإلحاحٍ عن شيءٍ ما غير مفهوم. كان عليها أن تنتظر لدقيقتين أخريين. قبل أن تعلم صاحبَ الصرخات. إنه (أيمن) العبيط، مجذوب القرية! كان يصرخ بلا توقف: "إنهم قادمون. الموتى قد عادوا. إنهم قادمون..".

ارتعشت كفيها توترًا، وشعرت بجفاف حلقها، وقد ازداد تشاؤمها من هذا اليوم الغائم.. همست لنفسها: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. يا للنذير".!

ثم صرخت في وجهه حين حاذاها: " كف عن هذيانك يا وجه الشؤم، واصمت".

لكنه لم يصمت.. بل التفت نحوها، وهو يبطئ من هرولته، ويقول لها بعينين جاحظتين، وأنفاسٍ مقطوعة: "إنهم قادمون يا حاجة كوثر.. الموتى قد عادوا ثانيةً.. إنهم هناك.. إنهم هناك في الجبل".

قالها، وهو يشير بذراعٍ ممدودٍ للخلف نحو الجبل. ارتعش القلب الواهن للعجوز في الصدر الضامر، وابتعدَ (أيمن) وعاد ليصرخ: "إنهم قادمون. الموتى قد عادوا.. إنهم قادمون".

خرج من أحد البيوت الطينية كهل غاضب، وصرخ في وجه (أيمن) العبيط، وهو يأمره بالابتعاد. وتوقف (أيمن) أمامه للحظة، وهو يتحدث بسرعةٍ رهيبةٍ، وكأنما يحاول أن يقنعه بما يقول، فهوى الكهل بكفٍّ غليظٍ على صدغه، وسبه؛ ليبتعد (أيمن) من أمامه، لكنه واصل الصراخ والتحذير، ومن أحد الأزقة الجانبية؛ برز بضعة أطفال جذبتهم صيحات (أيمن) فطاردوه كما يفعلون دائمًا، وهم يلقونه بالحجارة، فزاد من سرعته، وهو يفر أمامهم.

ظلت الحاجة (كوثر) تراقب (أيمن) حتى اختفى من أمام بصرها، وهي تبسمل، وتحوقل قبل أن يهوي شيءٌ ما بغتةً من السماء في قلب الوعاء النحاسي الذي تحمله، فسقط من يدها. كان غرابً أسوداً. مدت يدها بذهولٍ نحوه، وأخرجته من الإناء، وقربت رأسه المتخشب من عينيها.. هنا فتح الغراب عينيه بغتةً، ونعق في وجهها. كانت عيناه تشعان لونًا أصفرًا فسفوريًّا مخيفًا. صرخت في فزع، وهي تطوحه بعيدًا، وتصيح: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله. إنه ملعون.."!

برز زوجها الحاج (عبد الكريم دياب) من الباب، وهو يسألها؛ عما يحدث. أشارت للغراب الهامد، وهي تجيب: " انظر! عيناه صفراوان كالشياطين".

انحنى بذهولٍ نحو الغراب الميت، وهو يفكر في ما تقوله.. قلّبه بين يديه، فلم ير شيئًا.. الجسد بارد تمامًا متخشب، والعينان مغلقتان في موتٍ لا ريب فيه. هذا غراب مات منذ ساعات بلا شك.

أراد أن يهدئها، ويخبرها إنها ربما توهمت ما رأته، لكن غرابًا آخرًا هوى من السماء بجواره.. وحين نظر إلى السماء؛ كان هناك المزيد من أقران الطائر القتيل تهوي نحو القرية.. لم تكن الغربان وحدها من تملأ صفحة السماء.

كان هناك عصافير، وحمام، وصقور، وغيرها، وكلها راحت تهوي نحو النجع. جذب زوجته بسرعة لداخل البيت كي لا يسقط أحد تلك الطيور فوق رأسيهما. وكان هذا حين ارتفعت الصرخات الفزعة القادمة من طرقات النجع..

☆ ☆ ☆

فتح الحاج (حمد الخلفاوي) عينيه مرةً واحدةً، لتهاجمه آلام الكون كله في تلك اللحظة، فأغمض عينيه على الفور، وهو يشعر، وكأنه فارق للتو صراعًا، وعراكًا منهكًا. كل عظمةٍ في جسده تئن ألمًا، وكأنما قد هشمت. كل عضلةٍ ملتصقةٍ ببدنه كانت تصرخ وجعًا.. أغمض عينيه مرةً أخرى، وهو يفكر في ما يشعر به. تراءت في عينيه عشرات الذكريات المتباينة الباهتة، الغامضة. كان هناك فراعنة، ومساخيط، ووحوش، وذئاب، ورجال ملثمون.

رأى في عقله ظلامًا سرمديًّا غير محدود، ومخالبًا تبرز فيه فجأة؛ تبغي النيل منه، وعيونًا تتوهج بالشر، وصرخاتٍ لا تنقطع..

خفق قلبه في خوفٍ بدائيٍّ مبهم، ففتح عينيه، وهو يتساءل؛ إن كان قد غادر كابوسًا مفزعًا في تلك اللحظة قبل أن يفيق. دارت عيناه في حجرة نومه بحيرةٍ. رمق

السقف المرتفع للغرفة في خواءٍ، وراح صدره يعلو، وينخفض باضطرابٍ للحظاتٍ، وهو يلهث. قبل أن يدرك أن هناك خطأً ما.

كيف جاء إلى هنا؟!! هذا مستحيل!!

تذكر على الفور كل شيء. المقبرة الفرعونية المخبأة في قلب الجبل. تذكر (سليم) والحاج (حسنين) والنقوش الغريبة، والذهب الكثير. لقد كان هناك منذ لحظة، فكيف صار الآن على فراشه في حجرته نائمًا؟ تسللت أشعة الصباح الباكر من نافذةٍ زجاجيةٍ مرتفعةٍ في جانب الحجرة الأيمن، فرأى على ضوئها زوجته الراقدة إلى جواره في الفراش، وهي تغط في نوم عميق، وعلى الضوء الباهت اكتشف أن المرأة العجوز التي تخطت العقد السابع من عمرها؛ ترقد بجواره عاريةً تمامًا. كان هذا غير معقول. ما الذي تفعله تلك المرأة التي فقدت عقلها بلا شك؟! حتى تتخلى عن ملابسها تمامًا هكذا قبل أن تنام. لم تفعلها أبدًا من قبل. حتى حين كانت عروس قبل أعوام بعيدة يعجز عقله عن عدّها، بل وحتى حين كان شابًّا لم ينجح يومًا في أن يقنعها بالتَّعري أمامه؛ ليرى جسدها كما اشتهى من قبل، فأي جنونٍ مس العجوز؛ لتفعل ذلك الآن؟! رمق الجسد الضامر المتغضن في حيرةٍ استحالت بعد هنيهةٍ لغضب، فانحنى نحوها؛ ليوقظها في عنفٍ، لكن النقش الغريب الموسوم أعلى جانب صدرها الأيسر جمد يده الممتدة في الفراغ نحوها. كان هناك رمز فرعونيّ مخيف يمثل رأس ابن آوى بعينين مظلمتين، وقد اتخذ جسده شكل أفعى التفت حول الرأس، وارتفع ذيلها مشقوقا فوق الرأس.

عاد قلبه ليدق بلا توقف، وهو يقترب برأسه من النقش المخيف؛ ليراه عن كثب. بدا الجلد أسفل النقش أكثر حيوية من الجلد حوله. اقتربت أنامله من الصدر العاري، وتحسست بباطن كفه النقوش، فأدرك في رعبٍ؛ أن الأمر ليس وشمًا مرسومًا كما اعتقد. النقش بأكمله محفور في طبقات الجلد، وكأنما انسحق الجلد أسفله. أبعد كفه بسرعةٍ كالملسوع، وتلاحقت أنفاسه في رعبٍ أمام كل تلك الأمور الغير مفهومه. كيف عاد إلى بيته، وحجرته، وقد كان منذ لحظاتٍ في قلب مغارةٍ في قلب الجبل؟!. وكيف صار إلى فراشه؟!. ولماذا ترقد زوجته عاريةً هكذا؟! ومن وسمها بتلك النقوش المخيفة. هل يهذي أم يحلم؟.!

حاول لدقيقةٍ أن يتذكر؛ إن كان قد عاد من المقبرة مع الرجال. لكنه لا يذكر أبدًا أن هذا قد حدث.. لم يبق هناك من حلٍ مقنعٍ إلا أنه مازال يحلم.. لكن أي حلم بمثل تلك القوة. صرخ ليوقظ العجوز، لكن الصوت غادر شفتيه خافتًا مرتجفًا: " إنعام؟! استيقظي يا امرأة. هيا استيقظي".

رفعت الجفون المتغضنة، وصدر من الفم المغلق همهمةً غامضة. قبل أن تنسحب الجفون؛ لتفسح للمقلتين المسنتين مجالًا للرؤية. رأى في عيني زوجته؛ نظرةً بلهاء لا يراها كثيرًا، فقال زاجرًا: "انهضي يا امرأة، واستري جسدك. ألا تخجلين من عريك هذا".

لم يبد على (إنعام) الفهم، وظلت تنظر إليه بحيرةٍ تتجاوز حيرته نفسها. قبل أن تقول، وهي تشير بسبابتها المرتعشة:" لماذا تنام هكذا، وما هذا الذي بصدرك".

انتبه لما تنظر إليه؛ ليدرك أن حاله كحالها. كان عاري الجسد تمامًا مثلها، وفوق قلبه أعلى صدره؛ رقد النقش اللعين منحوتًا في جلده كزوجته. هبَّ من الفراش بسرعةٍ لا يحتملها جسده المسن، واندفع نحو المرآة. رمق العينين الجاحظتين، والصدر المضطرب، والجسد العاري، والنقش الذي يعلو صدره. هز رأسه غير مصدق. قبل أن تظهر زوجته إلى جواره، وقد غطت جسدها بملاءة الفراش في خجلٍ، وهي تعطيه جلبابًا؛ ليرتديه. وضعه فوق جسده على الفور قبل أن يسألها في ضعف: "كيف نمنا هكذا؟"

"لا أدري".

"إذًا؛ كيف عدت إلى هنا؟ ومتى كان هذا؟"

أجابته الدهشة المطبوعة على وجهها. قبل أن تجيبه كلمات فمها: "لا أدري".

كان هذا فوق احتمال تعقله، فجز على أسنانه في عجزٍ.. قبل أن يصرخ: "إذًا؛ من يدري؟ !!.. أي جنونٍ هذا؟"!

دق الهاتف الأرضي في تلك اللحظة، فتردد صدى الرنين المعدني بين الجدران. انتقلت عيناه بين زوجته المذعورة التي انتبهت لانعكاس جسدها الموسوم في المرآة، وبين باب الحجرة حيث يأتي الرنين. قبل أن يندفع خارج الغرفة؛ ليجيب.. كان الحاج (حسنين) الذي يصرخ في رعب: "أنجدني يا حاج (حمد). لن تصدق ما يحدث".

تمالك (حمد) نفسه، وأجاب: "ما الذي حدث يا حضرة العمدة؟"

" - لقد أصاب الجنون بيتي كله.. لقد استيقظ كل من في البيت؛ ليجدوا أنفسهم عراةً على أسرتهم. هل تتخيل؟"

حبس الحاج (حمد) أنفاسه، وقال بترقب: "وكانت صدوركم جميعًا موسومة؟"

أتاه صوت الشهقة المذهولة للحاج (حسنين) والذي احتاج بعض الوقت؛ ليجيب: "رباه! كيف علمت بهذا؟"!

"لأن هذا نفس ما حدث لنا هنا، لكن أخبرني أولا، ألم نعثر سويًّا على تلك المقبرة الفرعونية. ألم نكن هناك مع رجالنا، ورجال (سليم)؟"

"آخر ما أتذكره أننا كنا هناك أمام التابوت".

"لكنك لا تذكر؛ كيف غادرنا الجبل وعدنا؟"

"لا أنا، ولا أي من الرجال، أو حتى (خليفة) ابني، وهذه هي المصيبة. لقد جن جنون (خليفة)، يريد اصطحاب بعض الرجال بأسلحتهم نحو الجبل لتأديب المطاريد. يظن أنهم من خدرونا، وفعلوا هذا بنا؛ ليحرمونا نصيبنا من الكنز".

كان أمرا محتملًا. لكن عقل الحاج (حمد) رفضه على الفور. من الممكن أن يقوم سليم ورجاله بتخديرهم بالفعل، لكن كيف أعادوهم إلى فراشهم جميعًا هكذا؟. وكيف

جردوهم من ملابسهم هم وعائلاتهم هكذا؟! ومتى امتلكوا الوقت لوصمهم بذلك النقش الرهيب على صدورهم هم، وعائلاتهم على النحو نفسه؟! هذا مستحيل!

وجد نفسه يقول باضطراب: "أرى أن تسرع وراء (خليفة) وتمنعه من تهوره. لا أعتقد أن الأمر خدعةً فعلها المطاريد. الأمر أعقد من أن يكون خدعة".

" - سأحاول إثناءه عن تهوره. لكن في رأيك، من فعل هذا؟. من جرؤ على فعل هذا بنا؟"

لم يكن ممكنًا أن يدرك عقله ما يدور. الأمر يشبه اللعنة، ووجد نفسه يرتجف، وهو يتذكر شيئًا ما، فردد ببطء: الحكايات القديمة"!!



اتسعت عينا الحاج (عبد الكريم دياب) غير مصدقة، وهو يرى أمه تغادر باب حجرتها، ووجد نفسه يهتف بكل ذهول العالم: "آمنة؟" !!

اعتاد منذ الصغر أن ينادي أمه باسمها مجردًا، دون أن تحتج على هذا يومًا.. توقفت العجوز للحظةٍ أمام باب الحجرة، وقد انحنى ظهرها على عكازها الخشبي الذي تتكئ عليه، ثم دارت رأسها في المكان كأنما تستكشفه بعينيها، لكن الأمر لم يكن أبدًا كذلك، فالعينين عمياوين منذ أربعين عامًا و(آمنة) التي تخطى عمرها المائة عام لابد أنها قد نسيت؛ كيف تبدو الأشياء وما هو شكل المكان.

كان الأمر المحير، هو لماذا تغادر غرفتها الآن؟!.. لم تفعلها مذ أصابها العمى، حيث لاذت بحجرتها، وأبت أن تغادرها مذ تلك اللحظة حتى أن (عبد الكريم) وجد أنه مضطرًّا لصنع حمّام خاصٍّ بها ألحقه بجانب غرفتها استجابةً لأمرها. صارت الحجرة الواسعة كل عالمها، وأضحى فراشها كل محيط حركتها. صار هذا من حقائق العالم الثابتة في حياة كل من في البيت، فما الذي تبدل الآن؟

هنا جال في خاطره فكرة مفزعة، هل ستموت (آمنه)؟! أيكون خروجها هي الصحوة التي تسبق الموت؟ هل شعرت بدنو أجلها، فرغبت في أن تزور جنبات الدار لآخر مرة؟ ابتلع ريقه في عسرٍ، ومازالت (آمنة) في مكانها، ووجد نفسه يهمس مشفقًا: "أمي".

وكتم صوته، وهو يكتشف أنها لم ينادها باسمها المجرد للمرة الأولى منذ عهود.

أجابته وهي تصوب رأسها نحوه، وكأنما سمعت همسه:

" - هل تتساقط الغربان من السماء يا (عبد الكريم) ، وهل تهوي فوق النجع؟"

اتسعت عيناه في دهشة.. كيف علمت هذا، ولم يحدثها أحد بهذا الأمر الغريب الذي يحدث في النجع منذ الصباح؟! فكر في أن يلحق بها كي لا تسقط، وهو يعلم مدى ضعف قدميها. جذب القدم الخشبية التي يضعها على قدمه اليسرى المبتورة، ودفع فوهتها المظلمة نحو ركبته؛ لتلتصق بها. لكن العجوز عادت لتتحرك، وهي تقول له، وكأنما قرأت أفكاره:

" - مكانك يا (عبد الكريم) ، ولا تخش على (آمنة)، اخلع قدمك الخشبية، ولا ترهق نفسك، ما زال بإمكاني الاعتناء بنفسي، ومعرفة طريقي".

لكنه لم يصغ لها، وصرخ مناديًا ابنه، وهو يكمل ارتداء القدم الخشبية: "أحمد.. تعال بسرعة".

برز شاب أسمر البشرة، وسيم الخلجات، قوي البنية من خلف باب إحدى الحجرات، وهو يجيب:" أنا قادم يا أبي" .

بتر كلماته حين شاهد جدته تتحرك في الصالة الطويلة نحو باب البيت الخارجي. تجمد بمكانه بغير فهم، لكن أباه كان قد نهض، واستند على عصاه ذات الرأس العاجي، وصاح فيه:ً"اسند جدتك يا ولد؛ كي لا تتعثر".

خرج (أحمد) من جموده، وتحرك نحو جدته، وأحاط بجسدها الهزيل الضامر، وهو يقول: "إلى أين يا جدتي؟. ماذا يحدث؟"

لم تجب العجوز حتى بلغت الباب المغلق، ولدهشة (أحمد) وأبيه من خلفه؛ توقفت أمامه تمامًا، وكأنما تراه، ومدت كفها الهزيل نحو المقبض، وعالجته. جذبت الباب الخشبي الضخم، فاستجاب لها في نعومة.. هبّت رياح باردة في وجوههم، وأمام الدار حيث الفناء الواسع الذي يعج بأشجار النخيل؛ رفعت العجوز رأسها نحو السماء؛ حيث تكاثفت السحب الرمادية، فغطت الأفق. رفع (أحمد) عينيه حيث تنظر، وهو يتساءل عما تنظر إليه، وهي لا ترى، وبلغهما أبوه الذي أمسك بكتف أمه، وقال: "ما الذي يحدث يا (آمنة)؟. وماذا يدور في رأسك أيها العجوز؟"

همهمت (آمنة): "هل تمتلئ السماء بالسحب؟"

أجاب (أحمد): " هذا صحيح".

" - وهل هي ساكنة، أم تدفعها الريح؟"

دقق (أحمد) النظر في السحاب، فأدرك أنه لا يتحرك، فقال بدهشة: "إنها ساكنة بالفعل. هل ترى هذا يا أبي؟ السحب لا تحركها الريح بالفعل! هذا عجيب".

حركت العجوز رأسها، وأدارتها إلى يمينها، ورفعتها في الأفق نحو الجبل، وهي تهزها بحركاتٍ خفيفة. قبل أن تستدير، وتستعد لدخول المنزل ثانيةً، وتغمغم: " العجب؛ لم يأت بعد يا ولدي. ما زال العجب بعيد".

ازدادت دهشة (عبد الكريم) وقال، وهو يتحرك خلف أمه التي اتخذت طريقها نحو حجرتها:" ما معنى قولك هذا يا (آمنة)؟"

لم تجب، ولزمت الصمت. كرر السؤال، فلم تجب، فأدرك أن لا جدوى من الإلحاح بالسؤال. لن تجيب الأم مهما سأل طالما أغلقت فمها. عاد للأريكة الخشبية، فتربع عليها بينما لزم (أحمد) جدته حتى اختفت في حجرتها، فتركها، وعاد لأبيه، وهو يسأله عن تفسير ما يحدث. خلع الكهل القدم الخشبية، ووضعها جانبًا، وقال بشرود: " ربما تعلم (آمنة) ما لا نعرفه. هذا ديدنها دومًا. تعلم الكثير وتنطق بالقليل"

أدرك (أحمد) على الفور ما يقصده أبوه، وهو يتذكر الحكايات الكثيرة التي تروى عن الجدة التي تحدثها الكائنات الخفية كما يزعمون. الحكايات التي لا يستطيع الجزم بصدقها من عدمه؛ رغم عمره كله الذي قضاه بجوارها، فهو لم يرها يومًا تتحدث إلى كائناتٍ خفية، ولا رأى في حجرتها ما يريب، لكنها، ومن حينٍ لآخر كانت تتحدث بما يحيرهم من الأمور.

انتزعه رنين هاتفه المحمول من شروده. لمح الاسم المكتوب على شاشة الهاتف، فأشرق وجهه، وابتعد عن أبيه عائدًا لحجرته، وهو يودع أباه: " معذرةً يا أبي. إنه (مسعود)".

لم يعقب الأب، ولم يكن صديقه (مسعود) هو المتصل. كانت (مريم) خطيبته ابنة الحاج (علوان الخلفاوي). همس في الهاتف بشوق: "أشتاق إليك وأفكر في أن أزورك اليوم".

"سأنتظرك بالطبع. لكن قبل هذا؛ هل تفهم شيئًا مما يدور في النجع؟"

"هل تقصدين الغربان الميتة؟"

"ليس هذا فقط. السحاب في السماء لا يتحرك. أراقبه منذ الصباح ويمكنني أن أقسم أنه لا سحابة واحدة غادرت مكانها خطوة واحدة".

"لاحظت هذا للتو، ولن تصدقي؛ كيف حدث هذا؟"

فكر أن يخبرها بما فعلته جدته، لكنها تجاهلت قوله، وأكملت: "الأمر الأكثر حيرة هو شارعنا. تعلم أن كل بيوته تنتمي لأبناء عائلتي من (الخلفاوية). الغريب أنه ساكن، وخال تماما من المارة منذ الصباح. لم يخرج الرجال من الدور، ولم تذهب الخادمات للآبار؛ لجلب الماء، أو لغسل الملابس. حتى الأطفال لم تخرج لتمرح في الشارع. الكل يلزم بيته بلا سببٍ مفهوم".

"هذا غريب بالفعل. هل أصابهم مكروه ما؟"

"لا أدري. كان هناك بعض الصراخ في بيت العمدة في الصباح، ثم رأيت (خليفة) للحظة، وهو يغادر البيت حاملًا بندقيته قبل أن يصرخ فيه الحاج (حسنين) من داخل الدار؛ ليعود لبيته، ولا يظهر ثانيةً".

شعر في تلك اللحظة بالغيرة تشتعل في جوفه، فقال بحدة: "وهل تراقبين (خليفة)، وتنظرين متى يخرج؟ ومتى يعود؟"

تجاهلت حدته، وتلميحه الذي كانت لتحتد عليه في وقتٍ آخر، وواصلت الحديث: "هذا ليس كل شيء. رأيت شيئًا حين استيقظت في الفجر لأصلي. تعلم أني أفتح النافذة حينها؛ لأرمق الأفق المظلم لبعض الوقت. لكن الأفق في هذا الفجر لم يكن مظلمًا ككل ليلة. كان يعج بأشياء أخرى"

بدت كلماتها غريبة، فقال بحذر: " ما الذي تقصدينه بأن الأفق لم يكن مظلمًا؟"

ترددت للحظةٍ قبل أن تجيب بتوتر: " لست أدري؛ كيف أصفها؟.. كانت كيانات كالظلال، أو الأشباح، التي ظلت تحوم في الظلام حول البيوت لبعض الوقت قبل ان تختفي مع الآذان. أعلم أنك لن تصدقني، وستعتقد أنني واهمة.. لكن أقسم أن هذا ما حدث.. لقد امتلأ الأفق في هذا الفجر بالأشباح"!



أطبق الصمت على البيت. جلست الحاجة (فتحية) على الأريكة الخشبية، وقد دفنت وجهها بين كفيها في وجوم، بينما اضطجع الحاج (حسنين) على الكنبة المقابلة في وجومٍ مماثل، وهو يشعر بوهنٍ غريبٍ يمس روحه وبدنه، أما (خليفة) فقد قبع داخل البيتً وهو يتخبط في غضبه، ويدور حول نفسه في حلقاتٍ وهميةٍ بلا نهاية. أحنقه عجزه عن إدراك كنه ما حدث هذا الصباح له وللجميع، ومن حينٍ لآخر كان يتحسس الوشم العجيب على صدره، فيشعر أن هناك من يسخر منه. لقد فعلها أحدهم، وحتمًا هو يسخر من الكل بفعلته اللعينة هذه. كان غاضبًا، وكان في حاجةٍ لمن يصب على رأسه حمم غضبه؛ لتهدأ ثورته.

أدرك الخفراء، والأجراء، والخدم في المنزل؛ تعكر مزاج سادة البيت، فتوارى الجميع في الحجرات البعيدة، وكل منهم يتمنى لو يتوارى داخل الجدران نفسها؛ كي لا يشعر أحد به. كلهم يعلم أن الانفجار قادم لا محالة. قد يأتي الانفجار من الحاج (حسنين)، لكن (خليفة) كان هو الاحتمال المؤكد. يصير كالثور الهائج حين يغضب، فلا يصمد أحد أمام ثورته وشره. ما جرى لـ (عبد البديع) الخفير مازال ماثلًا في عقول الكل، فمنذ شهور أوقعه حظه العاثر في طريق (خليفة) الذي كان في فورة جنونه في تلك اللحظة لأسبابٍ مجهولة ككل مرة. لم يدرك المسكين أي لحظةٍ تعسةٍ يواجهها في هذا الوقت، فراح يجادل (خليفة) في ضرورة تغيير نوبتجيات الخفر حينها، وكانت النتيجة قدم مكسورة، وكتف مخلوع، ورضوض في كل مكان بالجسم، أقعدته في الفراش لشهور.

قرب العصر؛ ظهر الحاج (حمد) أمام البيت بخطواتٍ بطيئةٍ لا حياة فيها. خطواتٍ لا تنتمي بأي صورةٍ لمشيته القوية المعتدلة السريعة. توقف أمام مدخل البيت للحظة، ونظر إلى البيت بنظراتٍ تعبق بالريبة، ثم دخل. شعرت به الحاجة (فتحية) فتوارت، ليحتل مكانها. اعتدل الحاج (حسنين) وهو يقول: "ما الذي يجرى لنا يا حاج (حمد) أخبرني بالله عليك؛ ماذا حدث لنا؟"

"ليتني أعلم.. كنت لأرتاح حينها".

"لابد أن هناك من يعلم".

اتكأ الحاج (حمد) على عكازه، وغمغم بيأس: "ربما"!

صمتا لبعض الوقت، وقد شعرا أنه لا كلام يقال، ومضى بعض الوقت من الهدوء قبل أن يقول الحاج (حسنين) في ضعف: "لا أشعر أنني بخيرٍ يا (حمد).. منذ استيقظت، ووجدت نفسي عاريًا، وصدري يحمل هذا النقش، وأنا أشعر بالإعياء".

كان نفس إحساس الحاج (حمد). هو الآخر يشعر بإعياءٍ عجيب. يشعر، وكأنما كل عضلةٍ في جسده مستنزفة تمامًا. بل، ويشعر أن روحه نفسها هي السقيمة، وليس جسده فقط. واصل الحاج (حسنين) شكواه، وقال: "الحاجة (فتحية) هي الأخرى تشعر بما أشعر به، ولولا عناده لاعترف (خليفة) بالأمر نفسه".

لم يعثر الحاج (حمد) في نفسه على جواب لتساؤلاته، فقال: "ربما كانت عدوى".

هذه المرة خرج (خليفة) من الداخل، واتجه نحوهما، وهو يقول مستنكرًا:
"عدوى؟!.. أي عدوى تلك التي تمرضنا كلنا.. هل سمعت عن عدوى تجعلنا نتخلى عن ملابسنا قبل أن توصم صدورنا بتلك الوشوم السخيفة؟"

اعتاد الحاج (حمد) منذ زمن على تقلبات (خليفة)، وكان أحد القلائل الذين يتقنون التعامل معه حال اشتعال غضبه؛ لذا أجاب بهدوء: "أتحدث عما نشعر به جميعًا، وليس عن تلك الوسوم على الصدور".

اقترب (خليفة) برأسه من وجه الحاج (حمد) ومال نحوه، وقال بعينين حمراوين محتقنتين بالدماء: "أنت تعلم من فعل هذا بنا يا عمي.. أخبرني أنك تعرفه"!

فاحت في وجهه رائحة دخان سجائر عنيفة من فم (خليفة) فأجاب، وهو ينبش في عيني الشاب: "وهل تعرف أنت؟"

"لا يوجد غيرهم من يفعلها. أقسم أنهم آل "ديابة" بلا ذرة شكٍّ واحدة. إنها مكيدة دبروها ليظفروا بالمقبرة وحدهم. أم تراك نسيت أن (سليم) واحد من أبناء تلك العائلة اللعينة"

"هل تؤمن حقًّا بما تقوله؟ هل تصدق أن (سليم) قد فعل هذا بنا؟"

"وهل لديك أحد آخر تشك به غيره. كنا في تلك المقبرة الملعونة سويًّا، وبغتةً صرنا في النجع هكذا. من غيرهم يرغب في إهانتنا هكذا. إنهم يرغبون في كسر أنوفنا، والسخرية منا. لقد ولد كل فرد من ال "ديابة" وهو يرضع كراهيتنا، والحقد علينا.. لم ينسوا أبدًا أننا كنا السادة، وأنهم كانوا عبيدنا، وخدم أجدادنا حتى وقتٍ قريب".

"ربما يحقدون علينا، وربما يكرهوننا، لكنهم لم يكونوا أبدًا عبيدًا لنا، أو لغيرنا. كلماتٍ مثل كلماتك هذه لو صبت في الأذن غير الحكيمة، وبلغتهم لأسالت من الدماء بحوراً لا قبل لأحدٍ بها الآن. أليس كذلك يا حاج (حسنين)؟"

هتف الحاج (حسنين) وهو يلوح بيده في حنق: "إنه أحمق؛ يرفض تصديق أن الزمن تبدل، وما كان متاحًا بالأمس ليس ممكنًا اليوم".

احتد (خليفة) في وجه أبيه، وهو يقول: "وما الذي جعل هذا غير ممكنًا الآن. لازلت أنت العمدة، ولازال لدينا الرجال، والسلاح، والقوة؛ لنجعل النجع يبيت كله من المغرب لو شئنا.. أم تراكما تخشيان (سليم) وأتباعه المطاريد".

ضاق صدر الحاج (حمد) في تلك اللحظة بجنون (خليفة) الذي ذكره بجنون أبيه الحاج (حسنين) حين كان في مثل عمره، وعاد يتذكر ذلك الحق الضائع الذي

اضطر للتنازل عنه قبل ثلاثين عامًا.. كان أبوه، وجده، وجد جده هم عمداء النجع لأكثر من مائة عام، وكان هو التالي من بعد أبيه الحاج (عبد الحق الخلفاوي).. كان (حسنين) ابن عمه، وفي ذلك الوقت اشتد بطشه، وقد كان قويًّا لا يفتقر للشر، ولا الاندفاع. جمع حوله الشباب، والكثير من كبار العائلة، وحين مات الحاج (عبد الحق) طالب الكل بأنه الأحق بالمنصب الشاغر. كان الأمر عبثيًّا وقتها، وبخاصةً حين مالت الكفة للفتى المغتصب، وقد خافه البعض، ورأى فيه البعض الآخر الفتى الذي سيعيد أمجاد

العائلة القديمة في التحكم في عائلات النجع، والسيطرة عليها بالقوة، والإرهاب كما كان يحدث في القدم. انقسمت العائلة الحاكمة على نفسها، وفي نفس الوقت تعالت الهمسات بالمكاتبات التي نهض بها (عبد الكريم دياب)

مع الحكومة يطالبها فيها بتسمية العمدة لأحد أبناء عائلته الكبيرة التي تتشارك النفوذ في النجع مع (الخلفاوية). كانت خيارات المواجهة حينها تعني أن تراق دماء أبناء العم في العائلة نفسها، أو فقدان المنصب المهم للمنافسين. في النهاية رضخ للأمر، ووافق على التنازل عن منصب أبيه للحاج (حسنين) مكتفيًا بأن صار ساعده الأيمن، ومستشاره في كل أمره.

لا ينكر أن الحاج (حسنين) رفع من قدره طوال الوقت أمام الكل، ولم يقم يومًا بأمرٍ دون مشورته. لكنه رغم كل هذا لازال يشعر بتلك الغصة حين يتذكر الحق الضائعَ في مكانٍ سلب منه بالقوة. تعلم ألا يشعر من حوله بما يدور في نفسه، وتمنى أن ينسى هو الآخر؛ لتستريح روحه، ولو قليلا. ها هي الأيام تمضي بالأحداث، وها هو قد صار الشيخ العجوز الذي أنجب فتياتٍ خمس، ولم يرزق بالابن الذي يشد من عضده، فلم يعد ذا معنى أن يطالب بالمنصب المسلوب، أو يفكر به. سوف يرثه بعد حين هذا الأحمق الغشيم المدعو (خليفة). سوف يرثه، وهو لا يدري؛ كيف سيدير الأمر، وقد تبدل الزمن وتغير. وبخاصة أنه لا يدري من قد يقوم بدوره الذي قام به مع أبيه؟.

الحاج (حسنين) كان طائشًا تمامًا مثلما هو ابنه الآن، لكنه كان يجيد الاستماع لحكمته. كان هو العقل المفكر للعمدة الذي تقبل الأمر بترحاب، فاستطاعا سويًّا حفظ المنصب في قلب (الخلفاوية) لثلاثين عامًا أخرى، فهل يجد (خليفة) حين يصير عمدة النجع من يخطط له، ويفكر بحكمةٍ بدلًا منه؟. نظر في كل الشباب حوله، فلم يبصر غير الأشقياء، والحمقى. هل تشهد السنوات القادمة نهاية نفوذٍ طال لأكثر من قرنين لعائلته، وبزوغ شمس عائلة أخرى؟.

خرج من أفكاره على صوت (خليفة) الذي قال: "ومن قال أنني أخشى (سليم) أو غيره. إننا (الخلفاوية) الذين لا يريبهم أحد".

"لا تنس أن (سليم) صار شريكًا لنا في كل أعمالنا. أنت تعرف؛ كيف يتولى، ورجاله كل الأمور الخطرة في عملنا؟" يواجه الشرطة، ويرهب المنافسين دون أن يخدعنا، ولو مرة. (سليم) لازال هو شريكنا، وحليفنا.

"(سليم دياب) هو أحد أبناء (الديابة).. المجرم الخارج عن القانون الذي زكاه كل أبناء (الديابة) ليرهبونا بسلاحه، ومجرميه، لكني لا أخافه، ومتى شئت يمكنني ردعه، وتأديبه".

تمالك الحاج (حمد) نفسه بصعوبةٍ، لكن الحاج (حسنين) لم ينجح في هذا، فصرخ في وجه ابنه: "ستظل أحمقًا لا تفقه شيئًا.. لا أنت، ولا أنا، ولا حتى الحكومة تستطيع الآن الوقوف في وجه (سليم) ورجاله.. إنهم ذئابًا تمامًا كالذئاب التي يربونها. لو واجهتهم، فسوف تموت، ولا أشتهي أن أفقد ولدي الوحيد؛ لأنه غبي يروقه أن يلقي بنفسه في التهلكة. هل تفهم هذا؟"

ازداد احتقان وجه (خليفة) وقد وجد نفسه عاجزًا عن الرد.. اندفع نحو البيت في نفس اللحظة التي برزت فيها خادمة عجوز تتشح بالسواد حاملة صفحة عليها أكواب شاي. اصطدم بها في اندفاعه، فصرخت، وهي تسقط أمامه مع ما تحمله، فصرخ فيها، وهو يركل بطنها بقدمه في ثورة: "أيتها الحمقاء؛ ألا تنتهين؟"!!

راقب الرجلان ما قام به في صمت، ونظرا للمرأة العجوز التي راحت تتأوه في خفوتٍ، وهي تبكي، وتجمع بقايا زجاج الأكواب المكسورة. لم يعقبا، وانتظر للحظاتٍ. قبل أن يقول الحاج (حسنين): "غبي، ولن يتعلم أبدًا".

وافقه الحاج (حمد) في صمتٍ، وقال: "مازال يتهم (سليم) بالأمر، لكن الأمر أكبر من أن يفعله.. لقد فكرت في احتمالٍ كهذا، لكن كي يقبل عقلي مثل هذا الاتهام، فلا مفر من ملء عشرات الفجوات بتفسيراتٍ مقبولة. كيف استطاع تخديرنا، وتخدير الرجال دون أن نشعر جميعًا؟!. كيف عاد بنا للنجع، وبيوتنا؟!. وكيف قام بالأمر نفسه مع أهل بيوتنا دون أن يضبطهم أحد؟!. في النهاية؛ ما معنى ذلك النقش المخيف على صدورنا؟!. وكيف فعله، وما جدواه؟!. وطالما لا نملك إجابات لتلك التساؤلات، فلا جدوى لأن نلقي بشكوكنا نحوه. لن نكسب أي شيءٍ حينها غير عداوته، وهو آخر ما نفكر فيه بالطبع".

كان حديثه منطقيًا، فلم يعترض الحاج (حسنين) فخفض رأسه، ونظر للبساط الصوفي الذي يغطي الأرض، وغمغم: "وهل لديك اقتراح ما؟"

" - في البداية؛ لنرسل في طلب طبيب ما؛ ليرى إن كان بنا مرض أم لا؟. وفي الصباح علينا أن نذهب للجبل سويًا، ونرى (سليم). علينا أن نعلم؛ هل أصابه ما أصابنا؟. كما أن علينا أن نرى؛ ما الذى سنفعله بتلك المقبرة؟! وماذا سنفعل في كنوزها؟ رغم كل شيء لا يجب أن ننسى أعمالنا، ونصيبينا في هذا الكنز".

أطبق الصمت بعدها عليهما لوقتٍ طال، وهما يرمقان الأفق الملبد بالغيوم، والسحب حتى اقترب الغروب، هنا تردد في نفسيهما نداءً خفيًا.. نداءً غامض ينتمي لحقبٍ بعيدة، وكان عليهما تلبيته. غادر الحاج (حمد) نحو بيته في صمتٍ دون حتى أن يودع العمدة. بينما خرجت الحاجة (فتحية) ووقفت، وهي ترمق الأفق حيث ينظر الحاج (حسنين) قبل أن ينضم (خليفة) لهما. وفي الحديقة اصطف الخفر في آلية، وهم ينظرون نحو الغرب. اهتزت الأرض في تلك اللحظة، فلم يتزحزح أحدهم من

مكانه، وبدا، وكأنما لم يعد أيهم يشعر بما يدور حوله، ومن قمم الجبل؛ برزت جحافل الضباب التي كان الجميع بانتظارها، وفي نفوسهم جميعًا ظل النداء الغامض يتردد بلا انقطاع..

☆ ☆ ☆

قبيل الغروب؛ لم يكن هناك من سبيلٍ لرؤية الشمس المنحدرة للغرب في رحلتها الأزلية اليومية؛ حيث تختفي خلف الجبل وقد حجبتها الغيوم الداكنة الكثيفة المتراكمة في الفضاء منذ الصباح، فبدا الكون في تلك اللحظة كئيبًا موحشًا، وفي حظيرة المواشي انهمك (عيد) في طقسه اليومي الذي يبدأ فور أن يعود بالمواشي من الحقل. يربط الجاموس، ويزيل الروث الرطب من تحته، ويكومه بفأسه في أحد الجوانب؛ ليذهب به إلى الحقل في الصباح، قبل أن يضع الثرى الجاف مكانه. ثم يضع أمام بهائمه بعض التبن والفول. يتأكد بعدها من سقاية الماعز، وهو يضع أمامهم البرسيم، والعلف. قبل أن يتجه نحو الحمار، فيخلع عنه بردعته، وينظف حوافره، ويطعمه..

كانت الحظيرة بلا سقفٍ في أغلبها، والجزء الوحيد المغطى فيه كان غطاءه من الحطب، والخشب..

وكان مزاجه متعكرًا بشدةٍ هذا اليوم. أتت السحب منذرةً بالطّل قبل أوانه بشهرٍ كامل، وكان هذا آخر ما يحتاجه محصول قمحه الذي أوشك على النضج. لو أمطرت، فقد يتعفن القمح في سنابله. لو جاء المطر، فسيضيع مجهود شهورٍ عديدة في لحظات، ثم وجد بعدها -وكأن هذا لا يكفي- الغربان الثلاثة الميتة التي وجدها في الحظيرة حين عاد.. أي شؤم تحمله له تلك الغربان الميتة، وأي بشارةٍ سيئةٍ جلبتها له. حملها من أرجلها، وقذف بها في الشارع؛ لتتغذى عليها الكلاب، والقطط، وهو يسب. ثم تذكر ابنته (بهانة) التي لم تعد بعد بالماء، فسبها هي الأخرى..

انتهى من إبعاد الروث، ورش الثرى الجاف، وحمل التبن، ووضعه في (مِزود) الجاموس حين بدأت الحيوانات في الاضطراب فجأة. نهق الحمار، وبدأ في التراجع، وهاجت الماعز في نفس اللحظة، فراحت تتقافز، وتدور حول نفسها في هياج، وبقوةٍ راح الجاموس يدب بحوافره على الأرض، ويحاول التخلص من الحبال التي تقيده، وخواره يرتفع في المكان. توقف (عيد) في منتصف المكان بحيرةٍ، وهمهم: "ماذا يحدث لكم؟. هل أصابكم الخبال؟"

وقبل أن يظفر بالإجابة؛ بدأت الأرض في الاهتزاز. أمسك بأحد القوائم الخشبية؛ كي لا يسقط، وقد ازدادت ثورة حيواناته. ثم انطلق الحمار، والماعز فارين من المكان. تذكر (عيد) في لحظةٍ أن القائم قد يهوي فوق رأسه، والأرض تواصل اهتزازها العنيف هذا، فتركه، وانطلق مترنحًا خارج الحظيرة نحو الشارع.. مضت لحظاتٍ عشر من الهياج قبل أن تستقر الأرض، ويهمد الزلزال.. امتلأ الشارع بالبشر، والحيوانات، والصرخات، والبكاء، والرعب، والفزع.. إنه أول زلزال يحدث في المكان منذ عقود. انتهى الزلزال، فسادت لحظة من الصمت الكامل، والترقب الحذر.. قبل أن تعلو الهمهمات بين الحشود.. انتبهت بعض النساء أنهن

حاسرات الرأس، فاندفعن نحو بيوتهن في خجلٍ وعجلة، ولم يهتم الكثير من الرجال بأنهن في ملابسهن الداخلية، فظللن في الشارع يتكلمن عن التجربة. لكن (عيد) كان مشغولًا بالبحث بعينيه عن حيواناته الهاربة من الحظيرة.

هنا لمح الضباب الكثيف المندفع من الجبل نحوهم كسيلٍ من الزبد، واحتاج الأمر لبعض الوقت؛ ليتمكن من تنبيه الجيران لما يحدث، فصرخ وهو يشير بإصبعه نحو الجبل: "انظروا إلى الجبل. الضباب قادم؟"

التفت الكل حيث يشير، ولسببٍ ما لم يعلق أي منهم على ما يراه، فعاد الصمت ليستقر بينهم في رهبة، وقد امتلأت نفوس الكل بخوفٍ بدائيٍّ مبهم من مشهد الضباب المنهمر من قمة الجبل نحو النجع. كان الضباب أمرًا مألوفًا بالطبع للجميع. لكنه لا يأتي أبدًا هكذا، وبلا توافق تراجع الكل في بطء، وحذر نحو منازلهم، وكأنما استقر في عقولهم أن بيوتهم هي الملاذ الآمن في وجه ما يحدث، وبعد دقائق ثلاث فقط كان الضباب قد بلغ النجع، فخلت الشوارع تقريبًا من البشر، حتى الكلاب التي كانت تتحرك بين الحشود منذ قليل؛ توارت هي الأخرى في مكانٍ ما، وكأنما أدركت بغريزتها أي خطر يحمله الضباب لها..

فكر (عيد) في التراجع هو الآخر نحو داره، وقد راوده نفس الخوف الذي شعر به الجميع، ثم تذكر الحيوانات الهاربة التي لم تعد. لم يكن ممكنًا بالطبع أن يدعها، وحالها طليقةً في هذا الضباب الذي أوشك أن يصل إليه. لو فعل، فلن يعثر عليها أبدًا. لن تضلها الضواري، والذئاب التي يعج بها الجبل، أو الضباع التي تخرج من الغابة، والصحراء التي تليها، فتحرك في سخط، وهو يخترق الضباب الذي غمر المكان الآن، وهو يناديها. كان الضباب كثيفًا كما لم يشهد من قبل. وبعد قليل؛ شعر أنه قد ضل طريقه، وقد أعماه الضباب تمامًا. تناهت لسمعه أصوات غامضة تهوم في قلب الضباب. فتصاعد الخوف في نفسه، وضاق صدره بأنفاسه، فقرر التراجع إلى داره، ولتذهب تلك الحيوانات اللعينة للجحيم.

دار حول نفسه، وهو لا يرى حتى الطريق الذي يسير فوقه. لا يرى الدور، أو حتى المصابيح التي تعلوها. لكن أذنه التقطت في اللحظة أصواتًا مريبةً تقترب منه، ثم انبعث صوت الماعز، ونهق الحمار. تنهد في ارتياح، ورفع صوته مناديًا حيواناته في أمل: "هنا. هنا أيتها الماعز. أنا هنا أيها الحمار".

لقد أتت النجدة له. سوف يمتطي الحمار، وسوف تتبعه الماعز، وحتمًا يعرف الحمار بغريزته؛ كيف يعود للدار؟.

نادي الحيوانات مرةً أخري قبل أن تلوح ظلالها، وهي تنبثق من الضباب. اندفع نحوها قبل أن يتوقف مرةً واحدةً على بعد مترٍ واحدٍ منها، ويتسمر مكانه في رعب. كان الحمار في مواجهته، وبجواره اصطفت الماعز الثلاث.

لم يكن الضباب كثيفًا من حولهم لسببٍ ما، لكن المشكلة كانت في عيونهم. كلها كانت تشع بريقًا أصفرًا لا يحمل غير الشر. تقدمت الحيوانات نحوه في خطواتٍ

آلية، فتراجع بظهره للخلف في رعب، وحين كشرت حيواناته الأليفة عن أسنانها أدرك اللعنة التي صبت فوق رؤوسها. تبدلت الأسنان العرضية إلى أنيابٍ ضارية لا تعرف الرحمة؛ ليدرك حين انقضت عليه الحيوانات، أن تلك الوحوش لا يمكن أن تكون نفسها حيواناته التي رباها..

أطلق صرخاتٍ مريعةً تشيب الولدان في البطون، لكنها لم تدم لوقتٍ طويل، ومن قلب الضباب برزت المزيد من الظلال حول الجثة الطازجة، وراحت تدور حولها في بطء..

☆ ☆ ☆

تحدث (عبد العاطي) إلى نفسه هامسًا في ضيق: "رغم هذا يجب أن أخرج. لن أمكث في البيت في هذه الليلة مهما حدث"!

تطلع إلى الشارع الساكن المكسو بالضباب عبر زجاج النافذة، ثم زفر بحنق، وهو يلعن سوء طالعه هذه الليلة، وعلى الفراش تربعت (سعادة) زوجته الشابة، وهي تهدهد طفلتها الرضيعة كي تهدأ. نظرت حيث ينظر ليطالعها الضباب، فارتعشت خوفًا، وقالت لزوجها برجاء: "أغلق هذه النافذة بالله عليك. تعلم أني أخاف الضباب".

لم يكن مزاجه مستعدًّا على الإطلاق لتقبل سخافتها وذعرها الدائم، فأجاب في خشونةٍ دون أن تفارق عيناه النافذة: " كفي عن جبنك هذا للحظةٍ واحدة. تخافين من الضباب، ومن الحجرات المظلمة، والخزانة المقفولة، وما قد ينتظر أسفل الفراش. صرتي لا تفعلي أي شيء غير الخوف. لا أدرى؛ كيف يعيش المرء بكل هذا الجبن؟"

اعتادت حدته، واتهامها دومًا بالجبن. لم يكن هذا وقت الضيق مما يقوله، فمنذ اهتزت الأرض أسفل قدميها، وقلبها مستمر في الخفقان. بدلت من وضع رضيعتها، وهي تقول: "انعتني بما تشاء، لكن اغلق النافذة أولًا. إنني أشعر بالهلع بالفعل".

التفت إليها، وصرخ في وجهها: " وما الذي يخيف الآن، وأنا بجوارك. هذا الضباب؟!!. هل تنتظري أن تخرج منه العفاريت لتختطف روحك أم تتوارى فيه الأفاعي والثعابين به لتلدغك في عينيك. ابتلعي لسانك يا امرأة واصمتي".

كان (سامح) طفلهما الصغير الذي تعدى الخامسة من عمره يلهو بجوارهما في الغرفة. لكنه كف عن لعبه، وانكمش هو الآخر كاتمًا أنفاسه في حذرٍ حين بدأ أبوه الصراخ. كان يخشاه كالموت، ويتقي غضبه، فالكدمات الزرقاء

على جانب خديه إثر لطمات أبيه على وجهه، والحروق الصغيرة التي أحدثتها لسعات أعواد الثقاب على جسده؛ علمته متى يصمت، ومتى يتكلم! متى ينكمش حول نفسه حتى يكاد أن يختفي، ومتى يظهر! تعلم رغم سنوات سنه الصغيرة أن غضبة أبيه بانتظاره دومًا بسببٍ أحيانًا، ودون أسبابٍ أغلب الوقت، ولهذا زحف بلا صوتٍ؛ ليتوارى أسفل الفراش، وهو يتمنى ألا ينتبه أبوه لمكانه.

عاد (عبد العاطي) لينظر إلى النافذة، وهو يفكر، يجب عليه أن يخرج الآن. إن (هويدا) في انتظاره الآن كما اتفقا. ستكون هذه ليلتهما الأولى التي انتظرها لشهور، ولو لم يلقاها الليلة كما اتفقا، فلا يدري؛ متى تتكرر الفرصة ثانيةً. كان يعلم أن زوجها سيعود من القاهرة في الصباح كما أخبرته؛ ولذا فلم يعد أمامه غير الليلة إن شاء أن يظفر بها.

احتاج الأمر للكثير من الوقت، والملاحقة؛ كي يشعرها باهتمامه. تم كل هذا بحذرٍ؛ كي لا يلحظ أحد محاولاته تلك، فتحل الكارثة. كانت (هويدا) زوجة (حامد) ابن خالته، واعتاد أن يراها حين يزوره. لكن تلك المرة التي رآها مصادفةً في جلبابٍ ضيق، وقد تدلت على جبهتها خصلة من الشعر الناعم المصبوغ بالحناء الأحمر، كانت هي القاصمة لقلبه. انتبه لحلاوتها، فاشتعل العشق في أحشائه. كانت متزوجة، بل وكان زوجها هو ابن خالته الذي تربيا سويًّا، لكن شياطين العشق لا تهاب تلك العقبات، ولا تكف عن خلق المبررات.

في ذلك الوقت؛ راح يقارن بين زوجته (سعادة) ابنة عمه السمراء البدينة السخيفة كما صار يراها و(هويدا) البضة البيضاء المثيرة. لماذا لم يظفر هو بـ(هويدا) منذ البداية؟. ولماذا يكون نصيبه من عشقها ملاحقات قد تفضحه، وتصب العار فوق رأسه؟!

راح يلاحقها، ويتعمد الحديث إليها حين يكون ببيتها. يزورها بحجة السؤال عن زوجها، وهو أكثر من يعلم أنه في تلك الأوقات خارج البيت. كانت ذكيةً كما رأى، وعلم أنها أدركت مراده بعد قليل، لكنها لم تُقدم. أحجمت في البداية، وصارت تتعمد الاختفاء حين يكون ببيتها. لكنه واصل ملاحقاته حتى بدأت تلين، وبعد شهورٍ تحدثا سويًّا في الهاتف. سألته؛ ما الذي يريده منها؟. وهل يفكر في التسبب في موتها مجللًا أهلها بعارها. لكنه أقسم لها أنه لا يفكر إلا في حبها. لانت في الحديث، واستجابت لهمساته، ومضى بعض الوقت حتى وافقت في النهاية أن تكون له..

كان (حامد) يعمل في تجارة الغلال والتمر والزيوت. يذهب لأسيوط من حينٍ لآخر محملًا بغلات النجع ويعود منها بالسلع التي يحتاجها النجع. كان يغيب هناك بالأسبوع أحيانًا، وكان هذا ملائمًا لهما بالطبع. المشكلة أن موافقتها تأخرت كثيرًا، فـ(حامد) المسافر منذ أربعة أيام سوف يعود في الغد، ولقد اتفقا منذ الأمس أن يلتقيا اليوم في دارها في المساء. سوف يدور حول الدار ليتسلل من الخلف في الظلام كي لا يشعر به أحد. لكن هذا الزلزال السخيف، والضباب اللعين أفسدا كل مخططاته. أشعل لفافة تبغٍ جديدة، وهو يحاول أن يفكر فيما عليه أن يفعله. منذ قليل حاول الاتصال بها عبر الهاتف، لكن الهاتف كما رأى كان معطلًا، ولم يسمع من سماعته غير أصواتٍ غامضةٍ، وضوضاءٍ غريبة..

في النهاية؛ قرر ألا ييأس. سوف يخرج، ولن يسمح لأي شيءٍ بأن يعوقه. الضباب كثيف بالفعل، ويبعث في النفوس الخوف، لكنه كذلك يصلح كغطاء. بل لو استمر في كثافته تلك، فلن تكون به حاجة للتسلل. سوف يذهب لـ(هويدا) ويدخل من الباب

مباشرة. حتمًا لن يشعر به أحد، أو يراه حينها. وضع جلبابه فوق جسده، وصب العطر فوق رأسه وملابسه، فصاحت (سعادة) في جزع: "هل ستخرج؟"

"لن أتأخر".

"وتتركنا في مثل هذا الوقت. ألا تشعر بالخوف علينا".

"لن يصيبكم أي مكروه وأنتم في البيت. ولن أتأخر كما أخبرتك. ساعة واحدة، وسوف أعود. حاولي أن تنامي طالما تخافين المكوث بمفردك".

قالها ثم غادر الغرفة بسرعة؛ كي لا تواصل احتجاجها. تركت رضيعتها على الفراش، واندفعت نحو النافذة؛ لترى أين يذهب في مثل هذا الضباب المخيف بدلًا من أن يلوذ بداره؟. لكنها لم تر غير الضباب. فكرت أن الزجاج ربما كان غير نظيف، وربما كان هذا هو ما يعوق الرؤية، ففتحته قليلًا. لكن الرؤية لم تتحسن كما اعتقدت، وفي تلك اللحظة صرخت الطفلة الرضيعة بغتة. انتفضت (سعادة) على الفور قبل أن تهرع إلى الطفلة على الفراش دون أن تغلق الزجاج وهي تلقم الطفلة ثديها.. كانت تولي النافذة المفتوحة ظهرها، فلم تشعر بما تسرب خلالها. شرد عقلها، وهي تفكر؛ لماذا غادر (عبد العاطي) البيت في مثل هذا الوقت؟. وأين تراه قد ذهب؟. لم تشعر بلون طفلتها الرضيعة الذي تبدل، فاكتسب صفرة الموت نفسه، لكنها بعد حين أحست أن الطفلة تمص الثدي بقوةٍ أكبر من المعتاد. هبطت ببصرها نحوها، فرأت الوجه الميت المكلل بزرقة الموت، ورغم هذا يواصل الرضاعة.

صرخت في فزعٍ، ففتحت الرضيعة عينيها اللتان صارتا صفراوين. ألقتها على الفراش، فتسرب الدم من ثديها بدلًا من اللبن. شهقت في فزع لاحد له، وحين رفعت وجهها نحو باب الحجرة كان زوجها (عبد العاطي) هناك. لكّن أشياءً كثيرةً تبدلت فيه هو الآخر!

كانت عيناه هو الآخر تصدر نفس الضوء الأصفر، وكانت أحدى ذراعيه مقطوعة. وقد لوثت الدماء جلبابه المكوي الأنيق؛ بينما راح يرمقها أبدًا بتلك النظرة الميتة الوحشية، وحين تحرك نحوها لم يكن هناك من مكان تهرب إليه، ولم يكن هناك ما يمكنها عمله غير الصراخ الذي ابتلعه الضباب ككل شيءٍ آخر..

أما أسفل الفراش، فقد رقد (سامح) في رعبٍ لاحد له، وهو يسمع الصرخات المريعة لأمه، ويرى أقدام أبيه الملوثة بالوحل والدماء.. كانت بِركةً من بوله الدافئ قد تكونت حوله في تلك اللحظة، وكان قلبه يتواثب في صدره في ذعرٍ لم يشعر به من قبل. لكنه لم يصدر أي صوت. حتى أنفاسه كتمها بقوة، وهو يتمنىً ألا يشعر به أبوه الغاضب. هذا ما تعلمه رغم سنوات عمره القليلة..

يجب ألا يشعر به أبوه حين يكون غاضبًا.!

☆ ☆ ☆

حدق (أحمد) عبر النافذة الزجاجية المغلقة إلى الضباب في حيرة، فلم يبصر أي شيء خلفه. حتى الفناء الذي يحيط بالبيت لم يره. لا هو ولا أي من أشجار النخيل،

أو شجرتي التوت التي تحيط بالبيت. لم ير من قبل ضبابًا بمثل تلك الكثافة. لكنه تذكر أنه قرأ من قبل عن ضباب لندن الكثيف الذي لا ترى خلاله أرنبة أنفك. ربما كان هذا مألوفًا هناك حيث البرد، والدخان، لكن هنا كان هذا النجع الصغير يشهد هذا الضباب للمرة الأولى.

على الأريكة الخشبية؛ اضطجع أبوه الحاج (عبد الكريم دياب) كعادته. بسط قدمه المبتورة التي أحاطها بشراب صوفي طويل بينما تدلت القدم السليمة نحو الأرض، وبين أصابعه أمسك ب(خرطوم) الشيشة، وراح يدخن في هدوء من لا يرتاب في شيءٍ، أو يرى عجبًا في ما يحدث في النجع. لم يعد هناك من صوتٍ في الصالة الطويلة غير صوت قرقرة المياه التي يدخنها. بينما تربعت زوجته (كوثر) على كليمٍ صوفيٍّ عريضٍ يغطي الأرض، وهي تعبث بأوراق الكوتشينة، وتخلط أوراقها بين أناملها في مهارةٍ وسرعة. قبل أن تلقيها على الأرض وهي تتأمل ما انكشف من الصور، وفي كل مرة يمتعض وجهها جزعًا. قبل أن تجمع الأوراق ثانيةً، وتعيد المحاولة عسى أن تظفر بنتيجة مغايرة.

تعود منها زوجها مثل تلك الحيل التي تزعم أنها تجيدها. لم يؤمن يومًا بالأوراق، ولم يتقبل عقله فكرة جدواها؛ رغم أن زوجته لا تقوم بأي فعلٍ دون استشارة أوراقها. منذ أعوام كان يثور من أجل هذا. كان يرى فيه دجلًا وإيمانًا بسحرٍ غير موجود، بل حتى لَوْ كان موجودًا، فهو كفر. نهرها، وظل طوال الوقت يمزق أوراقها. بل ووصل به الحال إلى ضربها غير مرة. لكن إيمانها بما تقوم به كان غير محدود، فصارت تتحايل في إخفاء الأوراق عنه، واستعمالها في غيبته. أدرك هذا بعد حين، وعلم أنه لا جدوى من منعها، فتركها وما تقوم به ولم يعد يكترث بها.

عاد (أحمد) ليجلس أمامه، وتنهد قبل أن يقول: "ضباب مريب. لا أعتقد أن النجع شهد مثل هذا الضباب من قبل".

نفث الحاج (عبد الكريم) سحابةً من الدخان من فمه، وأنفه، وأجاب باقتضاب: "ربما"!

"وماذا عن هذا الزلزال؟.. هذا أمر نادر الحدوث؟"

"يحدث من حينٍ لآخر.. لكنه لم يسبب ضررًا في أي مرة".

"هل يكون هذا الزلزال مسئولًا عن الضباب؟.. هل جاءت به؟"

ابتسم الحاج (عبد الكريم) واعتدل في جلسته، وأجاب: "هل هذا ما تعلمته في دراستك؟! هل تأتي الزلازل بالضباب؟"

لا يتذكر في الحقيقة تلك الأشياء التي درسها منذ أعوام في المرحلة الإعدادية. هز رأسه في حيرةٍ، لكن الأم تحدثت في تلك اللحظة للمرةً الأولى: "إنها العلامات، والعلامات لا تخطأ. هناك كارثة مقبلة".

قال الحاج (عبد الكريم) ساخرًا: "وهل قرأت عن تلك الكارثة في أوراقك؟. هل أخبرتك الأوراق عن فحواها؟"

" -الأوراق أمامي تصرخ محذرة، لكنها لا تجد الأذن التي تستمع. فقط لو تكف عن السخرية منها، وأتيت لترى. انظر هنا إلى"..

قاطعها في ضجر: "لن أنظر إلى شيء، ولن أصدق. لقد ذهبت تلك الأوراق بعقلك منذ زمن، ولا أظن أنك ستبرأين من ضلالك هذا يومًا".

احتدت على السخرية منها، ومن أوراقها أمام (أحمد) فقالت في عناد: "تكذبني، وتتهمني بالكفر والضلال، وتصدق (آمنة) وعفاريتها وهلوساتها" .

قبل سنوات كان ليزجرها في عنفٍ، وغضبٍ لاحد له لو ذكرت أمه بسوء. لكنه الأن قد اعتاد تلك الأقوال، ويدرك أن لا معنى لها. في النهاية لم تقصر كوثر في حق أمه يومًا، ولم تضايقها. إنه الغيظ الذي يدفعها للتحدث بهذا الكلام السخيف، لذا أجابها ببرود: "آمنة، تنتمي للأشراف، وينتهي نسبها للإمام علي بن أبي طالب، فهل تتهمينها بالسحر رغم هذا النسب الشريف الذي يجري في دمائها".

"لا أتهمها بشيء. فقط أتمنى لو تصدقني مثلما تصدقها" .

"أصدقها؛ لأنها أمي؛ ولأنها منذ زمنٍ بعيدٍ تمتلك كرامةً من تلك التي يهبها الله لأوليائه الصالحين، وأصفيائه. لم تزعم يومًا اتصالها بالجان، ولم تقل يومًا أنها تقرأ الطالع، أو تفتش في الغد. لكنك تقرأين الأوراق، وطالما خشيت أن تنزلقي بعملك هذا في الكفر دون أن تدري".

"أنا أصلي، وأصوم، ولا أؤذي أحدًا، ولا أقوم بالسحر".

قالت في عناد، فقال باستخفافٍ بعد أن سحب نفسًا طويلًا من الدخان:

" - ليس كافيًا. الأوراق من عمل السحر، والسحر كله كفر".

اعتاد (أحمد) تلك المجادلات التي لا تنتهي لحلٍّ بين أمه، وأبيه، فقال لينهي الأمر: "سوف أخرج. أريد أن أرى ما يحدث بالنجع".

صرخت الأم، وهي تنهض؛ لتقبض على ذراعه:

" - إلى أين يا أحمد؟. لن أدعك لتخرج، والشر يحوم في الشقوق".

رمقه الأب صامتًا، لكن عينيه ارتجفتا في قلق، وقال (أحمد) لأمه: "باب الحظيرة مازال مفتوحًا، وقد تخرج الحيوانات، أو يهاجمها شيء ما.. سوف أذهب للحظيرة لأطمئن على الحيوانات، ولن أتأخر" .

كان الاطمئنان على المواشي حجة للخروج. في الحقيقة كان يرغب في أن يتفقد الضباب، والشوارع الخالية. أراد أن يفهم ما يجري، لكن أمه اعترضت طريقه في تصميمٍ، وقالت معترضة: "لتذهب الحظيرة، وما بها للجحيم،

فلن أعك تخرج الآن. الأوراق تصرخ بنذيرها،".

أزاحها في رفق، وتحرك نحو الباب بعد أن أضاء ضوء الكشاف في هاتفه المحمول، وهو يقول في حسم: "لا تخافي يا أمي، لن يصيبني أي مكروه. أخبرتك

أنني سأعود بسرعة".

نظرت للأب الذي ما زال يدخن؛ مستنجدةً، لكنه أشاح وجهه الناحية الأخرى كي لا يرد، أو ترى حقيقة رفضه لخروج ابنه، ورغم ما يبديه على وجهه من لا مبالاة، لكنه في قرارة نفسه كان يشتعل قلقًا. تمنى لو يأمر (أحمد) ألا يخرج، لكنه يعلم أن (أحمد) سيطالبه حينها بتفسير خشيته عليه، وهو حتما لن يبوح بما يعلمه، على الأقل ليس الآن، لذا اكتفي بأن قال له: " لا تتأخر يا احمد ولا تبتعد عن البيت"

خرج (أحمد) من الباب، فغلفته سحب الضباب على الفور. عجز الضوء القوي لهاتفه عن إزاحة ولو القليل من الضباب. سار كالأعمى مسترشدًا بحدسه نحو الحظيرة. دار حول البيت حيث توجد الحظيرة بالخلف، وحين سار بجوار السور بلغت أذنه أصوات مبهمة، لا تبعث على الراحة، وهي تتردد من حوله دون أن يخمن مصدرها. توقف للحظةٍ بقلبٍ واجف، ثم واصل سيره ببطءٍ أكثر حذرًا. وصل لباب الحظيرة، وحين دلفه، أدرك أن الضباب توقف كستارٍ رمادي عملاق خلف الباب، ولم يداهم المكان. كانت الحظيرة حالكة الظلمة، فصوّب ضوء هاتفه نحو الحيوانات.

وعلى ضوء الهاتف؛ شاهد الحيوانات المتصلبة في مكانها، والتي اصطفت في صفٍّ واحدٍ، وأعينها مصوبة إليه. كانت العيون كلها تشع في تلك اللحظة ذلك الضوء الفسفوري الأصفر. لكن المخيف كان تلك الضباع التي تهاجمها بشراسةٍ دون أن تحاول الماشية، والخراف الدفاع عن أرواحها أمام ذلك الخطر المميت. كانت الضباع تنهش اللحم، فتنفجر الدماء، والحيوانات صامتة ساكنة، وكأنما ارتضت مصيرها المهلك. شهق بتوترٍ، فانتبهت الضباع له والتفتت إليه، فرأى نفس العيون المشعة باللون الأصفر الفسفوري المخيف. رمقته الضباع في غلٍّ، ثم كشرت عن أنيابها في وحشيةٍ. هذه المرة شعر بخوفٍ حقيقيّ، وقرر أن يعود أدراجه على الفور.

همس لنفسه بصوتٍ مخنوق:" رحمتك يا الله. أي شر هذا؟"

ابتلعه الضباب ثانيةً، وهو يتراجع للخلف، وضوء هاتفه مازال موجهًا لباب الحظيرة قبل أن يستدير، ويهرع في خطواتٍ سريعة عائدًا للبيت بينما ارتفع من خلفه صوت المخالب التي تدب على الأرض في قوةٍ، وكأنما قررت الضباع ملاحقته.

ازداد توترًا، وعيناه عاجزة عن اختراق هذا الضباب اللعين، وتساءل، إن كانت أعين الحيوانات التي تقتفي أثره يمكنها الرؤية عبر هذا الضباب، أم تراها تلاحقه بتتبع رائحته؟ كان قلبه يدق بعنفٍ، ورأسه يدور في كل مكانٍ، وخطواته مضطربة، فلم يكن غريبًا أن يتعثر، ويهوي على وجهه. صرخ في ألم، وفزع، ورفع رأسه، فخيل إليه أنه يرى ظلالًا مبهمةً تطير في الأفق في قلب الضباب، قبل أن يدرك في فزعٍ لا حد له أنه صار محاطًا بالضباع الشيطانية، والتي طوقته من كل جانب. انفرجت الفكوك، فبانت الأنياب القاطعة المخيفة، ولاحت في الأعين الشيطانية نهايته الدامية..

وفي المنزل؛ غادرت (آمنة) حجرتها للمرة الثانية في هذا اليوم. هتف الحاج (عبد الكريم) في ذهولٍ حقيقي: "إلى أين يا آمنة، في هذا الظلام؟"

لكنها صرخت في وجهه: "لا وقت لهذا؛ ائتوني بالملح والماء، هيا بسرعة".

حين تصرخ (آمنة) تصير مخيفة، وحين تطلب شيئًا يجب أن يجاب في الحال. لذا اندفعت (كوثر) نحو المطبخ لتجلب الملح، بينما تحرك نحوها (عبد الكريم) وهو يهمس في قلق: "أخبرينا بما تخفيه يا أمي".

لم ترد عليه، وواصلت تلاوتها الصامتة لأذكارها القرآنية. بدت أنفاسها مضطربة كما لم يرها (عبد الكريم) من قبل، وصرخت مرةً أخرى، وعيناها العمياوان معلقتان بالباب: "أين الملح والماء يا كوثر؟. اسرعي يا امرأة".

ظهرت (كوثر) في تلك اللحظة، ودفعت بكيسٍ من الملح الأبيض في كفها، وزجاجة ماء. اندفعت العجوز العمياء مباشرةً نحو باب البيت. أرادت كوثر أن ترافقها، وقد تذكرت (أحمد) في تلك اللحظة، فتلاعبت المخاوف في صدرها، لكن (آمنة) صرخت دون أن تتوقف أو تلتفت: "مكانكما، ولا يتبعني أحد. أنا فقط من سيخرج. الرحمة يا رب محمد وفاطمة وعلى".

غادرت البيت؛ لتغيب على الفور في الضباب، وبعد لحظاتٍ كانت قد بلغت (أحمد) الذي تلاحقت أنفاسه في هلعٍ رهيبٍ، وهو ينتظر موته في يأس. دست أناملها المعروقة في كيس الملح، فأخرجت بعضه، ونثرته من حولها في الضباب وهي ترش الماء في الوقت نفسه، وتردد:

" - وجعلنا من بين أيديهم سدًّا، ومن خلفهم سدًّا، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون".

سمعها (أحمد) فرفع رأسه في أمل حيث صوتها. لم يرها، ولكنه رأى الحيوانات التي تراجعت من حوله؛ ليطويها الضباب، ثم ظهرت الجدة العمياء العجوز كشبحٍ من الظلال. هتف في فرحةٍ، وغير تصديق: "آمنة؟"!!

ظلت تردد الآية القرآنية، وتنثر الملح والماء من حولها. هنا نهض بسرعة وأحاط جسد جدته، وهو يقول: "يا إلهي! كيف وصلت إلى هنا؟. لقد أنقذتني"!

لكنها جذبته من مرفقه بقسوةٍ وقالت: "لا وقت للتساؤلات، والكلام الكثير. دعنا نرجع أولا، فسوف يعودون بعد قليل".

تحرك بها عائدًا للبيت، ومازالت تقرأ القرآن، وتنثر الملح والماء من حولهما، وما إن أغلق الباب من خلفه، حتى اندفع أبوه، وأمه نحوهما في جزع، وهما يشاهدان الوجه الممتقع لابنهما. قال (عبد الكريم) في قلق: "هل أصابك مكروه؟.. هل هاجمك شيء ما؟"

ازدرد (أحمد) أنفاسه المتلاحقة بصعوبةٍ؛ بينما واصلت الجدة العمياء طريقها نحو حجرتها صامتة، وصرخت (كوثر) في لوعة: "لماذا لا تتكلمان؟. ماذا حدث بالخارج؟. هل أصابك شيء يا أحمد؟"

لكن (أحمد) شعر بقدميه لا تقدران على حمله، فتهالك على أقرب أريكةٍ منه، وراح يلهث بعينين زائغتين، وقلبٍ يكاد الخوف أن يوقفه..

☆ ☆ ☆

احتاج (أحمد) لدقائق خمس كاملة؛ كي يسترجع أنفاسه، ويستعيد قلبه هدوءه. حاول الحاج (عبد الكريم) أن يتمالك نفسه، ولا يبدى جزعه كي لا يزداد توترًا، فراح يدخن (الشيشة) في نهم، وكأنما يحرق في دخانها مخاوفه، وحين ألحت (كوثر) على (أحمد) في التحدث، وإخبارها بما رآه؛ صاح فيها زجرًا: "توقفي يا امرأة، ودعيه يلتقط بعض أنفاسه. ألا ترين اضطرابه؟"!

تحسست شعر (أحمد) في جزعٍ، ومسحت وجهه بعينيها، وقالت: "لن أفعل يا حاج قبل أن أطمئن عليه"

" - لقد صار بيننا الآن، وهذا يعني أنه صار آمنًا؛ لذا توقفي عن ازعاجه، ودعيه يسترد أنفاسه قبل أن يحكي".

صمتت على مضض، ثم تحدث (أحمد) بصوتٍ واهن: "أخشى أن الحيوانات كلها قد هلكت؟"

ضربت (كوثر) صدرها بيدها في جزعٍ، وصرخت:" ماذا؟! ماذا حلّ بها؟"

" - كانت الضباع هناك في الخطيرة.. ضباع كثيرة مفترسة، ولا شك أنها تسللت إليها مستترة بالضباب".

لا يدري، لماذا رفض عقله أن يحدثهم عن وقفة الحيوانات الغريبة، ولا استسلامها العجيب لموتها، أو عيونها التي تبدلت فصارت تشع ضوءً فسفوريًّا عجيبًا. قرر أن يحتفظ بتلك الأشياء المريعة لنفسه، والتي ربما لن يصدقها أحد. بل وربما اتهموه باختلاقها. وحتى لو صدقها أبواه، فلن تجلب لهما غير الخوف والفزع. كان هلاك حيواناته خسارة كبيرة بالطبع. لكن هذا لم يكن كل ما يشغل بال الحاج (عبد الكريم) في هذا الوقت؛ لذا سأل ابنه: "وهل رأتك الضباع، أو هاجمتك؟"

خفض (أحمد) عينيه مستعيدًا في عقله تلك اللحظات المريعة التي التفت فيها الضباع حول جسده المكوم على الأرض، وراحت حناجرها تصدر تلك الأصوات المخيفة الآتية من قاع الجحيم.. كان هلاكه لا شك فيه في تلك اللحظة.. كان الموت هو مصيره لو لم تظهر الجدة المسنة العمياء التي جاوزت المائة من عمرها. رفع عينيه بعدها، فلاحظ عينا الأب المثبتتان على وجهه، والتي تنتظر الإجابات، فقال، وهو يحني رأسه: "لقد أنقذتني (آمنة) منهم"!

نقلت (كوثر) نظرها بين الابن، وبين الأب، وقالت: "آمنة، هي التي أنقذتك من الضباع. (آمنة) العمياء؟"!

تحرك الأب نحو حجرة الأم بساقٍ واحدةٍ مستندًا على عكازه. دفع الباب، ووقف أمام الفراش التي عادت (آمنة) لتتربع عليه، ولسانها لا يتوقف عن تلاوة الأذكار، والقرآن كما ظلت تفعل لأعوامٍ لا حصر لها. لهث (عبد الكريم) وشعر بقلبه يطلق

نبضاتٍ غير منتظمة منشأها التوتر بلا شك، وقال لأمه: "ماذا يحدث يا آمنة، في النجع؟ ما الذي تعلميه وتخفيه؟"

كان السؤال غريبًا، فكيف لعجوزٍ عمياء لا تبرح مكانها؛ أن تدري ما يدور خارج حجرتها. لكنه خير من يعلم أمه. السيدة الشريفة التي حفتها الكرامات، والهبات الإلهية الخفية منذ شبابها المبكر. سليلة المجد والشرف، وحفيدة الحسن، والأمام علي. كانت لأعوام تداوي المرضى بالرقى، وتمسح الرؤوس العليلة بأناملٍ تملؤها الرحمة، وهي تردد الأذكار والدعوات فيأتي الشفاء بإذن الله، وفي عام بعيدٍ، وحين جف المطر، وراح الكل يدعوا دعاء المطر، فلم تستجب السماء. حينها سألها القوم أن تسال الله بشفاعة أهل البيت أن تنزل رحمة السماء، فلزمت حجرتها ودعت الله الليل كله وفي الصباح ظلت السماء تمطر، حتى امتلأت الآبار، وارتوت الأراضي، وتنفس الناس الصعداء..

ما زال يذكر؛ كيف كانت تتنبأ بعودة الغريب؟. وكيف كانت تخبرهم بما سيكون من أحداثٍ بعد أيام، وشهورٍ؛ ليروا بأعينهم؛ كيف حدث ما ذكرته بتمامه دون ذرة اختلاف واحدةً؟. بل وحتى ذلك اليوم المشئوم الذي فقد فيه قدمه؛ مازال يذكر دموعها التي شيعته بها قبل أن يخرج. لم يفهم يومها؛ لماذا تبكي، لكنه بعدها وبعد أن حلت الكارثة سألها؛ هل كانت تعلم بمصيبته قبل أن تقع؟ هزت رأسها مبتسمةً بأسى يومها وهي تجيب: "كان قدرًا لا فرار من تحققه.. علمت، ولم يكن ممكنًا منعه.. ما سطر في اللوح لا يزول، ولا يتبدل.. إنه المكتوب".

- وكيف علمت؟

هنا، وككل مرةٍ كانت تبتسم دون أن تبوح بسرها. هل تهبط عليها كائنات نورانية تحدثها بالغيب؟!. أم هم الجان والشياطين، كما اتهمها البعض؟ وخاصة من (الخلفاوية) الذين أزعجهم كراماتها والتفاف الناس حولها. أم تراها الحجب تتكشف أمام بصرها فترى بجلاءٍ ما لا يراه غيرها؟.

هذا اليوم كان ينتظر منها الإجابات. لم تجب السؤال فرفع صوته بالسؤال ثانيةً: "حدثيني يا آمنة، بالله عليك؛ كيف أنقذت أحمد؟ وكيف شعرت بالخطر الذي يحيطه؟"

- لقد أنجاه الله يا عبد الكريم؛ لتسجد لله وتصلي شكرًا لرحمته الواسعة.

رمقها في حيرةٍ، ومازالت على هدوئها، تردد لحظةً قبل أن يطرح عليها تساؤله الذي يعيث في صدره، حتى يكاد أن يهلكه في تلك اللحظة:

" - أخبريني يا آمنة، هل تعلمين شرًّا قد يقع بـ(أحمد)؟ هل هناك من خطرٍ يلحق به؟"

لم تجبه، فرجاها بصوتٍ كله تضرع: "أجيبيني يا أمي، إنه (أحمد) هذه المرة. شبابي المفقود وحلمي الذي يتحقق، إنه ليس مجرد قدم تلفت فبدلتها بأخرى خشبية. لو كان هناك ما قد يصيبه، فأخبريني. ربما كان ممكناً إنقاذه"!

ظلت عيناه معلقتين بالشفتين الضامرتين اللتين تمتمت بما لا يسمعه قبل أن تقول العجوز بوهن: "الشر عظيم، ومخيف يا عبد الكريم، ليلزم الكل داره.. انثروا الملح والماء حول البيوت، فالعدو عاد ليسكن بينكم. لقد أعماكم الطمع مرةً أخرى، وككل مرةٍ تكون الدماء، والأرواح ثمن تلك الخطيئة. ليرحمنا الله برحمته، وليغفر لنا شرور أنفسنا".

أولته ظهرها بعدها، فعلم أنها لن تتحدث ثانيةً، فغادر حجرتها، وحين دلف الصالة رأى البندقية في يد (أحمد). رمقه بتساؤلٍ، فقال أحمد: "سوف أطرد تلك الضباع.. ربما أمكنني أن أنقذ بعض الماشية".

اندفع نحوه في حركاتٍ أقرب للقفز على الساق الوحيدة السليمة، وأمسك بالبندقية، وصاح فيه: "كلا.. لن تخرج.. هذا قدر الحيوانات وقدرنا. لن أفقد الحيوانات، ثم أفقدك".

أراد (أحمد) أن يعترض فقال: "لن نمكث في بيوتنا كالنساء، ونترك ماشيتنا تواجه الهلاك دون أن نحاول نجدتها." سوف تفر الضباع مع أول طلقةٍ.. هذا ما تفعله دائما"

" - أخبرتك أنك لن تخرج، فلا تثقل عليّ باعتراضك.. لتذهب الحيوانات للجحيم.. لكنك لن تبرح المنزل".

قالها، وجذب البندقية العتيقة من يده بقوةٍ، ثم تراجع نحو أريكته ثانيةً، فتنهد (أحمد) في ضيقٍ، وعاد لينظر للضباب ثانيةً في خوفٍ مبهم، وعقله يحاول بيأسٍ اختراقه؛ ليرى ما يدور من خلفه..

☆ ☆ ☆

لم تنقطع الصرخات المنبعثة من جوف الضباب طوال الليل. كانت صرخات قصيرة مبتورة دائما، لكنها حملت معها كل الفزع في كل مرة. صرخات بشرية، وحيوانية، ممزوجة بصرخات أخرى لا تنتمي لعالمنا. في النهاية جاء الفجر حاملًا معه الخلاص من هول ليلةٍ ثقيلة. تراجع الضباب ثانيةً نحو الجبل في مشهدٍ غريبٍ، وكأنما هو ستار عملاق تجذبه خيوط، وأيادٍ خفية، وتطويه على بعضه قبل أن تبتلعه القمم البعيدة للجبل، ومع أول شعاعٍ من أشعة الصباح راح (أيمن) العبيط يعدو في الشوارع الخاوية الحذرة، وهو يصرخ في جنونٍ، ونشوة: "الجثث والموتى في كل مكان.. الجثث والموتى في كل مكان".

كان (أحمد) أول من غادر منزله. في الواقع لم يحظ بلحظة نوم واحدة، وظل الليل كله ملتصقًا بالنافذة الزجاجية يراقب الضباب بلا ملل. تحرك في حذرٍ خارج البيت مع انقشاع الضباب حاملًا البندقية في تحفز؛ ليرى ما جرى للحيواناتً في الحظيرة. لم يكن هناك من أثرٍ للحيوانات أو جثثها، أو حتى أشلائها. فقط الكثير من الدماء التي لوثت الأرضً، والجدران الطينية، وآنية الشراب التي اصطبغ ماؤها بلونٍ أحمرٍ قانٍ. انتشر في الهواء الرائحة المعدنية للدماء، فتقلب الحمض في أمعائه.. لم

يكن هناك من أثرٍ للضباع كذلك. فتش المكان كله، والفناء الخالي حول البيت، فلم يجد شيئًا.

سمع صراخ (أيمن) فاندفع نحوه. أمسكه من ذراعه، وسأله: "أين هؤلاء الموتى؟"

اتسعت عينا (أيمن) في نشوةٍ غريبة، وكأنما يروقه الأمر، ولا يخيفه، وقال: "اتبعني، وسوف أريك".

هرول (أيمن) أمامه، فاضطر للعدو خلفه. غادر شارعه الجانبي، وتحرك في الشارع الرئيسي الطويل للنجع، وبعد حوالي خمسمائة متر توقف (أيمن) وهو يشير لكومةٍ هائلةٍ من جثث الحيوانات الدامية، وقد سدت الطريق تمامًا، وتشكلت أشلاؤها على الأرض على شكلٍ عجيب. كانت مكونة من كل كائن حي ممكن في المكان. ماشية، وجاموس، وماعز، وطيور داجنة، وغربان، وبوم، وقد اختلط كل هذا في مزيجٍ دمويٍّ مخيف.. ورغم الذباب الكثيف الذي راح يطن، ويحوم حول الجثث، ورغم رائحة الدماء المعدنية العنيفة إلا أن (أحمد) تجمد مكانه تمامًا في ذهولٍ ذهب بعقله. من فعل هذا؟!. وكيف جلب كل تلك الكومة الهائلة من الجثث؟!!. وما معنى هذا الرسم العجيب الذي تشكلت به الأشلاء؟!

عاد (أيمن) ليصرخ، فانتبه (أحمد) له، وهو يقول: "هناك موتى آخرون. تعال لأريك! لقد مات (عيد) و(عبد العاطي)، كلهم ماتوا".

لهث أحمد، وسأله بصوتٍ مختنق: "وكيف عرفت أنهم قد ماتوا؟"

"لقد رأيتهم.. هل تحب أن تراهم؟"

"وهل تعرف من قتلهم؟"

"العفاريت والموتى. لقد كانوا في كل النجع بالأمس. لقد قتلوا كل من قابلوه".

أرتجف أحمد في خوف، ورمقه (أيمن) بترقبٍ كجنديٍّ مطيعٍ بانتظار أمر قائده، وبعد لحظاتٍ قال (أحمد) له: "أرني؛ أين ماتوا؟"

تحركا بصعوبةٍ حول أشلاء الحيوانات، ثم اجتازاها، وانطلقا في الطريق بعدها مهرولين ثانيةً. دلفوا طريقًا إلى اليمين، وانحرفوا منه نحو طريق جانبي. قبل أن يصلا إلى مكانٍ تجمع فيه العشرات من الرجال والصبيان؛ بينما قبعت النسوة في الخلف، وقف (أيمن) بعيدًا عن الحشد؛ بينما اخترق (أحمد) حشد الرجال' قبل أن يصل للجسد المضرج في دمائه، وقد التوى عنقه في مشهدٍ مخيفٍ؛ بينما اسود محجريه تمامًا، وكأنما احترقا، وتفحما.

مرةً أخرى تصاعد الحمض في جوفه، وسمع رجلًا خلفه يقول: "إنه عيد. لقد وجدناه هكذا".

التفت العيون كلها نحوه، كانوا خليطًا من رجال عائلته، وعائلات أخرى. رمقوه للحظةٍ بترقبٍ، وصمتٍ، فأدرك أن الكل بانتظار كلمةٍ منه، فقال ببطء: "هل ذهب

أحد إلى الحاج (حسنين)، إنه العمدة، ويجب أن يعلم".

هتف شاب في مقتبل العمر متطوعًا: "سوف أذهب إليه لأخبره".

اختفى الشاب على الفور بينما انحنى (أحمد) نحو الجثة. رمق العنق الملتوي، والفم النازف الذي تجمدت الدماء حوله، قبل أن يتوقف عند العينين المتفحمتين، هل كان للضوء الفسفوري الذي رآه في أعين حيواناته، والضباع بالأمس دخل في ما يراه؟ لم يطق النظر إلى الجسد العاري المليء بالثقوب والدماء طويلا، وسمع رجلًا يقول: "ربما كان ذئبًا.. (عيد) قوي، ولن يفعل به هذا غير ذئب".

لم يجب، ولم يلتفت إلى الجدال العقيم الذي بدأ على الفور محاولًا تفسير سبب الوفاة. تذكر هذه اللحظة (عبد العاطي). لقد تحدث (أيمن) عن جثته. تراجع، وفتش عن (أيمن) الذي وقف منكمشًا صامتًا خلف أحد أشجار البلوط التي تحيط بالطريق. تحرك نحوه، وقال له: "هل أنت متأكد أن (عبد العاطي) ميت هو الآخر؟"

هز (أيمن) رأسه مؤكدًا بخوفٍ، وقد ذهبت الجموع المحتشدة بالنشوة التي كان يشعر بها في البداية، فقال (أحمد) له: "إذًا دعنا نرى".

انطلقا حيث منزل (عبد العاطي) وقد كان لا يبعد غير شوارع ثلاثة. كان باب البيت مفتوحًا. دلفه (أحمد) في بطءٍ حذر، وهو ينادي: "هل من أحد بالداخل؟"

لم يسمع الإجابة. تحرك في البيت الذي فشلت أشعة الصباح في اقتحامه، وتوتر ورائحة الدماء تعاود أنفه مرة أخرى. كانت الصالة الطويلة فارغة. دلف أول حجرة، فلم يجد بها أحد، وحين دخل الحجرة الثانية، كانت الجثث الثلاث بانتظاره. كانت جثتا عبد العاطي، وزوجته ملقتين على الأرض، وحولهما بركة ضخمة من الدماء، وعلى الفراش كانت جثة الرضيع ترقد على ظهرها، وقد كسا الوجه لون أزرق قاتم. لم يتمالك نفسه هذه المرة، فتراجع للخلف قبل أن يفرغ كل ما في معدته من حمض، وبقايا طعام إلى جوار أحد الجدران. استمر في القيء لبضع دقائق، وانتظر حتى شعر أن الحمض قد فارق جوفه تمامًا. عاد ببعض الترنح إلى الجثث. هنا تناهى لسمعه البكاء المكتوم. فتش بدهشةٍ عن مصدره، فانقطع الصوت.. نظر إلى الغرفة فتوقف بصره عند الفراش. انحنى أسفله، فوجد الطفل ذو الأعوام الخمس. كان محاطًا ببركة من البول والقيء، وكان جسده ينتفض في صمت، مد يده نحوه قائلًا: "تعال يا فتى، ولا تخف. لقد انتهى الأمر".

انكمش الطفل أكثر؛ محاولًا الابتعاد عن اليد المندفعة نحوه. لكن (أحمد) جذبه برفق، وقال مطمئنًا: "تعال يا فتى، ولا تخش شيئًا. لن يؤذيك أحد".

جر الطفل خارج الفراش، ووضعه فوق الفراش. رأى في تلك اللحظة العيون المحترقة لـ (عبد العاطي) واللتان كانتا في مواجهة الطفل تماما، فأدرك بإشفاقٍ أنها ظلت في مواجهة الصغير طوال الليل.. كان هذا بلا شك فوق احتمال الصبي.. تحسس رأسه مشفقًا، وهو يقول: "لا تخش شيئًا يا صغيري.. أنت في أمان الآن".

رمق الطفل جثة أخيه الرضيع في تلك اللحظة، ثم انتقل بصره المذعور نحو (أحمد)، قبل أن يفارق وعيه.. تحسس (أحمد) جبهته فشعر بالحرارة المرتفعة للطفل. كان الطفل محمومًا. لكن صدره الذي يعلو، ويهبط ببطءٍ أخبره أنه ما زال حيًّا. كان الطفل في حاجةٍ لرعايةٍ طبيةٍ عاجلة، فحمله دون أن يبالي ببله، واندفع خارج البيت.

☆ ☆ ☆

بدا الأمر غريبًا في عيني الدكتور (بهاء الدين علي) طبيب الوحدة الصحية الشاب الذي يمضي فترة تكليفه في الوحدة الصحية البائسة الموجودة خارج النجع لخدمته. شعر أن رجال النجع كله في المكان. العمدة والحاج (حمد) والحاج (عبد الكريم) وابنه (أحمد) وغيرهم. كانوا بمنزل الجاح (عبد الكريم). وكان المريض طفلا. هل يكون هذا الطفل هامًّا لمثل تلك الدرجة؟. أيكون ابنًا لأحد هؤلاء الرجال رفيعي الشأن في النجع؟. كان أمرًا مستبعدًا، وقد عرف النجع كله تقريبًا في الشهور التسع التي قضاها فيه، ومال على أذن أقرب رجلٍ له، وهمس:

"ابن من هذا؟.. لا تخبرني أنه ابن الحاج (حسنين)".

"لا".

"ولا الحاج (حمد) أو الحاج (عبد الكريم)".

"لا".

"إذًا؛ هو طفل ذلك الـ(البغل) خليفة. إنه لم يتزوج، لكن لن يدهشني لو فعلها اغتصابًا. مثله يصير بلطجيًّا، أو (بودي جارد) في القاهرة. أتمنى أن تكونوا هنا للقصاص منه. لكن لا داعي لجلده، فلم يؤثر فيه، ارجموه من البداية".

رمقه الرجل، وهو يغالب نفسه؛ كي لا يضحك حتى أنه عض شفتيه كي لا تظهر ابتسامته، ثم قال، وهو يبتعد: " ليس ابنه هو الآخر".

" - إذًا ابن من هذا؟"

☆ ☆ ☆

كانت العيون كلها مصوبة نحوه فشعر الدكتور (بهاء) بالاضطراب، وهو يفحص الطفل الراقد أمامه هامدًا. كان الطفل سليمًا ولا يعاني الا من بعض الرضوض، والتسلخات بين الساقين مع بعض الضعف الناتج عن سوء التغذية. الشيء المميز لأغلب أطفال النجع. ضربات قلبه السريعة، وأنفاسه المتلاحقة، وعينيه المرتجفتين كلها أشياء قد توحي بأنه تعرض لإثارةٍ هائلة. كان هذا كل شيء، وخاصة وقد أفاق الطفل من غيبوبته، وسمع الحاج (عبد الكريم دياب) يسأله: " كيف حال الصغير يا دكتور. هل هو بخير؟"

"لقد أفاق الآن.. أعتقد أنه لا مشكلة حقيقية يواجهها في هذه اللحظة".

"حمدًا لله. اعتن به جيدًا يا دكتور. لقد واجه المسكين ما لا يطيقه الرجال. يا له من مسكين".

لا يعرف (بهاء) ما واجهه الطفل، لكن الاضطراب البادي على الوجوه كان يشي بأمر جلل. كان هناك الكثيرون داخل البيت وخارجه. أنهى فحصه وكتب للطفل بعض الدهانات، والفيتامينات؛ لتقوية الطفل، واستعد لمغادرة المكان دون أن يفهم؛ من هذا الطفل؟ وما هي حكايته؟ ولماذا يهتم الجميع به هكذا؟ لكنه يعلم كم أن النجع كتوم، ولن يخبره أحد بأي شيء حتى لو سأل. إنهم قوم متحفظون، ولا تخرج أسرارهم خارج نجعهم أبدًا. أعطى الوصفة لـ(أحمد) ابن الحاج (عبد الكريم) واستعد ليغادر. لكن ذراع (خليفة) الضخمة برزت فجأة لتعترض طريقه. رفع عينيه نحوه بدهشةٍ، لكن (خليفة) قال له بخشونة: "ما زال هناك المزيد.. هناك جثث نريد أن نعلم؛ كيف ماتت؟"

اتسعت عينا (بهاء) ذهولًا، ورعبًا، وشعر أنهم يورطونه في أمرٍ ما، فقال بذعر: "وما شأني بالجثث؟. هذا عمل الطبيب الشرعي. اذهب إليه، وسيخبرك بما تود أن تعلمه".

" - لكنك طبيب النجع، وستخبرنا؛ كيف ماتوا؟"

يعرف (بهاء) (خليفة) جيدًا، وفي المرتين اللتين قابله فيهما لم يحبه. إنه (بلطجي) يجيد استغلال سطوة ونفوذ أبيه. كما علم من بعض الحكايات التي تناهت لأذنه مقدار ما يتمتع به من وحشيةٍ وشر. لكنه رغم ذلك لن يقبل التورط في أي مشكلةٍ لمجرد أن (خليفة) طلب منه ذلك، لذا قال بعناد وبرود: "لا أدري يا هذا، هل تعي ما أقول؟ أم أنت بحاجة للمزيد من التفسير؟ أخبرتك أنني لا أفحص القتلى استدعي الشرطة، وهم من سوف يجيبون تساؤلاتك".

شعر (خليفة) بالإهانة من الحدة التي تحدث بها الطبيب. قرر التحرش به، وبخاصة أنه كان بمزاج سيء للغاية من الأمس، كما كان رأسه يعاني صداعًا عنيفًا كأنما هناك عشرات الطبول التي تقرع رأسه في آن واحد. لكن الحاج (حمد) تقدم من الطبيب الشاب، وأحاط كتفيه بذراعه، وهو يهمس له: "الأمر بسيط يا دكتور، لقد فقدنا بالأمس بعض الرجال، ونريد أن نعلم؛ هل كان هذا بسبب هجوم الحيوانات أم لا؟. إنها مجرد خدمة ودية بسيطة تفعلها من أجلنا، وصدقني لن نورطك في أي مشكلة".

انتبه (بهاء) إلى العيون التي تتابعه في ترقب. تمنى لو يرفض، لكن الخجل منعه، فقال بارتباك: "حسنًا. أين تلك الجثث؟"

تحرك الحشد في وجوم يتقدمهم الحاج (حسنين) والحاج (حمد) و(خليفة) و(أحمد). وآثر الحاج (عبد الكريم) ألا يذهب معهم لظروفٍ إعاقته، ثم توقفوا أمام منزل (عيد) حيث كانت الزوجة تصرخ في جنونٍ، وبعض جاراتها يبكين ويحاولن مواساتها. كما كان هناك صبية، وفتيات خمس يبكين في حرقة. خمن (بهاء) أنهم أبناء القتيل، وأشار (أحمد) له: "في هذه الحجرة يا دكتور".

كان جثمان (عيد) على الفراش مغطى ببطانية خفضها (بهاء) بحذر، قبل أن يتراجع في ذعر، وهو يقول: "رباه، أي وحشية هذه؟"

أحس بسخافة خوفه أمام العيون المستنكرة، فتقدم ثانيةً، وفحص الرأس. توقف قليلًا عند المحجرين المحترقين، وحك رأسه في حيرةٍ محاولًا تخمين؛ كيف يمكن أن يحدث شيئًا كهذا؟ حرك الرقبة في كلتا الناحيتين، وتفقد الجسد الغارق في الدماء، فرأى آثار أنيابٍ عميقةٍ، وآثار العضلات الممزقة. بالكاد تمالك نفسه من الجزع، والتفت قائلًا: "كما ترون، فهو قد تعرض لهجوم حيوانيٍّ وحشيّ. الجروح العميقة في كل مكان، وهناك كسر العنق. لابد أن من افترسه هكذا حيوان ضخم يمتلك أنيابًا حادة".

هتف (خليفة) بحسم:

"إذًا؛ هي الذئاب".

هز (بهاء) رأسه، وهو يشعر أن هذا ليس التفسير المعقول. هناك أمورًا أخرى لا يفسرها هجوم ذئب على الضحية أو حتى عدة ذئاب. سمع (أحمد) يسأله: "والعينين يا دكتور ألا ترى؛ كيف هي تفحمت؟ هل أحرقتها الذئاب أيضًا؟"

أجاب (بهاء) وهو يرمق الجثمان في حيرة: "في الواقع؛ هذه هي الثغرة الوحيدة، لو افترضنا أن الذئاب هي من قتل هذا الرجل، فكيف احترقت عيناه هكذا؟ هذا أمر لم اسمع به من قبل"

تبادل الحاج (حسنين) والحاج (حمد) النظرات المتوترة.. قبل أن يقول الأول: "وماذا تقترح يا دكتور؟"

" - استعينوا بخبراء الطب الشرعي بالطبع.. حتمًا سنجد تفسيرًا مقبولًا في جعبتهم".

قال الحاج (حمد) بتحفظ: "لنؤجل التخمينات حتى ترى الجثث الأخرى.. دعونا نذهب لمنزل (عبد العاطي)".

استغرق السير دقائق خمس للوصول إلى منزل (عبد العاطي) وبالمثل كان هناك صراخًا لا ينقطع، وحشودًا من النساء المتشحات بالسواد حول البيت وداخله، بينما تراجع الرجال غير بعيد دخلوا الغرفة المسجى بها الجثث الثلاث المغطاة، فأشار الحاج (حمد) باقتضاب: "إنه يدعى (عبد العاطي) وتلك التي بجواره هي زوجته، وهذا هو طفلهما الرضيع، والثلاث كما ترى موتى".

حاول (بهاء) أن يجمد مشاعره، وهو يتمنى لو ينتهي الأمر بسرعة، فرغم كونه طبيب إلا أنه مازال يمقت رؤية الجثث، والدماء. تناقض غريب مع طبيعة عمله كطبيب، لكنه موجود؛ لهذا قرر فور أن تنتهي فترة تكليفه أن يتخصص في مجال الأشعة. مجال لن يرى فيه دماءً، أو موتى كما يتمنى.

كشف جسد (عبد العاطي) فطالعه وجه شاحب بعيونٍ متفحمةٍ هي الأخرى.. فحص الجسد، فطالعته القدم المبتورة. انتقل إلى جسد الزوجة، فرأى وجهها الممزق بشدةٍ، والعنق شبه مقطوع، لكن العينين كانتا محترقتين كذلك. أي جنونٍ هذا؟!.. آثر ألا يعري جسد القتيلة. خاصة، وهو يدرك أن هذا غير مقبول بأي صورةٍ في هذا المكان، فانتقل للرضيع. كان بشرته زرقاء. لوي عنقه غير مصدق، وفرك الجلد البارد؛ ليرى إن كان هذا تأثير صبغةٍ ما، لكن لا شيء خرج من الجلد، أو علق بأنامله.. نبش عقله؛ ليتذكر لو كان قد درس أي مرض يؤدي لمثل تلك الزرقة، فلم يتذكر. فحتى أمراض القلب الوراثية لا تسبب مثل هذه الزرقة. بل وحتى مرض تجلط الدم الوعائي المنتشر لا يأتي بمثل تلك الصورة. كانتا عينا الرضيع مفتوحتان عن آخرهما وإن خبا بريقهما. لكنهما لحسن الحظ كانتا غير محترقتين كالآخرين.. رأى خيط رفيع من الدماء يخرج من جانب فم الرضيع تجاهله، لكنه حين ضغط على بطن الطفل بكفه؛ انهمرت الدماء من الفم النصف مغلق. جذب يده على الفور، والتقت إلى الآخرين، وغمغم في توتر: "لم أر شيئًا كهذا من قبل. يجب أن تأتوا بالشرطة لتحقق في الأمر".

هنا تحرك (خليفة) نحوه، وقال بخشونة: "لست أنت من يقرر ما علينا أن نقوم به.. لقد سألناك؛ كيف ماتوا، وقد أرشدتنا إلى الذئاب كما خمنا".

أراد (بهاء) الاحتجاج، لكن (أحمد) سبقه قائلًا: "لقد قال الطبيب أن الذئاب لا تفعل هذا".

" - كلا، إنها الذئاب وهذا يكفي. سوف نحرص على ألا يتكرر هجوم الذئاب. لكن لندفن موتانا أولًا، ولا داعي لإثارة المزيد من الشائعات، والبلبلة".

شعر (أحمد) بالغضب من غبائه، فقال في تحدّ: "لن تدفن جثة واحدة قبل أن تأتي الشرطة. هناك من قتل هؤلاء بوحشية رهيبة، وعلى الشرطة أن تخبرنا؛ من فعل".

"لست أنت من يقرر.. للنجع كبير هو العمدة، وهو من يقرر لا أنت".

"إذًا؛ ليتحدث العمدة.. لتخبرنا يا حاج (حسنين) عمن قتل هؤلاء؛ لأصمت".

تحرك (خليفة) من مكانه؛ ليندفع نحوه في غضبٍ راغبًا في عراكٍ يتمناه، لكن الحاج (حمد) اعترض طريقه، وتحرك هو نحو (أحمد) بدلًا منه، وقال في حزم: "هل ترغب في أن تتدخل الشرطة في حياتنا؟ هل تريد يا ابن الحاج (عبد الكريم) أن تأتي بالشرطة إلى هنا؛ لتحقق مع رجال النجع كمتهمين؟ إنها لكبيرة يا بني! أخبر أباك برأيك هذا، وانظر ماذا يخبرك؟"

لاحظ (أحمد) العيون المستنكرة لإقتراحه، والنظرة الساخطة على وجه (خليفة) التي يرمقه بها. أراد أن يتمسك بعناده؛ كي لا يبدو، وكأن الكل انتصر لرأي (خليفة). وقبل أن يهم بقول شيء ما، تكلم الحاج (حسنين) وقال:

"لو جاءت الشرطة، فسوف يقومون بتشريح هؤلاء. هل تعلم كيف يفعلونها؟ هيا أخبره يا دكتور؛ كيف تقومون بتشريح الجثث؟ سوف يمزقون الجثث، وحين يعيدونها لن نجد قطعة واحدة في مكانها. ما سوف ندفنه حينها لن يعدو قطعًا من اللحم، والعظم لا ندري لمن تعود! هل هذا هو إكرامنا لموتانا الميت يا بني؟.. ألا تعلم أن حق الميت هو التبكير بدفنه؟".

صرخ رجل من أهل القتيل من الخلف: "لو اقترب أحد من جثمان ابن عمي؛ سوف أقتله".

تعالت الصيحات المؤيدة، ليمتقع وجه (أحمد) وهو يشعر بحماقة الكل، الذين حركتهم كلمات العمدة العاطفية.. يفكرون في الجثث التي لن يضيرها شيء بعد الآن، ونسوا التحقق من الشر الطليق الذي فتك بالموتى، والذي قد يستمر في الفتك بالمزيد. رأى الابتسامة الشامتة الساخرة على وجه (خليفة) فازداد حنقه، ووجد الحاج (حمد) يقول في الرجال: " ابدأوا بتغسيل الموتى يا رجال؛ لننتهي من تجهيزهم، وتكفينهم قبل صلاة الظهر؛ لندفنهم في وقت واحد".

لم يطق (أحمد) المكوث أكثر من هذا، وداهمه إرهاق لا حد له، فتحرك مبتعدًا عن المكان، فكر الدكتور (بهاء) في الانصراف هو الآخر، وقد شعر بحماقة ما يحدث، لكنه بالطبع لا يملك حق الاعتراض، فلا شأن له بحياتهم، وهم أدرى بتصريفها. نظر إلى الحاج (حسنين) ليخبره؛ أن يرسل معه، من يعيده للوحدة الصحية بعربة

ما، لكن الحاج (حسنين) قال له: "معذرةً يا دكتور، هناك أمر أخير، وسوف تعود لعملك بعدها. أعلم أننا قد عطلناك كثيرًا".

وفي منزل الحاج (حسنين) جلس بهاء بترقبٍ في غرفة الضيوف.. قبل أن يعود الحاج (حسنين) وقد بدل ملابسه. جلس أمامه في إرهاقٍ، وغمغم: "لا أشعر أنني بخير أبداً. أريدك أن تفحصني جيدًا؛ لترى إن كنت أعاني مرضًا ما، أم ماذا؟"

كان نبضه سريعًا للغاية، لكنه ظل منتظمًا، وكان ضغط دمه مرتفعًا قليلًا.. بدأ في فحص البطن، فلم يجد مشكلة بها، وعندما رفع ملابسه؛ ليفحص الصدر؛ طالعه الوسم الأسود المحفور في الصدر؛ تراجع في حيرةٍ، ورهبةٍ، وقال: "من وسمك بهذا الرسم يا حاج (حسنين)؟"

" - إنه قديم يا دكتور، لا تشغل بالك به".

كان يكذب. أدرك (بهاء) هذا، فالنقش لا يبدو قديمًا. كما كان متقنًا بشكلٍ غير آدمي. لا يدري؛ لماذا شعر برعبٍ خفيٍّ من هذا الوشم، وهو يحاول أن يتذكر؛ أين رأى مثل هذا النقش من قبل؟ في النهاية أخبر العجوز؛ أنه ربما كان بحاجةٍ لفعل بعض التحاليل. دون ما طلبه في وصفةٍ صغيرةٍ، وتهيأ للانصراف. صحبه (خليفة) بصمتٍ للخارج، ثم أمر أحد الخفر بأن يأتي بسيارة؛ لتقل الطبيب. انصرف الخفير، فالتفت (خليفة) إلى الطبيب، وقال بخشونةٍ متعمدة: "بالطبع يا دكتور لست بحاجةٍ لتذكيرك؛ ألا تخبر أحدًا ما رأيته هنا اليوم.. أعلم أنك رجل صالح، ولن تتحدث بأسرار النجع للغرباء؛ لأن هذا غير محمود العواقب في ديارنا. أليس كذلك يا دكتور؟"

رمقه (بهاء) في ضيقٍ، وهو يدرك ما يستتر في حديثه من تهديد، لكنه غادر المكان في صمت. بينما عاد (خليفة) لأبيه. الذي بادره قائلًا:

" - استعد لنصعد الجبل. سوف نتحرك فور وصول الحاج (حمد). تحدثت إلى (سليم) منذ لحظاتٍ، وهو بانتظارنا. علينا أن نفكر سويًّا في ما يحدث لنا".

☆ ☆ ☆

توقفت سيارتي الدفع الرباعي أمام إحدى المغارات.. الأولى كانت من طراز (لاند كروزر) والثانية (جيب شيروكي) وكان هذا المكان هو آخر مكان ممكن لسير السيارة في دروب الجبل الوعرة. ترجل من السيارة الأولى الحاج (حمد) والحاج (حسنين) وابنه (خليفة) والسائق. بينما هرول من السيارة الثانية خمسة من رجالهم الأشداء؛ مسلحين بأسلحة آلية خلف ظهورهم. أسرع ثلاث رجال إلى داخل المغارة؛ ليتقدموا المسيرة، وتأخر الآخران لتأمين المؤخرة. بينما انتظر قائد السيارة الأولى بجوار السيارات لحراستها. تحركوا ببطء، ودلفوا المغارة، ثم خرجوا من جانبها الآخر بعد دقائق ثلاث. هناك كان المكان مكتظا برجال (سليم). رفع (خليفة) بصره بتوترٍ، فرأى

خلف كل قمةٍ من القمم المجاورة رجلاً مسلحًا متحفزًا للقتل مع أول إشارةٍ تطالبه بذلك.

"المطاريد الملاعين" همس في نفسه؛ محاذرًا أن تصل كلماته لأحدهم. خرج ثلاثة رجال ملثمين من خلف صخرتين ضخمتين تعترضان الطريق، وبدا، وكأنهم برزوا من العدم. صرخ أولهم: "مكانكم، ولا تتقدموا.". أطاعه الجميع على الفور، وهم يعلمون التعليمات. لو لم يستجيبوا لتحذيره؛ لانهمرت الطلقات فوق رؤوسهم بلا رحمةٍ، أو إنذارٍ كالمطر. تقدم الملثم الأول نحوهم بتحفزٍ، وتعرفهم، فقال لهم مرحبًا، وهو يخفض سلاحه: "مرحبًا بالعمدة، ورجاله. تفضلوا. إن (سليم) بانتظاركم..".

اجتازوا الكثير من الدروب، والممرات التي لا يعرفها أحد غير المطاريد، حتى بلغوا مغارةٍ ضخمةٍ محاطة بالمزيد من الرجال الملثمين شاهري أسلحتهم في تحفز، وعلى كل جانبٍ من مدخل المغارة؛ رقد ذئبٌ رماديٌّ ضخمٌ راح يرمقهم بتحفزٍ.. تجاهل الحاج (حسنين) النظر لعيونها الصفراء النافذة التي تثير التوتر في نفسه، وهو يقترب من المدخل. لم يتقبل أبدًا فكرة أن يربي أحد تلك الذئاب، ولا يدري؛ كيف يأمن عاقل الحياة بين تلك الذئاب التي لا تجيد غير الخيانة والقتل؟!

سد (سليم) بقامته الضخمة المدخل، وهو يخرج لاستقبالهم، وذئبٌ آخر أضخم من الذئبين الآخرين يتبعه في تحفز. كان ذئبه الخاص أو حيوانه الأليف الذي يفتخر بترويضه.

حياهم (سليم) واحتضن الحاج (حسنين) وقبل كتفه الأيمن، ثم الحاج (حمد) وقبل كتفه هو الآخر، وشد على كف (خليفة) وهو يرمقه ببرود. قبل أن يقول للرجال الخمسة الآخرين: "مرحبا بالرجال..".

ردوا جميعًا تحيته في صوتٍ واحد: "مرحبًا بسيد الجبل".

دعاهم للداخل، فانتظر الرجال الخمس بالخارج مع باقي الملثمين، وكذلك الذئب الذي أمره أن ينتظر مع أخوته، وهو يعلم اضطراب الحاج (حسنين) منه، وفي الداخل تربعوا على الوسائد قبل أن يقول الحاج (حسنين) في توتر: "ما الذي حدث يا سليم؟"

" - خطأ يا عمدة. لم يكن علينا أن نفتح عن هذا القبر".

قال (خليفة) في اندفاع: "وكيف سمحتم بوقوع مثل هذا الخطأ؟. كان مفترضًا أن تتوقعوا أمرًا كهذا".

رمقه (سليم) بنظرةٍ نافذةٍ قويةٍ منذرة، ثم أجاب بهدوء: "هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا. إنها ليست المقبرة الأولى التي نكتشفها دون أن يصيبنا ما أصابنا. الشيخ (عتمان) اعتقد أنه فك الرصد، وأزال لعنته. لكن شيئًا كما يبدو قد بقى من لعنته، ولم ينتبه إليه".

قال الحاج (حمد) في حذر: "وهل تعلم ما أصابنا؟"

كشف (سليم) عن صدره بأن أزاح جانب الجلباب الفضفاض الذي يرتديه، فبان الوسم اللعين، وقال: "لو كنت تقصد هذا، فقد أصابنا جميعًا. كل من كان بالمقبرة قد أصيب بهذا".

سعل الحاج (حسنين) قبل أن يهمهم بصوتٍ مختنقٍ: "هل تتخيل ما حدث؟. نستيقظ لنجد أنفسنا عرايا تمامًا.. هذا مخجل".

ابتسم (سليم) وقال: "على الأقل استيقظت في بيتك بين أهلك. هنا استيقظ الرجال؛ ليجدوا أنفسهم جميعًا عرايا في مكانٍ واحد. هذا هو الأمر المخجل بحق".

تنهد الحاج (حمد) وقال بحذر: "وماذا عن الليل؟. هل تدرك ما يحدث لنا فيه؟. هل تدري ما نصير إليه؟"

صمت (سليم) للحظةٍ، وكأنما يختار كلماته، ثم أجاب ببطء: " إنها اللعنة يا حاج حمد. لقد صرنا ملعونين".

فكر كل منهم في تلك اللحظة في ما حدث لهم بالأمس. لقد أصاب أرواحهم وأجسادهم شيء مخيف. شعر كل منهم أنه في حلم غريبٍ مخيفٍ يقوم فيه بأشياءٍ مرعبةٍ لا تصدق. لكن كل منهم كان يعلم جيدًا؛ أنهً ليس حلمًا.

قال (خليفة) بإحباط: "حتمًا هناك حل ما لما يحدث".

دخل عليهم رجل ملثم بأقداح الشاي في تلك اللحظة. وضع كوبًا أمام كل منهم، ثم انصرف، فقال سليم: "يحاول الشيخ (عتمان) أن يدرك سر ما حدث. لقد استعان بكتبه، وخدمه، وأعوانه من الجان؛ ليعلم كيف يتغلب على الأمر؟"

قال الحاج (حسنين) بتوتر، وهو يلتقط قدح الشاي الساخن: "عليه أن يخلصنا من تلك اللعنة السوداء التي أصابتنا.. لولاه لما حدث هذا لنا، إنه من أشار لنا بالقبر، وهو من أقنعنا أنه قادر على فك طلاسمه".

" - لا تقلق.. سيجد حلًا قريبًا.. إنه مرعوب بشدة، وقد أصابه ما أصابنا.. إنها روحه نفسها هذه المرة، ولن يكف عن البحث حتى يصل لعلاجٍ شافٍ".

صمت الجميع للحظةٍ بعدها.. قبل أن يقول الحاج حمد: "وماذا عن المقبرة؟. ماذا سنفعل بها؟"

ارتشف (سليم) رشفةً كبيرةً من الشاي، وأجاب: "لن يقربها أحد، حتى تنتهي متاعبنا، وسوف يحرسها رجالي، حتى ذلك الحين".

" - وأعمالنا الأخرى؟. هل سنؤجلها هي أيضًا؟"

سأله الحاج (حسنين) معترضًا، فأجاب سليم: "سوف نقوم بكل مهامنا كالمعتاد. لكن عمل الليل لم يعد آمنًا، أو حتى ممكنًا؛ لذا سوف يكون العمل كله قبل المغيب. هناك صفقة الهيروين بعد غد. وبعدها بخمسة أيام سوف يأتي التاجر البريطاني لاستلام الشحنة الأخيرة من الآثار. إنها أربعة مليون جنيه بانتظارنا هذا الأسبوع، ولن أفوتها لأي سبب".

بدا، وكأن قوله أراح نفوسهم. في النهاية؛ هناك أعمال بملايين الجنيهات لا تحتمل التأجيل. انتهوا من الحديث، واستعدوا للمغادرة، فقال لهم سليم: "لا أريد أن يشعر أحد من النجع بما يحدث لكم. تعاملوا بحذرٍ مع الجميع".

تمتم الحاج (حمد) مطمئنًا: "النجع غارق في تلك اللحظة في مشاكله. الضباب الذي غمره بالأمس يفزعهم؟"

" - وهل هلك فيه أحد؟"

قالها باقتضابٍ، فأجاب خليفة: "لقد تسبب في موت الكثير من الحيوانات، وبعض الأهالي. حاولنا أن نقنع الجميع أنها الذئاب".

لم يعلق (سليم) وهو يعلم أن الذئاب هي آخر من هاجم النجع بالأمس. تحرك بهم إلى خارج المغارة في النهاية، وقبل أن يبتعد؛ التفت إليه الحاج (حمد) وقال لـ(سليم) بصوتٍ خافت:" هل تعتقد أنه القبر القديم يا سليم".

إكفهر وجه (سليم) وأظلم، وقال بصوتٍ هامسٍ تعمد ألا يسمعه أحد غير الحاج حمد: " أتمنى ألا يكون هو"!

حياهم بعدها مودعًا، ثم راقب الأفق الملبد بالغيوم منذ الأمس، وهو يتساءل؛ هل يتكرر الأمر له، ولرجاله هذه الليلة كما حدث بالأمس.

وحين كشف عن صدره، ورأي الرسم المخيف على صدره تتوهج حوافه؛ أدرك الجواب المخيف.

☆ ☆ ☆

انتهت (وداد) التي تقوم بخدمتهم من صف آنية الطعام، والماء على المائدة، ثم نادت سيدتها. أتى الحاج (عبد الكريم) بوجهٍ هجرته الدماء وسأل (وداد) فور أن جلس على مقعده: "هل أرسلت الطعام إلى سيدتك آمنه؟"

" - أمرتني أن أخرج به دون أن تقربه.. تقول أنها غير جائعة".

هز رأسه بلا معنى، وابتلع ريقه، فهوت تفاحة آدم البارزة في رقبته في اضطراب، ونظر للطعام في نفور، ثم نادى أحمد: "الطعام يا أحمد، نحن بانتظارك".

ومن داخل حجرته التي لزمها منذ عودته؛ جاء صوت أحمد: "لست جائعًا.. تناولوا غداءكم، وسوف آكل فيما بعد".

هبت أمه من مقعدها، وتحركت نحو حجرته قائلةً في جزع: "لكنك لم تتناول أي شيء منذ الصباح يا ولدي، هل أنت مريض؟"

ظهر أحمد على باب الحجرة، وأجاب باقتضاب: "أنا بخير يا أمي. فقط لا أشعر بالجوع".

" - إذًا؛ لن أقرب الطعام حتى تأكل".

قالتها باحتجاج، فتحرك ببطء نحو مقعده على المائدة، وهو يقول باستسلام: "لا داع لكل هذا. سوف آكل".

فعلها، وهو يدرك أن أمه سوف تنفذ تهديدها، ولن تقرب الطعام حتى يأتي، ولو لم تأكل، فلن تتناول دواء السكري، وخاصة الأنسولين. مما قد يتسبب في غيبوبةٍ جديدةٍ نتيجةً لارتفاع مستوى السكر في الدم. قرر أن يكتفي بلقيماتٍ قليلة، وهو يشعر بألا رغبة لديه في الطعام على الإطلاق، وكأنما عافته نفسه. جلس الثلاثة إلى المائدة في وجوم وصمتٍ، ثم قطع (أحمد) الصمت، وقال لأبيه: "تمنيت لو تحقق الشرطة في مقتلً عيد، وأسرة عبد العاطي، والحيوانات التي هلكت".

"لم تتدخل الشرطة أبدًا في شئون النجع من قبل يا ولدي. لا تنس أن هذا برأي العمدة انتقاص لمكانته، وقدرته على حكم المكان".

"وهل يعنيني هذا؟ وهل يعنيك أنت الآخر يا أبي مثل تلك المكانة المزعومة؟ وهل يعني هذا شيئًا لأهل من ماتوا، أو فقدوا حيواناتهم؟ لقد نفقت عشرات الدواب يا أبي دون أن ندري الفاعل".

لاك الأب قطعةً صغيرةً من الخبز بلا شهية، ثم غمغم: "ربما كانت الذئاب يا بني، وربما وجدت في الضباب، والشوارع الخاوية فرصتها".

" - هل تصدق هذا حقا؟ منذ متى تفعل الذئاب كل هذا؟"

لم يجب الأب، واكتفى بأن أخفى وجهه في الطبق الذي يتناول طعامه فيه. عبث (أحمد) بملعقته، وراح يدورها في الحساء في دوامات لا تنتهي، ثم غمغم ببطء: "هناك من يتحدث بخرافاتٍ لا معنى لها في النجع. البعض يتخيل هذا من أفعال الجان، أو غيرهم".

"النجع ككل مكانٍ لا يخلو من الخرافة، التي لا تفتقر أبدًا للمؤمنين بها".

"لا أدري؛ لماذا أشعر أن للحاج (حسنين) والحاج (حمد) يد في كل تلك المصائب أكاد أن أشم رائحتهم في الأمر كله".

تنهد الأب بضيقٍ، ثم غمغم: "لا تدع كراهيتك لهم تذهب بك بعيدًا، إنهم لم يأتوا بالضباب حتمًا، ولم يسقطوا حتمًا الطيور الميتة من السماء".

أجاب (أحمد) في عناد:

"من يدري يا أبي، من يدري ما الذي فعلوه.. أنت لم تر وجوههم ولا أعصابهم المشدودة هذا الصباح أمام الجثث. لا أدري؛ لماذا شعرت أن ما حدث لم يدهشهم، وكأنما يرونه أمرًا طبيعي الحدوث".

"ألم أقل أن كراهيتك لهم ذهبت بتفكيرك إلى الشطط".

ألقى (أحمد) الملعقة من يده، وهتف: "أليس من حقي أن أكرههم، بل ألا تكرههم مثلي وأكثر؟ هل نسيت ما فعلوه بك؟ انظر إلى ساقك المفقودة يا أبي لتتذكر جريمتهم، لقد

أرادوا قتلك، فتسببوا في عجزك الدائم، لقد فقدت ساقك يا أبي بمكيدةٍ حقيرةٍ دبروها يومًا ما".

"كان هذا منذ زمنٍ بعيدٍ يا أحمد، كان هذا قبل أن تولد أنت".

"هذا لا يعني شيئًا طالما أثر جريمتهم الخالد ماثل أمامي، حتى لو كان هذا منذ ألف عام، ولهذا أقسم أن آخذ بثأرك يومًا ما".

شهقت الأم في جزع، وصكت صدرها، وصرخ الأب في ثورة: "ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ وأي ثأرٍ تتحدث عنه؟ ما جرى لي كان قضاءً وقدرًا، إنه المكتوب يا أحمد".

" - بل ما جرى لك كان جريمة، كادوا لك لتذهب الي الجبل، ثم فجروه لتموت أسفله.. لكن الله ستر. أليس هذا ما حدث؟"

حلّ الصمت بينهم، بينما تنقلت عينا (كوثر) بينهما في توترٍ وحذرٍ، وهي تخشى الكلام، فتزداد الأمور اشتعالًا. أغلق الحاج (عبد الكريم) عينيه، وعقله يسبح بعيدًا عبر الزمن، فرغم مرور كل تلك الأعوام الكثيرة مازال يذكر تفاصيل تلك الذكرى اللعينة، وكأنما حدثت بالأمس فقط. كانت الأمور مشتعلة حينئذ بين أبناء (الخلفاوية) ولا أحد يدري من يصيبيه الدور بين (حمد) و(حسنين) ليكون العمدة القادم. في هذا الوقت كان شابًّا فتياً قويًّا ورث النفوذ عن أبيه، وأورثته أمه المهابة والمحبة بين أبناء النجع كله. في هذا الوقت أدرك أن الوقت قد حان لتنتقل السلطة إلى (الديابة) عائلته. العائلة الأقدم، والأكبر في النجع. راح يستعين بالمكاتبات مع الحكومة، ويعقد الأحلاف مع العائلات الأخرى. بل، ويستعد بالسلاح، والقوة لو اقتضى الأمر قتالًا مع (الخلفاوية). بدا الأمر قريبًا للغاية لولا ما حدث.

شعر بالدماء تحتشد في رأسه، وأذنيه، فانفصلت أحاسيسه عن زمنه الحاضر. في ذلك اليوم كان من المفترض أن يتسلم بعض السلاح من تاجرٍ سودانيّ يهربها من السودان عبر البحيرة، والجبل. كان الموعد في قلب الجبل.

انتصف الليل، وهو مع بعض رجاله في انتظار التاجر السوداني، حتى لاحت قافلة الجمال التي يتنقل بها من بعيد. كان كل ما يحدث في ذلك الوقت مريبًا، لكنه لم يدرك المكيدة في الوقت المناسب. التاجر كان متوترًا مرحًا على غير المعتاد، بينما كان تابعه صامتًا كالنوق التي يقودها، أشار له التاجر السوداني أن يذهب إلى الجمال، كي يتفقد السلاح قبل أن يتراجع خلف إحدى الصخور؛ ليقضي حاجته كما ادعى حينها.

دنا مع رجاله الثلاثة من الجمال، وفتح أحدهم صندوقًا مكتظا بالسلاح، وامتدت يد آخر لفتح صندوقٍ جديد، انتبه في تلك اللحظة إلى التابع الذي توارى هو الآخر بخطواتٍ سريعةٍ خلف صخرةٍ ضخمة، فدب الشك في نفسه، ليتراجع من فوره وهو يصرخ في رجاله بالابتعاد. كان هذا ما أنقذه يومها من الموت المحقق، ففي اللحظة التالية؛ حدث الانفجار الرهيب الذي ذهب برجاله الثلاثة، وساقه، وطموحه.

سنوات لا يحصي عددها من الغضب مضت، وهو يفتش عن ذلك التاجر الذي اختفى تمامًا، وكأنما ابتلعه العدم. أرسل من يتعقبه في السودان، وسأل عنه المهربون في الجبال، والصيادون في البحيرة. بل ووصل رجاله حتى بلدته في شمال السودان، وكانت الإجابة واحدة. لم يعد أحد يراه. هل قتله من أرسله؟. كان الاحتمال الأقرب للحدوث، وكان السؤال الثاني؛ من أرسله؟ لم يكن عسيرًا عليه تخمين المستفيد من قتله. لن يخرج الأمر عن (حمد) أو (حسنين) وكان حمد هو المتهم الأول في تفكيره، فـ(حسنين) رغم عنفه إلا أنه أحمق، لا يجيد التدبير والكيد، بينما كان (حمد) داهية، هنا فكر في التخلص منهما معًا، ودبر في عقله عشرات المكائد؛ لتنفيذ مخططه، لكن (آمنة) كانت هناك طوال الوقت، تظهر في الوقت المناسب؛ لتفضح أفكاره كأنما تقرأ عقله، قبل أن تثنيه عن تنفيذ ما رسمه.

تقول له في أسى: "الانتقام الأعمى خطيئة لا تأتي إلا بالهلاك، ووحش لا يرتوي إلا بالدماء".

حينها كان يصرخ محتدًّا: "الانتقام قصاص، وفي القصاص حياة يا سليلة الكرام".

هنا كانت تحوطه من كتفيه، وتهمس في أذنه: " ومن عفا، وأصلح، فأجره على الله".

لكن العفو ليس ممكنًا يا (آمنة)، والساق المطمورة في صخور الجبل تصرخ بالثأر. لو كان هناك ثأرًا، فهو ثأره وحده الذي لن يورثه لـ (أحمد) ابنه الوحيد الذي لن يلقيه في أتون من الشر، والدماء.

ألقى باللقمة التي في يده، وقد ذهبت شهيته تمامًا، وزفر نفسًا طويلًا، ويقول: "لقد

"هل تقصد تحالفهم مع مطاريد الجبل؟. مع (سليم دياب) ابن عمك المجرم الخائن الذي صار حليفهم".

"سليم هو عمك يا ولد، رغم كل شيء. لا تنس هذا ولا تنعته ثانيا بالإجرام".

"أجل، هو ليس مجرمًا بالفعل.. أرى هذا! إنه فقط زعيم المطاريد الذي يأوي المجرمين، والخارجين عن القانون، ويتاجر في المخدرات، والسلاح، والآثار.. إنه بالفعل رجل صالح".

ضاق الحاج (عبد الكريم) بسخرية ابنه، فنهض، وهو يهتف: "سليم يقوم بما لا تقدر عليه، وما لن تفهمه الآن".

" - أخبرني بما يقوم به؛ لأحترمه مثلك".

لم يجب الأب. بل لاذ بصمته، وذهب إلى أريكته ليتربع عليها. اشتعل الحنق في نفسِ (أحمد) وهو يتذكر أن أباه ورث تلك العادة القميئة من (آمنة). ينهي الحديث بغتةً بالصمت التام، وما من قوةٍ قد تجبره حينها على العودة للكلام ثانيةً. لم يعد الحوار ممكنًا، فنهض في غضبٍ ليعود لحجرته. أغلق الباب خلفه، ثم توقف أمام النافذة. نظر إلى السماء المشرفة على الظلام، ثم رمق السحب المتراكمة منذ الأمس

في السماء دون دليلٍ على قرب رحيلها. نظر بعدها إلى الجبل في شك، وهو يتساءل، ما الذي يخفيه في جوفه من شرور؟!

رن هاتفه برنينٍ مميز. كانت (مريم). حياها، فقالت له: "ما بك؟.. صوتك متغير".

"لا شيء.. أفكر فقط في ما يحدث في النجع".

"علمت بما حدث، وأخبرني (خليفة) بما حدث بينكما".

استشاط غضبًا لذكر (خليفة) وصرخ في الهاتف: "وما الذي جعلكما تتحدثان سويًّا؟. ألم آمرك بتحاشي الحديث معه؟"!

كانت تعلم غيرته من (خليفة) ورغم أنها لا ترى لها سببًا، وقد اختارته، ورفضت (خليفة) إلا أن تلك الغيرة كانت تسعدها. في النهاية تشعرها تلك الغيرة بحبه لها، ورغبته في ألا تكون لغيره، فقالت ببراءةٍ مصطنعة؛ كي تؤجج من غيرته: "إنه في النهاية ابن عمي، ومن حقه أن يأتي للبيت متى شاء".

زفر في ضيقٍ، وهو يعلم محاولاتها. لم يشأ الشجار، وهو في مثل هذا المزاج المتعكر، فقال مغيرًا الحديث: " هذا الأحمق يصر على أن الذئاب من قتلت الناس، لكنني لا أرى هذا. هناك سر لعين وراء كل الجرائم".

صمتت للحظةٍ.. قبل أن تقول بتردد: "هل تعلم أن بيت العمدة، والحاج (حمد) على حالهما منذ الأمس؟ لم يظهر الخفر، أو أتباعهم، ولم تغادره الخادمات مثلما حدث بالأمس، بل ولم تذهب حيواناتهم للأراضي لترعى. أشعر أن هناك ما يخفونه".

قال لها بحذر: "وماذا برأيك قد يخفونه؟"

" - لا أدرى. بالأمس شعرت، وكأن الضباب يخفي بيوتهم أكثر من البيوت الأخرى، وفي الصباح، وبينما أراقب الضباب من خلف نافذتي؛ شعرت وكأن بيوتهم آخر مكان غادره الضباب".

كان حديثها غريبًا. تمامًا كحديث الأمس. لم يفهم عقله ما علاقتهم بالضباب، لكنه لم يعقب على حديثها. صمتا لبرهةٍ لم يصلها خلالها غير أنفاسها المتلاحقة، قبل أن تهمس: "هل تعتقد أن الضباب سوف يغرق النجع هذه الليلة أيضا؟"

نظر إلى النافذة، فرأى بشائره تلوح فوق القمم من بعيد، فقال بحيرة: "إنه قادم بالفعل، إنه يغادر الجبل نحونا الأن".

فوجئ بها تهتف في نشوة: "رائع! هذا يناسب ما خططت له".

شعر بالتوتر، وهو يعلم اندفاعها، وجرأتها، فقال بحذر: "ما الذي يدور في عقلك، ليس هذا وقت الحماقات؟"

" - إنها مجرد زيارة بسيطة لبيتي أعمامي؛ لأرى ما يدور فيهما مستترة بالضباب".

صرخ وهو يتذكر مغامرته المريعة في قلب الضباب بالأمس: "لن تفعلي أيًّا من أفكارك الحمقاء تلك. لن تغادري منزلك في هذا الضباب. هل هذا واضح؟"

" - إذا ألحقني لتمنعني. لكن عليك أن تسرع قبل الضباب. إنني انتظرك".

قالتها، وأغلقت الهاتف على الفور في نزق، فأطلق سبة حانقة، وهو يفكر أن يتصل بأمها؛ لتمنعها من الخروج. كان أكثر من يعلم بعنادها، وجرأتها، وصلابة رأسها. كان متأكدًا أنها ستقوم بمغامرتها الرهيبة تلك طالما قررت هذا، ولا شيء بقادرٍ على منعها الآن. في تلك اللحظة كان الضباب قد بلغ أول النجع، وراح يغرق بيوته وشوارعه. جرب أن يتصل بهاتف (مريم) لكنه لم يجد أي إشارةٍ للشبكة في هاتفه. جرب مرةً أخرى بلا جدوى، فرمي الهاتف على الفراش في يأس.

وفي الشارع الذي فرغ فجأة من المارة؛ أخذ (أيمن) العبيط في العدو، وهو يصرخ في نشوة: "الموتى عائدون".

☆ ☆ ☆

لليلة الثانية على التوالي يؤذن الشيخ (حمدي المنياوي) لصلاة المغرب، فلا يقرب المسجد المصلون. كان عجيبًا مثل هذا الأمر الذي استمر بالأمس حتى صلاة الفجر. أيكون هذا الضباب الغريب هو السبب في ذلك؟ لكن هذا لم يحدث من قبل، فحتى السيول التي كانت تهوي كل عام من الجبل نحو النجع، فتغرقه، وتحول شوارعه لبركٍ من الطين لم تمنع المصلين من المسجد. كان هناك دومًا من يلبي نداء الصلاة. واحد، أو اثنان، أو أكثر كان دومًا موجودًا في كل صلاة؛ لتتم صلاة الجماعة.

رمق الضباب الذي غطى الطريق أمام المسجد بحيرةٍ، وهو ينتظر أول واحد ليقيم الصلاة. لم يبد في الأفق الرمادي المظلم أي حركة تنبئ عن قادمٍ ما. هل يخشى الناس هذا الضباب إلى هذا الحد حتى يمتنعوا عن الصلاة في المسجد من أجله؟ هذا عجيب!!

الغريب أن هذا الضباب يشعره هو الآخر بالرهبة، والخوف من شر ما مجهول يستتر في جوفه المظلم. هناك شيء ما غير أرضي أتى بهذا الضباب. شيء شرير ينتمي للجحيم، والشياطين. نظر إلى ساعته، فأدرك أنه لا جدوى من الانتظار؛ ليصلي بمفرده كما فعل بالأمس. صلى الركعات الثلاث، وألحقها بركعتي السنة، ثم راح يردد الأذكار على أنامله أمام باب المسجد، وهو يرمق الضباب بلا معنى.

راودته في تلك اللحظة رغبة بالخروج في هذا الضباب. لماذا لا يسبر أغواره؛ ليرى ما يخفيه؟. ورغم أن قلبه راح يدق في عنفٍ، ورغم أصواتٍ خفيةٍ في عقله ظلت تطالبه بالإقلاع عما يفكر به؛ إلا أنه لم ينجح في وأد فكرته المجنونة. ارتدى حذاءه، وتحرك ببطء نحو الخارج. بدا الضباب ثقيلًا للغاية، وراحت سحب البخار تندفع من أنفه، وفمه بلا انقطاع، ثم سار لأمتارٍ شاعرًا بالعمى، وهو لا يرى حتى موضع قدميه. بدا المكان أسير صمت سرمديٍ ينتمي لعوالم فنت منذ ملايين السنين لأرضٍ لم تطأها قدم كائن حي.

دار حول نفسه في مكانه، وهو يفكر إلى أين يتجه؟. وما الذي يفتش عنه؟. هنا تناهى لأذنه من قلب الظلام أصوات غامضة غير مريحة. ارتجف بدنه، فصاح بصوت مرتجف محاولًا التغلب على خوفه: "من هناك؟"

حدث نفسه؛ ليطمئنها، إنه حتمًا أحد الأهالي، وقد قرر الذهاب للمسجد ليصلي، ارتفعت حدة الأصوات الغامضة التي تتردد من حول. ففكر في التراجع. تراجع بظهره نحو المسجد، وهو يهتف بصوتٍ مرتفع بآيةٍ من سورة (يس): "وجعلنا من بين أيديهم سدًّا، ومن خلفهم سدًّا، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون".

لا يدري؛ لماذا قرأ هذه الآية بالذات؟! لكنه ظل يرددها بلا توقف. انسحب الضباب من حوله، وكأنما تمحوه الآيات القرآنية، وفي تلك اللحظة رأى الأجساد الهائمة في قلب الضباب، وهي تحوم حوله. رآها للحظةٍ واحدةٍ كانت كفيلة لإثارة فزعه بلا حدود، فتوقف قلبه للحظةٍ فعليًّا، وعجز لسانه عن الكلام. قبل أن يتعثر، فسقط. كانت المشكلة في الرؤوس التي رآها. أجساد بشرية، ورؤوس حيوانية، وعيون متوهجة، وكلها تتبعه.

عاد الضباب؛ ليغمره على الفور فور أن صمت عن تلاوة القرآن، وشعر أن الأصوات المخيفة صارت دانية للغاية منه. تراجع بمقعدته على الأرض، وهو يتخيل تلك الكائنات الشيطانية، وقد بلغته، قبل أن تظهر أمام بصره ذراع بشرية تنتهي بمخالب ثلاث بدلًا من الأصابع، وهي تتجه نحو عنقه، صرخ في عنفٍ، وتذكر القرآن، فعاد يردده بلا تركيز:" فأغشيناهم، فهم لا يبصرون، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون"..

تراجعت اليد نحو الضباب ثانيةً، ونهض بلا ابطاء، وقد ترددت صافرات حادة من العدم، لم يكف لحظة عن ترديد القرآن، وخاطر مفزع يراوده. ماذا لو ضل طريقه وسط الضباب وتاه عن المسجد؟ لم يكن أمامه غير اتباع غريزته، فراح يهرول. راح يتخيل أشباحًا غامضةً تلاحقه، وشعر وكأن عشرات من تلك اليد المخلبية تمتد نحوه في ظلام الضباب؛ لتفتك به.

"أين باب المسجد؟. ساعدني يا رب." همس لنفسه، وساقيه تحملانه بالكاد. تمنى لو يصل للمسجد؛ ليحظى بحماية الله. إنه بيت الله الذي لا تقربه الشياطين. فقط لو بلغه ستكون النجاة. اصطدم جسد به بغتة، فصرخ، وكاد أن يتعثر لكنه تمالك نفسه بسرعة دون أن يحاول أن يرى من اصطدم به. إنه حتمًا أحد هؤلاء الشياطين. ظل يعدو بلا هدي، وبعد ثوانٍ؛ وجد نفسه أمام الباب، فألقى بنفسه داخله، ثم اندفع نحو القبلة. قبل أن يتوقف، وأنفاسه تتلاحق. نظر للخلف، فلم ير غير الضباب. أرهف السمع، فلم يسمع شيئًا. هل ذهبوا عنه، وقد أدركوا كنه المكان الذي احتمى به؟. حتمًا هم شياطين، وإلا للحقوه في قلب المسجد. لم يهدأ قلبه لوقتٍ طويل، وشعر أن القرآن الذي يحفظه عن ظهر قلبٍ قد تبخر تمامًا عن عقله. كان في حاجة للسكينة، والهدوء، ففتح مصحفًا ضخمًا، وحاول التركيز في المكتوب فيه، وبعد لحظاتٍ؛ ارتفع صوته بين جنبات المسجد، وهو يتلو الآيات التي ظل يرتلها لوقتٍ طويلٍ للغاية.

☆ ☆ ☆

تصر أمها أنها لا تشبهها. بل ترى أنها لا تشبه أي أنثى أخرى في النجع كله، حتى أنها كثيرًا ما كانت تشك في كونها أنثى من الأساس. بينما يرى أبوها الحاج (علوان) أنها ورثت عنه كل شيء، وأنها حتمًا خلقت لتكون ذكرًا لولا

طارئًا ما ألم بأمها أثناء الوضع. ربما كان عين حاسدٍ شامتٍ، أو هو عمل سفلي نفذه شقيّ؛ ليفقده الولد الذي يتمناه. سحر لعين بدل الأعضاء، والجنس، لكنه توقف عاجزًا أمام الشخصية، كان يرى أنها لدت فتاة بعقل رجل، قوية الشخصية لا تفهم الضعف، أو الانحناء، أو العجز. عنيدة حتى نهاية العالم لو أزمعت أمرًا ما. عنيفة كالشياطين لو حاول أحدهم كسر إرادتها، أو استغلال كونها أنثى.

إنها مريم ابنه الحاج علوان الخلفاوي، ومن في النجع لا يعرف مريم؟!

كانت الفتاة الأولى في النجع التي تقرر إكمال تعليمها بعد المرحلة الثانوية في القاهرة. اعترض الأعمام، وقد خشي أغلبهم أن تنتقل عدوى عنادها لغيرها من بناتهم، وتوافد الخُطّاب محاولين إقناع الأب بأنها قد نالت كفايتها من التعليم، وأن مستقبلها الحقيقي هو؛ زوج، وأبناء، وبيت ترعاه. لكنه، وأمام رغباتها التي لا مجال في قلبه لدحرها أو رفضها، وقف أمام الكل. أغلق باب خُطّابها مؤكدًا أنها لن تتزوج قبل إنهاء دراستها الجامعية، وأغلق أذنيه أمام أعمامها، وغضبهم، واعتراضهم. إنها وحيدته، وفرحته الأولى، والأخيرة حتى تلك اللحظة، فلم يكن (سعدون) إلا نطفة تشق طريقها في أحشاء أمه في ذلك الحين. لقد ولدت، وأصاب العقم أمها، فلم تحبل بعدها لسنين تزيد عن الخمسة عشر عامًا، فاعتبرها الولد الذي ينتظره، وأغلق أذنيه عن نصائح العائلة، والأصدقاء الذين طالبوه بالزواج ثانيةً؛ ليأتي الولد طالما أضحت الزوجة عقيمًا لا تلد.. ردد أن الولد زرق، و(مريم) هي رزقه الذي اختاره الله له، فلِمَ الاعتراض؟! رضي بالقضاء، فرزقه الله بـــ(سعدون) بعد أن صارت الفتاة عروسًا.

يقولون؛ أنها في النهاية فتاة، ولكنها بألف ولدٍ مما يعدون. يقولون؛ أنها لزوجٍ قد يقهرها في النهاية كغيرها من النساء، فيقسم أنه لن يدفع بها أبدًا لمثل هذا الرجل. حتى لو لزمت دارها بلا زواج. لم يدللها كل تلك الأعوام؛ ليقهرها أحدهم في نهاية المطاف.

كانت عنيدة، وهو نفسه خلق من صخور العناد نفسها. إنها تشبهه بلا ريبٍ في هذا، ومن شابه أباه، فما ظلم. تخرجت في كلية العلوم، وعادت للنجع منذ عام. عاد الخُطّاب لطرق بابها، وكان (خليفة) ابن عمها الحاج (حسنين) في المقدمة. لكنها رفضته وفضلت (أحمد) ابن الحاج (عبد الكريم دياب) عليه. كان الأمر مصيبة، لكنه قرر خوض القتال من أجل أن تظفر الفتاة بمن ترضى، رغم أنه في مجتمع يقدم أولاد العمومة على غيرهم في الظفر بالبنات. كما كانت هناك الخلافات العتيدة بين (الخلفاوية) و(الديابة). الخلافات التي لم تبرح النفوس، حتى لو صارت بين كبار العائلتين أعمال مشتركة، وتحالفات. كانت سُبَّة أن ترفض بنت (الخلفاوية) ابن كبير العائلة، وتقبل بابن كبير العائلة المنافسة..

قالت (مريم) أن (خليفة) جاهل، وبلطجي، وهل يختلف اثنان في النجع في أمرٍ كهذا؟!. ولهذا كان (أحمد) هو كفئها. غضب الحاج (حسنين) وهدد (خليفة)، وحاول الحاج (حمد) إثناءه، لكنه صمد. سألوه؛ أن يختار عريسًا آخرًا من أبناء الأعمام، لكنه أخبرهم أنه لن يرغم ابنته على قبول من لا ترضاه. في النهاية فازت الفتاة بمن اختارته، لكن الحقد في النفوس ما زال مشتعلًا.

تحركت (مريم) في حجرتها في إثارةٍ، وهي تفكر في جرأة الفكرة التي تلح في رأسها. كانت ترغب في التستر بالضباب، والذهاب إلى قصر العمدة. عقلها يصر أن هناك شيئًا ما يدور في الخفاء، فلا أحد ظهر في البيت منذ الأمس، ولا حيوانات غادرت حظائرها، ولا حتى خفر يحومون حول البيت. الأمر غريب، وخاصة لو أضفنا ما رأته من أطيافٍ تحوم حول القصر في الليلة الماضية. لو رآها أحد ستصر أنها أتت؛ لتزور الحاجة (فتحية) زوجة العمدة. في النهاية العمدة هو ابن عم أبيها، وعمها، وليس غريبًا أن تزور بيته. إنها تفعل بالفعل هذا من حينٍ لآخر هي، وأمها. لكن الغريب أن تفعل هذا بمفردها في الضباب.

"ومن يهتم." غمغمت في نفسها: " إنهم يرونني طائشة مندفعة، فلماذا لا أكون كذلك؟. فقط أريد أن أفهم".

وماذا عن أبيها، وأمها؟. كانوا في الناحية الأخرى من البيت، ولو غادرت المنزل، فلن يشعروا بها. لكن ماذا لو أتى أبوها لحجرتها بغتةً؛ للاطمئنان عليها كما يفعل دومًا، ولم يجدها؟. ما الذي ستفعله حينها؟.

لكنها كانت كالحصان الجامح. لا تعرف غير الاندفاع طالما ما تقوم به ليس خطيئة. إنه فقط الفضول. سوف تختلس النظر لدقائق، وستعود بعدها مباشرة. فقط تمنت ألا ينتبه أبوها لهذا حتى تعود. غادرت المنزل على أطراف أصابعها، ثم شقت طريقها في الضباب نحو القصر رغم أنها لا تراه. ارتفع الأدرينالين في دمها، وهي تفكر في عشرات الاحتمالات التي قد تصادفها بعد لحظات. بلغت سور البيت بعد دقيقه. تحركت للخلف نحو الباب الخلفي. الذي تدخل منه مع أمها كل مرة. كان مفتوحًا. عبرته نحو الحديقة، ثم توقفت للحظةٍ؛ لترى إن كان هناك صوتًا ما. لكن الصمت هو من جاوبها. عادت لتتحرك، ومرت بجوار الحظيرة، فأدهشها أنها لم تسمع صوتًا واحدًا للحيوانات. قررت أن تكتشف بنفسها سر هذا السكون، فتحركت نحو الباب الخشبي العتيق للحظيرة، وفتحته. ثم دفعت برأسها عبره. كانت الحظيرة خاوية من أي كائنٍ حي. دارت بعينيها في المكان، وهمست في دهشة: "رباه. أين ذهبت كل الحيوانات؟. تبدو وكأنها قد تبخرت".

غادرت المكان، وهي بالكاد ترى طريقها، حتى وصلت لباب القصر الخلفي. كان الضباب خفيفًا في تلك البقعة، ولاحظت الباب، والنوافذ المفتوحة كلها. نظرت إلى الرواق الفارغ أمامها، ودلفته بتردد، وقد أيقنت أنه لا طريق للرجعة لو تقدمت خطوةً أخرى. كان السكون تامًّا كأنما هي في قلب قبر، أو بيتٍ للأموات. أين ذهب الحاج حسنين، وأين الزوجة، والخدم، والخفر، وخليفة؟. لماذا لا تسمع صوتًا لأحدهم؟ هل ناموا جميعًا في مثل هذا الوقت المبكر؟ هذا غير محتمل، وهي تعلم أن

هذا ليس من عاداتهم تحركت في الرواق الهادئ، وقررت أن تنظر في الغرف. لا تدري؛ ما الذي ستقوله لو ضبطها أحد هكذا، لكن فضول الانثى في اعماقها كان عاتيًا. يجب أن تكتشف سر ما يحدث. كانت أبواب الحجرات مفتوحة، لكن الحجرات كانت خاوية من اصحابها. بدا وكأن الطابق الأرضي فارغًا تمامًا. فكرت في الطابق الثاني، سيكون جنونًا لو صعدت إليه، لكن الجنون لم يكن من الأشياء التي تفتقدها، فصعدت درجات السلم الخشبي.

كان هناك رواق طويل تحفه الحجرات من الجانبين، وكلها كان مفتوحًا. الحجرة الأولى كانت لـ(خليفة). تعرف هذا. نظرت إليها عبر الباب المفتوح، فلم تر أثرًا له. الحجرة التالية كانت فارغة كذلك. تحركت حتى بلغت حجرة نوم الحاج (حسنين) والحاجة (فتحية) التي كانت قد دخلتها من قبل، ولدهشتها لم تجد أثرًا لأيهما في المكان. إذًا لا أحد في البيت، فأين ذهبوا؟ عادت أدراجها في خطواتٍ حائرة، وفكرت في المطبخ، وقررت أن تراه، قبل أن تغادر المكان.

اتجهت نحو السلالم، لكنها شعرت بشيءٍ ما قبل أن تطأ أول درجاته. كان هناك صوت خافت يأتي من رواق الطابق الأرضي. حبست أنفاسها في ترقبٍ، وانكمشت خلف قائم خشبيٍّ ضخم يدعم السلم، وهي تتساءل؛ هل عاد أحدهم؟. أرهفت السمع للحظةٍ، لكنها لم تسمع شيئًا. انتظرت لنحو الدقيقة، ثم حركت رأسها من خلف القائم، ونظرت من أعلى السلم للطابق الأرضي. كان ساكنًا. ربما كانت الريح، أو ربما هو قِط ما.

هنا قررت أن تكتفي بهذا، وتغادر المكان على الفور. بلغت منتصف الدرج؛ حين رأت من يقف في منتصف الرواق، وينظر إليها في سخرية. لم تتمالك نفسها فصرخت، ورغم أنها لم تتبين تمامًا من يكون، لكن وقفته المتصلبة، وغريزتها المتوترة بعثت في نفسها الرعب منه. وضعت كفها فوق فمها، وقلبها ينبض بعنف، ثم رفع الواقف رأسه نحوها. هنا كان الصراخ لازمًا. كان الواقف هو (خليفة). لكن عيناه كانتا مختلفتان. كانتا مضيئتان تشعان ضوءً أصفرًا مخيفًا. بدا في تلك اللحظة، وكأنه شيطان غير آدمي، وحين تحرك نحوها كان عليها الهرب، لكن أين يمكنها أن تذهب وهو يسد طريق الهرب عليها. لم يعد أمامها غير الصعود ثانيةً. اندفعت لأعلى، وهي تصرخ منادية الحاج (حسنين) والحاجة (فتحية). شعرت بالحصار وهي لا تدري؛ أين تذهب؟ تجاوزت حجرة (خليفة) وهي تعدو دون أن تنظر خلفها؛ لترى أين وصل؟. ثم قررت أن تختبئ في حجرة الحاج (حسنين). دخلتها وأغلقت الباب خلفها، ثم ابتعدت عنه، وراحت تلهث، وعيناها تدور في المكان؛ لتفتش عن مهرب ما. لم يكن هناك غير النوافذ، وكان من المستحيل أن تلقي بنفسها عبرها. ستموت حتمًا، أو ستتهشم عظامها من ارتفاع عالٍ كهذا. ستكون فضيحة بلا شك. لم يكن أمامها غير أن تظل بمكانها، حتى يذهب (خليفة) أو يأتي الحاج (حسنين) أو زوجته؛ ليخرجاها.

لا يهم ما يقولانه حينها. المهم أن تنجو أولًا. لكن ماذا عن خليفة؟ ماذا جرى لعينيه، ولماذا تضيئان هكذا؟ كانت تراه من قبل كالشياطين، لكنها رأته الآن شيطانًا بحق. أرهفت السمع، واستعدت للدفاع عن نفسها لو هاجمها.

أمسكت بعكازٍ خشبيٍّ ينتمي حتمًا للحاج (حسنين). ستضربه به لو اقترب. أرهفت السمع، وكتمتْ أنفاسها، فلم تسمع أي صوتٍ بالخارج، هل ذهب، أم تراه يتسلى بفزعها وينتظرها؟ وفي اللحظة التالية أتاها الجواب.

اخترقت ذراعه الباب المغلق كشعاعٍ يخترق الزجاج، ثم ظهر باقي جسده. لقد اخترق الباب المغلق تمامًا كما تفعلُ الأشباح. كان هذا بلا شك فوق احتمالها، فهوت على الأرض فاقدةً لوعيها.

ورغم ما تحول إليه إلا أن (خليفة) شعر بسعادةٍ لا توصف، وهو يراها في مثل هذا الموقف؛ ملقاة أمامه فاقدةً للوعي. تلاعبت الشياطين في رأسه، فقرر أن يستغل الموقف. سوف يغتصبها!

هذا ما سوف يذلها حتمًا، بل وقد يدفعها للموافقة على الزواج به؛ ليكون هذا انتقامه منها، ومن رفضها إياه من قبل. سوف يدمرها. انحنى نحوها، وتحسس وجهها البارد الذي صار شاحبًا بشدة، ثم بدأ في خلع قميصه. لاحظ الوسم المتوهج في صدره، فلم يهتم، وحين تخلص من جميع ملابسه؛ أدرك الكارثة التي ألمت به. كان نصفه السفلي كله كالدخان. لا أقدام، أو ساق، أو فخذ أو أي شيء آخر. كان مجرد خيطان رفيعان من الدخان.

وفي تلك اللحظة؛ تردد في عقله النداء البعيد، وعلى الفور تحرك نحو النافذة المفتوحة في الحجرة، وعبر للخارج عبرها، وغاب في الضباب.

وبعد دقيقتين؛ كان (أيمن) العبيط في الحجرة. نثر الماء على وجه (مريم) فأفاقت، ثم صرخت حين وجدته أمامها، فقال بعينين زائغتين: "هيا اهربي بسرعة. الموتى قادمون، وسيقتلونك لو عثروا عليك".

تذكرت؛ أين هي، وماذا تفعل، فتحركت عيناها بفزعٍ في المكان، ثم سالته: "كيف جئت؟ وأين ذهب خليفة؟"

أشار للنافذة بإصبعٍ مسودٍ قذرٍ، وهمس: "لقد لحق بهم. دعينا نتحرك بسرعة، وسوف أقودك لبيتكِ".

اختفى من أمامها، وهو يعدو نحو الخارج، فتبعته على الفور، وراحت تعدو؛ لتغادر المكان، وهي تتمنى أن تنتهي مغامرتها الحمقاء تلك على خير. غادرت البيت، واندفعت في الضباب، فشعرت بالضياع هذه المرة، وهي تخشى أن يظهر (خليفة) أمامها من قلب الضباب في أي لحظة. لكنها سمعت صوت (أيمن) يهمس عبر الضباب:

" - من هنا.. هيا بسرعة"

تبعت الصوت، وبعد لحظاتٍ كانت أمام باب بيتها. دخلته، وأغلقته خلفها دون أن تفكر حتى في (أيمن) العبيط الذي أرشدها للمكان. انطلقت إلى حجرتها، وأغلقت الباب عليها، ثم ألقت نفسها على الفراش، وراحت تنتحب في خوفٍ بأنفاسٍ متلاحقة.

هل كانت تحلم بما رأته؟. وما هذا الشيء الشيطاني الذي صار إليه (خليفة). هذا مخيف! فكرت في (أحمد) في تلك اللحظة.. يجب أن يسمعها، وأن يعلم ما واجهته. أمسكت هاتفها، وطلبت الرقم، لكنها اكتشفت بعد محاولتين؛ أنه لا شبكة هناك بالهاتف.

تضاعف الخوف في نفسها، وشعرت بالوحدة، فانكمشت في الفراش حول نفسها، ثم سمعت طرقةً خفيفةً إثر حجرٍ صغيرٍ ضرب نافذة حجرتها المغلقة، فوثب قلبها من أجلها، ثم سمعت (أيمن) يقولُ:

" - لقد عادوا يا مريم".

☆ ☆ ☆

للمرة العاشرة في أقل من الساعة؛ تصرخ (سماح) تلك الصرخة العالية المريعة. في المرات الأولى استمرت (لبيبة) الداية في نهرها، وهي تغمغم: " هذا غير مُجدٍ. لا تبددي قواك في صراخٍ لا يفيد. ادفعي الطفل في كل مرة تشعرين فيها بالألم؛ ليخرج، وننتهي".

لكن الصراخ استمر، والطفل لا يبدو أنه سيأتي لهذا العالم قريبًا، والوقت يمضي، وخارج الحجرة خاطب زوجها (محمود) أمه بتوتر: "لماذا تصرخ هكذا؟. لم تفعل هذا في المرتين السابقتين"!

هرولت الأم نحو الحجرة حاملةً الماء الدافئ، وهي تغمغم: " سينتهي الأمر بعد قليل، فلا تقلق. زوجتك تبالغ، ولا أفهم ما تفعله.. لقد أنجبتكم عشرًا، ولم أطلق صرخةً واحدةً في أي مرة".

اختفت بعدها داخل الحجرة، ثم أغلقت الباب، وهي تكمل:" أبعد الأولاد؛ كي لا يفزعوا على أمهم".

التصق به طفلاه في خوفٍ، فربت على رأسيهما في حنانٍ، وهو ينحني نحوهما، ويقول محاولًا رسم ابتسامةٍ على وجهه: "لا تقلقا؛ ستكون أمكما بخير".

ثم نظر عبر النافذة إلى الشارع المغلف بالضباب، والظلام، والرهبة؛ كي لا يلحظوا القلق المحفور على وجهه. أشعل احدى سجائره وهو يفكر؛ لماذا يشعر بالتوجس هذه المرة؟. انطلقت صرخةٌ جديدة من زوجته، فاقشعر بدنه، قبل أن يلقي سيجارته أسفل قدميه، ولم تصل لمنتصفها بعد، وراح يهشمها بحذائه في توتر، ويغمغم: "هذا كثير. هذا كثير بالفعل. ما الذي يفعلونه بها بالداخل؟"

وفي الداخل أدركت (لبيبة) أنها لن تنجح في توليدها. عنق الرحم مفتوح باتساعه، والطفل مازال مرتفعًا، و(سماح) قد أنهكها المخاض تمامًا. ربما يحتاج الأمر للطبيب هذه المرة. أفصحت عن هذا لأم محمود، فهتفت في وجهها مستنكرة: "ومن أين نأتي بالطبيب في هذا الوقت يا لبيبة؟!.. حاولي مرةً أخرى".

"لا جدوى. أخشى أن تموت لو ظلت هكذا".

"والحل إذا؟"

"كما أخبرتك. على الطبيب أن يراها".

لم يكن هناك مفر. نظرت أم محمود إلى الشابة المنهكة الشاحبة، وشعرها المبعثر حولها، والعرق الغزير الذي تفصد حول وجهها، ثم خرجت. أسرع محمود نحوها، فقالت: "تحتاج لطبيب".

"يا الله، وهذا الضباب؛ كيف سأخرج في مثل هذا الوقت؟"

"لا أدري يا محمود، لكن الولادة متعسرة للغاية، وتخشى (لبيبة) أن نفقدها، أو نفقد الجنين".

وقبل أن يقول كلمة أخرى، صرخت (سماح). بدا وكأن آلام العالم كله تطاردها في تلك اللحظة. شحب وجهه، وفكر في احتمالات خسارة زوجته، ثم نظر للطفلين المذعورين الملتصقين بساقه في رجاءٍ، وعجزٍ، فحزم أمره:

"سوف أخرج. فقط اعتني بالطفلين حتى أعود. لن أتأخر".

بعد قليل؛ كان في الشارع على ظهر جواده، وقد ألقى بالسلاح فوق ظهره. كان طبيب الوحدة الشاب هو الوحيد المتاح أمامه، ومن سوء حظه أن الوحدة الصحية كانت خارج النجع؛ حيث توجد على بعد ثلاثة كيلو مترات من النجع خلف الغابة الشرقية. حث جواده على التحرك بسرعة، وهو لا يرى الطريق أمامه. لكن الحصان حافظ على سرعته المتوسطة التي يتحرك بها. سوف يخرج إلى الشارع الرئيسي حتى يبلغ نهايته حيث تبدأ الغابة، ثم يتخذ الطريق الذي يقطعها. كان هذا يختصر الكثير من الوقت رغم ما يحمله من مخاطر.

أطبق الصمت على النجع تمامًا. كما لم يحدث من قبل. لم يسمع حتى الأصوات التي تتردد داخل جدران البيوت التي تحيط بالطريق على الجانبين. زاد هذا من رهبة الموقف، وفي سره تمنى لو هاجم المخاض زوجته في وقتٍ آخر غير هذا. مضى بعض الوقت، ثم توتر الجواد، فأصدر صهيلًا مضطربًا، وبعدها توقف، وقد راح رأسه يدور في المكان بلا هدي. هوى محمود بسوطه على ظهره، وهتف: "لماذا توقفت أيها الحيوان الغبي؟.. هيا تحرك".

لكن الحصان دار حوله نفسه، وهو يصهل بقوةٍ دون أن يواصل تقدمه. هل شعر الجواد بغريزته الحيوانية بالخطر المتواري وراء الضباب، أم تراه رأى بعينه ما لا يراه؟. في كل الأحوال كان عليه أن يتحرك، وأن يواصل طريقه؛ كي يأتي بالنجدة لزوجته، فعاد ليلهب ظهر الجواد بالسوط ثانيةً، وهو يصيح: "هيا تحرك أيها الحصان اللعين. لا وقت لدينا لمثل هذه العطلة. زوجتي قد تموت".

ومن خلف غياهب الظلام تناهت لأذنيه أصوات مرعبة لا تنتمي لعالمنا؛ ليدرك (محمود) أنه ليس بمفرده في هذا الضباب، لكن الحصان انطلق بغتةً، وراح يعدو بأقصى سرعة. التصق به (محمود) ورأسه يدور حوله في تحفزٍ، وخاطر ملح يكتنفه، إن هناك من يطارده..

من سوء حظه؛ أنه لم ينظر فوقه؛ ليري من يطير فوقه، ويلاحقه، ومن سوء حظه - أيضًا- أنه لم ير؛ إلى أين يذهب الحصان المندفع في هذا الضباب المظلم؟ ظن أن الحصان يعرف طريقه بغريزته، لكنه أدرك خطأه؛ حين توقف الحصان بغتة، ثم وقف متصلبًا. ضرب بطنه بقدمه، وهو يقول بتوتر: "لماذا توقفت ثانية؟ ماذا بك هذه الليلة؟ هل جننت؟.."

ومن بعيد وصلته التراتيل الغامضة المخيفة. كانت بلغةٍ لا يعرفها. لغة منسيةٍ موغلةٍ في القدم. كانت تحمل في كل حرفٍ منها الشر المطلق الذي لم يعرفه غير التعساء. اعتصر الخوف قلبه، فراح يضرب ظهر حصانه بسوطه؛ ليتحرك. لكن الحصان لم يبد عليه أي أثر للألم، ولم يتزحزح من مكانه. دنت الأصوات منه. بينما بدد تيار خفيف من الهواء بعض الضباب، فظهرت الأشباح التي تتلو التراتيل المفزعة.

كانوا أشباحًا رؤوسها لا يمكن إلا أن تنتمي للشياطين، وللمرة الأولى في حياته صرخ (محمود) فزعًا بمثل هذا العنف، وهو يضرب الجواد، ويحثه على الهرب: "تحرك أيها اللعين. دعنا نهرب من هذا المكان الملعون"!

رفع الحصان قائميه الأماميين، وفي اللحظة التالية؛ وجد (محمود) نفسه ملقى على الأرض من فوق ظهر الجواد، وحين رفع رأسه وجد عيني الحصان في مواجهته، فعلم لماذا لم يطعه الحصان. كانتا صفراوين تمامًا كعيون الشياطين التي تلتف حوله. لقد صار ينتمي لهؤلاء الشياطين، وربما لهذا أتى به إليهم. فكر في الهرب، لكنه لا يدري إلى أين يذهب؟ ولا يعلم موقعه في هذا الظلام. لكن كل ما فكر فيه هو أن يفر من هذا المكان اللعين. نهض بسرعةٍ، وراح يعدو، وقد التقط سلاحه من خلف ظهره، وشهره أمامه في تحفز. سوف يطلق النار على أول من يدنو منه. بدت الأصوات، وكأنها تلاحقه، ثم ارتفع صوت حوافر حصانه، وهي تضرب الأرض، وبدا وكأنما يطارده الجواد هو الآخر. ظل يجري، وهو يدعو الله في رجاء: "الغوث يا الله.. النجدة يا إلهي".

وحين رأى الأشجار الشاخصة للغابة الشرقية؛ تلوح من بعيدٍ؛ شعر ببعض الأمل. فقط لو يبلغها قبل أن يصل إليه هؤلاء الشياطين لربما نجا. زاد من سرعة عدوه، واتساع خطواته حتى بلغها. هنا أدرك الأمر العجيب. لا أثر للضباب بالغابة. كان الضباب يحيط بالنجع فقط، ولا يتخطاه، كأنما هناك حاجز غير مرئي ضخم يمنعه من تجاوز حدود النجع، واختراق الغابة. راوده إحساس غريب بأنه قد نجا، وأن الخطر محصور في قلب الضباب، فألقى بجسده المنهك على الأرض؛ مستندًا بظهره إلى إحدى الأشجار، وراح صدره يعلو، ويهبط في اضطراب.

هل نجا؟

فكر، وهو يسترق السمع، لكن صوتًا لم يسمعه. فقط كان هناك الصمت الثقيل. فكر في الزوجة التي تلد، والمهمة التي غادر البيت من أجلها. بالطبع سوف يواصل طريقه نحو الوحدة الصحية؛ ليحضر الطبيب، لكن ماذا عن العودة؟. قرر أن يترك التفكير في هذا الأمر إلى حينه. انتظمت أنفاسه، فنهض ليواصل طريقه عبر الغابة التي بدت أكثر أمانًا رغم وحشتها، وظلامها. استدار ليدرك أنه كان واهمًا؛ حين

ظن أنه تجاوز الخطر. صرخ بسرعةٍ، وهو يرى حصانه يقف خلفه في صمتٍ، ويحوطه الكثير من الكيانات الغامضة غير الآدمية، والتي واراها الظلام. لم يفكر كثيرًا، وأطلق نار بندقيته علي الحصان، فانفجر الجانب الأيمن من جمجمته؛ لتتدلى العظام المنفجرة على جانب وجهه في مشهدٍ بشع. لكن الحصان لم يتزحزح من مكانه. بل تقدم نحوه، ثم رفع قائميه الأماميين. قبل أن يهوي بهما نحو صدره. هذه المرة شله الرعب، فلم يحاول الهرب، وهو يغمغم في يأس: "هذا مستحيل".

وكان القدر رحيمًا؛ حين فقد وعيه في اللحظة التالية. وفي البيت في الوقت نفسه؛ أطلقت زوجته سيلًا جديدًا من الصراخ، ورحمها يتقلص في ثورة..

وفي منزل الحاج (عبد الكريم) خرجت (آمنة) من حجرتها، وتحركت نحو باب البيت. شعر (أحمد) بحركةٍ ما في صالة المنزل، وقد كان يعاني الأرق في حجرته، فخرج ليرى من ظل مستيقظًا، وحين رآها أسرع إليها قائلًا:

"هل تريدين شيئًا يا جدتي؟"

"سوف أخرج"!

"تخرجين؟! وفي هذا الوقت؟ وإلى أين؟"!!

"لا وقت للثرثرة يا ولد. دعني أذهب".

"إذًا؛ سوف أذهب معك".

"بل ستنتظرني هنا. لن يصحبني أحد".

"بل سأرافقك طالما تصرين على الخروج. لن تغادري المنزل بمفردك".

"إذًا؛ أجلب الكثير من الملح من المطبخ والماء، ولا تتأخر. هناك من ينتظرنا".

قالتها في حزم، فاندفع نحو المطبخ. تذكر؛ كيف ظهرت جدته في الوقت المناسب تمامًا بالأمس؛ حين واجهته تلك الضباع الشيطانية، فأدرك أن الأمر قد يتعلق بنجدة شخصٍ ما. عاد إليها فغادرا المنزل، وقال لها:

"هل أجلب السيارة؟"

"لا داع لهذا. سوف نذهب لمنزل الحاج غنيم ربيع".

كان هذا البيت لا يبعد غير شارعٍ واحدٍ من منزلهم. تحركوا في الضباب، وهاجمته مخاوف الليلة الماضية، وهو يتوقع أن تظهر أمامهم من قلب الضباب بغتةً تلك الكائنات الشيطانية بعيونها المتوهجة المخيفة.. كان يقبض على كفها؛ بينما راحت تردد في سرها أذكارها، ودعواتها الهامسة، ثم قالت له: "هل أنت خائف يا أحمد؟"

أراد أن ينفي، فلم يقدر. لكنه لم يقدر - أيضًا- على الاعتراف بخوفه، ولهذا لم يرد، فقالت له:: "إذًا؛ اتلُ في سرك ما تذكره من القرآن. القرآن يحمي، ويطرد الشياطين يا بني".

بدأ على الفور في تلاوة سورة (القارعة) في سره، وشعر، وكأن الضباب ينسحب قليلًا من أمامه، ورأى جدته تنثر من حينٍ لآخر بعض الملح والماء حولها، وكأنما تطرد به شرًّا لا يراه. في النهاية وصلا لوجهتهما، فطرقا بابه.

سمعا صراخ (سماح) يتردد بالداخل مختلطًا بصراخ طفلٍ ما، ثم فتحت (أم محمود) الباب. كانت تعرف (آمنة) وتعرف (أحمد) فاتسعت عيناها في ذهولٍ، بينما دفعتها (آمنة) بيدها المعروقة من أمام الباب؛ لتفسح لنفسها الطريق، وهي تقول: "أين الطريق للفتاة التي تلد؟"

لا يوجد في النجع من لا يعرف (آمنة) ومن لم يسمع بكراماتها، وأدركت (أم محمود) أن لا جدوى من سؤال (آمنة) لماذا أتت؟ وكيف علمت بالولادة المتعسرة لزوجة ابنها؟ طالما ظهرت في أوقاتٍ عسيرةٍ للكثيرين دون سببٍ مقنع، مصحوبة بالنجدة، والغوث. كان (محمود) قد تأخر، وأوعزت الأمر للضباب رغم الانقباض الذي يكتنف روحها، فقادت (آمنة) إلى مخدع (سماح) وانتظر (أحمد) بالخارج مع الطفلين.

اقتربت (آمنة) من الشابة التي بلغت نهاية الإنهاك، وذهبت الدماء من وجهها تمامًا، وبدا أنها تحتضر، وفمها يفتح، ويغلق بلا صوت، أو معنى. جلست المرأة العمياء دون أن يرشدها أحد إلى الفراش بجوار رأس (سماح) ثم وضعت كفها فوق رأسها، وهمهمت: "لن تطول المعاناة كثيرًا يا بنيتي. لقد حان الوقت".

ثم راحت بعدها تقرأ القران في أذن (سماح) وكفها يمسح رأسها، فهدأت، وبدأت أرجلها في الارتعاش قبل أن يظهر رأس الطفل من بين ساقيها، فصاحت (لبيبة) في أمل: "يا رحمة الله.. إنها تلد".

لم يطل الأمر، وبعد دقائق خرج الطفل للوجود دون صرخةٍ واحدةٍ من الأم التي بدت، وكأنها في غيبوبةٍ عميقة.. صرخت (أم محمود) حين رأت الطفل المقلوب في يد (لبيبة) قبل أن تكتم صراخها بكفها، وشهقت (لبيبة) في فزع، وهي تغالب نفسها؛ كي لا تلقيه من يدها، وترميه بعيدًا. كان أزرق اللون، ومن أسفل ظهره؛ برز ذيل عظمي مغطى بالحراشيف. لم يبك الطفل، وبدا ساكنا كالموتى. كانت (لبيبة) قد اعتادت رؤية مثل هؤلاء الأطفال الساكنين حين ولادتهم. هنا كانت تحملهم من أرجلهم؛ لتقرع ظهورهم بكفها حتى يبدأ الصراخ. لكنها هذه المرة لم تحاول، بل ألقت بالطفل فوق الفراش، وهي تتراجع، وتهمس: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أي طفلٍ ملعونٍ هذا؟"

تركت (آمنة) الأم التي راحت في سباتٍ عميق، وتحسست بكفها الفراش، حتى وجدت الطفل، تحسست بأناملها رأسه، ووجهه، قبل أن تهز رأسها، وتهتف: "ليرحمنا الله برحمته".

وفي اللحظة التالية؛ فتح الرضيع عينيه بغتةً، فتواثب قلب (لبيبة) في فزع، ولم تتمالك نفسها، فصرخت..

☆ ☆ ☆

انتهى الحاج (عبد الكريم) من صلاة الفجر، ثم جلس على أريكته، وأخرج مصحفه، وراح يتلو ورده الصباحي من القرآن. ظهرت زوجته بعد لحظاتٍ قادمة من حجرة نومهما. كانت قد انتهت هي الأخرى من صلاتها، نظرت إلى الشارع من النافذة، ثم غمغمت بتعجب:

" -الضباب ينحسر.. تمامًا مثلما فعل بالأمس.. هذا عجيب؟"

سمعها زوجها دون أن يعقب، وواصل تلاوته الخافتة. حملقت في السماء، ونظرت حيث توارى الضباب في الجبل، ثم هزت رأسها في حيرةٍ، واتجهت ناحية المطبخ، وبعد دقائق؛ خرج (أحمد) من حجرته هو الآخر. قبل يد والده، فرفع الحاج (عبد الكريم) رأسه عن المصحف، وقال له حين لاحظ عينيه المنتفختين: "يلوح لي أنك لم تظفر ببعض النوم".

جلس (أحمد) وابتسم بإرهاقٍ، وهو يهز رأسه نافيًا، ورد: "ولا لحظة واحدة".

" - ولماذا هذا؟.. هل جد جديد؟"

قص عليه (أحمد) ما حدث في الليل، فتجمدت خلجات الحاج (عبد الكريم) تمامًا، وهو يستمع، ثم قال، وهو يغلق المصحف، ويضعه على منضدة إلى يمينه: "هل كان الرضيع أزرق اللون، وله ذيل؟"

"كانت له أسنان حادة كاملة العدد كذلك"!

"وكيف حاله الآن؟"

"مات بعد قليلٍ من حسن الحظ. صدقني هذا أفضل. لا تتخيل كم كان مخيفًا يا أبي بلونه الأزرق، وعيناه المشقوقتان كعيون الزواحف، وذيله القشري. كان مسخا"!

بدأت دقات قلب الحاج (عبد الكريم) في الازدياد، وبعد لحظاتٍ معدودة؛ تخطت كل الحدود المقبولة.. التقط الحاج (عبد الكريم) أنفاسه بقوةٍ، وحاول جاهدًا أن يهدأ من توتره، وهو يخشى أن يطلق منظم دقات القلب الذي ركبه منذ عام صدمةٍ كهربائية مفاجئة؛ ليعيد قلبه لتعقله، وقال محاولًا؛ ألا يلفت انتباه (أحمد) لما يحدث له: "وماذا عن أباه؟.. هل عاد؟.."

"لا أدرى!. أرادت جدتي الانصراف فور أن مات الطفل، فعدنا".

"وهل تحدثت جدتك بأي شيء بعدها؟. ألم تخبرك بتفسير ما يحدث؟"

حاول (أحمد) التذكر، وهو يفرك رأسه إرهاقًا، ثم أجاب:" فقط رددت مرة: (أب وطفل ونجع مشئوم).. سألتها عن معنى هذا.. لكنها لم تفصح".

تقلصت خلجات الأب في ألم، وقال، وهو يتحاشى عيني ابنه؛ كي لا يرى دموعه: "هذا يعني أن (محمود) قد ذهب هو الآخر. مات الأب قبل ابنه. لابد أنها شعرت بهذا".

اتسعت عينا (أحمد) في ذهولٍ، وألمٍ. قبل أن يهتف بحذر:" هل تعني أنه قد مات، أو قتل؟"!

بدا الجواب في عيني الحاج (عبد الكريم) فأكمل (أحمد) محتدًّا: "يا الله! ليس ثانية. أي جحيم هذا الذي نحياه؟. وأي لعنةٍ أطبقت على النجع؟" !

أشاح الحاج (عبد الكريم) وجهه بعيدًا، وبدا بعض الألم على وجهه دون أن يتحدث. تحرك (أحمد) نحو النافذة، ونظر في شرودٍ للخارج المشرق بأشعة الصباح الأولى، ثم التفت إلى أبيه الذي انهمك في إعداد حجر (الشيشة) ليدخن، وهو يقول بصوتٍ مرتفعٍ؛ لتسمع زوجته: "الفحم يا كوثر، لماذا تأخرت؟"

ظهرت (كوثر) حاملةً إناءً به فحم يتوهج، فصف بعضه بإتقان فوق الحجر، ثم سحب أنفاسًا متلاحقةً من (الشيشة) ليجربها. بدت الأمور جيدة، فتراجع بظهره للخلف وهو يزفر حلقة كبيرة من الدخان ببطء. لاحظ عينا (أحمد) الحائرتين المعلقتين بوجهه، فقال بنبرةٍ هادئة: "ماذا يدور برأسك يا أحمد، أخبرني؟"

" - لا أدري؛ لماذا أشعر أن ما يحدث مجرد البداية، مجرد تمهيدٍ لأحداثٍ رهيبةٍ ستقع في النجع".

تبادلا النظرات الصامتة للحظةٍ، ثم قال الأب ببطء: "اطمئن يا بني. كل شيءٍ سينتهي في النهاية. لا شيء يدوم".

لم يفهم (أحمد) سر الثقة التي يحدثه بها أبوه، ثم سمع الاثنان هدير محركات سياراتٍ ثلاث تتوقف خارج البيت. نظر (أحمد) إلى الخارج عبر النافذة؛ ليرى صاحب السيارات. قبل أن يمتعض وجهه، ويردد: "تبًّا".

ارتفعت طرقة قوية على الباب، فتحرك بتثاقلٍ نحو الباب، وفتحه. كان (سليم) بقامته الضخمة المهيبة مصحوبًا برجاله الذين ترجلوا من السيارات الثلاث بتحفزٍ، وتوقفوا حولها، وكل منهم يرفع سلاحه، وهو يمسح المكان بعينيه بترقب. لم يتحدث (أحمد) ولم يتحرك من مكانه ليفسح للقادم بالدخول، فقال سليم:

" - ألن ترحب بعمك يا أحمد، وهل ستدعني أمام الباب طويلًا هكذا؟"

تراجع (أحمد) وهو يجيب ببرودٍ، ونفورٍ لم يحاول إخفاءه: "ادخل يا سليم، أبي بالداخل".

رمقه (سليم) بعينين مخيفتين شديدا السواد، ورفع حاجبه بضيقٍ، وقال قبل أن يدخل: "سليم فقط. دون عم، أو حتى ولد العم. هل علمك أبوك أن تحدث أعمامك هكذا؟"

ناداه الحاج (عبد الكريم) في تلك اللحظة: "تفضل يا سليم، أنا هنا بانتظارك".

تحرك (سليم) على الفور نحوه، وهو ينهض. احتضنه ثم قبل رأسه، وكتفه الأيمن، وقال بود واحترام: "كيف حالك يا ابن العم؟"

وقبل أن يجيب تحدث (أحمد) باستنكار: "هل كنت تنتظره يا أبي؟ هل كنت تعلم أنه سيأتي؟"

قال (سليم) وهو يزيح سلاحه الذي يحمله على كتفه، ويطوي جلبابه أسفله، وهو يجلس: "مازال (أحمد) على كراهيته، ونفوره لي كما أرى، رغم أنني عمه".

أجاب (أحمد) وهو يعقد ساعديه أمام صدره: "وهل تبدل شيء لتتغير مشاعري نحوك؟"

هتف الحاج (عبد الكريم) بضيق: "لا يليق أبدًا أن تتحدث إلى عمك هكذا. إنه عمك يا ولد".

قاطعه (سليم) قائلًا: "دعه يا ابن العم. ربما مازال يراني مجرمًا قاطع طريق كما يفعل البعض".

" - وهل هناك حقيقة أخرى غير الذي قلته؟"

قالها (أحمد) بتحدٍّ، فهب (سليم) من مكانه في غضبٍ، وصاح: "عمك ينفق على نصف النجع، ويطعمه. عمك المجرم كما تدعي هو من يحمي النجع".

" -عمي كذلك يتحالف مع أعدائنا. بل ويشركهم في أعماله المشبوهة. عمي وضع يده في كف (الخلفاوية) الذين تآمروا على ابن عمه، وحاولوا قتله، وتسببوا في عجزه الدائم. أم تراني مخطئًا في هذا أيضًا؟"

تدخل الحاج (عبد الكريم) في غضبٍ حقيقيّ، وصاح: "كف عن هذا الحديث البغيض يا ولد، واصمت. أنت لا تفهم شيئًا. هيا اذهب إلى حجرتك، ولا تغادرها حتى أطلبك، لكن أخبر أمك أن تعد الطعام والشاي للرجال قبل ذلك".

تصاعد الحنق في (أحمد) لكنه ابتلعه في جوفه، وتحرك ليخبر أمه بما يطلبه أبوه، التفت الحاج (عبد الكريم) نحو (سليم) قائلًا: "اجلس يا سليم، ولا تهتم بما يفعله (أحمد). مازال صغيرًا، ويومًا ما سيدرك خطأه".

لم يعقب (سليم) وصمت للحظةٍ، وهو يكتم نفسًا عميقًا في صدره، ثم يطلقه ببطء. قبل أن يقول: "لقد خرج الأمر من يدنا يا ابن العم. للمرة الأولى أشعر باليأس".

"أرى هذا"!

"الرجال كذلك مذعورون، وبالكاد أنجح في السيطرة على خوفهم. إنهم كما تعلم لا يعرفون الخوف، لكن ما يحدث لهم فوق الاحتمال".

"هذا طبيعي يا سليم، لا ألومهم في الواقع، فالنجع كله يشاركهم الخوف. مات البعض بالأمس، وآخرهم كان (محمود) ابن الحاج (غنيم ربيع) هذه الليلة".

نظر إليه (سليم) وقد تهدلت كتفيه في إعياءٍ، ثم قال: "أريد الحديث إلى (آمنة). هل هي مستيقظة أم أنتظر؟"

تفهم الحاج (عبد الكريم) رغبته، فأشار بكفه نحو باب حجرتها في آخر البيت، وهمهم: "اذهب إلى حجرتها، وانظر بنفسك".

توقف (سليم) للحظةٍ أمام الحجرة بترددٍ، ثم طرق بابها برقةٍ قبل أن يدخل؛ وجدها كما اعتاد دائمًا جالسةً فوق الفراش، وقبل أن يحييها؛ وجدها تقول: "تعال يا سليم، اجلس إلى جواري يا بني، وأخبرني؛ لماذا تأخرت؟."

أمسك كفها الضئيلة المعروقة بكفه، وقبلها باحترامٍ حقيقيّ، ثم جلس إلى جوارها على الفراش، وأطرق برأسه، وأجاب بإرهاقٍ لا حدّ له: "أنا هنا يا آمنة".

"أتيت بعد فوات الأوان يا ولدي".

"جئت أبحث عن النجاة يا آمنة".

"وهل تملك العجوز المكومة على فراشها تنتظر الموت؛ الخلاص؟. واهمٌ أنت يا ولدي. النجاة بيد الله وحده، ولم يفصح عن أسرارها بعد".

رمقها بيأسٍ، وصمت، واحتشدت عشرات التجاعيد حول وجهه وفمه.. تهدلت كتفاه، وبدا وكأنما أضيفت عشرات الأعوام مرة واحدة إلى عمره. من يراه في تلك اللحظة؛ سيكذب عينيه بلا شك. ليس هذا أبدًا (سليم) الذي تهابه الوحوش نفسها. طال الصمت بينهما، ثم همست آمنة: "لماذا جلبت الخراب للنجع يا سليم؟"

"لم أكن أعلم"!

"أخبرتك أن تتوقف عن مسعاك. حذرتك فلم تسمع"!

"لم أكن أصدق. ظننت أنها خرافات القدماء، ومزاعم العجائز".

"والآن أدركت أن العجائز لا يكذبون".

صمت ثانيةً لوهلة.. قبل أن ينظر نحوها في رجاءٍ، ويقول: "الليلة هي الثالثة يا آمنة".

"إنني أعلم".

"سيهب الموتى من قبورهم مع الغروب يا آمنة، لو كانت الحكايات القديمة دقيقة، فسيكون هذا نهاية الأحياء في النجع".

ابتسمت (آمنة) في أسى، فتراكمت المزيد من التجاعيد في الوجه العظمي الضامر. حتى توارت فجوتا العينين تمامًا، وقالت، وهي تهز رأسها بألمٍ حقيقيّ: "حان الوقت ليسترد النجع اسمه القديم يا سليم".

وصمتت، وهي ترفع رأسها لأعلى، ثم واصلت: حان الوقت ليصير النجع ثانيةً.. نجع الموتى".



(2)

يعاني المقدم (حسام الخولي) من السمنة.. بل وكان في الواقع أكثر الضباط الذين رآهم (فؤاد الخطيب) - طوال خدمته التي امتدت لأكثر من عشرة أعوام في جهاز الشرطة – بدانة.. تساءل بينه، وبين نفسه؛ كيف ظل ضابط بمثل هذا الكرش المهول في الخدمة حتى الآن؟!. وكيف اجتاز كل الكشوفات الطبية الدورية بجسده هذا؟!

الطقس في هذا اليوم كان حارًّا على غير المألوف في مثل هذا الوقت من العام، أو ربما كان هذا هو الطبيعي في محافظة (أسيوط) في النهاية لقد صار في الصعيد، وليس القاهرة بعد الآن، حتمًا ستكون الحرارة أشد وطأة هنا.

جفف المقدم (حسام) عرقه الغزير المحتشد على جبهته، ورأسه الأصلع بمنديلٍ. قبل أن يبتسم بإحراجٍ، ويقول: "أعتذر عن هذا الحر. المروحة عتيقة كما ترى، وترسل الضوضاء لا الهواء، ولست من المرضي عنهم؛ ليجلبوا لي مكيف في حجرتي".

" - لا بأس يا فندم، لا تلق بالًا.. لقد اعتدت هذا".

رمق المقدم (حسام) الخطاب الرسمي الذي سلمه الرائد (فؤاد) له. قرأه بسرعة؛ بينما تأمل (فؤاد) المكتب الخشبي العتيق الذي احتشدت الملفات، والأوراق عليه بلا انتظام حقيقي، وفي واجهته كتب بخط رقعة:

"المقدم/ حسام الخولي

ضابط شرطة، ورئيس قسم الحركة، والتنقلات.

رفع (حسام) رأسه عن الخطاب، وحافظ على ابتسامته المرحبة الودود، وقال:

"مرحبًا بك في (أسيوط) أيها الرائد، إذًا كنت تعمل في القاهرة".

"في الأمن القومي".

"يلوح لي أن هناك من لم يسعده وجودك هناك، فأرسلك إلى هنا".

ابتسم (فؤاد) بتحفظ، وقد نوى ألا يتحدث عن حقيقة الخلاف الذي انتهى بنقله من العمل بفرع الأمن القومي (أمن الدولة سابقًا) ليعود ثانية كضابط أمنٍ جنائيّ في محافظة (أسيوط).. في النهاية هو جديد على المكان، ولم يدر بعد من يستحق أن يحظى بثقته، ومن عليه الحذر منه. عمله في أمن الدولة لأعوام؛ علمه الحذر.. علمه ألا يطمئن لأحدٍ مهما بدا ودودًا. أخطر الذئاب؛ هو الذي يتخفىً دومًا في ثوب الحمل الوديع؛ ليحتفظ بشؤونه لنفسه حتى يرى..

قال ببساطةٍ مفتعلة: "إنهم موجودون طول الوقت".

وافقه (حسام) بهزةٍ من رأسه الضخم، وتراجع بظهره للخلف، فأصدر المقعد المبطن بالجلد أزيزًا، وانتفخ كرشه أكثر، وهو يقول: "هل هذه هي المرة الأولى

التي تخدم فيها في الصعيد؟"

"خدمتي كلها كانت في القاهرة".

"يبدو أنك امتلكت يوما ملاكًا حارسًا في الصفوف العليا، قبل أن تفقده. لم أر غير قلة من الضباط لم تخدم في منطقة نائية".

ابتسم (فؤاد) ولم يعقب، ففتش (حسام) عن ملفٍّ ما بين الملفات المكدسة أمامه، واقتضى الأمر فتح الكثير منها؛ ليتأكد أنه الملف المنشود، قبل أن يعثر عليه، فقال في ظفر: "ها هو ذا!. دومًا هناك الكثير من الأوراق التي يجب أن تُنظر، وتُنجز؛ ولهذا تتكوم التلال منها فوق المكتب".

" -كان الله في العون".

قالها بشيءٍ من السخرية الخفية. لم ينتبه لها (حسام) كما يبدو. الذي قال، وهو يطلع على الأوراق المدونة في الملف:

" - انظر يا حضرة الرائد، لقد علمنا منذ أسبوع بقدومك، ولقد عهد سيادة اللواء مدير الأمن إليك بمباشرة عملك في نقطة شرطةٍ صغيرةٍ في نجعٍ بعيدٍ ناءٍ يدعى.. لحظة واحدة.. نعم.. نجع الذئاب".

رمقه (فؤاد) في دهشةٍ للحظةٍ، وقال بحذرٍ: "اعتقدت أنني سوف أعمل هنا، أو على الأقل في قسم شرطةٍ ما لأحد المدن".

أجاب (حسام) بإحراج: "للأسف.. القرار ليس بيدي.. كل شيءٍ هنا يدار من أعلى. نحن هنا فقط؛ لنقول نعم".

أدرك في تلك اللحظة أن المكيدة أكبر مما يظن، ولابد أن كافة جوانبها لم تتضح بعد، وكما يبدو، فنقله إلى هنا ليس إلا البداية. دارى حنقه خلف قناع وجهه الجامد، وقال ببساطة: "وماذا تفعل نقطة شرطة في نجع الذئاب هذا".

"لست أعلم تحديدًا.. لكنه حتمًا العمل المعتاد".

"العمل المعتاد"!

"نعم العمل المعتاد بلا شك".

مرةً أخرى.. لم يفهم (فؤاد) ما يتوارى خلف الكلمات التي يتحدث بها (حسام) لكنه واصل حديثه: "فقط أريد أن أخبرك ببعض الأمور عن المكان. طالما لم تخدم من قبل في الصعيد. هذا الحديث ودي. لتعدها نصائح لو شئت".

"يسعدني أن أسمع".

"حسناً، أولا لا تدس أنفك في خلافات العائلات طالما لم يلجأ لك أحد. القانون العرفي هنا أشد قوةٍ في النفوس من قانون الدولة نفسه، وهم يبجلونه حد التقديس، ولو شئت رأيي، فهو يحقق العدالة أكثر من القانون نفسه.

لذا عليك أن تراقب من بعيد دون أن تورط نفسك في نزاعهم".

"وماذا أيضًا؟"

"السلاح هنا كثير. كثير للغاية بصورة لا تتخيلها، فلا تجهد نفسك بتتبعه، أو تحاول حتى تقنينه، أو منعه.. لو ظننت أن بإمكانك أن تفعل شيئًا كهذا، فلن تصل إلى أي مكان".

"يمكنني استيعاب هذا".

"أيضًا؛ حاول أن تكتسب رؤوس العائلات الكبرى في جانبك. هؤلاء سينفعونك كثيرًا طوال خدمتك".

هز (فؤاد) رأسه بتفهم، فأكمل (حسام): "في النهاية؛ احذر من الجبل. إنه وطن المطاريد، والمارقين. لقد فشلنا لأعوام طوال في ملاحقتهم، والتخلص منهم. لا أخفي عليك أننا نعلم؛ أن هناك صلات تربطهم بكل عائلات الناحية، وهناك مصالح مشتركة تجمعهم، ولهذا يجدون كل الدعم من العائلات، والأهالي في مواجهتنا".

ثم اقترب منه، وكأنما سيبوح بسرٍّ، وهو يهمس مكملًا: "هناك ما يقال عن تورط ضباط، وقيادات في العمل معهم. كلنا يعلم أن هذا موجود. لكن لا أحد يملك الدليل على هذا ليظهره. إنهم يعملون في تجارة المخدرات، والسلاح، والآثار التي يعج بها المكان، وهذا جعل منهم أثرياء كما لا يمكنك أن تتخيل".

" - وهل هناك من نصيحة؟"

رمقه (حسام) للحظة، وكأنما يسبر أغواره، ثم قرر أن لا خوف، فقال:

" - لا جدوى من البطولات هنا، فلا تعترض عاصفةً بمفردك. ابقى بعيدًا حيًّا، أو شاركهم لو شئت".

ثم ابتسم ببساطةٍ، وقال بصوتٍ خافت: "بالطبع. لن يعلم أحد هذا، ولن يلومك أحد لو فعلتها. في الحقيقة أغلب من يعمل هناك يفعل".

كان كلامًا خطيرًا. لكنه يعلم أن مثل هذا التعاون موجود. لم يدر؛ هل يشجعه (حسام) على التعاون مع هؤلاء المجرمين، أم أن الأمر مجرد حديث، ودردشة؟. نظر إلى ساعته، وقال: "والآن؛ ماذا أفعل؟"

" - سوف ننهي أوراقك، ونسلمك خطاب استلام العمل. لكن قبل هذا ستقابل مدير الأمن. لقد طلب أن يراك قبل أن تذهب".

☆ ☆ ☆

عبر الهاتف؛ أتى صوتها مذعورًا مضطربًا، مشوشًا، وهي تصرخ: "أين كنت كل هذا؟" انقبض قلبه توترًا.. لكنه حاول تهدئتها، فغمغم: "أنا هنا يا حبيبتي بجوارك دائما".

" -أنا خائفة يا أحمد، بل أنا مرعوبة. تعال إلي حالا أرجوك".

صارت ترتعش. أدرك هذا من صوتها. تمنى لو كان بجوارها في تلك اللحظة؛ ليحتويها بين ذراعيه، ويهدئ من روعها. صمت للحظةٍ، وقال في حذر: "ماذا حدث يا حبيبتي؟"

" - لقد رأيتهم يا أحمد، إنهم شياطين يا أحمد".

غلبها البكاء ثانيةً، فراحت تنتحب. دقت كلماتها ناقوس الخطر في عقله. تذكر على الفور حديثهما بالأمس. هل أقدمت على فعلٍ ما أهوج؟

ذهب إليها على الفور. كانت متقوقعة في فراشها حول نفسها في وضعٍ جنيني مضطرب، بأجفانٍ منتفخةٍ، وعيونٍ محتقنه، ووجهٍ مدفونٍ بين كفيها. غطت أمها شعرها بوشاحٍ أسود؛ حين أتى قبل أن تدخله عليها، ثم قالت بحيرة: "لا أدري؛ ماذا حل بها؟. لكنها هكذا منذ الأمس. تبكي وترتجف ولا تتكلم. حاول أبوها معرفة؛ ما بها، وسألها مرارًا، لكنها لم ترد. أنت أول من تتحدث إليه. تحدث إليها يا أحمد، ربما أخبرتك".

قالتها، وتركتهما بعد أن ألقت نظرةً مشفقةً عليها، وهي تهز رأسها في حيرة. انتظر (أحمد) حتى غادرت الأم المكان، ثم اقترب من الفراش، ومد ذراعه؛ ليربت عليها مهدئًا. انتفض جسدها أسفل أنامله. تمنى لو يحتضنها ليهدئ من روعها، لكنه أحجم، وهو يدرك أن هذا الفعل غير مقبول، ولن تتفهمه أمها لو ظهرت فجأة، وقال بإشفاق: "أنا هنا بجوارك يا حبيبتي. أنا هنا، فلا تخشي شيئًا".

رفعت وجهها، ورمقته بعينين زائغتين، وهتفت: " أحاول الاتصال بك طوال الليل، ولا تجيب. أنت الوحيد الذي كنت أحتاجه، ولا أجده".

" - الهاتف الأرضي، أو المحمول لا يعملان في الليل منذ يومين. لم يكن خطئي؟"

نظرت إليه في شيءٍ من الذهول، وكأنها تحاول استيعاب ما يقوله. كانت تتنفس بسرعة، وانفرجت شفتاها مرارًا، ثم أغلقتها، وهي تبحث عن الكلمات التي بدت أنها تبخرت من عقلها تمامًا في تلك اللحظة. لم يرها (أحمد) هكذا من قبل. ظل يربت عليها، ثم قال: "هدئي من روعك يا حبيبتي. حاولي أن تتنفسي بعمق، وببطء. أجل.. أجل.. تنفسي هكذا".

فعلت ما طلبه منها. راحت تتنفس ببطءٍ، وهي تحبس أنفاسها طويلًا مستسلمةً لكفه التي تربت على كتفيها. زال الخدر قليلًا من شفتيها، ومسح (أحمد) دموعها بأنامله، ثم قال: "هذا أفضل. هذه هي حبيبتي القوية التي أعرفها. أتمنى ألا تكوني ورطتي نفسك في فعلٍ ما أحمق بالأمس".

كان يذكرها بحديثهما بالأمس. رفعت عينيها نحو عينيه، وقد عاد إليها بعض عنادها، وقالت: "ربما كانت حماقة. لكنني كنت أبحث عن الحقيقة".

" -وهل عثرتي عليها؟"

قالها بعتابٍ فخفضت نظرها، وأجابت: "إنهم شياطين يا أحمد، شياطين بحق. لقد رأيت هذا بعيني".

قالتها مرةً واحدة. تجمد وجه (أحمد) دهشة، وردد: "هل يمكنك أن تخبريني بما حدث بالضبط؟.."

ترددت للحظةٍ، ثم قصت عليه ما حدث لها في الليلة الفائتة. كان ما تقوله أبعد من أن يتقبله عقله، فمهما بلغ به الشطط في اتهام العمدة، وابنه في تدبير تلك الأمور الغريبة، فلن يتخيل أن تكون حقيقة الأمر هكذا. رمقها محاولًا ألا يبدو الشك على وجهه، وغمغم: " هل أنت متأكدة مما حدث؟. ربما كانت لعبة الظلال، والضباب. من المحتمل أن يكون اضطرابك هو ما أوحى لك بهذا".

لكنها أجابت بإصرار: "توقعت ألا تصدقني. بل أعلم أن أحدًا لن يصدقني، وستتهمونني جميعًا بالجنون؛ لهذا لم أخبرهم هنا بشيء. لكني أقسم أن هذا ما حدث بالفعل. أنت لم تر (خليفة) وما صار إليه حين هاجمني. أنت لم تر عينيه الصفراوين، يا إلهي! لقد كاد قلبي أن يتوقف عن خفقانه من الذعر"

ثم زفرت في حرارةٍ، وأردفت:" لم أشعر في حياتي بالرعب مثلما شعرت في ذلك الوقت.. كان أمرًا بشعًا".

تذكر حيواناته التي قتلت قبل الأمس، والضباع التي هاجمته.. شيء ما بداخله يدرك أنها لا تختلق ما تحكيه. دخلت الأم في تلك اللحظة، فأبعد ذراعه عنها.. بينما وضعت الأم الشاي أمامه قبل أن تنصرف. حمل الكوب، وارتشف منه قليلًا مفكرًا، ثم تذكر شيئًا فقال في غضب: "لقد هاجمك خليفة.. أليس كذلك؟"

"بلى".

"وهل مسك بسوء؟. ذكرت أنك قد فقدت وعيك، وربما سنحت الفرصة أمام ذلك الوغد للقيام بـــــــ".....

أدركت مقصده، فهتفت مقاطعةً في فزعٍ، وكأنها تكره مجرد التفكير في الأمر: " كلا.. كلا.. إياك أن تقولها. لقد فقدت وعيي. لكن ليس لوقتٍ طويل. كما كان هناك (أيمن) العبيط".

شعر ببعض الاطمئنان، ورغم كل شيءٍ، فإنه لم ينس أن (خليفة) طالما رغب فيها، وتقدم للزواج منها مرارًا، فقال محاولًا تغيير الحديث: "العجيب أن (أيمن) كان هناك، وهو من أنقذك. لكن السؤال؛ كيف عرف بمكانك؟. ولماذا لا يؤذيه الضباب كالجميع؟"

"لا أدري. لكنه كان هو من قادني للبيت بعدها".

"وأين ذهب بعد ذلك؟"

"لا أعلم.. لقد اختفى بعدها في الضباب".

"إنه لغزٌ هو الآخر. يهذي طوال الوقت بأشياءٍ غريبةٍ، ويتحرك في الضباب دون أن يصيبه مكروه. ما الذي يعلمه هذا المجذوب، ونجهله نحن؟"

قالها في حيرةٍ، وهو ينهى كوب الشاي، وأعاده إلى مكانه، وهو يواصل حديثه: "السؤال هنا؛ ما الذي حل ببيت العمدة؟ وما هذا الذي صاروا إليه؟ وأين اختفوا بالأمس؟ والسؤال الأهم؛ ما الذي فعل بهم هذا؟"

هزت رأسها في حيرةٍ، وقد زالت الكثير من مخاوفها، ثم ابتسمت حين أدركت؛ كم هي مصيبة حين قبلت الزواج منه. مفضلة إياه على كل أبناء عائلتها.. الطمأنينة التي بعثها في نفسها في دقائق معدودة بعد ليلةٍ من الفزع تستحق بالفعل أن تقاتل عائلتها كلها كي تظفر به. تبدلت في عينيها نظرة الذعر، وحلت على وجهها ابتسامة حلوة تعبق بحبٍّ حقيقي أسكر قلبها حتى الثمالة.. اتسعت ابتسامته هو الآخر، وقد قرأ في عينيها ما تفكر فيه، واستعد ليبثها بعض الغزل، لكن الحاج (علوان) عاد في تلك اللحظة من الخارج برفقة طفله (سعدون) وقال باضطراب: "مرحبا يا أحمد، هل علمت بما حدث؟. لقد قتل (محمود) ابن الحاج (غنيم) في الغابة. أي أوقاتٍ عسيرةٍ تمر بالنجع هذه الأيام المشؤومة".

☆ ☆ ☆

التف الكثيرون حول جثة (محمود) في وجوم، ومن بعيد ارتفعت صرخة (أم محمود) الملتاعة على فقيدها. ابتعدت بها عن الجثمان بعض السيدات الباكيات، ثم بلغ (أحمد) الجمع برفقة الحاج (علوان). رمق الملاءة الملوثة بالدماء التي غطت الجثة، وخمن ما يوجد أسفلها من تشوه، ثم نظر إلى العمدة والحاج (حمد) اللذين توقفا على بعد أمتارٍ من الجموع في اتهام، وكأنه يحملهما اقتراف تلك الجريمة؛ رغم أنه لا يملك الدليل على مثل اتهامه هذا. سمع أحد الشيوخ يهتف في جزع: "ليدفع عنا الله شر تلك الأيام. إنها آثامنا التي تأتي تجلب الشرور. توبوا إلى الله؛ ليرفع عنا غضبه، ومقته".

رد عليه شاب في تأكيد: "إنها علامات يوم القيامة يا شيخ عبدالله، إنها علامات الساعة".

" - بل هي الذنوب. من منا صلى المغرب، أو العشاء، أو الفجر في المسجد منذ أتى الضباب. كلنا نخشى ما يخفيه الضباب، ونجلس مع النساء في ذعرٍ، والمسجد لا يجد من يلبي نداء الله".

تجاهل (أحمد) هذا الجدل، وتحرك نحو الحاج (حسنين) والحاج (حمد). رمقهما في اتهام، وإن لم يفصح لهما بمكنون نفسه. استقبله كلاهما بابتسامةٍ باهتة، فأشار (أحمد) نحو جثمان (محمود) وقال، وعينيه معلقتين بوجهيهما: "هل يعلم أيكما ما الذي يحدث في النجع؟. هل هي الذئاب هذه المرة - أيضًا - يا حاج حسنين؟"

أجاب الحاج (حسنين) وهو يلوح بكفه الحرة التي لا تقبض على عكازه: "وما أدرانا يا أحمد، سواء كانت الذئاب، أو حتى التماسيح، فهو قدرهم".

" - وماذا عن هذا الضباب الذي ظهر بغتة؟. هل هو القدر أيضًا؟"

بدت العصبية على وجه الحاج (حسنين) وأشاح بوجهه بعيدًا. بينما تولى الحاج (حمد) الرد، وهو يحاول أن يسبر أغوار (أحمد) بعينيه: "وما شأننا بالضباب يا ابن الحاج عبد الكريم؟.. هل تعتقد أن لأحدٍ يد في مثل هذا الضباب؟"

رمقه (أحمد) بنظرةٍ ذات مغزى، وتمتم: " من يدري؟" !

أشاح الحاج (حمد) بكفه في ضجر، ولم يعقب، وكأنما يرغب في إنهاء هذا الجدال، لكن (أحمد) لم يدعهم، وسأله مرةً أخرى: "ألم تلحظوا أن كل من خرج في هذا الضباب يموت؟. حتى حيواناتنا هاجمتها الضواري في الضباب".

"لقد قلتها بنفسك. لا بد أن الحيوانات المفترسة تستغل هذا الضباب العين؛ لتظفر بفرائسها".

"لكن الضباب يغطي النجع شتاءً كل عام مضى، ولم تحدث مثل تلك الأمور من قبل؟"

"ربما جنت الحيوانات كما يصيب الجنون الجميع".

هتف بها الحاج (حسنين) في عصبيةٍ، فقال (أحمد) وقد شعر أن الحاج (حسنين) بدأ يفقد أعصابه: "أو ربما حمل الضباب شر ما أثار شهية تلك الضواري للدماء".

اهتزت يد الحاج (حمد) المتكئة على العصا، وفتح فمه؛ ليجيب، ثم أغلقه دون أن يتفوه بكلمةٍ واحدةٍ. لكن الحاج (حمد) أسرع يقول، وهو يميل نحو وجه أحمد: "ما الذي يدور برأسك يا أحمد؟"

نظر (أحمد) لعينيه بثباتٍ.. قبل أن يلحظ شيئًا ما، وللمرة الأولى رأى دائرة الدماء الداكنة التي تتوارى أسفل الجفون في عيني الحاج (حمد).. أدار بصره بسرعة نحو عيني الحاج (حسنين) فلمح دائرة الدماء نفسها في عينيه، فقال بحذر: "أفكر في أن علينا أن نفعل شيئًا؛ لنمنع تلك الحوادث. في النهاية على عمدة المكان أن يحمي النجع"!

فقد الحاج (حسنين) أعصابه تمامًا، وهتف محتجًّا: "وما الذي على العمدة أن يقوم به؟. هل يحرس كل فردٍ في النجع، أم يهش الضباب، أم يطارد الذئاب؟!. هيا أخبرني بما علي أن أفعله يا ابن الديابة، وأعدك أن أفعل".

لم يهتز (أحمد) بتلك الثورة، وأجاب في ثبات: "يمكنك أن تبحث في حقيقة ما يحدث ولماذا حدث. يمكنك أن تفتش في ما يخبئه الضباب من شرور. إن لم تكن تدري ما يحدث. فلماذا لا تبحث عن من يعلم؟"

"ولماذا لا يفعل الحاج (عبد الكريم) هذا؟.. أليس هو كبير (الديابة) أكبر عائلة في (أسيوط) كلها".

"الحاج (عبد الكريم) ليس العمدة، وليس مسئولًا إلا عن أبناء عائلته فقط".

ظهر (خليفة) بغتة في تلك اللحظة من خلف (أحمد) وكأنما نبت من العدم، وهو يقول في حدة: "إذا ليحمي عائلته لو استطاع، ولتدعوا شئون باقي النجع للعمدة المسئول الوحيد عنه".

التفت (أحمد) إليه في غضبٍ، وقد تذكر ما فعله بـــــ (مريم) بالأمس.. تمنى لو يلكم وجهه، أو يتشاجر معه. لكنه تمالك نفسه، وحاول ألا يحمل وجهه أي تعبير قد يشي بما يعتمل في صدره من غضب.. قبل أن تأتي الدهشة، وهو يرى نفس دائرة الدم حول مقلتي (خليفة). تمامًا مثل تلك الموجودة في عيني أبيه، والحاج (حمد). في تلك اللحظة تذكر عيني (سليم) الذي زارهم في الصباح. كانت هناك نفس دائرة الدم حول مقلتيه، وظنها حينها من تأثير مرضٍ ما: "وهل حمى المسئول الوحيد أحد؟. انظر أمامك يا ابن العمدة. ألا ترى ضحيةً أخرى".

" - لا شأن لك بالضحايا. اهتم بنفسك يا هذا".

دفع (أحمد) وجهه في وجه (خليفة) بتحدٍّ، وقال ببرود: "اسمي هو (أحمد) بن الحاج (عبد الكريم) لو كنت قد نسيت".

رسم (خليفة) ابتسامةً ساخرةً على جانب شفتيه، وحرك شاربه، وهو يقول: "لا يحميك مني غير أبيك، وسليم. أنت لا تساوي غير طلقة رصاص لا تساوي شيئًا".

" - ولماذا لا تجرب هذا الآن؟ ها أنا أمامك. فأرني ما لديك، ولا تهتم بأبي أو سليم".

ضم (خليفة) قبضته، وقد استفزه تحدي (أحمد). كان يمقته منذ الصبا، وزادت تلك الكراهية حين رفضته (مريم) ابنة عمه، وقبلت بـــ (أحمد). أشعره هذا بتفوق (أحمد) عليه، وتمنى لو يثبت لـــ (مريم) وللجميع أنه أقوى منه، وأشد نفوذًا وبأساً منه. توتر الجو، وتحفز مرافقي (خليفة) الشقيين، واستعدا للقتال. لكن الحاج (حمد) تدخل على الفور، وهو يقول: "دعكم من هذا السخف، وتذكرا حرمة القتيل. اذهب يا خليفة، من هنا".

ثم أشار لبعض الرجال حول الجثمان: " وأنتم! هيا ارفعوا جثمان الفقيد، واذهبوا لبيته لنجهزه للدفن. لن نظل هنا طوال اليوم".

رمق (خليفة) (أحمد) بنظرةٍ أخيرة عبأها كل مقته، وكأنه يعده بجولةٍ أخرى، ثم تحرك نحو الجثمان، وقال (أحمد) معترضًا: "ألن ننتظر الشرطة؟. علينا أن نعرف؛ كيف مات؟"

لم يتمالك الحاج (حسنين) نفسه هذه المرة، فصرخ فيه: "بالله عليك، يكفي هذا يا أحمد، ما شأن الشرطة بالنجع؟. لقد قتلته الذئاب. اذهب إليه، وانظر إلى جسده، ووجهه لتدرك هذا، أم تعتقد أن الشرطة قد تفعل شيئًا مع الذئاب".

وأكمل الحاج (حمد) وهو يحيط بذراعه كتفي (أحمد) ويتحرك به مبتعدًا: "سوف نخبر الجميع؛ أن يلزموا دورهم لو عاد الضباب. هذا أفضل ما يمكننا عمله حتى ينقشع الأمر. ألا توافقني في هذا يا بني؟"

☆ ☆ ☆

فجأة راحت (آمنة) تبكي. دخلت عليها (كوثر) وحين رأتها هكذا؛ صكت صدرها، ورددت في جزعٍ، وهي ترى نحيبها للمرة الأولى منذ أربعين عامًا: "ما الذي يبكيك يا آمنة؟"

ولما لم تجبها هرعت نحو (أحمد) وسألته أن يذهب إلى جدته؛ ليعرف ما يحزنها. كان الحاج (عبد الكريم) بالخارج في ذلك الوقت، فهرول (أحمد) إلى جدته. كانت دموعها تنهمر، وجسدها ينتفض، فقال، وهو يسرع نحوها:

"رباه أنت تبكين بالفعل.. ماذا يحدث؟"

جلس بجوارها، واحتضن كفها بحنانٍ، وقبله. ثم احتضن كتفيها، وهو يهمس في أذنها: "هل بك ألم، أو مرض يا جدتي؟. هل هناك ما أغضبك؟"

رفعت رأسها، ورمقته بعينين باهتتين ضامرتين. لا يدري؛ لماذا شعر في تلك اللحظة، وكأنها تراه رغم تأكده أنها عمياء لا ترى؟! شيء ما في وجهها أوحى له بهذا. دق قلبه في قلقٍ، وخاطر سخيف يراوده. هل تشعر العجوز بدنو أجلها؟! وهل تلك اليقظة التي حدثت فجأة لها بعد سكونٍ دام دهرًا هي صحوة الموت؟! لم يقدر على البوح بهواجسه تلك أمامها، فدفع رأسها نحو صدره ثانيةً، وهو يغالب دموعه، وهمس:

" - لماذا تبكين يا آمنة؟ ألن تخبري أحمد؟ ألست أكثر من تحبين كما تقولين دومًا؟"

بللت شفتيها بلسانٍ خشنٍ، وأجابت في وهنٍ حقيقي: "الموت يبسط أجنحته في النجع، ولا رادع له، وانتم لا تشعرون. تلهثون خلف اليوم، والحاضر، والمستقبل يحتضر يا ولدي".

"كل شيء سيكون بخير بإذن الله. فقط لا تثقلي على نفسك".

"بل كل شيءٍ يمضي إلى نهايته. النجع يهلك".

نظر إليها في توجسٍ، وقال: "النجع لن يهلك أبدًا. لماذا قلت هذا يا (أمنة)؟..هل تشعرين بشيءٍ ما؟"

"أنا لا أشعر بشيءٍ هذه المرة. أنا أرى هذه المرة يا أحمد، وما أراه هو الموت، والدمار، والهلاك".

"لا تتحدثي هكذا يا جدتي. أرجوك".

هزت رأسها، وأحاطته بكفيها متألمةً، وكأن صداعًا عنيفًا يطاردها، ورددت: "نجع الموتى قد عاد يا أحمد، ذهب الذئاب، وحل الموتى مكانهم".

"الخرافة القديمة يا جدتي. هل عدت ترددينها أنت الأخرى؟"

"ليست خرافة يا ولدي. نجع الموتى شر هاجم الأجداد في الماضي البعيد. شر خرب النجع يومًا ما".

"الموتى لا يعودون للحياة ثانية يا جدتي.. ألا تؤمنين بهذا يا سليلة بيت رسول الله؟"

"للعودة صور، وأشكال، وكلها لا يحمل غير الشر، والهلاك. بيننا وبين الموتى جدار قد يبدو قويًّا، لكنه في الحقيقة هش لمن يعرف أسراره، ولرحمة الله هؤلاء الذين يعلمون بشأنه قلة محدودة إلى أقصى حد، فمن يجتاز هذا

الحاجز، لا يحمل معه غير الشر التقي".

"ولماذا يعود الأموات يا آمنة، وما شأنهم بنا، ومن يعيدهم؟"

صمتت بعدها، وعادت تنتحب. أدرك أنها لن تواصل الحديث، فابتلع فضوله الذي أشعلته في نفسه. تمنى لو تفسر مرةً ما تتفوه به، وفكر في الخرافة القديمة. رفض عقله أن يتقبل تكرراها.. لكن ماذا عما رآه؟. ماذا عن الجثث التي تملأ النجع؟. وماذا عما حكته مريم له؟.. كان إيمانه بقوة معتقده يتزحزح. رفعت العجوز بعدها رأسها عنه، وسألت: "أين عبد الكريم؟. اذهب وابعثه إليّ؟"

"لا أعلم أين هو؟. لكنه بالخارج".

"أخبره أن يأتيني فور أن يعود. إنني انتظره".

هب من الفراش ليتركها، لكنها زمت شفتيها في قوةٍ، وهي تقول محذرة: "لا تغادروا الدور مهما حدث. أغلقوها وسدوا منافذها، ولا تجيبوا زوار الليل والظلام، ولا تصدقوا رجاء من ذهب. أخبر النجع يا ولدي، أن ينثروا الملح والماء حول البيوت، وأن يعلقوا الثوم، والبصل على الجدران. هذه أشياء تبعدهم، ومن يدري، فقد يفلح هذا هذه المرة، والآن هيا اذهب".

رمقها في حيرةٍ، وتمنى للمرة المليون لو تكف عن أسلوبها الغامض هذا في إلقاء الألغاز، والبوح بالقليل الذي لا يغني. شعر بجسدها الذي تصلب بغتة. غربت مقلتا العينين لأعلى، وتجمد الفم قبل أن ينفرج عن صوتٍ مغايرٍ لصوت جدته يردد بلا توقف:

" - الموتى قادمون. الموتى قادمون".

وكتم أنفاسه في ذهول.



بدت اللحظات الأخيرة من النهار كئيبة مقبضة تثير التوجس. ظلت السماء ملبدة بالسحب والغيوم كما هي منذ يومين، وتحركت دوامة صغيرة من الرياح، فأثارت الغبار وأوراق الخريف الذابلة في الشوارع. شعر كل أهالي النجع بالنذير دون أن يحذرهم أحد، وعم الخوف في النفوس كما لم يختبروه من قبل. خرجت امرأة في منتصف العمر من دارها الحجرية المنخفضة. تطلعت للسماء، والتفتت للحظةٍ نحو الجبل، وغمغمت: "خيرًا، اللهم اجعله خيرًا"، وراحت تهش دجاجاتها، والبط الذي يرعى خارج الدار، ثم عادت بعدها للدار، وهي تحكم إغلاق البيت خلفها، وتتمنى أن تنتهي الليلة على خير.

لم يمض وقت طويل. حتى كانت الشوارع خاوية تمامًا من البشر، والحيوانات، وقد احتجب الجميع خلف الجدران في ترقبٍ بعد تعلموا الدرس. كل من خرج في الليل، واخترق الضباب مات موتةً شنيعةً. الكل بلا استثناء.

حتى الدواب شاركت البشر هذا المصير. حاول الكل طمأنة أنفسهم قبل الآخرين بإصرارهم أن من فعل هذا هم الذئاب، أو غيرها من الضواري. التي وفر لها ستار الضباب مخبئًا نموذجيًّا؛ للظفر بفرائسهم.

لكن أحد في الحقيقة لم يصدق للحظةٍ تلك الرواية. حتى لو شارك بنفسه في ترديدها. كان حالة نفسية عامة في نفوس الكل تلقائية غير مخطط لها. الكل يريد أن يبعد الخوف بأي ثمن، ولا أحد يرغب في أن يواجه نفسه أو الآخرين بالحقيقة التي تؤمن بها عقولهم، ولا تقدر ألسنتهم على البوح بها. الكل يعلم أن الأمر أكثر خطورةٍ من مجرد حيواناتٍ ازداد توحشها، واتخذت من النجع مرتعًا لها، والظلال التي رآها الكثيرون من خلف نوافذهم، وقلوبهم تتواثب في الصدور هائمة في قلب الضباب. لم تدع مجالًا للشك في النفوس بالخطر المحدق بالجميع، وماذا عن الضباب نفسه؟. يأتي من قمم الجبل البعيدة مع الليل، ويغادر مع أشعة الصباح الأولى ثانيةً نحو منشأه، ولا يتبدد أو يتلاشى تدريجيًّا. كما يفعل الضباب الذي خبروه من قبل.

كذلك الطيور، في البداية راحت الغربان تهوي على الرؤوس في كل مكان، ثم خلت السماء بغتةً من الطيور، لا عصافير، أو أبو منجل، أو أبو قردان في الحقول، أو بين أغصان الشجر. لم ير أحد صقر يحوم في الفضاء، ولا سمع أحد نعيب بومة يأتي من قلب الغابة في جوف الليل كما اعتادوا.

اختفت كذلك الكلاب تمامًا من الشوارع، ففي خلال اليومين الفائتين، امتلأ كل صباحٍ بجثث الكلاب الممزقة المنهوشة، وحتى كلاب الحراسة التي يربيها الكثيرون حول البيوت لحراستها؛ لاقت نفس المصير دون أن تصدر نباحًا واحدًا محذرًا، أو تعوي حتى بخوف..

كل بيتٍ يحوي حظيرةً مكشوفةً؛ عثر على حيواناته مقتولة في الصباح. كان الدرس المهم الذي أدركه الجميع؛ أن يلوذوا بجدران بيوتهم فور أن يقبل الظلام. أن يغلقوا أبوابهم، ونوافذهم عليهم، وعلى حيواناتهم. صار اليوم يبدأ مع اختفاء الضباب، وينتهي تمامًا مع قدومه. ربما هذا ما قد يذهب بالخطر. لكن ماذا عن الخوف الذي يفترس النفوس؟. ما الذي يذهب به؟.

وحدهن الجدات العجائز - اللاتي ذهب الزمن، والمرض بقواهن، وصحتهن، فتوارين تمامًا في كواتٍ، وحجراتٍ بعيدةٍ داخل البيوت- من تذكرن في هذا الوقت الحكايات القديمة، والخرافات المنسية. وحدهن من أضاء الضباب - في عقولهن الذابلة - ذكرياتٍ مبهمةً، وحكاياتٍ مريعةً تحدث بها الأجداد منذ وقتٍ بعيد. كانوا أول من تذكروا ثانية الكنية القديمة للبلدة.

نجع الموتى!

حبسن المخاوف في النفوس؛ كي لا يزيد الفزع، وتمنين الموت، والفناء قبل أن تكتمل العلامات. لكن الوقت مضى، ولم تحن ساعتهن، وصار عليهن أن يواجهن كالآخرين تلك المخاوف. لحظات، وبرزت جيوش الضباب من خلف القمم، وراحت تتسلل بخبثٍ وعجلة نحو النجع. كل من انتظر الضباب هذه المرة؛ شعر أن هناك شيئًا جديدًا صحبه الضباب هذه المرة. ضيف لا يرغب فيه أحد. الكل أدرك أن الليلة مختلفة. دون أن يعلم سر هذا الشعور الغامض.

وفي الشارع الغارق في الصمت؛ ظهر (أيمن) العبيط، وهو يخترق الطريق مهرولًا.. كان الشخص الوحيد الذي لا ملاذ له في النجع. الشخص الوحيد الذي يتخذ من الخرابات المهجورة بيتًا له، وراح يردد دون أن يتوقف:

" - اختبئوا في جوف الأرض يا جبناء، فالموتى في الطريق قادمون".



شعر عم (عبد الواحد) باليأس، وهو يحاول التقاط أي ترددٍ متاحٍ لأي من موجات إذاعات الراديو. اعتاد سماع البرنامج العام كل مساء، حتى يأتي وقت النوم. هنا يحول المؤشر نحو إذاعة القرآن الكريم؛ لينبعث في فضاء الحجرة القابعة في منتصف القبور آياتٍ من القرآن الكريم تبعث في نفسه بعض الأمان قبل أن ينام.

كان يدخن حجر (شيشة) وهو يحتسي كوب شاي ثقيل أمام (منقد) حجري يتوهج اللهب، والجمر في جوفه حين صمت الراديو الخشبي العتيق فجأة. نهض بتكاسل، وراح يحرك مؤشر القنوات يمينًا، ويسارًا دون جدوى.

فحص الأسلاك المتصلة بالكهرباء بلا جدوى. غير اتجاه اللاقط الطويل في نواحٍ عدة، فلم يظفر إلا بشوشرة عجيبةٍ، وحشرجاتٍ كحشرجات المحتضرين، فانقبض قلبه، وهو يتخيل أن يقضي الليلة بلا صوتٍ يؤنسه، أو قرآن يحفظه. عاد ليجلس على الأرض، وارتفع صوت قرقرة (الشيشة) وسحب الدخان في فضاء الحجرة. صب لنفسه كوبًا آخر من الشاي، وارتشف منه جرعةً كبيرةً. قبل أن يلتفت للظلام المتواري خلف النافذة الزجاجية لحجرته. خمن أن الضباب قد غمر النجع في تلك اللحظة، فنهض من مكانه، وخرج من الحجرة؛ ليراقبه كما يفعل كل ليلةٍ منذ ظهر.

كان الضباب هناك بالفعل، وقد غطى النجع كملاءةٍ رماديةٍ عملاقة. ما حيره أن الضباب كان داخل النجع فقط لا يتجاوزه، فلم يصل للمقابر ولم يخترق شواهد القبور؛ رغم أنه اعتاد دومًا العكس، فطوال عمله كـ(حانوتي) والذي زاد على خمسين عامًا؛ اعتاد أن يرى ضباب خفيفة حول شواهد القبور، والأشجار التي تظللها كل صباح في الصيف، أو الشتاء. كان هذا الضباب الخفيف يشمل أشجار الغابة كذلك. لكنه في الغالب لا يشمل النجع. هذه المرة ما حدث كان مختلفًا. الضباب في النجع كل ليلة، والقبور التي تقع وراء النجع بأكثر من ميلين في الصحراء الممتدة خلفه خالية من الضباب.

لا يدري؛ ما الذي جذبه لمراقبة الضباب؟. وهل ما يراه أحيانًا من ظلالٍ مبهمة تتحرك داخله كان حقيقيًا، أم هي تخيلات، وضلالات عينين تجاوزت السبعين عامًا

من العمر؟. لكن الخوف في الحقيقة لم يراوده. ربما اعتقد أن شر الضباب يقتصر على النجع، ولا يتجاوزه. وربما حياته الكاملة التي أفناها في رعاية الموتى، والقبور أورثته نوعًا من القوة. اعتاد ألا يعرف الخوف طالما يقظًا، لكن النوم يحمل معه كل الأخطار، يمكن لكل الشرور أن تمرح فوق رأسك، وأنت لاهٍ عنها في عالمٍ غير حقيقي من الأحلام. يزعم أنه رأى كل شيءٍ مفزعٍ في هذا العالم. شواهد قبورٍ تغير أماكنها، وتتحرك. صرخات تذهب بالعقول تنبعثُ من خوف القبور المهجورة القديمة. حيوانات لا يعرف كنهها تظهر في الليل بغتةً، وتختفي مرةً واحدة، وأشباح، وعفاريت من ماتوا، أو قتلوا. طالما رآهم وطالما تحدث إلى بعضهم، وقد ظنهم أحياءً، قبل أن يدرك بعد حين الحقيقة المُرة.

مازال يتذكر؛ كيف أتى شاب منذ عشرين عامًا يسأله؛ أن يسمح له بالسكن معه وسط القبور؟. كان شابًا شديد النحول، وهشًا للغاية. خمن يومها أنه حتمًا مثله. هارب من ثأرٍ، أو جريمةٍ ما، ويريد الاختباء، ولا يبغي الانضمام للمطاريد. هو نفسه ليس من أبناء النجع، بل هبط من إحدى قرى (أسوان) وأتى للمكان منذ أكثر من خمسين عامًا؛ هاربًا من ثأرٍ يطارده.

أشفق حينها على الشاب، وعرض عليه أن يشاركه الغرفة الوحيدة التي بناها وسط القبور من الحجارة، وسقفها بالأخشاب، والحطب. كان الشاب لطيفًا خجولًا. كما لم ير من قبل، وإن فشل في تخمين؛ من أين جاء من لهجته. سأله عن أصله، فلم يظفر بالإجابة، فترك فضوله حينها لحين. شاركه الشاب الحياة لشهرٍ كامل. قبل أن يكتشف حقيقته. كان شبحًا لشاب قتله المطاريد قبل شهر. كان الأمر مصادفةً؛ حين هبط المطاريد يومًا نحو المقابر؛ ليدفنوا أحد رجالهم. كان الشاب هناك، وحين شاهدوه ارتعدت فرائصهم، وظهر الفزع جليًا على وجوههم. رغم أن الشاب لم يولهم الكثير من اهتمامه، وحين استجوبه المطاريد عمن يكون الشاب؟. وأخبرهم بقصته؛ أخبروه في وجلٍ؛ أنهم قد قتلوا بأيديهم هذا الشاب منذ شهرٍ كامل. بل أقسم أحدهم أن عنقه قد كسر تمامًا يومها..

كان الشاب هناك أمام الباب؛ حيث استمع للحديث. ظهرت على وجهه علامات الفهم، ويبدو أنه أدرك حقيقة موته. توارى خلف الباب، وحين خرجوا؛ ليفتشوا عنه لم يعثروا عليه، ولم يره عم عبد الواحد مرةً أخرى.

هنا راح يتذكر الأمور التي غفل عنها، والتي لو توقف لحظةً عندها؛ لأدرك الحقيقة منذ البداية. تذكر الكلب الذي كان يربيه حينها، والذي ظل لأيام ثلاثة ينبح بشدةٍ في وجه الشاب، وحول الحجرة. قبل أن يختفي بلا أثرٍ للأبد.. تذكرَ كيف كان الشاب ينام بالنهار، ويصحو طوال الليل، بل وكيف لم يشاركه يومًا الطعام، وهو يتحجج بأنه سيأكل حين يجوع. وبدا وكأنه لا يجوع إلا حين يكون هو نائمًا. قبل أن يجد الطعام الذي يقدمه للشاب متعفنًا في جوف قبرٍ مهجورٍ فيما بعد. تذكره، وهو يمسك الجمرات بيده دون أن يحترق، والتي أوعزها الشاب حينها إلى خشونة كفه الذي كون طبقاتٍ لا تنتهي من الجلد الميت. تذكر؛ كيف عاد الشاب من الخارج في ليلةٍ ممطرةٍ بلا قطرة مطرٍ واحدةٍ تبلله؟. كان أحمقًا يومها حين لم يفكر في كل تلك

الأمور في وقتها. كان أمرًا مرعبًا بحق، ومنذ هذا الوقت لم يعد ينام دون أن يشغل القرآن.

طافت كل تلك الذكريات بعقله في تلك اللحظة وهو يرمق الضباب في شرود، وعاد ليتذكر كل هؤلاء الذين ماتوا قتلى في اليومين الماضيين. تذكر الدماء التي لوثت الأكفان، والعيون المحترقة للجثث التي رآها، وهو يفك الأكفان عنهم داخل القبور، ويعدل من رقدتهم الأبدية ناحية القبلة. شعر ببعض الرهبة، وفكر في العفاريت التي حتمًا ستبعثها روح أحدهم الغاضبة المطالبة بثأرها. لن يحدث هذا قبل أربعين يومًا كما يعلم، وفي هذا الوقت سيلزم حجرته تمامًا كل مساءٍ، ولن يخرج لثلاثة أيامٍ. حتى تذهب تلك الأشباح المريعة، أو تعود لصاحبها.

انتبه إلى السكون الغريب الذي أطبق على المكان بغتة. قبل أن يشعر بالهمسات القدمة من بعيد. هل هناك من يعبث بين القبور؟ سوف يرى. عاد لكوخه، وجلب كشافًا يعمل بالبطارية؛ اعتاد منذ أعوام استخدامه في جولاته الليلية بين القبور بدلًا من (الكلوب). توغل بين الشواهد الساكنة. لكن الهمسات راحت تتعالى. اضطرب قلبه لحظةً، قبل أن يظهر أمام عينيه الكثير من الظلال بغتةً في تلك البقعة النائية من المقابر، التي تحوي القبور القديمة او التي تعود لمئات السنين، حيث تهدمت دون أن يهتم بترميمها أحد..

هل يكونوا لصوص مقابر؟ لكن هيئتهم الغير آدمية، والشعاع الأصفر الغامض الذي يخرج من وجوههم؛ أنبأه باستحالة أن يكونوا من البشر.

توقف مرة واحدة ولم يستغرق الكثير من الوقت في التفكير في ما عليه أن يفعله. سوف يعود لحجرته، ويختبئ بها كما يفعل كل مرة. أحمق يستحق الهلاك من يبلغ السبعين دون أن يتعلم؛ متى يتقدم ومتى يتقهقر. تراجع بسرعةٍ وبخطواتٍ أقرب للهرولة راح يعدو نحو حجرته. تعثر في حجرٍ ما. أصدر سبابًا بذيئًا، وهو يشعر بأنهم خلفه يطاردونه، ثم سقط الكشاف الضوئي، وتدحرج بعيدًا عن كفه. نهض بسرعةٍ، ولم يهتم، فهو يحفظ المكان تمامًا، ويعرف كيف يشق طريقه في الظلام نحو حجرته. اقتربت الحجرة، وفي نفس اللحظة؛ شعر بهم حوله تمامًا. لم يتوقف، ولم يفكر في الالتفات نحوهم؛ ليرى أين وصلوا؟. لو فعل لتعثر حتمًا، ولو تعثر مرةً أخرى، فلن ينجو. واصل الطريق، وتجاهل ذلك الصوت الغريب الرفيع الذي همس في أذنه:

"توقف يا عبد الواحد، إننا أصدقاؤك، هل نسيت؟"!

راح قلبه يدق بكل ثورة. اعتصر صدره ألم عنيف، ثم تسلل نحو ذراعه الأيسر، وشعر بالدوار، لكنه من حسن الحظ كان قد بلغ الحجرة. أغلق الباب بقوةٍ، ثم تهاوى على الأرض مسندًا ظهره له، وراح يلهث في عنفٍ، وقد نبتت على جبهته قطرات باردة من العرق.. لكن ألم صدره راح يتصاعد في عنفٍ، وشعر بضيقٍ شديدٍ في أنفاسه. فكر في الحل الوحيد المتاح أمامه؛ لقتل هذا الألم. دس أنامله في جيب (الصديري) المتسخ الذي يرتديه، وفتش بلا وعيٍ داخله للحظة.. ثم أخرج لفافةً مطويةً من القماش فضها بسرعةٍ، وأخرج قطعةً صغيرةً من الأفيون كانت بداخلها.

دس قطعة منه أسفل لسانه، وراح يمتصها ببطءٍ متجاهلًا الطعم اللاذع المر، حتى بدأ الألم في الخفوت..

بلغته الأصوات الغير آدمية التي تأتي من خلف الباب، وسمع اسمه يتردد بنبرةٍ خشنةٍ عجيبةٍ.. شعر أن هناك حشدًا ضخمًا بانتظاره خلف الباب. انتظر أن تدفع تلك الشياطين الباب نحوه، أو تحاول اجتيازه، وتمنى لو كان ما أخبره به عم رضا - اللحاد الذي كان بالمكان قبله- صحيحًا.. قال له؛ "أنه في مأمنٍ من أي شرٍّ تحمله المقابر طالما في حجرته، وبابه مغلق عليه". طالما جرب تلك النصيحة التي نصحها بها معلمه الذي لقنه أسرار المهنة، وفي كل مرةٍ كان يتأكد من صحتها. بالفعل لم يخترق باب هذه الحجرة أي من الشرور التي واجهها من قبل.. لكن ماذا عن هذه المرة؟ وهل يلتزم هؤلاء القادمون من قلب الجحيم بالقواعد، والقوانين المتعارف عليها، ولا يخترقوا حجرته؟ أم تراهم يتسمون بالوقاحة والجرأة؟..

بلغ منه الرعب مبلغه في الواقع، ورغم زوال الألم في ذات الوقت من صدره، وذراعه.. لكن أنفاسه المضطربة ظلت على حالها. قلب رأسه للسماء، وهتف: "الرحمة يا رب". ثم نظر للنافذة الزجاجية التي تطل على الناحية الغربية من المقابر. كان الكثير منهم هناك، ورآهم يرمقونه بعيونٍ شريرةٍ متوهجةٍ لا حياة فيها. أبعد نظره عنها، وأحاط رأسه بذراعيه في رعبٍ، وراح جسده ينتفض، وهو لا يدري؛ متى يتوقف هذا الفزع؟..

☆ ☆ ☆

لليلة الثالثة على التوالي لا تقام صلاة الجماعة.. ورغم ذلك، فقد قام الشيخ (حمدي) برفع الآذان، وانتظر قليلًا، ثم أقام الصلاة، وصلاها بمفرده. لن يأتي أحد للصلاة. كان يعلم هذا. لكنه في هذه المرة لم يلُم أحدًا. حفرت تجربة الأمس المريعة في نفسه فزعًا لا ينتهي، وكلما تذكرها كان قلبه يرتجف بعنفٍ، كأنما يحتج عليه لمحاولته استرداد تلك الذكرى اللعينة. لم ينم غير ساعة، أو ساعتين منذ الأمس، وفي كل مرةٍ يغلبه النعاس؛ تهاجمه الكوابيس، ويرى نفسه تائهًا في الضباب بقلبٍ واجفٍ، قبل أن تدركه الشياطين. رأى نفسه ميتًا مرارًا، ورأى آلافاً من تلك الشياطين تتسلى بتمزيق أوصاله، والعبث بأشلائه. يصحو صارخًا حينها، وهو يتحسس جسده في جنونٍ كأنما يتقين من أنه مازال حيًّا، وللمرة الأولى منذ طفولته يعود لينام في النور، ولا يطفئ المصباح قبل النوم. صار يخشى الظلام، والظلال التي قد تتحرك فيه. أدرك أنه لا بأس من بعض الخوف، والتصرفات الطفولية في مثل تلك الأوقات العصيبة. وطوال الوقت كان يقرأ القرآن مستعينًا به على فزعه.

ما كنه تلك الكائنات الرهيبة التي رآها في الضباب؟ ومن أين أتت؟ وما هدفها؟ إنها الأسئلة التي تنهش عقله بغموضها، ولا يدري إجاباتها. هل يكونوا من مردة الجان وشياطينهم؟

ربما!

كان يؤمن بوجود الجان بالطبع، والشياطين، فهذا أمر عقائدي لا جدال فيه لمسلم يؤمن بالله، وبما أنزله في قرآنه، فهناك سورة (الجن) التي لا تدع في القلب شكًّا على وجودهم الخفي في عالمنا. لكن المحير أنه لا يتذكر حادثةً واحدةً غادر فيه الجان عالمهم؛ ليهاجموا عالم البشر بصورةٍ معلنة. مثلما رأى بعينيه.. لا في كتب التراث القديمة، ولا حتى في مبالغات الصوفيين الذين كثر اتصالهم بعوالم الجان، وتصالحوا معهم حينًا، وحاربوهم أحيانًا كما يزعمون.

تذكر مولاه الشيخ (عبد الرحيم الراضي). الرجل الذي تلقى على يديه العلم كما لم تفعل دراسته. يا الله! كيف نسيه، وهو بغيته؟! اعتاد أن يلجأ إليه؛ لينهل من بحور علمه حين تصيب الحيرة قلبه في أمرٍ من أمور الدين، والدنيا. لماذا لا يلجأ إليه هذه المرة؛ عسى أن يجد عنده الإجابات؟"!

انتهى من تلاوة أذكار ما بعد الصلاة، وتيقن من إحكام إغلاق باب المسجد، ثم اتجه إلى بابٍ جانبيٍّ صغيرٍ يؤدي إلى سلم ارتقاه نحو حجرته الصغيرة التي يسكنها أعلى المسجد. كان يحيا بها منذ صار إماماً للمسجد، ولا يغادرها إلا في تلك الأيام القليلة التي يذهب فيها إلى الأقصر؛ ليزور أخته التي تسكن هناك..

دخل الحجرة، وأضاء المصباح الكهربائي، ثم جلس على الفراش؛ ينظر عبر النافذة الزجاجية إلى الفراغ المظلم خارجها. دقت الساعة في تلك اللحظة؛ معلنةً بلوغها الثامنة مساءً. أدار وجهه نحو الشباك، ثم راح يرمق الضباب الذي يحاصر النافذة بشرودٍ، وجمودٍ غريبٍ. وحين انتبه لنفسه ثانيةً، ونظر إلى ساعة الحائط؛ رأى أنها تشير للحادية عشر مساءً. أي عبثٍ هذا؟ لقد كانت الساعة تشير إلى الثامنة منذ لحظات، فكيف صارت الآن الحادية عشر؟!

أين ذهبت تلك الساعات الثلاث؟! وماذا فعل فيها؟! هل ظل يرمق الضباب طوال هذا الوقت دون أن يشعر؟

اندفع في جنونٍ نحو الخزانة، وفتش عن ساعة يده، حتى أخرجها. نظر إلى شاشتها، فوجدها الحادية عشر بالفعل، تراجع في ذهولٍ، وراح يتلفت حوله في فزعٍ، وهو يردد:" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم."، ثم جرى نحو الباب، وأحكم إغلاقه، وتحرك نحو النافذة ببطءٍ، وخوف. التصق وجهه بالزجاج البارد، واتسعت عيناه، وهي تحاول بلا جدوى النفاذ عبر ظلماته؛ لترى ما يخبئه. لم يكن هناك غير سحب البخار الكثيفة. لا يدري! أي نداءٍ غامضٍ دفعه؛ ليظل بمكانه؟!. ومرةً أخرى غاب عقله تمامًا. لم يدر بالطبع أنه في تلك الدقائق الضائعة. كان يردد بلغةٍ لم تسمعها أذن بشري منذ آلاف السنين. نداء استدعاء شرير في الحقيقة، كان هذا من حسن حظه، فلو سمع ما يقوله؛ لمات من فوره في فزع..

لكنه مرةً أخرى أفاق من شروده، كان مازال في مكانه ملتصقًا بوجهه على النافذة الزجاجية، لكن الذي تبدل كان هؤلاء الرجال الثلاثة التي التصقت وجوههم بالنافذة الزجاجية من الخارج. كانت وجوه رجال ثلاثة قتلى؛ ماتوا في اليومين السابقين، وكان هو من قام بالصلاة عليهم في المسجد قبل دفنهم..

أطلق قلبه في تلك اللحظة دقة غريبة، فشهق قبل أن يهوي فاقدًا الوعي بلا حراك.

☆ ☆ ☆

بالكاد استطاعت (مريم) إبقاء عينيها مفتوحتين في هذا الصداع الذي يطرق رأسها بلا هوادة. أغمضت عينيها، وضغطت عليها بأناملها، في محاولةٍ يائسةٍ للظفر بشيءٍ من الراحة بلا جدوى. كان حادًّا عنيفًا كما اعتادت، صداع نصفي لعين يتحين الفرص على الدوام؛ لينشب مخالبه في مخها. تناولت ثلاثة أقراص من (البنادول) معًا، وبعد ساعةٍ؛ التقطت قرصين آخرين من (الفولتارين). لكن الصداع حافظ على عنفوانه رغم هذا. تدرك أن علاجها الوحيد هو النوم. هذا ما يحتاجه عقلها بإلحاحٍ؛ ليتمكن من دحر متاعبه، لكن النوم هو آخر ما قد تفعله في ذلك الوقت. لقد عاد الليل، ولن تغلق عينيها حتى الصباح. ليس بعد ما حدث بالأمس..

دارت في الغرفة بلا هدفٍ، وشعرت بالحنق؛ حين عادت الاتصالات للانقطاع ثانيةً مع الليل. تمنت لو كان (أحمد) بجوارها، أو على الأقل تتحدث إليه عبر الهاتف. لن تعاند نفسها، ولن تتظاهر بالتماسك كما تفعل طوال الوقت، ففي هذه اللحظة كانت تشعر بالخوف، وكانت بحاجةٍ إلى من يخبئها في صدره، ويطمئنها. لا يغيب عن عقلها؛ ما رأته في بيت عمها الحاج (حسنين) بالأمس. البيت الخالي، والحيوانات المختفية، ثم (خليفه). ذلك الملعون الذي بدا حين ضبطها في بيته بالأمس كالشياطين. ما الذي حدث لعينيه؟ وكيف تحولت لذلك اللون الفسفوري الأصفر المقبض؟!

رأته بعد ظهر اليوم، بل ودققت النظر في عينيه؛ لتتأكد من لونهما. كانتا هما عينيه اللتين تعرفهما بلونها الأسود المظلم. لا صفرة تشوبهما، ولا حتى حمرة. كانت تتوارى خلف نافذتها المطلة مباشرةً على بيته، وكانت تمارس هواياتها الجديدة التي لم تستطع منع نفسها عنها؛ رغم ما حدث لها.

كانت تراقب بيت العمدة!

العجيب؛ أنه في تلك اللحظة التفت نحو بيتهم. بل، وإلى نافذة حجرتها تحديداً. ظل يحدق نحو الحجرة؛ رغم علمها أنه من العسير أن يراها من مكانها هذا، ثم رأت ابتسامةً ساخرةً على جانب وجهه، وهو يهز رأسه كأنما يخبرها؛ أنه يراها، أو يعلم بمراقبتها له.

شهقت في فزعٍ، وهي تثب للخلف. والتصقت بظهرها على الحائط، وهي تحبس أنفاسها، ومضى وقتٌ ثقيلٌ من الترقب قبل أن تميل ثانيةً من خلف ستائر النافذة، وتنظر بطرف عينيها؛ لترى هل ما زال في مكانه؟ لكنه كان قد ذهب. تمنت لو تشرك أباها في شكوكها. لكنها تعلم أنه سيثور في وجهها. لن يوافق أبدًا أن تتهم العمدة كبير عائلته، وابن عمه بأي شيءٍ، وخاصةً تورطه في أمورٍ شيطانيةٍ كالتي تحدث في النجع. هذه المرة الأمر مختلف عن مسألة رفضها للزواجٍ من ابنه، أو الارتباط بابن كبير العائلة المنافسة. لقد تورط في كثيرٍ من المشاكل بسببها من قبل، ومازال حتى الآن يعاني منها، ولن يتورط في أمرٍ قد تفيض فيه بحور الدماء. هناك

رجال، ونساء، بل وأطفال هلكوا من عائلاتٍ مختلفة، ولو تم توجيه اتهامٍ واحدٍ لأحدٍ، فالثأر والنار والدماء هي من سوف يتحدث حينها.

لذا اكتفت بالتحدث إلى خطيبها، ومن حسن حظها؛ أنه كان مثقلًا بشكوكه مثلها تمامًا، فلم يتهمها بالكذب، أو الاختلاق. قبل المغرب كلمها في الهاتف للمرة العاشرة هذا اليوم. كانت محادثة قصيرة لكنها محذرة:

" -لا تتورطي في المتاعب ثانيةً، ولا تفكري في العودة لبيت العمدة ثانيةً. ما يحدث ليس مغامرةً يشبعها الفضول.. إنها جرائم قتل تنتهي بالموت".

ولم يتركها حتى أقسمت مرارًا أنها لن تفعل. في الواقع لم تكن بحاجة للقسم كي لا تذهب، فما كانت لتكرر التجربة ثانيةً، والآن وقد هبط الضباب والظلام فقد عاد الخوف؛ ليعبث بصدرها ثانيةً..

رمقت النافذة بخواءٍ، وشعرت برغبةٍ ملحةٍ في الاقتراب منها. تحركت نحوها في حذرٍ، وراحت تنظر عبرها إلى الضباب. بدا كل شيءٍ في الخارج ساكنًا. ظلت كذلك، وشيء من الراحة يتسلل إلى صدرها، وكأنما بعث هذا السكون المريب الطمأنينة في قلبها.

" - ما الذي تفعلينه عندك؟"

وثبت في فزعٍ، وصرخت برعبٍ؛ حين انطلق هذا الصوت من خلفها بغتةً. كان أخوها (سعدون) الصغير. ورمقته في غلٍّ، وحاولت السيطرة على قلبها، حتى تمكنت من الكلام، فصرخت فيه: "كيف دخلت إلى هنا؟.. ولماذا لم تطرق الباب يا أحمق؟"

ظهرت أمها، وقد جذبتها صرختها، وتبادلت النظر إليها، وإلى (سعدون) ثم هتفت: "ماذا فعلت يا سعدون، ولماذا أغضبت أختك؟"

" - لم أفعل شيئًا. فقط سألتها لماذا تقف أمام النافذة؟.. فصرخت".

صرخت (مريم) فيه في غضب: "وما شأنك بما أفعله؟ أقف أمام النافذة، أو حتى فوقها. هذا شأني. هيا اذهب من أمامي".

رمقتها أمها في حيرةٍ، وهي لا تدري؛ سر عصبية ابنتها مع أخيها الصغير، ثم ربتت على رأسه، وقالت: "عد إلى حجرتك الآن يا سعدون، ولا تزعج أختك مرةً أخرى.. هيا اذهب" .

"لكني أرغب في رؤية الضباب. إنه جميل. أريد أن ألهو قليلًا فيه".

"الضباب مظلم تختبئ فيه أمنا (الغولة)، و(أبو رجل مسلوخة) ، والعفاريت المخيفة. هل تحب أن يعثروا عليك ويأكلوك؟"

رمقها بترددٍ، ثم قال بعناد: "سوف أذهب ومعي بندقية أبي، وسوف أقتلهم بها لو ظهر أحدهم. (سعدون) رجل لا يخاف من شيء".

" - (سعدون) رجل صغير، ومازال أمامه الكثير، حتى يستطيع استعمال البندقية، والآن كفى حديثًا، واذهب، أم تريد أن أخبر أباك أنه غير مطيع؟"!

تراجع في احتجاجٍ مكتوم، وحين اختفى قالت الأم لـ(مريم): "والآن أخبريني؛ ماذا بك؟ وما الذي تخفينه عنيً؟ ألن تخبريني؛ لماذا أنت متوترة هكذا؟ وما الذي دار بينك، وبين (أحمد) في الصباح؟"

أجابتها (مريم) باقتضاب: "لا شيء يا أمي، أنا مجهدة فقط. هذا كل ما في الأمر".

"بل هناك ما تخفينه عني؟ هيا أخبريني".

"أووه. ليس ثانيةً. أخبرتك يا أمي أني لا أخفي شيئًا".

نظرت أمها إليها بتحفزٍ، وتمنت لو تستطيع إجبارها على الحديث. كانت تعلم أن هناك ما تخفيه، وكانت تدرك من الشحوب الذي يملأ وجه ابنتها؛ أن ما تخفيه خطيرًا، لكنها لم ترغب في أن تضغط عليها كثيرًا؛ لتتكلم، وهي تعلم مقدار عنادها؛ لذا قالت قبل أن تذهب: " حسنا. سأذهب لكني أنتظر أن تتكلمي".

ذهبت الأم، وأغلقت الباب خلفها، وظلت (مريم) على حالها، وهي ترمق الباب المغلق بتحفزٍ لبعض الوقت، وكأنما تتوقع أن يعود أخوها، أو أمها ثانيةً. في النهاية تحركت نحو الفراش دون أن تلتفت نحو النافذة، وجلست على طرفه، وهي تغمغم: "طفلٌ مزعجٌ مدلل".

مالت بعدها بظهرها على الفراش، ورقدت عليه، وقدميها على الأرض، وراحت ترمق السقف المرتفع المبطن بالجص في خواء. مضى بعض الوقت، حتى وجدت نفسها بغتةً. في مكانٍ غريبٍ بدا، وكأنه فناء معبد فرعوني.

كان هناك الكثير من البشر بأجسادٍ آدمية، ورؤوس حيوانات. الغريب أنها لم تشعر بغرابة ما تراه، أو حتى تشعر بالخوف. كانت تقف في فناءٍ واسع، وكانت ترتدي فستان زفافٍ أبيض، وشعرت بزراعٍ ما تتأبط ذراعها. بينما وقف أمامها كاهن بلباسٍ فرعونيٍّ، ورأسٍ حليقٍ، وعيونٍ مكحلةٍ. كان هناك كتاب أمامه يخط عليه شيء ما، ومن كل مكانٍ حولها كانت هناك زغاريد كثيرة، وأصوات نساء تغني أغاني الزفاف الصعيدية. رغم أنها لم تر أي امرأةٍ بالجوار، وبعد لحظاتٍ؛ رفع الكاهن رأسه عن كتابه، وقال لها دون أن يبتسم: "لقد زوجتكما، والآن قبلي زوجك يا مريم" .

التفتت إلى الرجل الذي بجوارها، وكأنما سوف تقبله بالفعل. كان (خليفة) وكان يبتسم نفس الابتسامة الشيطانية التي رأتها على وجهه في بيته، وعينيه تشتعلان باللون الأصفر المخيف. دق قلبها بعنفٍ، لكنه في اللحظة نفسها أمسك رأسها بيدٍ عجيبةٍ قويةٍ لها أصابع ثلاثة فقط، ودفع رأسها نحو شفتيه؛ ليقبلها. أرادت أن تحتجَ، أن تبتعد، أو تصرخ. لكنه ظل يدفع وجهها نحوه، والكل حولها يردد ترنيمةً مخيفةً، وكأنما يشجعه وسمعته يهمس وقد دنا كثيرًا من شفتيها: "قبليني يا عروسي".

وما إن لامس وجهها، حتى تمكنت من الصراخ، كانت صرخة مكتومة، وهبت من الفراش، فأدركت أنها كانت تحلم. ظل قلبها يخفق، وشعرت بالرعب، وهي ترى كيف بدا الأمر حقيقيًّا في كل شيء، وليس كالحلم؟. كانت الغرفة غارقةً في الظلام حينها. ظلت تلهث للحظاتٍ، وهي جالسة على الفراش، ثم راودها شعورٌ غامض أنها ليست وحدها في الغرفة.. تجمدت في رعبٍ، وأرهفت السمع، لكنها لم تسمع غير الصمت. التفتت ببطءٍ خلفها، وجالت بعينيها في الظلام في أنحاء الغرفة. لم تر أي شيءٍ مريب. ثم رفعت عينيها نحو النافذة الزجاجية المطلة على الشارع، وهنا أدركت سر شعورها.

كان (خليفة) هناك خلف الزجاج يرمقها مبتسمًا، وقد التصقت كفيه بالزجاج، وفي كل كفٍّ كان هناك أصابع ثلاث. كان جسده معلقًا في الهواء، وكأنما يطير، وحوله رأت الكثير من الأجساد المريعة التي اختفت خلف جسده الضخم. رأت كل هذا في لحظة، وبدت، وكأن قلبها قد توقف للحظةٍ، أو لحظتين عن الخفقان، ثم صرخت في جنونٍ يوقظ الموتى.

وفي أقل من نصف الدقيقة؛ كان أبوها، وأمها أمامها، وقد اخترقا الغرفة بلا عقلٍ.. ظلت تصرخ للحظاتٍ، حتى احتوتها أمها بين ذراعيها، وهي تقول: "ماذا حدث يا بنيتي؟. ماذا بك؟"

راحت تردد في صوتٍ كالهذيان: "إنهم هناك. الشياطين كانوا ينظرون إليّ عبر النافذة. إنهم هناك يختبئون. أبعدوهم عني أرجوكم".

نظر الحاج (علوان) إلى النافذة، فلم ير خلفها غير الضباب.. اندفع إليها، ومد يده؛ ليفتحها.. لكنها صرخت: "لا تفتحها يا أبي.. لا تسمح لهم بالدخول أرجوك.. إنهم شياطين".

لكن أبوها تجاهل تحذيرها، وفتحها، وأطل برأسه منها عبر الضباب. دار برأسه في كل مكان، فلم ير شيئًا، فعاد برأسه للداخل، وهو يغلقها، وقال: "لا أحد هناك يا مريم، لا أحد على الإطلاق. ربما كان حلمًا".

" - اقسم أنهم كانوا هناك. لقد رأيتهم بعيني. كلا، لم يكن حلمًا يا أبي. أنا متأكدة من هذا".

نظر إليها بإشفاقٍ، وحيرةٍ، ثم عاد ليلتفت للنافذة، ودقق النظر.. هنا لاحظ شيئًا غريبًا، فعلى سطح الزجاج الخارجي كانت آثار كفين مطبوعتين.. كفين لا تملكان إلا أصابع ثلاث في كل يد.. اقترب بعينيه من تلك الآثار ومسح الزجاج من ناحيته، فلم تذهب الآثار.. إذًا، فقد كان هناك من يقف خارج النافذة، وابنته لا تهذي..
الغريب أن النافذة كانت تقع في الطابق الثاني على ارتفاعٍ لا يقل عن الأمتار الخمسة، فكيف بلغ هذا الشخص النافذة؟.. إلا لو استعمل سلمًا، أو كان يطير؛ ولأنه لم يجد شيئًا، حتى فتح النافذة، فقد أدرك أن الأمر مريب بالفعل. هنا قرر أن يظل في الحجرة مع ابنته، وألا يتركها طوال الليل، لكنه كذلك قرر؛ ألا يخبرها بما رآه.

☆ ☆ ☆

انتبهت (صفية) لنداء (معوض) ابنها، وهو يناديها، فاستيقظت على الفور. كان ينام على الأرض بجوارها. بل كان كل أبنائها في الواقع ينامون معها في حجرةٍ واحدةٍ منذ مقتل زوجها قبل يومين. همست بسرعةٍ مهدئة إياه، وهي تنحني لتحمله قبل أن يوقظ إخوته الراقدين حوله: "ماذا هناك يا ولد؟"

أجاب طفلها الذي كان في السادسة من عمره بصوتٍ ناعس: "أريد أن أذهب إلى الحمام؟"

قبل أيام ما كان ليوقظها من أجل قضاء حاجته أبدًا. كان يستيقظ وحده، ويذهب إلى الحمام بمفرده، حتى لو كان البيت معتمًا، لكن هذا تغير منذ مقتل زوجها. هنا ألحت على رؤوس الأطفال كلهم فكرة مريعة. آمنوا أن روح أبيهم المقتول، وعفريته قد تظهر لهم في البيت في أي لحظة، وبخاصة في الظلام. كل الأطفال البالغين راودتهم نفس الفكرة، وكلهم رفضوا النوم في حجراتهم، وفضلوا أن يتشاركوا سويًّا حجرةً واحدةً، حتى لو ناموا على الأرض. في الواقع كانت نفس الفكرة قد راودتها هي نفسها، وصار من المستحيل أن تفكر في النوم بمفردها، وخاصة في مخدعها بعد مقتل زوجها، وهي تتخيل أن تستيقظ فجأة؛ لتجد زوجها يقف فوق رأسها، والدم يقطر من وجهه، ورأسه، أو حتى تجده راقد في الفراش بجوارها. فكرة مريعة لكنها تحدث. كان تؤمن أن أرواح القتلى تظل هائمةً على الأرض لسنواتٍ تبحث عن قاتلها، ولا تبرحها إلا مع القصاص، والثأر منه. أما أرواح الموتى، فتمكث في جنبات البيت لأربعين يومًا؛ تتجول فيه، وتحيا فيه حياتها الطبيعية. قبل أن تغادر الأرض نحو السماء..

ذهبت مع (معوض) إلى الحمام مباشرةً، وانتظرت لحظاتٍ حتى انتهى، ثم عادت به للحجرة، وأعادته لمكانه وسط أخوته. هدأ على الفور، واستعدت لمعاودة النوم حين نادتها طفلتها الصغيرة قائلةً: " أريد ماءً." نهضت ثانيةً، وأحضرت كوب الماء المعدني الذي تضعه إلى جوار النافذة المرتفعة. شربت الطفلة، فتناولت هي الأخرى بضع جرعاتٍ من الماء. قبل أن تعيد الكوب لمكانه. عادت للفراش، وحاولت العودة للنوم مرةً أخرى. لكن النعاس خاصمها هذه المرة، وعاد عقلها الذي لم يهمد لحظةً واحدةً للتفكير. كان الحال الذي تبدل يؤرقها بشدةٍ، وفكرت في مصير الأطفال الستة الذين يرقدون الآن في طمأنينة أسفل فراشها. كيف ستتمكن من إطعامهم، والإنفاق عليهم بعد وفاة الأب الذي كان يتكفل بكل شيء.

من أين تأتي بالمال اللازم لتربيتهم، وكل ما تركه زوجها لهم لا يتعدى قطعةً صغيرةً من الأرض؟ حتى الماشية التي كان من الممكن الاعتماد على تربيتها، والحصول على بعض المال جراء بيع ألبانها؛ ذهبت مع الرجل".

تساقطت دموعها، وهي تهمس: " أعني يا رب." وراحت تردد في صمتٍ بلوعةٍ، ومرارة: "لماذا تركتني مع كل هذا العبء يا عيد؟"

سوف ينهشها الجميع من الآن هي وأطفالها. من قد يرحم الأيتام في هذه الأيام الصعبة، ومن قد يهتم بشأنهم؟! تدرك حال أخويها، ومدى عوزهم، وتعلم أن أعمام الأبناء لا يملكون في الواقع ما يفيض عن حاجتهم ليساعدوها به. الكل فقير، وبالكاد

يحيا؛ ولهذا فليس أمامها غير تدبير أمورها بمفردها. إنها لا تعترض، لكن السؤال هو؛ كيف يمكنها أن تفعل؟

ظل عقلها يدور في دائرةٍ لا تنتهي من التفكير لوقتٍ طويل، ثم تناهى لسمعها (خربشات) مكتومة؛ تنبعث من خارج الحجرة. اتسعت عيناها في الظلام بوجلٍ، وفكرت هل يكون هذا صوت فأرٍ ما؟ أرهفت السمع، فاستمر السكون لدقيقةٍ، ثم عاد الصوت مرة ثانيةً. هذه المرة ميزت الصوت. هناك من يخدش زجاجًا ما بأظفاره. شعرت بالرعب، وتساءلت؛ هل يكون هذا لصًّا؟! فكر في السطو علي المنزل مستغلًا الضباب، وأنه لا رجل موجود بالبيت. يا له من تعس من ينتظر أن يجد في منزلها ما يستحق عناء السطو عليه.

نظرت للأبناء بسرعةٍ، وهي تحبس أنفاسها، وتفكر ما الذي عليها أن تفعله؟ هل تصرخ، وتستدعي الجيران؟ لكن ماذا لو لم يكن هذا لصًّا؟ سيكون موقفها سخيفًا. فكرت في أن تحتمي بالحجرة مع الأطفال، ثم تذكرت أن بابها متداعٍ قديمٍ، وسيهوي فوق رؤوسهم لو فكر المعتدي في دفعه.

لم يعد أمامها غير المواجهة. سوف تخرج بعيدًا عن الأطفال، وسوف ترى؛ من يكونٍ؟ لو كان لصًّا، فسوف تصرخ حتى توقظ الموتى. أمسكت هراوة زوجها بكفٍّ جافٍّ يرتعش، ثم غادرت الحجرة على أطراف قدميها العارية.

أصدر الباب صريرًا مكتومًا، فتجمدت مكانها للحظة، ولما لم تسمع شيئًا، فقد تحركت نحو الصالة المضاءة بمصباحٍ شاحب. لم يكن بها أي أحد، استجمعت شجاعتها، وبسرعةٍ فتشت البيت. حجرة الضيوف. حجرتي الأطفال.

المطبخ ثم الحمام. لم تجد أحدًا. لم يبق غير حجرة نومها التي لم تقربها منذ مات (عيد). ارتعشت، وهي تتخيل أن تدخلها في الظلام، وقد تذكرت أن مصباحها الكهربائي تالف منذ أكثر من عشرة أيام، وأن زوجها الراحل تجاهل إصلاحه كل هذا الوقت. ربما كان من الخير أن تعود للأطفال، وتنام دون أن تفتش هذه الحجرة. خاصة وأن الأصوات قد كفت، ولم تعد تسمعها. لكن إلحاحًا مقيتًا ألح على رأسها. ماذا لو كان هناك من يختبئ بالحجرة، وقد خلد للسكون حين شعر بها؟

ابتلعت ريقها في صعوبةٍ، وبترددٍ كبيرٍ؛ خطت نحو الحجرة. أدارت مقبضها ببطءٍ شديدٍ، وفكرت ألف مرة أن تتراجع. في النهاية دفعت الباب، فطالعها الظلام، والرائحة المكتومة لهواء الحجرة العطن. وقفت مكانها للحظةٍ، وهي تفتش في الحجرة عبر شعاع النور الخافت الذي تسلل من مصباح الصالة إليها. بدت على حالها تمامًا كما كانت. استجمعت شجاعتها، ودخلتها. ثم توقفت في منتصفها، وتنفست الهواء العبق برائحة زوجها الراحل.

هبطت دمعتان من عينيها بلا إرادة منها، ثم انتبهت للنافذة التي بدت مواربةً غير مغلقة. ارتجف قلبها ثانيةً. هل يكون أحد قد فتحها، أو حاول دخول المنزل عبرها. لكنها فتشت المنزل كله، ولم تجد أحدًا. تحركت نحو النافذة، ومدت ذراعيها نحوها

لتغلقها، وحين نظرت إلى الخارج؛ أدركت أن الضباب لم يكن فقط من يكمن وحده خلف النافذة المغلقة.

كان هناك زوجها بانتظارها، وكان يرمقها بعينين صفراوين كعيون القطط. شهقت في فزعٍ، وتركت النافذة المفتوحة، وهي تتراجع في ذعرٍ. هنا غادر (عيد) الضبابَ، وعبر النافذة بسلاسة. قبل أن يتوقف أمامها، وهو يرمقها بمقتٍ لم تره في وجهه من قبل.

لم تصرخ، فقد خانتها حنجرتها في الواقع. لكن بعض الجيران سمعوا صرخات الأبناء، وهي تشق سكون الليل.. من سوء الحظ؛ أن الصرخات لم تدم غير ثوانٍ معدودة، والأمر الأكثر إيلامًا؛ أن أحدًا لم يفكر في مغادرة بيته؛ ليعرف من أين تأتي الصرخات؟ الكل كان قابع في بيته، وخاصة من كان مستيقظًا خلف نوافذ بيته، فما يجرى في الشوارع كان مخيفًا للغاية في هذا الوقت.

☆ ☆ ☆

فجأة امتلأ الضباب بمئات الأشياء التي ما كان لها أن تتواجد في عالمنا ثانيةً، وحول كل بيتٍ، أو عُشةٍ، أو كوخٍ، أو منزلٍ متهدم قديم، أو خرابة. كان هناك بعضهم. حامت تلك الكائنات حول كل بقعةٍ ذهبت إليها. خَطت حول الأبواب، وراحت تتحسسها بأكفٍّ شبحيةٍ مشوهة. دارت حول النافذ، وهي تفتش عن مدخلٍ غير مسدودٍ؛ لتدخل. وارتقى بعضها الأسطح، وراح يتحرك فيه بترنح. الكثيرون لم يشعروا بهذا في البداية. كان الغالبية غارقين في النوم، أو منكمشين في الحجرات الداخلية البعيدة حول اللهب. فقط القليلون ممن ظل مستيقظًا، واقترب حينها من نافذة ما تطل على الخارج. شاهد خلال الدخان الضبابي المظلم لتلك الكيانات، وهي تظهر وتختفي، وكان رد فعل الغالبية واحدًا. الكل كان يبتعد عن النوافذ بلا إبطاءٍ، وهم يرتجفون. بينما راحت قلة منهم تقرأ القرآن، أو تدير مؤشرات الراديو، والتليفزيون نحو القنوات التي تبث القرآن.

وحين حل منتصف الليل بدأ الأمر. في البداية ترددت نداءات تشبه الصرخات شقت سكون الليل، ثم انطلقت أصوات خشنة في كل بقعةٍ في النجع. راحت تلك الكائنات تطرق الأبواب بإلحاح. تدق على النوافذ الخشبية، والزجاجية، وتجسد صوت الأقدام التي تدب فوق الأسطح لأقدام تلك الكائنات التي شوهت، وصارت لا تشبه أي أقدام نعرفها على الأرض.

كانت هناك عشرات الدعوات التي كانت تتردد في إلحاح: " افتح الباب يا عبد التواب، أدخل أباك."، " نريد أن ندخل."، "أعطونا الخبز." وغيرها.

من نادى بهذا كانوا موتى ينتمون إلى تلك البيوت التي التصقوا بها. بدا وكأنما عادوا من موتهم، ورغبوا في العودة للدور التي شهدت حياتهم، ومغامراتهم من قبل.

رأت (دلال) ابنها (خليل) الذي ذهبت ساقية البئر به قبل خمسة أعوام. كان في العاشرة من عمرة، وذهب يومها مع أبيه نحو الأرض التي يزرعها. تحرك الثور

بعين مغطاة، فراحت الساقية تدور، وحاول (خليل) أن يزيل العشب من حولها. تعلقت الساقية بطرف جلبابه، فجذبته بلا رحمة، ورغم أن الطفل قد صرخ بعنف، ورغم أن أباه لم يتباطأ لحظةً في نجدته إلا أن الثور الذي لم ير شيئًا ظل يدور، ومعه ظلت الساقية تدور، وهي تبتلع الغلام بعد أن هشمت عظام جسده، ورأسه. ما بقي يومها منه كان كتلةً مشوهةً من اللحم الدامي، والجلد الممزق، والعظام المسحوقة، والشعر التالف. كادت أمه أن تجن حينها، وهاجمها المرض، وأقسمت ألا تبدل الثوب الأسود ثانيةً، وألا تسمح للفرحة بالتسلل إلى روحها.

في تلك اللحظة؛ كان هناك (خليل) يطرق الباب، وهو يهتف بصوتٍ تبدل كثيرًا، وازداد خشونةً. لكنه مازال محافظًا على نبرته: " أمي أدخليني. أنا خائفٌ، وجائع. افتحي الباب".

صرخت في ذهول: " ولدي. انتظر أنا قادمة." ذهب عقلها في تلك اللحظة، فلم تدرك أن ما يحدث غير معقول، وأن ابنها من المستحيل أن يعود ثانيةً بعد كل تلك السنوات من قبره. كل ما فكرت فيه هو أن ترى ثانيةً ولدها الذي فارقها، وكما وصل الأب متأخرًا قبل أعوام ووجد ابنه، وقد ابتلعته الساقية. ظهر هذه المرة أمام الباب متأخرًا للغاية.. كان البابَ مفتوحًا باتساعه، ولم يكن هناك من أثرٍ للزوجة أمامه. صرخ باسمها: " دلال. أين ذهبت؟"

لكن لا إجابة. صرخ أطفاله في الداخل بفزع، وانشق الضباب عن مسوخ شيطانيه. كائنات بأجسادٍ آدمية، ورؤوس كلابٍ، وقطَط، وصقور، وضباع. تردد لحظةً، وهو يغالب في نفسه الرغبة في اللحاق بزوجته؛ عسى أن يلحقها، وبين أن يمكث؛ حيث أبناءه ليحميهم. تغلب الرعب عليه، وتراجع بسرعةٍ، وفي اللحظة التالية أغلق الباب في اللحظة المناسبة تمامًا، وتلك المسوخ تندفع نحوه لتحلق به. سمع صراخًا مريعًا، وراحت الدقات تقرع الباب بلا هوادة. أسند ظهره للباب؛ ليمنعهم من فتحه بقوةٍ، وهو يردد: " دلال. دلال. لماذا فتحت الباب؟"

ثم ظهر الأطفال من الداخل يتساءلون؛ أين أمهم؟ فراح يبكي.

وأمام دار (رضا الديناري) راح أبوه الذي قتله مطاريد الجبل قبل عشرين عامًا يصرخ في ابنه أن يفتح الباب. أمسك بهراوةٍ في قوةٍ، وصرخ في زوجته أن تدخل مع الأبناء. خرجت أمه من حجرتها، وصاحت: " هذا أبوك".

لكنه صرخ فيها، وهو يمنعها من أن تفتح لذلك الطارق الشيطاني الباب: " أبي قد مات منذ دهر. إنها النداهة!" وفي سره؛ راح يتلو آيات من القرآن، وقدمه ترتعش. ظل الأب القتيل يصرخ فيه، وهو يعنفه كما كان يفعل من قبل، ويهدده. لكنه لم يتزحزح. مضت اللحظات ثقيلة بطيئة كعقودٍ كاملة، ثم سمع جلبةً ما تنبعث من حجرةِ أمه. تحرك إليها على الفور، وفتح الباب، وفي ضوء المصباح السهاري الشاحب؛ رأى النافذة المفتوحة، والأم التي احتضنت الأب الميت. قبل أن يلتفت الاثنان نحوه. كانتا عينا الأبوين في تلك اللحظة صفراوين مخيفتين. ارتجف قلبه، ومد أبوه نحوه يدًا عجيبةً تنتهي بأصابع مخلبيةٍ ثلاث، وهو يقول بصوتٍ مشروخ: " تعال إلى حضن أبيك يا ولد، إني في شوق إليك"!

علم منذ اللحظة الأولى؛ أن ذلك المسخ هو الأب القتيل، وما يراه على وجه أمه أخبره؛ أنها قد لحقت به هي الأخرى، وحين تقدم الأب مصطحبًا الأم نحوه، لم يفكر كثيرًا، وأغلق الباب بسرعةٍ في وجهيهما، وقبض على المقبض بقوةٍ كي لا يفتحونه، وهو يستعيذ بالله الرحيم من أذى الشياطين، وشرورهم، ودموعه تخضب وجهه حزنًا على أمه.

بينما سئم (رزق دياب) هذا العبث، وتلك الأكف التي تضرب الباب الخشبي، وتدفعه بلا هوادة ليفتح. هذا حمقٌ، وجنون. أي غبيّ هذا الذي تسول له نفسه أن يهاجم بيت (زرق دياب)؟ كان أكثر من يعلم أن من يصرخ بالخارج ليس ابن العم الذي وجد قتيلًا بطلقة نارٍ في رأسه، ولم يعرفوا أبدًا من أطلقها. كان سريع الغضب مندفعًا سهل الاستثارة، وطالما ردد أنه لا يعرف الخوف. ألم يصارع ذات مرةٍ ذئبًا هاجمه قرب الغابة. قبل أن يهشم رأسه بعصاه دون أن يهتز قلبه بالخوف لحظةً واحدة.

لم يطل التفكير. هناك أحمق يهاجم؛ ولهذا فهو بحاجةٍ لردٍّ يعلمه الدرس. أمسك بالبندقية، واشتعلت عيناه بالغضب. ارتمت زوجته أسفل قدمه، وقبلتها كي لا يخرج، لكنه دفعها بخشونةٍ، وهو يصيح فيها: "ابتعدي يا امرأة، رزق ليس كالولايا ليختبئ خلف الأبواب كالجبناء".

ثم اندفع نحو الباب مصوبًا فوهة البندقية للخارج. فتح الباب، ورأى ابن عمه هناك، وحوله الآخرون. لم يتردد، وأطلق الطلقات، ثم عبأ البندقية بسرعةٍ، وأطلق النار مرةً ثانيةً، وثالثةً على هؤلاء المسوخ الموتى. أصابت الطلقات كلها أهدافها. لكن أي من تلك الشياطين لم يبد أن النار قد أعاقته. تحركوا نحوه بوجوهٍ مخيفةٍ، وعيونٍ صفراءٍ كعيونِ القططِ الوحشية. أدرك أن الوقت لن يسعفه؛ لتعبئة البندقية بالمزيد من الطلقات، ومرةً أخرى؛ أثبت أن قلبه لا يعرف الخوف، فقد أدار البندقية، وقبض على الفوهة المعدنية الملتهبة من إطلاق الرصاص، وتجاهل جلده الذي يحترق، وهوى بالكعب الخشبي الثقيل على رؤوس تلك المسوخ، وأجسادهم.

كان قويًّا، وكانت مثل تلك الضربات لتشق الحجر الصلد من الضربة الأولى. تساقطت الأجساد أمامه، وشق طريقًا بينها للخارج.. لكن أعدادهم كانت بلا حصرٍ في الواقع. في النهاية نجح بعضهم في الالتفاف حوله فتغلبوا عليه. قاوم طويلًا كما لا يمكن لأي رجلٍ أن يفعل، ثم سقط. ليختفي جسده أسفلهم، وبينما كانت أوصاله تتمزق، تحرك لسانه رغم الألم المريع، وقال في عناد: " رزق لا يعرف الخوف يا جبناء".

ثم ظهر الحاج (محفوظ دياب) أمام نافذة بيت ابنه الحاج (عبد الكريم دياب!)

راح يتحسس النافذة بكفه المشوه، ويرمق البيت من الداخل بعينيه الصفراوين المشقوقين كعيون الزواحف. كان (أحمد) هناك في تلك اللحظة في غرفة المعيشة، ومن خلفه أبوه وأمه.. تراجع (أحمد) في فزعٍ، وردد: "رباه.

أي شيطان هذا؟"

تحرك أبوه ممسكًا بعكازه، وقبض على كتف ابنه، وقال بألم: " إنه ليس شيطانً، إنه جدك"!

"جدي؟"!

"أجل. جدك الذي مات منذ أكثر من خمسين عامًا".

"والآن. قرر أن يعود".

صمت الأب، وصرخت زوجته بفزعٍ، وعينين زائغتين: " كلا. هذا ليس أبوك. إنه شيطانه. ابتعدوا أرجوكم عنه، ولا تفتحوا له النافذة".

لم يلتفت إليها أحد، ومن خلف الزجاج تحركت الشفتان اليابستان لذلك الزائر الثقيل، وهتف بصوتٍ غليظ: "افتحوا الأبواب. افتحها يا عبد الكريم لأبيك. دعني أدخل يا بني".

اعتصر الألم قلب (عبد الكريم) وارتعشت ساقه التي كانت بالكاد تحمله، فتشبث بذراع (أحمد) الذي شعر بمعاناته، فسنده بقوة، وهو يردد بارتباك: "أنا لا أفهم شيئًا. كيف تقول أن هذا هو أبوك الذي قتل منذ أكثر من نصف قرن؟! هل عاد من موته بعد نصف قرن ببساطةٍ هكذا؟"

ومن آخر الدار؛ خرجت (آمنة) مرةً جديدةً من حجرتها. تحركت بخطواتٍ رشيقةٍ عجيبةٍ نحوهم، وهي تردد: "محفوظ. يا إلهي، إنه هو"!

هتف (عبد الكريم) بوجهٍ تهدلت خلجاته في مزيجٍ غريبٍ من المشاعر. ليس الذعر من بينها أبدًا: "أمي"!

تجاهلته، واتجهت مباشرةً نحو النافذة، ومدت كفها الضامر بشوقٍ حقيقي يتوهج في وجهها نحو الزجاج. صرخ (أحمد) وهو يتحرك نحوها: " كلا يا جدتي، لا تفتحي النافذة".

خشي أن يدخل هذا المسخ البيت؛ لو فتحت الشباك له. لكن أبوه قبض على ذراعه، وهو يغمغم: "دعها يا أحمد، جدتك تعلم ما تفعله".

تحسس الكف الضامر لـــ (آمنة) باطن النافذة، ومن الجانب الآخر امتد كف ثلاثي الأصابع مشوه نحو الناحية المقابلة من الزجاج، وراح يتحرك عليه بحركاتٍ مماثلةٍ. تجمد الزمن كله في تلك اللحظة، وكتم كل من في البيت أنفاسهم في إثارةٍ، وترقبٍ. وبدا، وكأن العاطفة تغمر المشهد كله. لقاء عاطفي عجيب يحدث الآن بين رجلٍ عاد من الموت، وزوجةٍ عمياء لا ترى. فغر (أحمد) فاه في ذهولٍ، وتحرك لسانه مراتٍ عدة، وكأنما يبحث عما يقوله، ثم فشل، فأغلقه. وبعد دقيقةٍ بدا، وكأن (آمنة) اكتفت، فأولت النافذة ظهرها تاركةً المسخ خلفها، وقالت: " حوطوا المكان بالملح، وانثروه في وجهه؛ كي لا يدخل، ولا تلتفتوا لتوسلاته. لقد انتهى زمنه منذ أمدٍ بعيد. إنه ليس الرجل الذي أعرفه. شغلوا المذياع على القرآن؛ ليبتعد عن هنا مع رفاقه الملاعين".

هنا برزت وجوهٌ عدة بجوار الجد الميت. وجوهٌ علم أغلبها الحاج (عبد الكريم)، وكلها لأقاربٍ ماتوا جميعًا قتلًا. نقل (أحمد) بصره بين الجدة التي تتحرك بإعياءٍ، والأب الذي جحظت عيناه أمام النافذة، وصاح: "ألا يريد أحد أن يخبرني؛ ماذا يجري؟ لماذا أبدوا أنا الوحيد الذي لا يفهم؟ من هؤلاء؟"

توقفت الجدة، وأجابت دون أن تلتفت نحوه: "أي شيء هذا الذي لا تفهمه يا أحمد، هؤلاء موتانا، والآن قد عادوا".

صرخت (كوثر) في فزع: "نجع الموتى. يا لرحمة الله".

وأجابتها (آمنة) مؤكدة: "نعم، ليرحمنا الله برحمته. لقد عاد بالموتى شر قديم، والله وحده يعلم كيف يمكن دحره".

هز (أحمد) رأسه بذهول. كم أراد ألا يصدق الحكايات القديمة، لكنه رأى الآن؛ كم كان ما سمعه مرارًا، وعده من الأساطير كان حقيقة الموتى في عالم البشر. عادت الجدة لتحركها، وقالت: "أخبروا الجميع أن يتركوا النجع. لم يعد النجع صالحًا للأحياء بعد الآن. أخبروهم؛ عسى أن تتغلب عقولهم مرةً واحدةً على عنادهم، وغبائهم، فيخرجوا، وينجوا بأرواحهم. فارقوا المكان بأقدامكم قبل أن تفارقوها فوق النعوش".

وهزت رأسها بأسفٍ، واستطردت:

" - فالموتى حين يعودون. لا يرحمون".



(3)

حياته السابقة كلها بدت في تلك اللحظة كحلم بعيدٍ، أو ذكرى قديمة لا تنتمي له، بالكاد يعرفها.. أولى الرائد (فؤاد) ظهره لنقطة الشرطة، ورمق الجبل الرابض في الظلام أمامه في خواء، وهو يواصل تدخين السيجارة المائة بلا شك في هذا اليوم. يعده كل من يعرفه أبشع مدخن في العالم كله، ودومًا تتهمه أمه بميله لتدمير نفسه، وقتلها بمثل تلك الشراهة في التدخين. تمامًا مثلما فعل أبوه الراحل قبل أن يموت بغتةً باحتشاءٍ في القلب. قبل أن يتم عقده الرابع من العمر، لكنه لم يأبه بما تقوله أمه، أو غيرها بشأن شراهته للتدخين. يعلم أن التدخين ليس الوسيلة الوحيدة للموت في العالم. طلقة طائشة واحدة قد تفعل في لحظةٍ واحدةٍ ما تفشل فيه الآلاف من لفافات التبغ. قد يقتله التدخين بعد أعوام باحتشاءٍ قلبي، أو ورم خبيثٍ يلتهم رئته، أو غير ذلك من القائمة المشوقة لأمراض التدخين. لكن ما زال أمامه أعوامًا كثيرةً. قبل أن يحدث هذا، ولا يدري؛ هل يظل على قيد الحياة، حتى يبلغ هذا الوقت، أم تختطفه موتة ما قبل ذلك؟ لقد واجه الموت مراتٍ عدة في السنوات القليلة الماضية، وقد أخطأه في كل مرة. لم تكن نجاته سببها مهارة، أو قدرات خاصة يمتلكها. بل كان الحظ فقط ما أنجاه.

لكن السؤال؛ هل يلازمه حظه السعيد هذا في كل مرة؟

تحرك بخطواتٍ بطيئةٍ مخترقًا الطريق المعتم المتجه للجبل. هب جندي الحراسة القائم بالخدمة الليلية لحراسة نقطة الشرطة، وتأهب لتتبعه، وحراسته. لكنه أشار له بكفه ألا يفعل. رغب في أن يختلي بنفسه، فحتى هذه اللحظة لا يصدق أن ينتهي به الحال هنا في هذا النجع المنسي البعيد في قلب الجبل. لم يتخيل قط أن يعود مجرد ضابط شرطةٍ صغيرٍ في نقطة شرطة حقيرة لا يعبأ بها أحد بعد أن ظل طوال سنوات خدمته أحد المرهوبين في جهاز أمن الدولة.. هل سقط النسر المحلق من علياء عرشه للأبد بعد أن قلموا مخالبه، وانتزعوا أجنحته كي لا يشب ثانية؟ هل كان هو السبب في ما آل إليه حاله، أم أن ما حدث كان أكبر منه؟ لم يرغب أن يلج عقله تلك الحلقة المفرغة من التساؤلات الآن، فهي لن تمنحه غير المزاج المتعكر، والغضب المتأجج.

السماء مظلمة رغم النجمات البعيدة المبعثرة بلا انتظام على سطحها، وخيم الصمت على المكان من حوله، فلم يقطعه غير نباح كلبٍ ضال من بعيد، أو هسيس ريحٍ يبعثر أوراقٍ شجرٍ ذابلة، أو أزيز حشرةٍ ليليةٍ تحوم في مكانٍ ما في قلب العتمةً. اخترق غابةً صغيرةً من الأشجار العالية تصله بالجبل، وهو يفكر؛ هل من الحكمة أن يخترق تلك الأشجار المنتصبة كأشباح مسربلة بالسواد في هذا الظلام المنذر، أم أن عليه التراجع؟ تذكر ثانيةً؛ التحذير الأول الذي تلقفته أذنه في هذا المكان؛ "تعلم أن تحافظ على حياتك هنا!" هل كان تهديدًا، أم كان نصيحة حقيقية؟ ما زال لا يدري.

تهشمت الأعشاب الذابلة، وأوراق الخريف المتساقطة أسفل قدمه، وصار الظلام أكثر قتامة، فأشعل سيجارةً جديدةً. خفقت أجنحة طائرٍ بغتةً من مكانٍ قريبٍ، ففتش بعينيه عنه، لكنه لم ير شيئًا. واصل سيره حتى وصل لنهاية الأشجار، ووجد نفسه عند سفح الجبل. رمق القمم البعيدة المظلمة، وشعر بسكينةٍ غريبةٍ تتسلل إلى روحه، وكأن هناك نداءً خفيًّا تطلقه تلك القمم الموحشة. يدعوه للحاق بها، والانصهار معها. اتخذ طريقًا متعرجًا غير ممهدٍ من الأحجار الناتئة الصلبة، وراح يرتقي الصخور، وبعد دقائق عشر؛ وجد نفسه على سطحٍ مستوٍ. يرتفع عن السفح أكثر من مائة متر، فجلس.

رمق نقطة الشرطة الرابضة أسفل الجبل كبقعةٍ شاحبة الإضاءة في لجةٍ من الظلمة. تذكر اللحظات الأولى له في المكان. كان هذا قبل أسبوع. الوقت كان عصرًا، وكان منهكًا حتى الموت بعد رحلةٍ مرهقةٍ امتدت لاثنتي عشرة ساعة منذ خرج من بيته في القاهرة. تذكر لقاؤه السخيف بمدير أمن المحافظة. كان الرجل فظًّا، وقال في خشونةٍ كان يتوقعها في الحقيقة: " أنتظر ألا تفتعل المزيد من المشاكل هنا كما حدث في القاهرة. سُمعتك تسبقك أيها الرائد، وسوهاج غير القاهرة، وأي تجاوز هنا غير مقبول، ونتيجته لن تكون في صالحك. مستقبلك بيدك، فلا تضيعه بحماقةٍ ما".

كان تهديدًا في ثوب نصيحة؛ ولأنه يتوقع أكثر من هذا، فقد اكتفى بالصمت، وفي نقطة شرطة نجع الذئاب. كان في استقباله ثلاثة عساكر من الجنود العشرة الذين يخدمون المكان، قبل أن يظهر أميني الشرطة اللذين كانا يسيّران العمل في المكان قبل قدومه. بدا وكأن الكل يعلم بذهابه، فاستعدوا لانتظاره، ومن النظرة الأولى؛ رأى كم كانت نقطة الشرطة متهالكة قديمة. كانت مجرد مبانٍ ثلاثة متوازية. يقع كل منها خلف الآخر، ويفصل كل مبنى عن الآخر باحةٌ محوطةٌ بسورٍ حجري. يرتفع لمترين على الأقل. المبنى الأول كان مخصصًا للعمل. حجرة واسعة لتقديم البلاغات، وإجراء التحقيقات. تليها حجرة لأميني الشرطة، ثم حجرته التي تليها حجرة (السلاح ليك)، وفي النهاية حجرة الحجز الملحق بها دورة مياهٍ صغيرة غير نظيفة.

المبنى الثاني؛ كان يضم في ناحية حجرة خصصت لنوم القائد ملحق بها حمّام قديم سيء الصرف، لكنه ظل نظيفًا رغم هذا، وفي الجانب الآخر؛ حجرتين صغيرتين لأميني الشرطة، ثم حمّامين صغيرين؛ أحدهما لأميني الشرطة، والآخر للجنود، وفي النهاية كان هناك عنبر واسع به أسرّة من طابقين خصص للجنود. أما المبنى الأخير، فقد علم أنه به اسطبل للخيل، ومخزن، ومستودع لسيارتي الشرطة التي يمتلكهما المكان. المباني الثلاثة كانت متساوية الارتفاع تمامًا. حيث كانت ترتفع لأمتارٍ أربعة، وتنتهي بسقفٍ خشبي متهالك من عروق خشبٍ ملونةٍ بطلاءٍ أبيضٍ تقشر، فسقط أغلبه.. المكاتب، والمقاعد الخشبية، وباقي أثاث المكان كان قديمًا، وبعضها كان مكسورًا. الجدران كانت عارية بلا طلاء. رغم البقع الرمادية القليلة التي وشت بلونٍ قديم. كان هناك يومًا. بدا، وكأن أحدًا لم يهتم بالمكان منذ عقود.

ظهر أمين الشرطة الأصغر سنًّا أولًا. كان في نحو الخامسة، والأربعين من عمره، وكان يدعى (خميس رمضان) أو الصول (خميس) كما يدعوه الجميع. كان متوسط

الطول، ضخم الجثة، يمتلك وجهًا ممتلئًا، وشاربًا خفيفًا، وأسنانًا كبيرةً مبقعة بالجير الممزوج بصبغةٍ صفراء كريهة، وكرشٍ كبير. لقيه (خميس) بترحابٍ، وتهليلٍ مبالغ فيه. بدا متحمسًا لوصوله، وكأنما ينتظر قدومه منذ قرون. كان نمطًا بشريًّا معتادًا. يلقاه طوال الوقت من أمناء الشرطة في كل مكانٍ يعمل به. أمين الشرطة المتعاون بلا حدود. الخاضع بلا قيود. المتملق بلا خجل. يعرف أنه لن يخدعه، ولن يكون ضده طالما يعمل تحت قيادته، لكنه مع ذلك لن يتوانى عن قذفه في النار بلا ترددٍ لو عمل مع قيادةٍ جديدةٍ، ورغب رئيسه الجديد في هذا. إنه عبد أي مأمورٍ حتى يذهب، فينقلب ولاؤه كليًّا للقادم الجديد، ورغم أنه لا يكن احترامًا لمثل تلك النماذج البشرية في قرارة نفسه. إلا أنه يرتاح تمامًا للعمل معهم. في النهاية لن يكون التحكم في مثل (خميس) هذا صعبًا، ولن يرهقه بأي اعتراضٍ ما.

أما أمين الشرطة الثاني، فكان مختلفًا تمامًا عن (خميس) بجسده العملاق الضخم، وطوله الذي لا يقل عن المترين، وكتفيه العريضين، وأطرافه الضخمة. امتلأ وجهه بشاربٍ كثٍ ضخم، وعينٍ سوداءٍ واسعةٍ مظلمةٍ كالقبور، وفم مطبق لا يعرف الضحك، وخلجاتٍ باردةٍ قاسيةٍ قدت من الصخر نفسه. مالت بشرته للسمرة، وبدا جلده مشدودًا بصورةٍ جعلت من العسير تحديد عمره بصورةٍ دقيقة. لكنه حتمًا كان قد تجاوز الخمسين من عمره. بدا مخيفًا مرهوبًا. وتساءل فؤاد؛ كيف يمكنه أن يرأس رجل مثل هذا؟

كان اسمه (فوزي دياب) أو الصول (فوزي)، لقيه بتحفظٍ، وهو يسأله: "هل أخبروك يا فؤاد بك، بأي شيءٍ عن نجع الذئاب، والجبل قبل أن تأتي؟"

"لا يهم ما قالوه، فأنا أنتظر أن أعلم منكما كل شيءٍ ينبغي عليّ أن أعرفه عن المكان".

"المفترض أن نقطة الشرطة هذه تخدم النجع، والجبل من حولها. رغم هذا لا يوجد من أهل النجع من قد يلجأ لها يومًا لو واجه مشكلةً ما. لا أحد هنا يحب من يتدخل في شؤونه، من خارج النجع".

"لسنا هنا لنتدخل في شؤون أي أحد. نحن هنا فقط لحفظ الأمن، وتحقيق القانون".

رمقه (فوزي) بعيونه السوداء للحظةٍ، وكأنما يختبره. قبل أن يقول ببطءٍ مقصود: "هل يمكنني إسداء النصيحة لسيادتك؟"

كان مطلبًا عجيبًا. لقيه (فؤاد) بدهشةٍ، لكنه رد بسرعةٍ: "بالطبع. كلي شوق لهذا".

" - ابق بعيدًا عن النجع، ومشاكله، ولا تهتم الا بالحفاظ على حياتك هنا".

الكلمات المقتضبة تلك حيرته، ولم يمهله (فوزي) الفرصة؛ ليخبره ماذا يقصد؟ بل غادر المكان مباشرةً بعدها، وكأنما كان يبلغه رسالةً ما، وقد انتهى من أداء مهمته، فذهب تاركًا إياه لـ(خميس) الذي طاف به في المكان ليعرفه به، وحين سأل (خميس) عنه ابتسم الأخير بترحابٍ للسؤال، وهمس، وهو يقرب رأسه: "لا تلق بالًا لما يقوله. إنه في النهاية من أهل النجع، وهو مثلهم لا يطيق السلطة، ولا يشعر بالراحة في وجودها. ربما يريد أن يبعدك عن صراعات المكان، وربما كان هناك

هدف آخر في نفسه لا أعلمه. لكن في النهاية كلماته تلك يرددها في أذن كل ضابط يأتي إلى هنا".

" - وهل يقوم أحد في النجع بعملٍ مشبوهٍ، أو أمورٍ مخالفةٍ للقانون؟"

ضحك (خميس) فبانت أسنان بشعة لم يحبها (فؤاد) وقال: "أهالي النجع كله لا يفعلون طوال الوقت غير الأشياء التي لا يقرها القانون. كل شيءٍ مخالف سوف تجده هنا. تجارة مخدرات، آثار مهربة، سلاح وذخيرة، وقطاع طرق، ومطاريد. هذا المكان كان دومًا جحيم الشرطة".

"ولماذا لم تفعلوا شيئًا معهم؟ لماذا لم ترهبوهم؟ في النهاية أنتم تمثلون الدولة والقانون والسلطة هنا".

"يا فؤاد بك، لا قبل لنا أو لأي أحدٍ آخر بهم إن ما معهم من سلاح يكفي لتسليح جيشٍ كامل، وما يمتلكونه من خارجين عن القانون؛ يفوق عدد رجال الشرطة في المحافظة كلها. هذا الجبل الذي تراه هو مأوى أغلب المطاريد في الصعيد كله".

لم يقتنع (فؤاد) بمثل هذا الكلام. مط شفتيه بلا معنى، ثم تذكر (فوزي) فقال: "وماذا عن فوزي؟ في أي جانبٍ هو في رأيك؟"

صمت (خميس) ومازال محتفظًا بابتسامةٍ لزجةٍ على وجهه، ثم قال بخبث: "ومن يدري؟"!

عاد (فؤاد) ليشعل سيجارةً أخرى، وهو يرمق الأفق المعتم في شرود. عن يمينه بدت نقطة الشرطة كبقعةٍ مضيئةٍ صغيرة لوثت سطحًا أسودًا ضخمًا حولها، وعلى يساره غرق النجع في ضبابه العجيب. ما سر هذا الضباب الغريب الذي يحيط بالنجع كل ليلةٍ منذ غروب الشمس وحتى شروقها ثانيةً؟ رآه في الليلة الأولى، وتعجب؛ كيف هبط على النجع بغتةً كثيفًا هكذا؟ وكيف لم يتجاوزه؟ كان (خميس) بالجوار، فسأله عن سره، فأجابه بعينين تحملان إجاباتٍ أكثر مما يخرجها فمه: "لا أحد يدري ما سره؟ إنه يأتي كل ليلةٍ منذ أسبوع ولا يفارق النجع حتى الصباح. ربما كان الجبل مسؤولًا، وربما هي أشجار الغابة المجاورة للنجع، وربما هو الشتاء القادم، وربما كان أمر آخر لا أعرفه".

"وكيف يدبر النجع شؤونه في مثل هذا الضباب؟ لابد أنه يعوقهم".

"لقد اعتاده سكان النجع، لكن الحياة هنا صارت تنتهي تمامًا كل يومٍ مع الظلام".

"مثل هذا الضباب يعد جنةً للصوص، وحلمًا رائعًا للمجرمين. ألم يحاول أحدهم استغلال مثل هذا الضباب في السطو مثلًا؟ هل كانت هناك بلاغات بالسرقة في الأيام السابقة".

ابتسم (خميس) بتهكمٍ واراه بسرعة، وأجاب: "لا يوجد لصوص في النجع؛ ولهذا فمن النادر أن تسمعٍ هناك عن سرقات، وحتى لو حدث هذا مثلًا، فلن يأتي أحد إلى النقطة؛ ليقدم بلاغًا متهمًا أحد رجال النجع. هذا يعد في عرفهم عيبًا وإثمًا لا يغتفر،

ولو شك رجل منهم في أحدٍ من النجع، فطريق كبراء العائلات، والمجالس العرفية مفتوح أمام الجميع؛ ليلقوا بشكوكهم فيه".

ثم سعل بعدها، وأكمل بصوتٍ هامس: "في الحقيقة؛ هم لا يؤمنون بالشرطة، ولا يثقون بها أو بما تفعله، وكما أخبرت سيادتك، فلا لصوص هناك، ولا يجرؤ أي لصٍّ أن يطأ النجع".

" - وما الذي قد يمنعهم من هذا؟"

هنا برز من الباب (فوزي) أمين الشرطة الآخر بقامته الضخمة، وعيونه السوداء الصارمة الباردة. ابتلع (خميس) لسانه على الفور. فور أن رآه دون أن يواصل حديثه. بينما قال له (فوزي) بهدوء: "تسأل كثيرًا يا فؤاد بيه"!

لم يشعر بالراحة في ذلك البرود والهدوء الذي يتحدث به (فوزي)، وشعر أنه يتحداه. كان أمرًا غير مألوفٍ أن يرى مثل هذا التحدي في عيني أمين شرطة يعمل تحت قيادته مهما علا شأنه أو سنه. في مكانٍ آخر وزمنٍ آخر كان الصدام ليكون قويًّا، لكنه آثر أن يؤجل هذا الصدام إلى حين. لماذا التعجل والوقت كله أمامه، لذا أجابه ببرودٍ مماثل: "وما العجيب في أن يعلم الرجل المسؤول عن أمن النجع كل شيءٍ عنه. أنا هنا لحماية النجع. أليس هذا هو عملنا جميعًا هنا؟"!

"أخبرتك أن النجع ليس بحاجةٍ لمن يحميه يا فؤاد بيه".

"ومن يحميه إذًا؟ أخبرني؛ هل يقوم أهله بهذا، أم ترى مطاريد الجبل تقوم بهذا؟"

أجاب (فوزي) ببطء، وهو يرمقه بعيونه المظلمة الغائرة قبل أن يغادر: "رجال النجع يعرفون؛ كيف يعتنون بشؤونهم جيدًا، فلا يقلقك أمنهم. إنهم ليسوا بحاجةٍ لرجال الشرطة ولا غيرهم".

شعر (فؤاد) بالنفور من (فوزي). لو ظل الأمر بينهما هكذا من المعاملة الخشنة وعدم التعاون، فسوف يحرص على إبعاده من المكان والعمل على نقله لمكانٍ آخر".

ذهب (فوزي) بعدها، وانتظر (خميس) حتى اطمئن أنه ابتعد ثم مال (فؤاد) وقال: "الكل هنا يعلم أن هناك تعاونًا يتم بصورةٍ ما بين رجال الجبل وأهالي النجع، وأعتقد (سليم دياب) زعيم مطاريد الجبل يقدم الحماية للنجع في مقابل هذا".

فكر في تلك اللحظة في الخطوة التي لم يقم بها منذ جاء. لماذا لا يزور النجع، ليرى كيف تسير الحياة فيه؟ لماذا لا يذهب إلى العمدة مثلًا وكبار العائلات هناك؛ ليرى هل سيكونون متعاونين معه أم أنهم حقًّا لا يرغبون في وجوده؟ لماذا يسمع عنهم طوال الوقت ولا يسمع منهم؟ ليذهب إلى هناك بنفسه ويرى بنفسه.

ومن بعيد؛ عوى ذئب، فجاوبه من الناحية الأخرى من الظلام ذئب آخر. انتهت السيجارة التي يدخنها تقريبًا، فاستعد ليشعل أخرى، وحين رفع رأسه، التقت عيناه بالعينين الصفراويين اللامعتين المحدقتين به في ثبات. كان ذئبًا ضخمًا، وكان يقف على بعد أمتارٍ منه وقد برز بغتةً من خلف أحد الأحجار الضخمة. تحسس (فؤاد)

مسدسه القابع في جرابه في قلقٍ حقيقي دون أن يرفع عينيه عن عيني الذئب، وهو يتساءل، متى ينقض؟

ومن خلف أحد النوافذ لنقطة الشرطة المطلة على الجبل؛ كانت هناك عينان حادتا الإبصار تراقبان ما يحدث فوق الهضبة في هدوء.

☆ ☆ ☆

في لحظات الخطر الميت؛ يتجمد الزمن. هذا ما شعر به (فؤاد) وهو يحدق في الذئب بتوتر، والذئب يرمقه بثبات. كانت عينا الذئب الذهبيتان مخيفتين، باردتين، جريئتين، ومتوعدتين. تراجع خطوةً للخلف بحذرٍ، وهو يفكر في الخطوة التالية للذئب. هل يهاجمه؟!

يعلم أن الذئب نادرًا ما يعيش منفردًا، بل في الغالب يفضل أن يحيا في جماعات. فتش بطرف عينيه في المكان المظلم، لكنه لم يشعر بأي ذئابٍ أخرى حوله. كان أمرًا سيئًا، فالذئب الوحيد أكثر خطرًا من هذا الذي يعيش بين جماعته. حاول أن يحافظ على رباط جأشه وأن يتحكم في خوفه. تمنى فقط لو يهدأ قلبه ويكف لحظةً عن خفقانه السريع؛ كي لا يشعر هذا الذئب بفزعه. يعلم أن الذئاب تمتلك أنوفًا حساسةً تمكنهم شم الأدرينالين الذي يفرزه الجسد بوفرةٍ عند القلق والخوف. كما أن لديها آذان حادة يمكنها سماع دقات القلب الخافتة المتوترة.

مضي الوقت ثقيلًا، والذئب منتصبٌ في مكانه لا يتحرك. رأسه مصوب نحوه وعيناه معلقتين بعينيه في تحد. أذناه منتصبتان لأعلى وظهره مستقيم. هل يدرسه الذئب قبل أن يقدم على فعلٍ ما؟ تذكر أن الذئاب تقوم بهذا غالبًا حين ترى خصمها للمرة الأولى المخيف هنا؛ أن هذا الأمر قد يستمر لساعاتٍ بلا ملل تحسس مسدسه الرابض في جرابه على جانب خصره بتحفزٍ، وحذرٍ وهو يخشى أن يقوم بحركةٍ مفاجئةٍ قد تثير الذئب.

يعرف أن تلك الحيوانات تسلك في مظهرها سلوكًا موحدًا. حين تكون الذئاب متوترة فإنها تحرك ذيلها بلا توقف. تزمجر منذرة وقد تجثم على الأرض استعدادًا للهروب، وحين الصيد تصير الذئاب متوترة، فينتصب ذيلها لأعلى. لو وافق هذا الذئب السلوكيات التي درسها فهذا ذئب لا يبدو أن يستمتع برحلة صيد كما أنه حتمًا ليس متوترًا.

أما حين تغضب الذئاب، فإنها تقوس ظهرها وينتفش فراها وتنتصب آذانها للأمام. تلوي شفتيها أو خطمها وتبرز أسنانها، ثم ترغي. لم يفعل هذا الذئب أي من هذا حتى الآن من حسن حظه؟ هذا ذئب بعيد كل البعد عن الغضب. لم يبق غير أن هذا الذئب يدرسه.!

تعجب من قدرته على تذكر كل تلك الأشياء في تلك اللحظة الحرجة. لكنه منذ زمنٍ مفتون بتلك الكائنات المتوحدة الشرسة. مهووس بشجاعتها واعتزازها بنفسها، ورغم أنها من رتبة الكلبيات حيث تنحدر مع الكلاب من أصلٍ واحد، إلا أن استئناسها على مر التاريخ ظل عسيرًا للغاية، فهي لن تحبوا أبدًا أسفل قدميك لو

قدمت لها الطعام مرةً مثل الكلاب، ولم تقبل أن تحيا بين البشر من أجل المأوى كالقطط. إنهم أسياد البراري البعيدة الذين لا يعرفون حياة الحيوانات الداجنة.

طالما أحب الذئاب وطالما قرأ عنها وعن سلوكها. تمنى لو كان في حياةٍ أخرى ذئبًا. كان ليستمتع بمثل تلك الحياة الحرة، لكنه ليس ذئبًا. إنه بشري في تلك اللحظة في مواجهة ذئبٍ قوي لا يبدو عليه الخوف وعليه الآن أن يحافظ على حياته. فكر أن يتراجع للخلف دون أن يبعد عينيه عن عيني الذئب أو يوليه ظهره. لو أدار ظهره للذئب فسوف يهاجمه بلا ريب. إن اللحظات الأخيرة لطرائد الذئاب هي اللحظات التي توليها ظهرها استعدادًا للهرب. هنا يتضح الأمر للذئاب. هناك فريسة خائفة مذعورة. لن يكون هناك المزيد من الترقب والدراسة. بل الوثب والاقتناص. لن يعدو (فؤاد) بلا شك بسرعة خمسةٍ وستين كيلو متر في الساعة كما تفعل الذئاب؛ لذا فاحتمالية الهرب من ذئبٍ بالعدو أمامه تساوي صفر.

إذًا؛ فلم يبق أمامه غير المواجهة!

رفع مسدسه ببطء، فتحرك رأس الذئب للمرة الأولى، وعيناه تتبع السلاح المرتفع ببطءٍ نحوه. هل يعرف هذا الذئب ماهية السلاح المصوب نحوه؟ وهل يدرك خطورته؟ طفت على سطح ذاكرة (فؤاد) (ريم) طفلته الحلوة ذات الأعوام الأربع. لن يموت الآن بأنياب ذئبٍ لتبكي من أجله وتحزن ما بقي من عمرها. سوف يحارب الموت نفسه؛ كي يعود إليها.

ازداد اضطراب قلبه وهو يستعد لإطلاق النار نحو الذئب. هل يفلح من الطلقة الأولى أم سيكون هناك المزيد من الطلقات؟ انتفش فراء الذئب وتقلصت شفتاه، فبانت أنيابه، وفي اللحظة الأخيرة عدل (فؤاد) عن قتل الذئب.

سيجرب أن يخيفه أولًا. رفع فوهة المسدس نحو الفضاء، وأطلق طلقةً شقت سكون الليل، وتردد صداها لزمنٍ بين الصخور صاخبًا.

لم يعدو الذئب رغم أنه راح يصدر رغاءً عميقًا من فمه وقد استطالت أنيابه. لقد غضب الذئب الآن وذهب السلام الزائف بينهما تحركت رأس الذئب نحو القمم العالية المظلمة من حوله، فرفع (فؤاد) عينيه حيث نظر، ومن الأعلى ارتفع عواءٌ طويلٌ منذر سرعان ما لحقه المزيد. تحركت رأسه بتوترٍ، فرأى الأشباح المظلمة لذئابٍ تعتلي الصخور من حوله. أحصى بعينيه خمسة ذئابٍ على الأقل. لم يكن هذا ذئبًا وحيدًا كما اعتقد. إنه ذئب يحيا في كنف عشيرته. تغير الأمر الآن ورغم تيارات الهواء البارد التي كانت تضربه إلا أن جبهته بدأت في التعرق. أدرك الآن كم كان مخطئًا حين أتى لهذا المكان بلا حراسة. الطلقات المتبقية في مسدسه لن تقتل كل تلك الذئاب والمعركة بلا شك خاسرة لو خاضها.

عاد لينظر للذئب منتظرًا أن يبدأ هجومه الوشيك. لكن الذئب لم يفعل هذا. بدا وكأنه اكتفى منه، وبعد لحظةٍ أولاه الذئب ظهره وانطلق مبتعدًا حتى اختفى جسده في الظلام.

وفي نقطة الشرطة؛ تردد صدى طلقة النار صاخبًا، وهرع (خميس) بسرعةٍ من داخل غرفته حيث يقيم بملابس النوم، قابل جندي الحراسة المتوتر، وسأله: "ما الذي يحدث؟"

"هناك من يطلق النار في الجبل".

"هل هم المطاريد".

"لا أدري، لكن الرائد (فؤاد) ذهب إلى هناك منذ الساعة".

اتسعت عينا (خميس) في رعب. هل يطارد الرائد (فؤاد) أحد المطاريد أم أنهم يتعقبونه؟ سيكون سيئًا أن يقتل الضابط الجديد بعد أسبوعٍ واحد فقط من بداية عمله في المكان؛ لذا صرخ في وجه الجندي: "ولماذا لم تخبرني بهذا منذ البداية أيها المعتوه؟ سوف أسجنك لو حدث للرائد (فؤاد) أي مكروه. انتزع كل الجنود من الفراش ولو في ملابسهم الداخلية. سوف نصعد الجبل حالًا لنبحث عنه".

واندفع نحو الداخل؛ ليحضر سلاحه، وهو يغمغم في سخط: "تبًّا. ما الذي ذهب به إلى هناك؟"

وما أن خرجت قافلة الإنقاذ الصغيرة المسلحة، وتحركت نحو الغابة، حتى رأوا شبح الرائد (فؤاد) وهو يظهر من بين الأشجار المظلمة قادما نحوهم.

☆ ☆ ☆

في تمام الثامنة صباحًا كان (فؤاد) على مكتبه يستعد للخطوة التي قرر القيام بها. سوف يزور النجع اليوم. دخل عليه (عبدالصمد) الجندي المكلف بخدمته حاملًا كوب الشاي الذي طلبه، ثم ظهر (فوزي) خلفه بجسده الضخم، ومن اللحظة الأولى رأى (فؤاد) بعض الغضب الرابض في عينيه، وقال (فوزي) فور أن قدم له التحية: "أخبروني بما حدث الليلة الماضية لك في الجبل".

ارتشف (فؤاد) بعض الشاي من كوبه، وأجاب بهدوء: "لقد مضى الأمر بسلام. إنه مجرد حادث".

"لن يكون هكذا في كل مرة. نجع الذئاب ليس القاهرة والجبل ليس ملهى ليلي آمن لتذهب إليه. ما قمت به كان تصرفًا غير مسؤولٍ هنا. كنت لتكون ميتًا الآن لو هاجمتك الذئاب".

"لكنني ما زلت حيًّا أمامك ولم أمت، هل تخاف عليّ؟"

قالها (فؤاد) ببعض السخرية، تبادلا النظرات بعدها في صمت. العجيب أن (فؤاد) لم ير في عيني (فوزي) التحدي هذه المرة. كان هناك الضيق والغضب. أشعل سيجارةً جديدةً وقال: ما الذي تخشاه، يا فوزي؟"

"أنا لا أخشى شيئًا. لكن أنت من عليه أن يفعل. أنت غريب عن المكان ويلوح لي أنك لا تدرك أخطار الجبل. الجبل قاسٍ كصخوره، ولا يعرف الرحمة".

"أخبرني إذا عن تلك المخاطر التي أجهلها. أريد أن أعلم".

جلس (فوزي) على الكرسي الخشبي المواجه لفؤاد، وقال بلهجةٍ مختلفةٍ عما اعتاد (فؤاد) أن يسمعها: " يا حضرة الرائد، لست أول ضابط يعمل في النقطة. آخر واحدٍ قبلك كان الرائد (صلاح بسيوني). عمل لثلاثة شهور قبل أن نعثر عليه مقتولًا بين الأشجار المؤدية للجبل. حدث هذا داخل تلك الغابة الّتي تسللت عبرها لتصل للجبل بالأمس قبل أعوامٍ ثلاثة. وبعدها أخبرونا أن نتولى نحن أمر المكان هنا. علمنا أنهم لن يرسلوا ضابطًا للعمل هنا ثانيةً ولهذا لك أن تتخيل مقدار دهشتنا حين أتيت. أنت أول ضابطٍ يطأ نقطة الشرطة هنا منذ ثلاثة أعوام.

علم (فؤاد) بأمر الضابط الذي عمل بالمكان قبله وقتل. أخبروه بذلك في مديرية الأمن. لكنه أراد أن يعرف المزيد، فقال: "وهل علمتم من قتله؟"

"لا أحد يعلم. كانت طلقة غادرة أطلقت نحوه في الظلام وحين وجدناه. كان رأسه قد تفجر".

"هل فكر أحدكم في مطاريد الجبل؟. أليس محتملًا أن تكون أيديهم ملوثة بذلك الأمر؟"

سأل (فؤاد) وعيناه مثبتتان على وجه (فوزي). لكن وجه الأخير ظل خزانةً مغلقةً على أسرارها وهو يجيب: "ليس بالضرورة. لقد نجح المرحوم في اكتساب عداوة الجميع في فترةٍ وجيزة. أهل النجع والبدو الذين يرتحلون في المكان وبالطبع المطاريد. أراد أن يفرض سطوته منذ البداية".

" - هذا من صميم عمله. إنه ضابط الشرطة المسؤول عن أمن المكان ومن حقه أن يهابه الكل. لو لم يفعل هذا لعُد متقاعسًا. ربما قتلوه لأنه أراد أن يقوم بواجبه".

لم يجب (فوزي) على الفور. انتفخت فتحتي أنفه، وهو يتنفس نفسًا عميقًا، وتنهد قبل أن يجيب: "الرائد (صلاح) كان عنيدًا لا يثق إلا في عقله. أراد دس أنفه في كل شأنٍ من شؤون المكان دون معرفة طبيعته الخاصة. لقد قمت بواجبي وأخبرته منذ اللحظة الأولى أن لا يتدخل في شؤون أهل النجع. أخبرته أن القوم هنا لا يميلون للسلطة ولا يعترفون بغير أعرافهم. النجع هنا لديه قوانينه وعاداته وأعرافه التي تسيّر حياة النجع بنجاحٍ منذ مئات السنين، وتلك الأعراف يلتزم الجميع بها".

"وهل تسري تلك القوانين على المطاريد والخارجين عن القانون الذين يهددون معيشتكم وأمن من حولكم؟ هل جلبت لهم أعرافهم وتقاليدهم الحماية من هؤلاء المجرمين؟ أم أن قانون الأقوى هو كلمة السر هنا؟"

"وهل فعلت السلطة والقوانين؟ هل نجحت الشرطة في القضاء عليهم؟ هل تدرك كم مرة هاجمت الشرطة الجبل لتعقب المطاريد؟ لقد فعلتها عشرات المرات، وفي كل مرةٍ كانت تفش وقد فقدت الكثير من رجالها. الكل هنا يعلم أن لا أحد قادر على تهديد المطاريد في أرضهم، ورغم هذا فهم لا يسببون تهديدًا للنجع".

رمقه (فؤاد) في شك ونفث في الفراغ سحابة كثيفة من دخان سيجاره. قبل أن يقول ببطء: "لا أدرى؛ لماذا أشعر أنك تدافع عن النجع، والمطاريد، وأنك توافقهم في رفضهم لوجودنا في المكان رغم أنك تعمل في الشرطة".

أجابه (فوزي) في برود: "اسمع يا فؤاد بك، أنا كما تعلم من أبناء هذا النجع وأكثر من يعلم هنا كيف يفكرون؟ وكل ما أرغب فيه هو ألا تلاقي مصير من سبقك. المكان خطير لمن لا يدرك أعرافه وعاداته وقوانينه والشيء الوحيد الذي عليك أن تهتم به هنا هو أن تحافظ على حياتك".

"أحيانًا يبدو حديثك وكأنه يحمل التهديد في طياته وليس النصيحة".

"ولماذا تظنني أفعل؟! أنت ضابط الشرطة المسؤول عن المكان وأنا مجرد أمين شرطة منوط به مساعدتك في عملك".

"وهل تفعل حقًّا؟ هل تؤدي واجبك دومًا، حتى لو اعترض عليه أهلك في النجع أو تعارض مع مصالحهم".

ابتسم (فوزي) بشيءٍ من المرارة، وأجاب: "هذا ما أقوم به منذ عشرين عامًا يا فؤاد باشا، أتلقى الأوامر وأنفذها كما يقتضي الأمر؛ ولهذا ما زلت أعمل في الشرطة حتى الآن ولم يتم طردي من الخدمة. لا أحد اتهمني بالخيانة من قبل".

ثم نهض من كرسيه وكأنما أراد إنهاء المناقشة، وأردف: "وكما أخبرتك؛ المكان هنا خطير وأموره معقدة، والرائد (صلاح) لم يكن الضابط الأول الذي يقتل في هذا المكان. لقد قتل ضابطين قبله في آخر عشر سنين، وأرجو أن تصدقني حين أقول لك أنني لا أتمنى أن يزيدوا واحدًا".

كانت هي المرة الأولى التي يعلم فيها (فؤاد) أن هناك ضباطًا آخرين قد ماتوا قبل الرائد (صلاح).. لا يدري؛ لماذا لم يخبروه بهذا الأمر في مديرية الأمن قبل مجيئه؟ ووجد نفسه يتساءل؛ هل أرسلوه هنا ليلاقي حتفه؟ كان هذا احتمالًا معقولًا، فهو يعلم أن وزارة الداخلية الآن تعج بمن يرغبون في القضاء عليه".

قرر ألا يسأل (فوزي) عن الباقين الآن، فهو لا يرغب أن يزيد من التوتر في نفسه في الصباح، وغمغم، وهو يسحق عقب السيجارة المحتضرة في مطفأة السجائر الزجاجية التي على يمينه: "سوف أذهب لزيارة النجع الآن.

سل أحد الجنود أن يختار لي حصانًا أذهب به".

"ولماذا تريد أن تذهب إلى هناك؟ هل حدث شيء؟"

"هل تعتقد أن عليّ أن أنتظر حتى تحدث جريمة؛ لأذهب إلى هناك؟ أريد أن أرى المكان والأهالي وأن يراني الجميع كذلك، على الكل أن يعلم بقدومي".

اكفهر وجه (فوزي) لكنه وككل مرةٍ نجح في السيطرة على نبرة صوته المحايدة، وهو يقول: "كما تشاء، سوف آتي معك؛ لأدلك على الطريق".

أجابه (فؤاد) بسرعة رافضًا اقتراحه، وهو يرمق العينين السوداوين بثبات: "كلا، سوف أذهب هذه المرة بمفردي. أعتقد أنني أعرف الطريق، وإذا احتجت لسؤال أحدٍ، فيمكنني أن أسأل أي عابر".

لم يتعكر وجه (فوزي) لرفض اقتراحه. وقال في برود: "كما تشاء يا سيادة الرائد، طالما تلك رغبتك".

قالها وغادر الحجرة على الفور، فتنهد (فؤاد) وزفر بقوةٍ في توتر.

☆ ☆ ☆

دق الهاتف الأرضي بإلحاح، وقبل أن ينتهي الرنين المعدني المميز له، التقطت سماعته يد غليظة مسنة ورفعتها نحو أذن صاحبها الذي هتف: " من هناك؟"

كان الحاج (حسنين) وعبر الهاتف أتاه صوت يعرف صاحبه: "الرائد الجديد في طريقه إليكم. إنه مزعج كما يبدو تمامًا مثل من سبقه".

شعر الحاج (حسنين) بالانزعاج، وهتف: "وماذا يريد منا الآن؟ لا وقت لدينا لمثل تلك المهاترات؟"

" - لا أدري. لكن احذروا منه. إنه ماكر لئيم".

جلس الحاج (حسنين) على الأريكة الخشبية، وتنهد قبل أن يردد: "حسنًا. سأكون بانتظاره" .

"أرجو ألا يتحدث أحد من النجع إليه".

"لن يفعل أحد. اطمئن".

أغلق الحاج (حسنين) الهاتف، وتراجع بجسده للخلف على المقعد الخشبي المربع ذو مسند الظهر القطني. قبل أن يرفع سماعة الهاتف ثانيةً، ويدير قرصها ليطلب شخصًا ما، وهو يتمتم بضيقٍ وصداعٍ مريعٍ ينهش خلايا مخه:

"وكأن هذا ما كان ينقصنا"!

ثم انتبه للصوت الذي أجاب عبر الهاتف، فقال بسرعة: "ألو. أنا الحاج حسنين".

☆ ☆ ☆

حث (فؤاد) الحصان أن يعدو فراحت سرعته تتزايد على الطريق الصخري المؤدي للنجع وارتفع بقوة في الفضاء صدى وقع حوافره وحدواته المعدنية على الصخر. كان الجبل على يساره ولاح النجع أمامه من بعيد كبناياتٍ مبهمةٍ سرعان ما راحت تفاصيلها تتضح. راقه العدو بالحصان، الأمر الذي يفعله منذ سنوات، وبدا وكأن هذا الأمر يروق للحصان كذلك. أبطأ قليلًا؛ حين رأى مبنى ملتصق بالجبل. كانت هناك سيدتان ترتديان ثوبًا أسودًا واسعًا تتقدمان نحوه. حملت الأولى طفلًا وجرّتْ الثانية طفلًا يصرخ والمخاط يملأ أنفه. صار بمحاذاتهما فقرأ اللافتة الخشبية المعلقة أعلى بابه المدون عليها؛ (الوحدة الصحية لنجع الذئاب) إذًا؛ فالمكان لا يخلو

من رعاية الحكومة رغم وجوده في هذا المكان الناء، فها هي وحدة صحية تقدم الخدمة الطبية، وحتمًا هناك أطباء طالما هناك مرضى. فراودته فكرة أن يزور المكان أثناء عودته من النجع. خرج عجوز يمتطي حمارًا ضامرًا في تلك اللحظة من باب الوحدة، رمقه للحظةٍ ثم أبعد عينيه عنه على الفور، وهو يضرب ظهر الحمار ويحثه على التحرك.

الأمر الذي أدركه (فؤاد) منذ الوهلة الأولى أن هؤلاء قوم متحفظون للغاية، ولا يبدو أنهم يثقون بالأغراب أبدا، وكأن ما قاله (فوزي) صحيحًا، فالنساء حين رأينه نظرن له لأقل من اللحظة ثم تحاشين النظر إليه ثانيةً وكأنه غير موجود. وكان هذا نفس ما فعله الشيخ حين رآه.

استغرق الطريق دقائق عشر تقريبًا حتى وصل بالحصان إلى مشارف النجع، فشد (فؤاد) لجامه، ليبطئ من سرعته. كان قد ارتدى حينها زيه الرسمي كاملًا، وحرص على أن يبدو سلاحه الراقد في حزامه بارزاً. برقت النجوم الثلاث على كتفه مع أشعة الشمس فبدت كشموسٍ صغيرةٍ تشع أعلى كتفيه. في الواقع كان يرغب في أن يصرخ في الجميع بسلطته. أراد أن يعي الكل هنا ممثل الحكومة الأول. لم يكن قد عمل في أي بقعةٍ من الصعيد من قبل، لكن زملاءه الذين قضوا بعض الوقت في الصعيد خلال خدمتهم؛ أخبروه أن الصعيد لا يؤمن بغير القوة. بينما أكد له الرائد (هشام) زميله في عمله السابق في أمن الدولة، والذي عمل لأعوامٍ طويلةٍ في أمن سوهاج؛ أن الضابط الصلب العنيد هو الضابط الناجح المرهوب في الصعيد.

ورغم كراهيته للمكان وللعمل هنا إلا أنه لا يريد الفشل. لم يكن يومًا ضابطًا متقاعساً، ولن يصير هذا الضابط الآن. إذا رغبوا هنا في الضابط القوي فهو ذلك الضابط بلا شك، ولو أرادوا اختبار هذا فهو مستعد تمامًا للتجربة.

مر ببعض الصبية وهم يتجهون نحو الجبل بالأغنام للرعي. رمقه الصبية للحظةٍ ببعض الفضول، قبل أن ينصرفوا عنه تمامًا بلا اكتراث. مر بعدها ببعض الآبار التي تتوسط الأراضي الزراعية حول النجع، كان هناك بعض المزارعين المنهمكين في زراعة الأرض المخططة، والتي امتدت أمام بصره في تجانسٍ حتى مد النظر. مرةً أخرى لم يرفع أي واحدٍ رأسه نحوه لينظر من يكون؟ وكأنه غير موجود.

وصل بعدها إلى أول دور النجع. كانت الطرقات خاوية في تلك الساعة من المارة رغم ان الوقت ظهرا. رفع رأسه نحو السماء فرأى كتل السحاب الرمادية الكثيفة التي تظل النجع. العجيب أن الطريق خارج النجع كان مشمسًا تمامًا بلا سحابةٍ واحدة، لكنه فور أن دخل النجع؛ تغير الأمر إلى النقيض، سماء ملبدة بالغيوم، وشمس قد توارت.

كانت كل البيوت المبنية بالصخر مغلقة. تحرك بحصانه ببطءٍ في الشارع، وهو لا يدري إلى أين يتجه. كان يقصد بيت العمدة، وقد خطط قبل أن يأتي أن يستعين بأحد المارة في النجع ليرشده إلى مكانه، لكن لا أحد من المارة ظهر حتى تلك اللحظة. شعر بعينيين تراقبانه خلف أحدى النوافذ، فالتفت نحو النافذة، لكنها أغلقت في وجهه

على الفور. واصل التحرك قبل أن ينحرف الطريق لليمين، فانحرف معه. هنا ظهر حشد غير بعيد أمام أحد المساجد، كان هناك الكثير من الصبية والرجال، وكانت هناك بعض النسوة المتشحات بالسواد يبكين بصمتٍ بجوار جدار المسجد. ساد صمت رهيب على المكان كله لم يقطعه غير صدى الأحذية التي تطرق الأرض الصخرية بحركةٍ رتيبة. أدرك أنها جنازة وفكر أن يجتازها، لكنه وجد أنه من غير اللائق أن يخترقها على حصانه هكذا. نظر حوله، ولمح الطريق الجانبي فتحرك نحوه، وهو يتمنى أن ألا يكون مسدودًا.

لا يدري؛ لماذا شعر أن هناك أمرًا ما غير مألوف في هذه الجنازة؟ تمنى لو يسأل أحدهم عنها لكنه لم يفعل. ظل يتحرك ببطءٍ في الطريق الجانبي حتى انتهى إلى مفترق طرق، فتوقف بالحصان وهو لا يدري الي أين يتجه، وفي اللحظة التالية سمع وقع أقدامٍ حافيةٍ لطفلٍ يهرول من خلفه، ربما ليحلق الجنازة استدار إليه واستوقفه قائلاً: "انتظر من فضلك. أريد أن أذهب إلى العمدة. هل تعرف الطريق؟"

رمقه الصبي الذي لم يتم عامه العاشر بريبةٍ، ونفور. قبل أن يشير نحو اليمين، ويقول باقتضاب: "إنه في آخر الشارع".

" - هل يمكنك أن تقودني إليه؟"

لكن الصبي تجاهله، وواصل عدوه نحو الجنازة. صرخ فيه بصوتٍ مرتفع: "توقف يا ولد، انتظر".

لكن الصبي لم يتوقف. لم يعد أمامه غير أن يتحرك إلى حيث أشار الصبي. مر ببعض الدور الساكنة المغلقة، وفي نهاية الشارع؛ ظهر على يمينه بيت ضخم كالقصر محاط بسورٍ متوسط الارتفاع من الحجر الرمادي ومحاط بأشجار النخيل والنباتات المتسلقة. خمن أنه بيت العمدة. انحرف إلى مدخله بحصانه فوجد الحاج (حسنين) يجلس على أريكةٍ خشبيةٍ في صدر البيت الفخم، والحاج (حمد) إلى بجانبه. نهض الحاج (حسنين) فور أن شاهد الحصان وانتبه إليه الكثير من الخفر الذين انتشروا في الحديقة الواسعة التي تحيط بالبيت. تحرك الحاج (حسنين) نحوه لاستقباله، وقال دون أن يبدو هناك ترحيب حقيقي على وجهه: "مرحبًا يا حضرة الضابط، أنا الحاج (حسنين الخلفاوي) عمدة النجع، وكبيره".

لوي فؤاد عنق الحصان ليقف بالجنب، وقال من مكانه: "أشكرك لاستقبالك لي يا حاج حسنين، أنا الرائد (فؤاد) قائد النقطة الجديد. يلوح لي وكأنكم كنتم في انتظاري؟"

هنا تحدث الحاج (حمد) بهدوءٍ وقد نهض من على الأريكة وتوقف إلى جوار العمدة: "وكيف ننتظرك، ونحن لا ندري أنك قادم أيها الضابط".

هبط (فؤاد) من على حصانه، ومد يده مسلمًا على كليهما، وقال: "ربما أخبركم أحد ما بقدومي؟"

ضاقت عينا الحاج (حمد) وكأنما يختبره، وغمغم: "أحد مثل من؟"

أجاب (فؤاد) بابتسامةٍ خفيفةٍ على وجهه، وببطء: "وما أدراني؟"

ابتسم الحاج (حمد) بتكلفٍ، وقال: "تفضل بالجلوس يا حضرة الضابط، ودع عنك شكوكك هذه. لا شيء مما تقوله يحدث، ولا أحدٌ قد أخبرنا بشيء"

" - يمكنك أن تناديني بالرائد (فؤاد) لقد ذكرت اسمي حالًا".

قال الحاج (حسنين) وهو يشير بكفه نحوه: "مرحبًا بك يا فؤاد بك، دع الحصان ولا تقلق بشأنه. حصانك يعرف المكان ويعرف إلى أين يذهب؟ هناك من سوف يعتني به. تفضل بالجلوس".

بالفعل تحرك الحصان ما أن أطلق لجامه نحو الحديقة. قبل أن يختفي خلف أحد الجدران وقد اندفع أحد الخفر إليه، واصطحبه، وقال الحاج (حسنين) وعيناه معلقتان به في تشكك: "ما هو شرابك يا فؤاد بك".

"لا شيء على الإطلاق يا حاج حسنين، أشكرك. فقط لو تسمح لي بتدخين سيجارة".

"بالطبع.. بالطبع. كن على راحتك".

أخرج (فؤاد) علبة سجائره من جيبه. أخرج واحدةً منها بهدوء، ووضعها بين شفتيه، ثم أخرج قداحة أشعلها بها. سحب منها نفسًا طويلًا، ثم أطلقه لأعلى في بطء، وقال ببعض الود: "للأسف أدخن بشراهة، ولا تمضي ساعة دون أن أشعل واحدة".

لم يعقب أي من الرجلين على محاولته للتودد، بل ظلا يرمقانه في تشككٍ وضيقٍ لم يجاهدا في إخفائه. علم أنه غير مرحب به في المكان، لكن هذا آخر ما كان يقلقه، فواصل حديثه: "رأيت جنازةً، وأنا في الطريق إلى هنا".

بدا التوتر للحظةٍ على وجه الحاج (حسنين) ونظر للحاج (حمد) الذي أجاب على الفور: "إنه ابن عمي (علوان). لقد مات بالأمس".

لم تخف النظرة المتوترة التي تبادلها الرجلان عن عيني (فؤاد) الحادتين، فقال ببطء: "البقاء لله يا حاج حسنين، لكن كيف مات؟"

" - كما يموت كل الناس يا فؤاد بك، لقد حان أجله".

أجابه الرائد (فؤاد): "ربما كانت حادثة؟"

قالها وعيناه معلقتان بوجه الحاج (حسنين) رغم أن الحاج (حمد) كان من يجيبه. منذ البداية أدرك (فؤاد) أن الحاج (حمد) داهية أما الحاج (حسنين) فرغم كونه العمدة، والأعلى شأنًا في المكان كما يبدو، إلا أنه أقل دهاءً من الحاج (حمد) وأكثر عصبية. كان جليًّا أن تساؤلاته تلك تزيد من توتر الرجل. هل هناك ما يخفيه الرجل، أو يخاف أن يعرفه؟ وسمع الحاج (حمد) يقول مجيبًا سؤاله: "كلا، لم تكن حادثة. لقد مات على فراشه".

لا يدري؛ لماذا شم رائحة الكذب في كلام الرجل؟ هل هي غريزته البوليسية التي أثقلها خبرته بالعمل، أم هو تشككه الذي لا يفارقه؟ وقال بعد أن سحب آخر نفس في سيجارته: "ليرحمه الله. الآن. تقبلا تعازيّ".

مرةً أخرى؛ عاد الرجلان لصمتهما. بعد أن تبادلا النظر، طال الصمت، و(فؤاد) يراقب سعف النخيل الذي يهتز ببطءٍ مع تيارات الريح الخفيفة. في النهاية أدرك أن عليه أن يواصل الحديث: "لقد أتيت إلى هنا؛ لزيارتكم، وأيضًا؛ لأرى كيف يمكننا أن نتعاون؟"

عاد الحاج (حسنين) للتحدث، وقال ببعض الاستنكار: "نتعاون في ماذا؟"

"في حفظ أمن المكان، وتطبيق القانون. هذا هو عملنا كما أعتقد".

"النجع يا فؤاد بك، آمن كما لا يكون في أي مكان غيره، ولا يوجد فيه من يتخطى القانون. لا تقلق بشأنه أبدًا".

كان في صوته بعض الحدة. تجاهل (فؤاد) هذا، وقرر أن يكون أكثر برودًا:

" - وماذا عن قطاع الطرق ومطاريد الجبل. إنهم في كل مكان حول النجع كما أعلم".

أجابه الحاج (حمد) بهدوءٍ وبرودٍ مماثل: "ماذا عنهم؟ لا أفهم ما تقصده. كما لا أفهم معنى قولك؛ إنهم في كل مكان حول النجع.. الكل هنا يعلم أنهم في الجب، ونحن في النجع".

" - حتمًا قد يهبطون إلى النجع أحيانا".

بدا الضيق على وجه الحاج (حسنين) وقال بغضب: "النجع يا فؤاد بك لا يدخله غير أهله، ولا صلة له بالجبل أو مطاريده. لو شئت ملاحقتهم فها هو الجبل أمامك. اذهب إليهم وأفعل معهم ما تشاء، لكن بعيدًا عنا".

كان جليًّا أنه فقد التحكم في أعصابه تمامًا، وشعر الحاج (حمد) أن عليه التدخل، فقال بهدوء: "لو كان أحدهم قد أخبرك أن هناك ما يربطنا بالمطاريد فهو مخطئ تمامًا. إنهم خارجون عن القانون ونحن لن نأوي من يخرق القانون بلا شك. أليس كذلك؟"

تبادل (فؤاد) معه النظرات النافذة المتحدية. قبل أن يقول ببطء: "ربما".

ظل الحاج (حسنين) على غضبه وقد راحت قدمه تهتز أسفل جلبابه توترًا، وأزعج هذا الحاج (حمد) لكنه لم يكن يملك ما يفعله ليمنع هذا، فاكتفى بالنظر إليه محذرًا، وكأنه يقول له: " تمالك نفسك يا رجل، ولا تفضحنا"، وبعد لحظاتٍ قرر (فؤاد) أن يواصل هجومه، وقد ثبت عينيه على وجهه: "أخبرني يا حاج حسنين، هل يعمل أحد هنا في تجارة الآثار؟"

بدا أن هذا أكثر من قدرة الحاج (حسنين) على التحمل، فاحتقن وجهه وتسارعت أنفاسه، وصاح وهو يلوح بكفه المعروق في وجهه: "ما هذا الذي تقوله يا حضرة

الضابط، أي تجارة آثار تلك التي تتحدث عنها؟ هل جئت لتلقي علينا اتهاماتك السخيفة هذه؟"

أنا لم أتهمك بشيءٍ يا حاج حسنين، أنا فقط أتساءل. سمعت أن المكان يعج بالمقابر الفرعونية المجهولة، ولابد أن هناك من ينقب عن تلك المقابر؛ ليفوز بكنوزها.

هنا قال الحاج (حمد) ببرود: "هذا كلام لا نعلم عنه أي شيء. النجع كما ترى رغم اتساعه مجتمع صغير لا أسرار فيه، ورجال النجع كلهم يعملون في الزراعة أو الرعي أو التجارة، ولا يعرفون أي عملٍ آخر غير هذا..

"هل يعني هذا أنه لا آثار بالمكان؟"

"وما أدرانا؟ يمكنك أن تبحث بنفسك لتعرف إجابة سؤالك".

"قطعًا لن أبحث بنفسي، لكنني سوف أعلم حتمًا كل ما أرغب في معرفته".

أطبق الصمت للحظة، ونظر الحاج (حمد) في ساعته، ثم قال: "معذرةً يا حضرة الضابط، لكن هناك جنازةً بانتظارنا، ولقد تأخرنا".

بدا، وكأنهم ينهون اللقاء. نهض (فؤاد) وأدرك أنه قد نجح في غرس بذور العداوة بينه، وبينهم من المرة الأولى.. لكن اللقاء كان مثمرًا للغاية.. لقد أدرك أن هناك ما يخفيه هؤلاء. وقال ببطء وهو يستعد للرحيل:

"حسنا، تقبلا تعازيّ ثانية، ومازلت أطمح في تعاون مثمر بيننا، الي اللقاء"!

صفق الحاج حسنين بكفه على الفور دون أن يدعوه، ليظل مدة أطول معهم، فظهر رجل نحيف رث الهيئة مصطحبًا حصانه. امتطاه وتحرك مغادرًا النجع. لقاه البعض وكما حدث حين دخل النجع تجاهلوه تمامًا، وكأنهم لا يعرفونه. غادر النجع فأبطأ من سرعه الحصان قبل أن يشعر بإغراءٍ ما لدخول الغابة الصغيرة مرةً أخرى. كانت على يمينه فحول اتجاه الحصان إليها. دلف طريقٍ ظهر بين الأشجار وراح يتحرك بحصانه ببطء. كانت الغابة ساكنه وكان غريبًا أن لا أصوات حيواناتٍ أو طيورٍ في المكان، وحين بلغ منتصفها، ترجل من فوق الحصان كي لا يصطدم رأسه بالأغصان المتدلية المنخفضة. هنا شعر في تلك اللحظة أن هناك من يتبعه. توقف على الفور.

صهل الحصان فربت على عنقه ليهدأ وأصغى السمع. كانت هناك قدمان حذرتان تطآن العشب الجاف بالفعل وتتجه نحوه. استدار بسرعةٍ وشهر سلاحه وصوبه بتحفزٍ نحو القادم. كان شاب في العشرين من عمره تقريبًا، نحيف الجسد، أسمر البشرة، وسيم الملامح، ذا عينين لامعتين ذكيتين. لوح نحوه بسلاحه ما إن اقترب الشاب منه، وقال بحزم: "من أنت؟ ولماذا تتبعني؟"

توقف الشاب على بعد خطواتٍ منه، ورمقه للحظةٍ لاهثًا، وكأنما كان يعدو قبل أن يقول: "ليس مهمًا من أنا؟ لكنني هنا لأخبرك بأمرٍ ما".

تبادلا النظر للحظةٍ، وهز (فؤاد) رأسه ببطءٍ دون أن يخفض سلاحه عن الشاب في انتظار أن يواصل حديثه: "لقد شاهدتك أمام جنازة الحاج (علوان) منذ قليل، ويمكنني أن أخمن أنك ذهبت بعدها إلى بيت العمدة. أتمنى لو كنت سألتهم، كيف مات الحاج علوان؟"

ارتفع حاجبه في دهشةٍ، وهتف:

"ماذا تريد قوله يا هذا؟ لقد سألته بالفعل؛ كيف مات الرجل؟ وأجابني أنها موتة طبيعية".

"هذا غير صحيح. لقد كذب عليك".

"إذًا. كيف مات؟"

"لا وقت هناك للشرح، فلا أريد أن يرانا أحد معًا، كما لا أريدك أن تخبر أي شخصٍ أنني حدثتك، لكن اعلم أنهم متورطون في قتله. ابحث كيف مات، وستصل حتمًا".

قالها، وهو يتراجع وأكمل:

"سوف أذهب الآن، كي لا أتخلف عن الجنازة. لكننا سنتحدث مرةً أخرى".

" - انتظر يا هذا! من أنت؟ ولماذا تخبرني بهذا؟"

لكن الشاب ابتعد عنه، ثم انحرف نحو طريقٍ جانبيّ، واختفى جسده بين الأشجار الكثيفة دون أن يجيب.

☆ ☆ ☆

تحرك في الغابة مترجلًا عن حصانه الذي تبعه ببطءٍ في دروبٍ معشوشبةٍ تضيق وتتسع بين الأشجار التي بدأ أغلبها يفقد أوراقه. إنه أواخر الخريف، والأشجار تستعد للشتاء كما تفعل منذ الأزل بالتعري. كان يفكر في ذلك الشاب الذي ظهر أمامه فجأة ليلقي باتهاماتٍ خطيرة. قبل أن يرحل في عجلة. ندم على أنه لم يرغمه على التوقف ليستجوبه. لكن الشاب سوف يعود ثانيةً، كان متأكدًا من هذا. حدسه البوليسي، وغريزته تؤكد هذا، وفي المرة القادمة سيكون بانتظاره، ولن يدعه حتى يخبره بما يريده. ظل يتحرك حتى ظهر طريق جانبي إلى يمينه يطل على الوحدة الصحية. نظر إلى ساعته. كانت الثانية عشر ظهرًا وخمس دقائق. ما زال الوقت مبكرًا.

انحرف بالحصان متخذًا طريق الوحدة الصحية، ثم دلف المبني المشيد على شكل حرف .(L) في هذا الوقت؛ كانت هناك امرأة واحدة تجلس على (دكة) خشبيةٍ في فناء المكان بانتظار الطبيب حتمًا. تحرك نحو شجرةٍ في الفناء، وربط الحصان فيها، ثم تحرك نحو الحجرة التي خمن أنها مخصصة للطبيب. كانت هناك ممرضة بدينة ترتدي جلبابًا أبيضًا واسعًا غير مهندم، وكانت تصرخ في أمٍّ تحمل لفافةً بها رضيع بصوتٍ غليظ؛ أن تهتم بإعطاء الطفل جرعات الدواء في موعدها. رأته الممرضة، فابتلعت كلماتها وتوترت، ثم دخلت دون أن تكمل حديثها للفتاة الصغيرة

الضئيلة التي تحمل الرضيع. لحظات، وظهر الطبيب الشاب. كان ممتلئ الجسد قليلًا. شعره خفيف، وملامحه طفولية إلى أقصى حد. من العسير بحق؛ أن تصدق أن هذا الفتى تخطى العشرين من عمره..

مد الفتى ذراعه نحوه، وقال بتوتر: " أنا الدكتور (بهاء الدين علي) طبيب الوحدة".

أجاب (فؤاد) وهو يخلع نظارته الشمسية، ويمد يده الأخرى مسلمًا: " الرائد فؤاد. قائد نقطة الشرطة. هل تعرفها؟"

أعرفها؟! بالطبع أعرفها. أنتم جيراني الوحيدون في المكان يا فؤاد بك، فقط أشعر بالدهشة".

"ولماذا تفعل؟"

لا أدري. اعتقدت أنها موجودة في المكان للمراقبة مثلًا. لم أر يومًا أحد من النجع، أو من خارجه يلجأ إليها. لم أسمع عن قضيةٍ تحقق فيها، ورغم أني أمر بها كثيرًا، وأنا في طريقي نحو المدينة. إلا أنني لا أرى بها غير اثنين من أمناء الشرطة. كما أتذكر، وبعض العساكر. لم يكن هناك ضباطًا من قبل".

"يبدو أن هناك من تحمس؛ لزيادة العاطلين بها فردًا، فقرر إرسال ضابط على سبيل التغيير. أنت محق في الواقع، فالكل داخل النقطة يتعفن من البطالة، وعدم العمل".

اتسعت ابتسامة (بهاء) وزال بعض توتره من رؤيته للنجوم الثلاث اللامعة على كتف (فؤاد) وقال: "أتمنى لو تنتقل مثل تلك الحماسة للأوغاد في مديرية الصحة؛ ليرسلوا طبيبًا آخر. أنتم تتعفنون من عدم العمل، وأنا أكاد أن أهلك من كثرة العمل".

" -تعمل في المكان بمفردك؟"

أشار (بهاء) إلى الممرضة البدينة، وهو ينظر إليها: "مع تلك الفاتنة. أم سلام، الممرضة الوحيدة في المكان مثلي. إننا وحيدان في الجبل نغني أنشودة العزلة طوال اليوم".

ابتسم (فؤاد) رغمًا عنه، فـ (أم سلام) هذه مع بدانتها؛ كان آخر شيء قد توصف به هو الجمال. كانت في الخمسين من عمرها تقريبًا، سمراء البشرة، غليظة الملامح، وجهها مليء بالحفر نتيجة حب شبابٍ قديم، أو إصابة سابقة بالجديري المائي. لكن بدا عليها الطيبة، وهي تضحك لتعليق الطبيب الشاب بلا ضيق. بدا وكأنها اعتادت سخريته..

انتبه (بهاء) للمريضة التي تنتظر دورها، فقال لفؤاد بإحراج:

"ما رأيك لو تنتظرني بحجرتي، حتى أنتهي من تلك المريضة؟ إنها الأخيرة كما ترى، ولن أتأخر".

"بالطبع يا دكتور، لا أرغب في أن أعطلك عن عملك. لكن أين الحجرة؟"

قادته (أم سلام) لحجرة الطبيب التي كانت آخر الصف. فتحت الباب بمفتاحٍ كان في جيبها، ودعته للدخول بعد أن أنارتها. كانت الحجرة بسيطة. فراش معدنيٍ صغير. منضدة إلى جواره تحوي الكثير من الكتب. موقد غازي على أحد الأركان، وبجواره أكواب زجاجية، وإناء لإعداد الشاي، وفي الناحية الأخرى؛ تليفزيون ماركة (ستار) يعود طرازه لأكثر من عشرة أعوام بلا شك، ورغم الوصلات التي تدخل، وتخرج منه، ورغم (الرسيفر) الرقمي الموجود أعلاه؛ إلا أن (فؤاد) شك في أنه ما زال يعمل حتى الآن..

تحرك نحو المنضدة التي تحوي الكتب. كانت هناك كتب كثيرة. القليل من الكتب الطبية باللغة الإنجليزية التي تحوي صور عضلات، وجماجم وأعصاب، والكثير من الروايات والدواوين الشعرية والكتب السياسية. التقط بعضها، وراح يقرأ العناوين. الأعمال الكاملة لأمل دنقل، ديوان (مطر ناعم في خريف بعيد) لـــ (محمود درويش). المجلد الثالث للأعمال الكاملة لــــ (جمال الغيطاني)، خريف الغضب لـــ (محمد حسنين هيكل)، (أحلامي لا تعرف حدودًا) لـــ (تشي جيفارا)، سفر الخروج لـــ (عز الدين فيشير)، عزازيل لـــ (يوسف زيدان).

من الوهلة الأولى، وبحكم عمله في أمن الدولة لعشرة أعوام؛ أدرك نوعية الطبيب الشاب. ربما هو ثوري حالم، وحتمًا شارك في الثورة، وربما كان بين أطباء التحرير. ربما انتظر كالملايين؛ إقامة المدينة الفاضلة في أرضٍ هجرتها الفضيلة نفسها منذ أمدٍ بعيد. لم يدرك أولئك الحالمون؛ أن الأمر كان لعبة من البداية.. لعبة كراسي موسيقية وإزاحة وإعادة تنظيم لقواعد اللعبة؛ كي لا تفارق السلطة القابضون عليها. لا يعلمون أن أمن الدولة والمخابرات ورجال أعمال وإرادة دول خارجية كانت هناك منذ البداية. تخطط وتحرك وتحدد النهاية التي تريدها. لقد سار كل شيءٍ كما خطط له تمامًا.. هو نفسه شارك في تنفيذ المخطط الذي نجح كما أراد المخططون.

دخل الطبيب الحجرة بعد أقل من عشر دقائق، وقال: "معذرةً لو تأخرت".

ثم عرض عليه إعداد الشاي من أجله. أشعل (فؤاد) لفافة تبغ، وبحث بعينيه في الحجرة عن مطفأة سجائر، فلمح واحدةً فوق المنضدة تعج بأعقاب السجائر. حملها بحرصٍ، ووضعها على الفراش بجواره، وسمع الطبيب يقول: "يمكنني تخمين سبب الزيارة هذه. بل وربما سبب قدومك نفسه للمكان كله".

تعلم (فؤاد) أن يشتري ولا يبيع. الزيارة التي يقوم بها مجرد زيارة للتعرف، ولا غرض من ورائها. لكن وكما يبدو فالطبيب يعتقد غير ذلك. لا ضير هناك لو سمع منه. اكتفى بهز رأسه مشجعًا الطبيب على الكلام، وهو يطلق حلقات الدخان من أنفه، وفمه ببطء، فأكمل (بهاء) وهو يعد كوبين نظيفين لصب الشاي: "أعتقد أنه للتحقيق في قتلى النجع؟ الأمر بالفعل أكبر من أن يكون بفعل حيواناتٍ مفترسة. كم ملعقة سكر تحب؟"

اختنق (فؤاد) بالدخان من المفاجأة، فسعل بقوةٍ، ثم قطب جبينه، وقال: " انتظر! أي قتلى هؤلاء تقصد؟"

جاء دور (بهاء) في الدهشة. ظل إناء الماء المغلي في يده دون أن يصب الشاي، وغمغم: "لا تخبرني أنك لا تعلم بشأن ما يدور في النجع. ظننت أنك قدمت للتحقيق في أحداثه الغريبة".

" - دكتور بهاء. هلا تحدثت مرةً واحدةً، وأخبرتني بما تقصده".

صب (بهاء) الماء المغلي في الكوبين، وراح يقلب بالملعقة في كل كوبٍ، وقال: "لا بأس. لا بأس. بدأ الأمر منذ أسبوع تقريبًا. ظهر الضباب بغتةً حول النجع، وفي اليوم التالي استدعوني؛ لأرى بعض الموتى. ذهبت في الحقيقية دون أن أعلم هدف هذا الاستدعاء. لو كنت أعلم لحاولت التملص، والرفض. كان الموتى ممزقين بوحشية. حاولوا إقناعي أنها الذئاب التي ربما استغلت الضباب، فهاجمت الضحايا، لكنني لم أقتنع".

ناوله كوبه، ولم يقاطعه (فؤاد) الذي حبس نفسه بإثارةٍ، وأكمل (بهاء): "الإصابات رهيبة كما لم أر من قبل، كما كان هناك أطنان من الحيوانات المقتولة المكدسة على قارعة الطريق، وكلها ممزقة الأوصال بصورةٍ وحشية. كان من العسير أن أصدق أن الذئاب قد فعلت هذا أيضًا".

احتسى (فؤاد) الشاي، وسأل: "وما الذي يمنع أن تكون الذئاب هي من فعل؟ لقد سمعت أن سبب تسمية النجع بـ (نجع الذئاب) هو أنه يعج بها".

هز الطبيب رأسه رافضًا الفكرة، وأكمل: "تقول هذا؛ لأنك لم تر ما رأيته. أولًا الذئاب لا تقتل، ثم تجمع الضحايا من حيواناتها في مكانٍ واحد. هذا يتطلب قطيعًا من الذئاب أصابه الخبال ليفعل، وحتى لو أراد، فهل تخبرني

عن السبيل الذي يمكن لذئبٍ مثلًا، أو حتى قطيعًا منه من جر بقرةٍ مثلًا يربو وزنها على الطن. بل، وما جدوى مثل هذا الفعل. هل ترغب الذئاب مثلًا في صورةٍ تذكارية لضحاياها؟"

رغم دهشته مما يسمعه إلا أن طرافة التعليق دفعت (فؤاد) للابتسام، واستعد؛ ليشعل المزيد من لفائف التبغ، وهو يدعو برأسه (بهاء) الذي أشعل هو الآخر سيجارة (لايت) ليواصل حديثه، فقال: "كان هناك ما يزيد عن عشرين، أو ثلاثين من الحيوانات الميتة في المكان. ماشية، وأغنام، وكلاب ضالة، بل وحتى طيور. والمحير أنني لاحظت؛ أنه لا آثار لجر الحيوانات على الطريق الترابي على الإطلاق. لقد قام شيء ما بقتلها، ثم نقلها بصورةٍ ما إلى المكان".

"أو ربما جاء بها للمكان حية، ثم قام بقتلها في المكان".

"هذا صعب للغاية. يمكنه أن يأتي بالدواب، لكن ماذا عن الكلاب الضالة، والطيور؟ من العسير أن تتحكم في كائنات كهذه".

وافقه (فؤاد) وقد راق له ذكاءه وتحليله المنطقي، بينما أولاه (بهاء) ظهره، وهو يدخن في توترٍ، وينظر إلى الغابة التي تطل نافذته عليها، ثم أكمل: "كانت هناك العيون كذلك. فكل الضحايا من البشر، والحيوانات قد تفحمت عيونهم في محجرها.

لا أعلم؛ كيف يمكن فعل شيءٍ كهذا؟ لكن العيون كلها كانت محترقة. من يرى شيئًا كهذا لن يتحدث بعدها عن الذئاب، أو غيرها حتى".

"مهلا! عيون الضحايا كانت محترقة".!

"أجل. كانت هكذا في عيون ضحايا ذلك اليوم، وفي الأيام التالية".

"أيام تالية؟! هل تعني أنه كان هناك المزيد من الضحايا غير هؤلاء".

"الصواب أن تقول؛ الكثير من القتلى بعدها، وليس المزيد. في اليوم التالي؛ كانت هناك أسرة كاملة قد ماتت. أب، وأم، ورضيع تحول لونه للأزرق. كان هناك كذلك قتيل على الطريق. بعدها كان هناك آخر قالوا؛ أنه خرج لطلبي

حين كانت زوجته تلد، لكنه لم يكمل طريقه أبدًا. مات هو، ومات الطفل الذي ولد هو الآخر بلون أزرق، وذيل حيواني هذه المرة".

شعر (فؤاد) بالتشوش.. ما هذا الذي يسمعه؟ وأين كان رجاله في نقطة الشرطة من كل هذا؟ تذكر أن (خميس) يذهب للنجع كثيرًا بحجة قضاء حوائجهم من الطعام. هل يعلم بهذا؟ وماذا عن (فوزي) ابن النجع؟ ألم يعلم بما يدور في بلدته؟ هذا غير ممكن. شعر بلهيب سيجارته بين أنامله، فانتبه للسيجارة المنتهية، فأطفأها، وعاد ليشعل غيرها، وقال للطبيب الذي غرق في أفكاره هو الآخر." "هل كان هذا كل شيء؟ هل كان هناك المزيد من القتلى؟"

" - لم أذهب بعدها للنجع، فلم أشأ أن يبدأ يومي كل صباح برؤية القتلى ليس هذا من واجبات عملي هنا، لكنني علمت من أحد العجائز الذين يترددون على الوحدة؛ أنه كان هناك الكثير من الموتى في النجع بعدها. قال العجوز تحديدا: " كل يوم سيكون هناك موتى حتى يفنى النجع." لم أفهم ما يتوارى خلف كلماته، لكنه رفض أن يبوح بالمزيد. لكنني في الواقع بدأت أشعر بالخوف من المكان كله، وعدت أفكر في وسيلةٍ ما لتركه، والعمل في مكانٍ آخر".

تذكر (فؤاد) على الفور ميت اليوم الذي رأى جنازته في المسجد. تذكر التوتر الذي بدأ على وجه الحاج (حسنين) و(حمد) حين سألهما عن سبب الوفاة، وتذكر الشاب الذي ظهر أمامه في الغابة منذ قليل، وطالبه بالبحث في موت (علوان). هل يكون الأمر حلقة جديدة من حلقات قتلى النجع.

"متى بدأ هذا الأمر تحديدًا؟"

"منذ أسبوعٍ تقريبًا. لقد بدأ الأمر كله مع ظهور الضباب كما أخبرتك".

"لقد أتيت إلى هنا في مثل هذا التوقيت تقريبًا. لكنني لم أشعر بشيءٍ من هذا. هذه هي أول مرة أسمع فيها عن تلك الأمور".

"أهالي النجع يمتازون بالكتمان، ولا يثقون بالأغراب. حتى أنا رغم أني أخدمهم هنا منذ نحو العام، فأنهم لم يمنحوني الكثير من ثقتهم. كذلك هناك العمدة، وابن عمه.

الحاج (حسنين) وابنه ذو الأسنان اللعينة المدعو (خليفة).

لقد رفضوا تمامًا كل اقتراح طالبتهما به لاستدعاء الشرطة؛ للتحقيق في الأمر. قالا؛ أنها الذئاب، وأن هذا يكفي"

"ربما لأنهم كانوا متورطين في الأمر؟"

"لا أدري. فكل الاحتمالات في هذا المكان ممكن".

"ولماذا لم تبلغ أنت الشرطة؟"

توترت كف (بهاء) القابضة على لفافة تبغه، وهز رأسه بقوةٍ رافضًا الفكرة، وقال:

" -وما شأني بما يحدث؟ هذا واجب أهالي الضحايا، وعمدتهم. لماذا أفعل شيئًا كهذا قد يجلب لي المتاعب التي أتجنبها مع هؤلاء القوم؟ كلا، مهما حدث، فلا شأن لي بكل شيءٍ، حتى لو فني النجع عن بكرة أبيه".

تحرك (فؤاد) من الفراش، واتجه ليشارك (بهاء) النظر إلى الغابة، ثم سأله: "في رأيك الشخصي؛ ما الذي يحدث في النجع؟"

رمقه (بهاء) بعينين راحتا ترمشان كثيرًا، ثم قال، وهو يضغط على كل حرفٍ من كلماته: "هناك شيء خارق شرير يدور في النجع".

"ويعلم أهل النجع ماذا يكون؟ أليس كذلك؟"

"على الأقل بعضهم يعلم ما يكون، وربما يكون هؤلاء من يحاولون إبقاء تلك المذابح داخل نطاق النجع، ولا يعلمها أحد خارجه".

"والعمدة، والحاج (حمد) ممن يعرفون بشأنه! هل هذا صحيح؟"

كان (بهاء) متأكدًا من هذا في الحقيقة. هناك (خليفة) كذلك. ذلك الوغد يعلم حتمًا حقيقة ما يدور. هذا إن لم تكن يداه ملوثتان فيه. هز رأسه موافقًا، ثم تذكر شيء هام، فتردد للحظة، ثم حسم أمره، وقال:

" - هناك شيء أخير. لقد رأيت على صدر كل الضحايا نقشًا غريبًا، وكأنه منحوت في جلدهم بطريقةٍ أجهلها. إنه نقش عجيب؛ رغم أنني بصورةٍ ما أشعر أنه مألوف، وأنني ربما رأيته من قبل".

قال (فؤاد) بدهشة:

"هل يمكنك أن ترسم لي ذلك النقش من ذاكرتك؟"

"يمكنني أن أحاول".

قالها، وجاء بورقةٍ مسطرةٍ، وحاول رسم النقش فيها، ثم رفعه نحو عيني (فؤاد) وتمتم: " الرسم غير دقيق، لكنه يشبهه بصورةٍ ما. لم أكن يومًا ماهرًا في الرسم".

حدق (فؤاد) في الرسم بحيرةٍ، وهو لا يدري ما يعنيه بالضبط، وسمع (بهاء) يقول: "هناك أمر أخير؛ أود أن تعلمه".

رمقه (فؤاد) في تساؤلٍ، فغمغم بهاء: "لقد رأيت النقش على صدور آخرين، لكنهم كانوا أحياء هذه المرة".

وظهر التردد للحظةٍ على وجه (بهاء) ثم أكمل: "لقد كانوا الحاج (حسنين) وابنه المأفون (خليفة) والحاج (حمد). لقد رأيت النقش نفسه على صدورهم".

☆ ☆ ☆

داخل حجرة مكتبه كان (فؤاد) يستشيط غضبًا. كان يشعر بالخيانة، وإلا فما معنى أن تدور كل تلك الأحداث، ولا يخبره أحد من معاونيه بالنقطة، وأحدهما ينتمي لأكبر عائلةٍ في النجع نفسه، والآخر يذهب طوال الوقت في النجع. وقف (فوزي) و (خميس)أمامه متجاورين في وقفة عسكرية جامدة، وأمام غضبه؛ ظهر التوتر على وجه (خميس) بينما ظل وجه (فوزي) جامدًا كالثلج. لم يدعوهما (فؤاد) للجلوس، وأراد في تلك اللحظة؛ أن يصبّ فوق رأسيهما كل غضبه؛ ليدركا بأسه حين يغضب. دار حول المكتب، ودخان سيجارته يملأ الهواء من حوله، ومال نحوهما، وقال: "والآن.. هل حان وقت الاعترافات؟"

" - نعترف بماذا؟"

قالها (خميس) بحذر.

" -بأنكم تواطأتم مع النجع في إخفاء جرائمهم.. أليس هذا ما حدث؟"

لم يجبه أحد.

" - لنقل أن هناك جرائم قتلٍ وحشيةٍ تدور هناك منذ أسبوع مات فيها الكثيرون. أليس هذا صحيحًا. أم أن معلوماتي مغلوطة؟"

أسرع (خميس) يقول، وهو ينظر لــــ(فوزي) وكأنه يستمد العون منه: "ما نعلمه؛ أن الذئاب تهاجم النجع، وأنها من قتلت كل هؤلاء".

" - الذئاب؟! نعم الذئاب! لما لا، هذا محتمل بالطبع، لكن هل حققتم في الأمر أولًا، واستبعدتم كل الأسباب المنطقية الأخرى. قبل أن تلجئوا لاتهام الذئاب؟"

تحدث (فوزي) للمرة الأولى، ونظر إلى عيني (فؤاد) في ثباتٍ، وقال:

"طالما لم يشكُ أحد من أهالي الضحايا، وطالما لا يوجد اتهام لأحد، فلا قضية. تلك الحوادث عرضية. مجرد قضاء وقدر".

"وهل هذا ما تعلمته يا سيد (فوزي) طوال عملك في الشرطة. لا تحقيق بغير شكوى واتهام. لا أصدق أنكم تفكرون هكذا، وأنكم بمثل هذا الجهل بواجب الشرطة والقانون. عملنا أيها السادة أن نحقق في كل أمرٍ مريبٍ دون أن يدعونا أحد. ننبش النفوس لمجرد الشك. هذا هو واجبنا المقدس. الأب الذي يقتل ابنه لن يبلغ عن نفسه، ولن يعترف إلا لو ضيقنا الخناق عليه، والزوجة التي تقتل زوجها من اجل عشيقها لن تأتي لنا لتبلغنا بمقتله. هنا يأتي دورنا.. ما دام هناك جرائم، وقتلى، وأمور مريبة، فنحن جاهزون لدس أنوفنا حتى نعلم الحقيقة".

قال (خميس) بسرعة مدافعا عن نفسه: "نعلم بالطبع كل هذا. لكن النجع له خصوصيته يا فؤاد بك".

ضرب (فؤاد) سطح المكتب بكفه، وصرخ فيه: "لا خصوصية لأحد أمام القانون. القانون واحد، وسيطبق على الكل بلا استثناء. هناك من ماتوا في النجع، وسوف نفتح تحقيقًا؛ لمعرفة ظروف موتهم. سوف نستجوب كل من له صلة بالأمر. سوف نستخرج الجثث؛ لنعيد فحصها وتشريحها. حان الوقت ليعلم هؤلاء أن هناك قانون عليهم الرضوخ له".

التفت (فوزي) إليه، وبدا بعض التوتر على وجهه الجامد، وقال: "أنت بهذا تشعل حربًا مع الكل لا مبرر لها، وفي النهاية لن تجد متهمًا غير الذئاب".

" - خوض الحروب؛ هو مجالي يا صول (فوزي)، ولن ألجأ للشك في الذئاب إلا حين أصل لطريقٍ مسدود".

قال (خميس) في حذر: "افعل ما شئت يا فؤاد بك، لكن لا تفكر في نبش القبور. للموتى هنا حرماتهم المقدسة التي لا تسامح فيه".

" - سأفعل أي شيءٍ لأصل للحقيقة. لو رغبوا في حفظ حرمات موتاهم، فليتعاونوا معي وليخبروني الحقيقة".

رمقه (فوزي) بعيونٍ ميتةٍ كأعين السمك النافق.. تمنى (فؤاد) لو يدرك؛ ما يتوارى خلف هذه النظرة، ثم قال (فوزي) بهدوءٍ غريب:

" - حسنًا؛ ماذا تنوي أن تفعل الآن يا فؤاد بك؟"

عاد (فؤاد) لمقعده خلف مكتبه، ورفع رأسه نحوهما، وانتظر للحظة، ثم قال: "هناك رجل يدعى (علوان) دفن في الصباح. ادعى العمدة أنه مات على فراشة، لكن هناك ما يدفعني للشك في أنه مات مقتولًا، وسوف أبدأ في التحقيق بشأن موته".

"لكن (علوان) لم يقتل. أنا من أهل النجع، وأعلم كيف مات. إنه لم يقتل".

"وماذا لو كانت لدي شكوك حول موته؟"

"وماذا لو كانت شكوكك تضللك يا فؤاد بك، وتلقي بك في المتاعب؟"

"حينها سأتحمل النتائج كاملة. لكن حتى أتيقن من هذا، فسوف أتبع شكوكي حتى النهاية".

لم تنخفض العينان النافذتان القاسيتان لـــ(فوزي) عن عينيه، ولم يحتمل (فؤاد) النظر نحوهما أكثر من هذا، فنقل بصره حيث يقف (خميس) الذي بدا قلقًا هو الآخر، وقال له:

" - وماذا عنك يا خميس، هل تعتقد أن شكوكي لا أساس لها من الصحة مثل فوزي؟"

انتقلت عينا (خميس) نحو (فوزي) بسرعةٍ في توترٍ، وأجاب: "فوزي أكثر من يعلم كل شيءٍ عن النجع هنا، وحتمًا يعرف كيف مات علوان هذا. وهو يصر أنه لا شبهة في موته".

كتم (فؤاد) غيظه لأن (خميس) لم يؤيده، ولأنه أدرك أن (خميس) يخشى (فوزي) ربما أكثر منه شخصيًّا، فلم يشأ مواصلة الجدال في الأمر، فقال حاسمًا، وهو يضع مسدسه في جرابه: "أرى أنه لا ضير من التأكد من هذا بأنفسنا. سيكون هناك تحقيق جدي، والتحقيق هو ما سوف يخبرنا بالحقيقة".

حافظت ملامح (فوزي) على جمودها، وإن ظلت عيناه تمتلئان بالغضب المكتوم، ظل ينظر لـــ(فؤاد) بصمتٍ لبعض الوقت، ثم تحرك بهدوءٍ مغادرًا الغرفة نحو غرفة مكتبه. انتظر (خميس) حتى تأكد أنه قد ابتعد.. قبل أن يقول بصوتٍ خافت:

"أووف. يا له من رجل! إنه ككل شيءٍ في هذا المكان مريب وغامض، ومخيف".

"هل تخشاه يا خميس؟"

سأل (فؤاد) بشيءٍ من الاستخفاف، فأجاب (خميس) بابتسامةٍ صفراء: "ربما كان عليك أن تفعل أنت الآخر يا فؤاد بك، ربما حان الوقت لأحذرك منه، ومن أهل النجع، والمطاريد، وأرجو ألا تستخف بكلامي هذا. لكن المكان خطر، ولن تعلم أبدًا؛ من هو عدوك من صديقك فيه؟ الكل في المكان عدو، ولا صديق لك غير نفسك، وسلاحك الذي يحميك".

" - وماذا عنك يا خميس، في أي صفٍّ تكون؟ الأصدقاء أم الأعداء؟"

اتسعت ابتسامة (خميس) الماكرة حتى ملأت وجهه كله، وهو يجيب: "أنا دومًا في صف عملي، ورؤسائي. إنه ولائي الوحيد الذي لن يتزحزح".

انتقلت الابتسامة الماكرة إلى وجه (فؤاد) وهو يتحرك، ويقول ببطء: "وماذا عن ذهابك من حين لآخر نحو النجع؟ أعلم أنك تفعل، لكن السؤال لمن تذهب هناك؟"

تعكر وجه (خميس) للحظةٍ في دهشة.. قبل أن يسرع قائلًا بضحكةٍ مفتعلة، وهو يلوح بيده في الهواء باضطراب: "الأمر لا يعدو بعض المعاملات المادية البسيطة. النجع غني بالمحاصيل كالتمر، والزيتون، والشعير، وصوف الغنم، وكلها زهيدة الثمن بما لا يصدق، وكل ما أقوم به هو جلب التجار للمكان، والاتفاق على السعر المناسب بين الطرفين في مقابل عمولةٍ صغيرةٍ في كل مرة. الراتب محدود يا فؤاد بك، وبعض النشاط التجاري بجانب العمل لا ضير منه".

"ولماذا أخفيت هذا عني في البداية؟"

"اعتقدت أن الأمر لا يستحق ذكره. ربما كان علي الاعتذار عن هذا الخطأ غير المقصود".

تنهد (فؤاد) وقال: "كلا. ليس عليك أن تفعل. لكنني أنتظر ألا تخفي عنى أي شيء ثانيةً. إنني بحاجةٍ لمن أثق إليه؛ ليكون مرشدي، وعيني في المكان، وليس أمامي

غيرك أنت و(فوزي). ترى من تعتقد أن علي أن أطمئن إليه؛ أنت أم هو؟"

لمعت عينا (خميس) بدهاءٍ حقيقي، وهو يجيب بمكر: "لا أظن أن هناك من يطمئن لـــ(فوزي) لكن (خميس) سيظل دومًا خادمك المطيع، وساعدك الأيمن الأمين".

☆ ☆ ☆

قبيل العصر؛ تحرك رجل ملثم يرتدي جلبابًا واسعًا على ظهر حصانه؛ متخذًا دربًا غير مطروق ينتهي عند احدى قمم الجبل، وفي الأعلى راقبته أكثر من عينٍ بتحفزٍ، وأسلحتها كلها باتجاهه.. احتاج الأمر لأكثر من عشرين دقيقة؛ كي يصل لمكانٍ فسيحٍ ممهدٍ ينتهي بمدخلٍ متسعٍ لمغارةٍ ضخمةٍ بدت جلية من مكانه هذا. رغم أنها لا تكونً كذلك لو نظرت إليها من أي مكانٍ آخر بفضل الصخور الضخمة التي تنتشر حولها، والتي تخفي المدخل تمامًا. لحظات، وتحرك أحد الذئاب. خرج من قلب أحد المغارة، واندفع نحوه. هبط الرجل من فوق حصانه، وانحنى نحو الذئب، وهو يربت على رأسه، وعنقه، ويفرك أذنيه المنتصبتين في ودٍّ، وهمس: " مرحبا أيها الصديق".

لحظات وظهر (سليم) أمام مدخل المغارة، وتحرك بخطواتٍ واسعةٍ نحو الرجل المتجه إليه. عانقه، وقبل كتفه، ثم دعاه للدخول، لكن الرجل هز رأسه بالرفض، وقال:

" - ليس اليوم، الوقت قصير وسترحل الشمس خلال ساعتين على الأكثر، ولا أحب أن أكون هنا حينها. تعلم السبب".

أومأ (سليم) برأسه متفهمًا. "إنه مجرد وضعٍ مؤقت. لن يطول يا ابن العم".

لم يرفع الزائر اللثام عن وجه، وعاد ليتحرك في دربٍ صخريٍّ ضيقٍ يشرف على هوةٍ عميقة؛ متجهًا نحو نقطةٍ بعيدةٍ عن المغارة. تبعه (سليم) والذئب، ولم يفارق الحصان مكانه. وصلوا في النهاية لنهاية الدرب، وبدت الهوة أسفلهم، وكأنها تنتهي عن باطن الأرض. حرك الهواء الجلباب للخلف، وعقد الرجل ذراعيه خلف ظهره، وقال:

"مات الكثير من النجع".

"تصلني الأخبار في حينها".

"الخوف يرتع في النفوس، والتساؤلات كلها طفت على السطح. الكل عاد ليفكر في نجع الموتى، ويبحث عمن يعيد إحياء الحكاية المنسية. الهمسات تتردد حول (حسنين) و(حمد) ورجالهم، والبعض صار يتهمهم صراحة".

"إنهم حمقى. يعميهم وهم القوة ويعتقدون أن الخوف الذي تربى عليه أغلب أهالي النجع من سطوتهم؛ سيدوم في النفوس للأبد".

"قريبًا سيأتي وقتهم".

قالها الملثم بكراهية، ثم رفع رأسه نحو السماء الصافية في تلك الناحية التي لا تجاور النجع، وتحدث بعد هنيهة:

" - هناك من علم بأمر المقبرة؟"

تنهد (سليم) بضيقٍ، وقال:

"أيمن العبيط! لقد كان خلفنا في ذلك اليوم اللعين. أمرت الرجال ألا يتعرضوا له. ظننت أنه لن يتكلم لأني أعلم كم يخشانا".

"ربما كان الفزع الذي يراه في النجع أكبر من خوفه منكم، وربما حل هذا عقدة لسانه".

"يمكننا أن نخفيه حتى ينتهي الأمر".

"كلا. كلا. لا حاجة لهذا. دعوه وشأنه، لو اختفى سنؤكد الشكوك".

لم يعقب (سليم) وتنهد الرجل، وهو يتجه نحو صخرةٍ صغيرةٍ في المكان؛ جلس عليها، فتحرك الذئب، وقبع أسفل قدميه، فراح يدلك فراء ظهره ببطءٍ، وقال لـــــ(سليم) الذي ظل واقفًا:

"ارتكبنا هذه المرة عشرات الأخطاء. دلفنا مقبرةً ملعونة. تركنا شهودًا خلفنا، ووثقنا في (الخلفاوية) أكثر مما ينبغي.. الآن علينا تنظيم تلك الفوضى".

"إنه خطئي يا كبير، لكنني أحاول تصحيح الأمر".

"وأين الشيخ (عتمان) من كل هذا؟ أين اختفى هذا اللعين؟ هل ورطنا في تلك المقبرة، ثم ذهب؟"

أغمض (سليم) عينيه في قوةٍ، وتذكر ما قام به قبل أربعة أيام. بعث رجاله للبحث عن الشيخ (عتمان) الذي توارى تمامًا بعد ما حدث في المقبرة. جاءوا بالرجل من بيته في غضبٍ مكتوم، وقد حملوه كل الذنب في ما صاروا إليه. في قلب المغارة بدا العجوز الكريه مذعورًا بشدة. راح يتمتم بكلماتٍ غامضة تملك رنينًا مخيفًا، وراح يلوح بذراعيه في الهواء، وكأنما يحدث أشباحًا خفية. ربما رغب في بث الرهبة في قلوبهم. في تلك اللحظة أشار (سليم) بعينيه لذئبه الضخم. أدرك الذئب مغزى الإشارة، فكشر عن أنيابه، وزمجر، ثم وثب مرةً واحدةً نحو الساحر العجوز، واعتلى صدره، وهو يزوم، ويبرز أنيابه البراقة الحادة. صرخ العجوز بفزعٍ حقيقي:

" - أبعدوه عني. لا أريد أن أموت. أبعدوه".

قال له سليم:

" - الذئاب لا تخشى عفاريتك، أو ملوك جانك الحمقى. هل تعلم هذا؟"

بالطبع كان يعلم، فمن بين كل حيوانات الأرض امتازت الذئاب بأنها لاتهاب الجان والشياطين، بل إن تلك الكائنات التي لا نراها هي ما تهاب الذئاب، كما يؤكد الكثير

ممن اتصل يومًا بتلك العوالم الغامضة المظلمة..

هز (عتمان) رأسه باستسلام حقيقي، وأنفاس الذئب تملأ أنفه، فأشار (سليم) للذئب بإصبعه أن يبتعد، فتركه علىَ الفور. جلس الساحر، وراح يلتقط ثانيةً أنفاس الحياة التي فارقته منذ لحظات، وقال سليم:

"لماذا هربت؟"

"لأنه لا قبل لي بالأمر. كنت أبحث عن شيءٍ ما أزيل به اللعنة المريعة التي أصابتني وأصابتكم. لكن لا أمل لاح لي".

"لكنك أخبرتني، أنك قادر على التعامل مع حراس المقبرة من الجان المرصودة للحماية".

أجاب بعينين مذعورتين؛ راحتا تجرى على وجوه الرجال القاسية المحلقة حوله في تحفز: "وهذا ما فعلته.. لقد أزلت الرصد، وفتحت الباب لو تتذكر، لكن المقبرة حملت ما هو أكثر وأخطر. المقبرة ملعونة بشرٍّ لم تشهده الأرض من قبل. لا أنا، ولا أي أحد آخر يمكنه أن يواجه هذا السحر القديم الكامن بها".

اندفع (سليم) نحوه بغضبٍ حقيقي، ورفعه بذراعين قويتين من ملابسه، وقرب الوجه النحيل المذعور من وجهه، وقال: "اسمع أيها الدجال الأفاق، بسببك لم نعد رجالًا كما كنا أنا، أو هؤلاء الرجال. بسببك تحولنا لبشرٍ في النهار، وأشباحٍ تعاشر الموتى في الليل. لا راحة نستمتع بها، ولا نوم ندرك طريقه. لا طعام يشبع أحشاءنا، ولا ماء يروي ظمأً مشتعلًا في حلوقنا. لقد صرنا ملعونين، والآن تأتي، وتخبرني أنه لا حل تعرفه يعيدنا كما كنا. إذًا؛ لا حاجة بنا إليك، وهذا يعني أن تختار الموت بيد الرجال من حولك، أو بأنياب هذا الذئب".

وابتسم بقسوةٍ، وأكمل، وهو يومئ برأسه نحو رجاله من حوله: "صدقني، من الأفضل أن تختار الذئب. فـأنت لن تتخيل أبدًا كم بلغ غضب الرجال، وما يقومون به في مثل هذا الغضب".

ارتجف (عتمان) في يده، وامتلأت عيناه بالدموع، وقال متوسلًا:

" - لكني أصبحت مثلكم. لقد أصابتني نفس اللعنة".

ألقاه (سليم) على الأرض، وصرخ فيه:

" - تبًّا لك يا رجل. لتذهب إلى الجحيم. ليس أمامك إلا أن تفتش عن وسيلةٍ ما لتزول عنا تلك اللعنة".

تأوه الرجل متوجعًا، وتحسس ساقيه اللتين آلمتاه كثيرًا جراء السقوط، ثم قال: "يمكنني أن أستعين بمن هم أكثر مني مهارةً وقوةً، وخبرةً بتلك الأمور. أفكر في الذهاب إليهم، لكن هذا سيكلف الكثير".

" - ليأخذوا ما يشاءون من أموال. المهم أن ينجحوا".

قال (عتمان) في حذر: "لا يتعاملون في تلك الأمور بالنقود. إنهم يهتمون فقط بالذهب القديم".

أدرك (سليم) ما يقصده، فقال بحسم: "سينالهم الكثير من ذهب المقبرة، لكن لن يمسّوا جرامًا واحدًا منه إلا بعد إتمام الأمر".

قص (سليم) على الرجل الملثم ما حدث مع الشيخ (عتمان) وأنهى ما حدث قائلًا: "ولقد أرسلت معه باثنين من الرجال مع سيارةٍ لجلب كل السحرة من أماكنهم، وكي لا يهرب كذلك".

استحسن الملثم الفكرة، وقال: "أحسنت العمل. لكنني أشك أنه سوف ينجح".

ثم التفت إليه، ونظر إلى عينيه اللتين صارتا بحيرتان من الدماء الحمراء، وكأنه يعاني من نزيفٍ حادٍّ، وقال:

"هل بدأت الأحلام؟"

"ليس بعد. لو حدث هذا سأخبرك".

لن تخفي الأمر عني يا سليم، إنها فرصتنا الأخيرة".

"لا تقلق".

ربت الملثم على كتفيه، ثم نقل عينيه السوداوين نحو الأفق البعيد، ونظر إلى الشمس التي راحت تنخفض في الأفق، وقال:

"وماذا عن العمل؟ أعتقد أن صفقة الآثار الجديدة لم تتم بعد".

"كان من المفترض أن تتم كالمعتاد ليلًا، لكن الوضع تبدل، وصار علينا أن نقوم بها في وضح النهار، وهذا بالطبع يتطلب المزيد من الجذر والتدبير. سوف نقابل التاجر الإنجليزي بعد غد".

"وهل قمت بالتنسيق مع المقدم هاني؟"

"إنه يعرف بالموعد الجديد بالفعل، وأكد أن مكان التسليم الجديد سيكون آمنًا".

هز الرجل رأسه في رضًا، وقال: "أعطه المزيد من النقود. إنه جشع لا يعرف الشبع، لكننا نحتاجه الآن أكثر من أي وقتٍ مضى. فقط لا تدعه يعلم بما حل بكم".

" - اطمئن يا ابن العم، لن يعرف".

أطبق الصمت بينهما للحظة، ثم قال سليم: "هل علمت أنهم أرسلوا ضابطًا جديدًا إلى هنا".

"أعلم.. لقد ذهب إلى بيت (حسنين) وتحدث إليه مع (حمد)".

"لقد صعد الجبل بالأمس كذلك، فأرسلت الذئاب إليه".

"خطأ يا سليم، لا تفكر في قتله. ليس الآن".

"لو أردت قتله لكان في قبره الآن. أردت اختباره".

"وكيف وجدته؟"

"إنه لا يفتقد الشجاعة أو العقل. أراد أن يقتل الذئب، لكنه حين شعر بالذئاب الأخرى في تلك اللحظة؛ اكتفى برصاصةٍ واحدةٍ في السماء".

"هذا يعني أن تفتحوا عيونكم عليه، وأن تلتزموا الحذر، حتى ينتهي هذا الوقت العصيب. لكن لا تمسه بسوءٍ قدر الإمكان".

بدأ الأفق في اكتساب لونٍ أحمر معلنًا عن غروبٍ جديدٍ وشيك. فقال الملثم، وهو يستدير نحو طريق العودة:

" - لقد حان الوقت، عليّ أن أرحل".

راقبه (سليم) دون أن يغادر مكمنه، وهو يبتعد حتى توارى خلف أحد الصخور، فربت على رأس الذئب الذي هز ذيله، ونظر للأفق بشرودٍ، وهو يتحسس الوشم المحفور في صدره، وقد بدأ في وخزه، فتنهد بصمت".

☆ ☆ ☆

أومضت شاشة هاتفه المحمول. قبل أن تبدأ رناته المميزة في لحنٍ أجنبيٍّ شهير. تذكر (فؤاد) أنه لم يكلم، أو يتصل بأحدٍ منذ أربعة أيام. كما كانت شبكة المحمول في هذا المكان ضعيفة، ونادرًا ما يتمكن هاتفه من التقاطها.

نظر إلى الشاشة. كان المتصل معنونًا باسم البيت، وفي خلفية الشاشة كانت صورة (ريم) ابنته، وهي تبتسم. إنها (ريهام) زوجته. ما الذي دعاها لتذكره الآن؟ رمق ساعة الحائط التي تشير للخامسة، وعشر دقائق مساءً، وفكر أن يتجاهل الرد، لكنه خشي أن يكون هناك ما أصاب طفلته (ريم) حرك إصبعه على الشاشة الزجاجية، وأجاب: "مرحبًا يا ريهام".

أتاه عبر الشبكة الضعيفة؛ صوت زوجته متقطعًا، فلم يفهم منها شيئًا، فقال وهو يتحرك؛ ليغادر حجرة نومه: "لا أسمعك جيدًا. لحظة من فضلك حتى أخرج. ربما كانت الشبكة هناك أفضل".

لفح وجهه الهواء البارد، فاقشعر جسده، وقد انتقل بغتةً من الحجرة الدافئة لرياح الخلاء الباردة.. انكمش حول نفسه، وعاود الحديث: "ريهام. هل تسمعيني الآن؟"

"الآن أفضل".

"كيف حالك؟"

سألها بلا اهتمام، وعينيه ترمق النجع البعيد المغلف بالضباب الغريب، فأجابته دون أن تجيب سؤاله:

"إنها ابنتك. تلح في أن تسمع صوتك وتبكي. هذا هو حالها منذ ثلاثة أيام".

"ولماذا لم تتصلي بي حينها؟"

"انتظرت أن تفعل أنت. أنت أبوها وواجبك أن تسأل عنها. لكن هذا لا يهم الآن، إنها بجواري لتحدثك".

سمعها، وهي تدفع الهاتف نحو الطفلة ذات الأعوام الأربع، وتسألها أن تبدأ حديثها، ثم سمع الطفلة تقول: "مرحبا يا (بابي). أنا ريم".

"مرحبا بأميرتي الجميلة التي يعشقها بابا. كيف حالك اليوم؟"

"أنا غاضبة منك. لأنك لا تأتي لتراني ولأنك ذهبت بعيدًا، ولم تقل لي. قالت لي (مامي) أنك سافرت بعيدًا".

"نعم يا أميرتي، (بابي) ذهب للعمل بعيدًا، لكنه سوف يعود قريبًا؛ ليراكِ، وسيحضر معه كل ما تحبينه".

"أريد علبة شوكولاتة كبيرة آكلها وحدي. (مامي) لا تعطيني غير قطعةٍ واحدة، وترفض أن تعطيني واحدةً أخرى".

(مامي) تخشى أن يلتهم السوس أسنانك الجميلة. المهم عديني أن تكوني طفلة مطيعة، وأن تستمعي لكلام (مامي)، وأن تتناولى طعامك كله.. هل اتفقنا؟"

"اتفقنا يا (بابي)".

ابتسم، وهو يجيب:

" - هذه هي أميرتي الرائعة التي أحبها وأعرفها".

ضحكت الطفلة حينها بسعادةٍ حقيقيةٍ، وقالت:

أحبك يا (بابي).

"وأنا كذلك لا أحب أحدًا غيرك يا أميرتي".

تباعد صوت الطفلة، والتقطت (ريهام) الهاتف منها، وعادت لتتحدث بصوتٍ جاف متحفظ، وسألته: "هل فكرت في شأننا؟. أتمنى لو فعلت".

تنهد بضيقٍ، وركل بقدمه هدفا وهميا في حنق، وأجاب: "لو كنت تقصدين الطلاق، فلا أعتقد أنني سأغير قراري. لن أطلقك".

" - سوف تفعل يا فؤاد، سوف أحصل على الطلاق برغبتك أو بغيرها. إنه قراري النهائي".

زفر بحنق، وتذكر أنه لا يحمل في جيب (بيجامته) علبة سجائره. تمنى لو أشعل واحدةً جديدةً في تلك اللحظة السخيفة. فها هي زوجته تلاحقه مرةً أخرى بعنادها وتعاليها. هذه المرة تطلب الطلاق.

يدرك منذ سنوات أن هذا ما سوف يحدث في النهاية. فما يجمعهما من خصالٍ أقل بكثيرٍ مما يفرقهما من خلافات. لكنه ظل يؤجل فكرة الانفصال لأطول وقتٍ ممكن. أراد اكتساب المزيد من الوقت؛ كي تحصل طفلته على أطول وقتٍ ممكنٍ من الرعاية بينهما. لكن زوجته كما يبدو لا تهتم بهذا، ولا تهتم بغير ما تريده.

طال صمته، فسمع صوت أنفاس زوجته المتوترة عبر الهاتف، ثم وصله صوتها الغاضب: "لماذا صمت؟"

" - لأنه لا جديد لدي لأقوله. لقد أخبرتك أنني لن أطلقك".

ازداد صوتها حدة، وهي تجيب: "هذا لا يهم يا فؤاد، هناك (بابي)! وأنت تعرفه جيدًا، وتعرف كيف سيجبرك على فعل ما أريد؟ سوف أحصل على طلاقي في النهاية".

أراد أن يسب أباها. بل وأن يسبها، وأن يخبرها أن كل هذا لن يردعه، لكنه أحجم.. تمالك نفسه بصعوبةٍ، وقال وهو ينهي الاتصال بغتة: "أعتقد أن خير ما نقوم به هو إنهاء هذه المحادثة العقيمة الآن. مع السلامة يا (ريهام)".

وصله صوتها صارخًا: " فؤاد.. انتظ"....

لكنه أغلق الهاتف قبل أن يصله باقي صراخها. يعلم أنها تستشيط غضبًا الآن. لكنه لم يعد يهتم بغضبها، أو رضائها. لقد انتهى أمرها في نفسه. لم يحدث هذا الآن، بل حدث هذا منذ أعوامٍ أربع، وبعد عامين فقط من الزواج.

كان هذا حين لم يعد قادرًا على احتمال المزيد من عناد زوجته المدللة وتكبرها ولامبالاتها برغباته. حينها أدرك كم أخطأ في اختياره. لكن الطفلة الرضيعة التي استقبلتها الحياة حينها منعته من اتخاذ القرار المصيري السليم، ولولا الطفلة لكان كل منهما في طريقه منذ أمدٍ بعيد".

وخزته ناموسة لعينة في أنفه، فحكها وتحرك. لم يفكر في العودة لحجرته. بل راح يخترق الطريق الرملي الذي راح يظلم. تنفس الهواء البارد ببطءٍ، ثم أطلقه ببطءٍ؛ ليهدأ قلبه، ويكف عن ضرباته المتلاحقة المثارة.

كان قد اتخذ في أعوامه الكثير من القرارات الخاطئة. بل يشعر أحيانًا أنه لم يتخذ قرارًا واحدًا صائبًا في السنوات العشر الأخيرة. كل قرار مصيري اتخذه اكتشف بعد حينٍ خطأه، والأكثر إيلامًا أنه دومًا من يدفع الثمن.. لا خطأ يفعله لا ينتهي إلا بالألم والمعاناة. لماذا هذا ما يحدث له، وكل من حوله يخطئون طوال الوقت، ولا يدفع أيهم أي ثمن. بل يدفعه غيرهم عنهم غالبًا.

هل كانت البداية حبيبته (منار) التي لم يتزوجها، تذكر كيف تركها؛ لأن هناك من حدثه أن بإمكانه أن يحظى بالأفضل. أن هناك فرص في الحياة ينبغي أن يقتنصها

المرء وألا يفلتها. آمن حينها أن الزواج صفقة، ورأى أن (منار) ليست الصفقة المناسبة له، فما الذي يمكنها أن تقدمه له، وأهلها لا يملكون النفوذ والثراء الذي يرفع، ورغم جمالها، فليس هو الجمال المبهر الذي قد يضحي المرء بكل شيءٍ آخر من أجل. ميزتها الوحيدة هي حبها له..

لكن الحب يأتي طوال الوقت. فطالما كانت هناك الفتيات اللاتي يدورون حوله، وكلهن كن يدعين حبه، هنا ظهرت (ريهام) ابنة اللواء (أحمد منتصر) في ذلك الوقت، فكان على (منار) أن تتوارى وترحل. حملت (ريهام) مع بروز نجمها في حياته؛ الثراء، والنفوذ، وفرصة الترقي السريع في عمله.. فأي فرصةٍ لضابط شرطةٍ صغيرٍ تضاهي أن يقترن بالابنة الوحيدة لأحد مساعدي وزير الداخلية.. لم يكن هناك أيّ تردد، وبقسوةٍ أخبر (منار) في رسالةٍ مقتضبةٍ على الهاتف أن الأمر قد انتهى.

تجاهل رسائلها كلها، ولم يفكر في طلبها الملح أن تحظى بلقاءٍ أخيرٍ معه؛ لتفهم لماذا ابتعد؟ لم يهتم بألمها، ولا حيرتها، ولا تساؤلاتها، وظن أن (منار) في النهاية سوف ترضخ للفراق، وتنساه..

تزوج (ريهام) وبعد عامين؛ أدرك أنه كان يتبع سرابًا. ترقى في العمل بسرعةٍ لم يستوعبها أحد، وانتقل للعمل في أمن الدولة؛ ليحظى بالمزيد من النفوذ في عمله. فاضت الأموال بين يديه، وحماه يمنح ابنته الأموال بلا انقطاع، لكن المقابل كان أن يرضخ. أن يصير (زوج الست). عليه ألا يشكو إهمالها. عليه ألا يحتج بعللها الكثيرة؛ كي لا ترى أهله. عليه ألا يضيّق عليها في الخروج أو السهر، أو حتى في رفض أي من أصدقائها. كان عليه أن يحتمل دلالها، وعنادها، ونوبات غضبها التي لا تنتهي..

لم تفته الهمسات عن الأموال المشبوهة التي حققت الثراء لحماه. تسهيلات غير مشروعة لرجال أعمالٍ ذوي نفوذ. صفقات مشبوهة تنتهي بتملك الكثير من الأراضي. مضاربات في البورصة. بل وتردد غير مرة أمامه الحديث عن الاتجار بالآثار".

هل صار يستمتع الآن بأموالٍ مشبوهة أو حرام، وهل كان هذا ما تمناه له الأستاذ (خطاب) أبوه. ناظر الابتدائية البسيط الذي آمن طوال عمره؛ أن القرش الحرام يذهب بكل المال الحلال في طريقه.

ارتجف جسده حين ضربته موجة جديدة من الرياح الباردة، فانتبه إلى مكانه.. لقد ابتعد كثيرًا دون أن يشعر أن نقطة الشرطة، وقد بدت في تلك اللحظة من مكانه هذا، كبقعةٍ مضيئةٍ بشحوبٍ في قلب الظلام. كان عليه أن يعود أدراجه؛ كي لا يصاب بالبرد، وكل ما يرتديه هو تلك (البيجامة) ذات الأكمام القصيرة.

استدار عائدًا ببطء، ورأى من بعيدٍ شهابًا يشق الأفق. قبل أن يتلاشى في الناحية الأخرى، وعاد ليفكر؛ كيف خذلته زوجته مرارًا؟ لكن المرة الأخيرة كانت أكثرها إيلامًا. كان كل ما فعله؛ أنه رفض أن يخالف ضميره هذه المرة، ورفض أن يتستر

على قضية فسادٍ أمسك بكل خيوطها. كان بطل تلك القضية زميله في العمل (محمود صلاح الدويري) ابن اللواء (صلاح الدويري). في الحقيقة؛ لم يرق أيهما للآخر منذ أول لقاءٍ جمعهما سويًّا. حاول (محمود) أن يشعره؛ بأنه أدنى منه لمجرد أن أباه كان لواء شرطة، وأبو (فؤاد) مجرد مدرس ابتدائي كما نعته يومًا، وفي المقابل تحاشاه (فؤاد) عملًا بنصيحة حماه لنفوذ اللواء (صلاح الدويري) في أروقه إدارة أمن الدولة.

آثر السلامة، فابتعد عنه تمامًا، لكن الرائحة العفنة النفاذة لفساد (محمود) زكمت كل الأنوف حتى وصلت لأنفه.. تورط الضابط الشاب في كل شيءٍ وضيعٍ ممكن. تعاطي مخدرات، وشرب الخمور، وعلاقات نسائية مع فتيات ليلٍ، وغيرهن. استغلال نفوذ، ورشاوى، وأخيرًا كان الاشتراك في تسهيل تجارة المخدرات مع بعض العصابات.. لم يكن هو من اكتشف هذا الأمر.. كان أحد زملاء دفعته الذي يعمل في البحث الجنائي، وقد كان يمارس عمله في تعقب احدى عصابات المخدرات. نجح زميله في زرع أجهزة تنصت وكاميرات؛ نقلت لأجهزة التعقب كل ما يدور في فلك التنظيم العصابي، وكانت المفاجأة تسجيلات بالصوت والصورة للقاءاتٍ متعددةٍ حدثت بين زعيم العصابة مع النقيب (محمود صلاح الدويري).

كان زميله يسأله النصيحة فيما عليه أن يفعله، وقد خشي بأس، ونفوذ اللواء (صلاح الدويري).

احتاج منه الأمر لليالٍ من التفكير، والتردد حتى حسم أمره، فقدم كل تلك التسجيلات للنيابة. هنا اشتعل العالم كله في وجهه، وبدا وكأنه صار هو المدان لمجرد أنه قام بواجبه. بينما لم يلُم أحدهم النقيب الفاسد لأن أباه كان خلفه. هدده البعض كي يصمت، وعلم بالوعود البراقة التي تتحدث عن ترقيةٍ استثنائيةٍ بانتظاره لو سكت، لكنه قرر أن يمضي في طريقه حتى النهاية.

انتظر المساندة من حماه. رجل الوزارة القوي، وقد كان بإمكانه حمايته، لكنه لم يفعل. بل اتخذ نفس موقف أعدائه، ولدهشته، وافقت (ريهام) الجميع ووقفت ضده. بل نعتته بالغباء لأنه أبى الانحناء أمام الموجة المهلكة التي تندفع نحوه؛ لتقتلع مستقبله، وربما حياته في طريقها، وكأنها تعاقبه؛ لأنه آثر أن يعيش شريفًا..

وبدلًا من أن تكون بجواره في محنته، كما ينتظر. أخبرته أنه لا أمل فيه، وطالبته بالطلاق.

اقترب في تلك اللحظة من نقطة الشرطة، وفي سكون الليل تناهت إلى مسامعه الأغاني الشعبية التي يرددها المجندون في الخلاء أمام عنبر نومهم.. اقترب أكثر من مكانهم، فرأى النار المتوهجة الملتفين حولها. أرهف السمع، فسمع أحدهم ينشد:

"وحياتك يا خولي..... عندي طلب، وسؤال تعييني في جناينك أزرع، ويروق الحال وبستانك يكون الزاد، وما يهمنيش المال ولا السكن، والهدمة... مادام في راحة البال..

☆ ☆ ☆

سقوني السم، والعلقم وقيه وقيه

وحرموني النظر من ناس يريدوا لقايه

خلاص راح العمر، وأيام قليلة باقيه

وبشكيك لله ياللي انت السبب فى شقايه



هب النسيم، وسامع نغم كلماتك

وعايز اكلمك، وعامل حساب لماتك

من جهة الأدب... أدبك أدب عماتك

ومن جهة الجمال.. طبع الجمال ما فاتك"

لا يدري؛ لماذا تمنى في تلك اللحظة أن يكون مثلهم. مجرد مجند يقضى فترةً إلزامية، وتنتهي؛ ليبدأوا حياةً أخرى بعدها من جديدٍ رمقهم من بعيدٍ لبعض الوقت كي لا يشعروا به، ثم عاد لغرفته. أشعل لفافة تبغٍ، ونظر إلى التليفزيون القديم في حجرته. لم يشغله منذ أتى فتحه، وشغل (الرسيفر) القديم الموضوع فوقه، وانتظر حتى تظهر الصورة. لكن الصورة لم تظهر. كرر المحاولة، وحاول تقليب العديد من القنوات لكن بلا فائدة. ربما كان بحاجة للإصلاح، قرر أن يطالبهم في الصباح بإصلاحه. مد يده نحو زر الإغلاق ليغلقه حين شعر أن هناك من يتحرك داخل الشاشة الزرقاء. كتم أنفاسه، وقرب عينيه من الشاشة. نعم كان هناك ظل يقترب من بعيدٍ بالفعل.

اتسعت عيناه وتراجع للخلف في قلقٍ وبعد لحظات ملأ وجه لا يعرفه الشاشة كلها. كانت عيناه صفراوين مشعتين، وكانت خلجاته باردة جامدة. ارتجف قلب فؤاد، ومد يدًا مرتعشةً بلفافة التبغ المشتعلة نحو فمه، لكنه لم يشرب الدخان بالطريقة السليمة، فسعل، وفي تلك اللحظة برزت يد مخلبية ذات أصابع ثلاث من الشاشة، وامتدت نحوه.

شهق برعبٍ، واندفع في جنونٍ نحو سلك التلفزيون الكهربائي، ونزعه من القابس بعنف، وعلى الفور تلاشت اليد المخلبية، والوجه المخيف، لكنه ظل لوقتٍ طويلٍ يحدق في الشاشة السوداء في رعبٍ، وترقب.



كان اليوم هو أسود يوم عاشته (مريم) في حياتها. كل شيءٍ فيه اكتسى بالسواد. وجوه سوداء لنساء ضامرة تتشح بالسواد. عالم مضيء من حولها، لكنه في عينيها مظلم أسود. غيبوبة قاتمة تلح على عقلها كلما عجز عن تخيل الأب الذي لن يحتويها حضنه ثانيةً، فتهوي في مدارات العدم السرمدي. أفاقت مرةً، فتذكرت قصيدة (أمل دنقل) (لا تصالح).

"تذكر..
إذًا؛ لان قلبك للنسوة اللابسات السواد،
ولأطفالهن الذين تخاصمهم الابتسامة
أن بنتَ أخيك (اليمامة)
زهرةٌ تتسربل -في سنوات الصبا-
بثياب الحداد
كنتُ، إن عدت
تعدو على دَرَجِ القصر،
تمسك ساقيَّ عند نزولي
فأرفعها -وهي ضاحكةٌ-
فوق ظهر الجواد
ها هي الآن.. صامتةٌ
حرمتها يدُ الغدر:
من كلمات أبيها،
ارتداءِ الثياب الجديدةِ
من أن يكون لها -ذات يومٍ- أخٌ!
من أبٍ يتبسَّم في عرسها
وتعود إليه إذا الزوجُ أغضبها
وإذا زارها.. يتسابق أحفادُه نحو أحضانه،
لينالوا الهدايا..
ويلهوا بلحيته (وهو مستسلمٌ)
ويشدُّوا العمامة..
لا تصالح!
فما ذنب تلك اليمامة
لترى العشَّ محترقًا.. فجأةً،
وهي تجلس فوق الرماد؟"!

وجدت نفسها ترددها بلا وعي، وحملقت العيون كلها فيها بحيرةٍ، وإشفاق، وبعض الاستنكار. قبل أن تندفع نحوها إحدى خالاتها، فاحتضنتها، وبكت وهي تصيح: " هوني على نفسك يا مريم، ستفقدين عقلك هكذا".

تمنت أن ينتهي هذا المهرجان الكئيب اللعين، وأن تفارقها تلك الوجوه التي تأتي من العدم في كل لحظة. تمنت لو لزمت حجرتها بمفردها؛ لتجتر مع نفسها بلوعةٍ ذكرياتها مع الأب الذي قتلوه غدرًا. من حسن حظها أن اليوم انتهى قبل المغيب؛ حيث أسرعت كل امرأةٍ نحو بيتها؛ كي لا يداهمها الضباب.

جلست في حجرتها على الفراش؛ تبكي، وتنتحب. ثم تتذكر أنه مات مقتولًا، فتقسم أن تثأر له. فكرت في العمدة و(خليفة) ووجدت أن كل غضبها، وشكوكها تتجه نحوهما. هم الذين صاروا وحوشًا، وقد رأت هذا بعينيها.

هم بلا شك من جلب تلك اللعنة للبلدة؛ ولهذا هم من يتحملون الذنب كاملًا. سوف تنتقم، ولو كان في هذا هلاكها. ستنتقم للدماء التي هي حتمًا تفور، وتغلي في قبرها طلبًا للثأر. لن تتصالح، ولن تكتفي بالنواح، والبكاء، ولن تسكت. قررت في عقلها مئات القرارات، وحبكت عشرات الخطط؛ للقيام بثأرها. في النهاية؛ غلبتها لوعتها، فراحت تبكي بلا انقطاعٍ. قبل أن يداهمها النعاس بغتةً كصاعقةٍ نبتت من العدم.

في الحلم؛ كانت الطبول تدق من كل مكان، ورأت نفسها ثانيةً في قلب معبدٍ فرعوني. على الجانبين؛ اصطف الكهنة بأرديتهم البيضاء المميزة، ورؤوسهم الحليقة، وأمام المذبح؛ وقف أبوها في زيّ كاهن كالآخرين.. ابتسم لها قبل أن يقول لها بصوتٍ راح يتردد كالصدى: " انضمي إلينا يا مريم. فجرنا يشرق، والسيد قادم ليحكم العالم. تزوجي السيد لتصيري ملكة الظلام الأبدية." دوت موسيقى من مكانٍ خفيّ، وراحت الكهنة تردد تراتيلًا فرعونيةً قديمة، ورغم أنها لم تفهم حرفًا. إلا أنها وجدت نفسها تتمايل ثملة مع النشيد الغريب. كان أبوها يقود الكهنة في ترتيلهم، ومن الضباب الذي خلفها؛ برز شبحٌ ضخمٌ مظلمٌ؛ راح يقترب منها حتى بانت ملامحه. كان (خليفة) وكان عاري الصدر، يرتدي ثوبًا يغطي نصفه السفلي فقط، ويضع تاجًا من الذهب فوق رأسه. تقدم نحوها، بينما اقترب أبوها منها، وأحاط كتفها بذراعه في ودّ. قبل أن يقول لها: "إنه مليكك يا مريم، اركعي لتحيته".

دق قبلها بعنفٍ، وشعرت بالفزع، وهي ترى النقش المريع يتلوى مشتعلًا في صدره و(خليفة) يبتسم في وحشية. تراجعت للخلف، فتقدما نحوها، وشعرت بهما فوقها تمامًا، قد أن يفتحا فاهما ويبرز منهما لسانان مشقوقان كألسنة الثعابين ويضحكان، صرحت في فزع وأغمضت عينيها..

انتهى الحلم بغتة ووجدت نفسها وقد فتحت مقلتيها وهي تلهث. كان حلمًا مريعًا؛ جعل قلبها يدق بقوةٍ، لكن ما رأته حين فتحت عينيها كان الهول نفسه، حتى أن قلبها توقف للحظة. كانت تقف أمام نافذةٍ مفتوحةٍ باتساعها، وقد قبضت على كل (درفة) مفتوحة بكفيها. وأمامها خارج النافذة مباشرةً، وفي الضباب؛ وقف (خليفة) وأبوها سويًّا، وهما معلقان في الهواء، يرمقانها بعيونٍ صفراءٍ مشقوقة، ويبتسمان. شهقت بقوةٍ، وتراجعت خطوةً للخلف قبل أن تدرك؛ أنهما قد يدخلان من النافذة، فأسرعت

تغلقها بارتباك، بينما كانا يندفعان نحوها. راح جسداهما الشبحي بعدها يطوفان حول النافذة الزجاجية، وهما يطلقان أصواتًا مريعة. فتراجعت للخلف، وكتمت فمها بباطن يدها، وراحت بأنفاسٍ متلاحقةٍ، وعينين جاحظتين؛ ترمقهما برعبٍ ذهب بصوتها، فلم تطلق صرخة استغاثةٍ واحدة.



بدأت الأحلام بغتة، ورغم غرابتها المتناهية، وبشاعتها في بعض الأحيان؛ إلا أنه شعر أنه ينتمي لها بصورةٍ ما. في مراتٍ كان يمارس طقوسًا شيطانيةً مريعة. يبقر بطون حيواناتٍ حيّة، ويسلخ جلودها بلا رحمة، وهي تتلوى ألمًا. يلتهم رضع، ويشرب دماء العذارى، ويشوي الرجال، وهم على قيد الحياة، قبل أن يتناول قلوبهم، وفي أخرى كان يمارس سحرًا رهيبًا نسيه البشر منذ آلاف السنين. سحر اكتسبه من الألواح الصخرية القديمة، ولفافات المقابر المهدمة المنسية. كان يستدعي الشياطين، وكائنات الظلام، والغريب أنه في الحلم؛ كان يستعبدهم ولا يتودد إليهم..

في كل مرةٍ؛ يرى نفسه بنفس الصورة. الرأس الحليق الذي يلمع بالزيت، والعيون الرمادية الواسعة المكحلة، والأنف المعقوف، والجسد النحيف الطويل، والأنامل ذات الأظفار الطويلة الملونة.

ودومًا هو داخل فناء معبدٍ فرعوني يقف على الصخور المخططة بالنجوم الخماسية، والطلاسم والرموز.

أحيانًا؛ يرى موتى يصطفون حوله في إجلالٍ وتوقير. وأحيانًا أخرى؛ يرى مسوخًا بأعينٍ صفراءٍ، وأنامل ثلاثية الأصابع تنحني له في تقديس، وفي أحيانٍ قليلة؛ يرى نفسه في قلب الدمار حيث حروبٍ مشتعلة، وصرخاتٍ، وأنينٍ، ودم، وأشلاء، وموتى، وحرائق، ودخان. ووسط كل هذا يقف منتصبًا بنشوةٍ قابضًا على صولجانٍ على شكل أفعى تتلوى، وتفح في شر..

في الحقيقة؛ كان يشعر أنه يتغير.. يشعر بقوة الأزمنة القديمة تتسلل إلى جسده، وتمتزج بروحه..

كان يتحول لشيءٍ آخر لا ينتمي له..

لكنه في الواقع؛ كان يشتهي هذا التحول في نشوةٍ هائلة.



انتبه أحمد لمكانه بغتة. كان راقدًا على كرسي خشبي أمام النافذة التي تسلل ضوء الصباح عبرها نحو الغرفة. استغرق الأمر لحظةً واحدةً، ليتذكر لماذا نام هكذا، وليس في فراشه؟ كان يراقب الضباب، أو على وجه الدقة؛ الموكب الذي يتنقل في الضباب كل ليلةٍ حتى الفجر. موكب الموتى والملعونين. ارتعش جسده وهو يتذكر كيف كان؟ ثم هز رأسه بعنف، ليطرد تلك الذكرى عن عقله وتمطى ومدد عضلات جسده؛ ليدفع بعض الألم عنها من أثر النوم غير المريح على المقعد طوال الليل، ثم

تذكر ما قرره بالليل فغادر البيت، واتجه نحو الشارع ليفتش عن (أيمن) العبيط. سوف يجده وسوف يدفعه بوسيلةٍ ما لإخباره بما يعرفه. استعاد عقله كل ما فعله (أيمن) منذ أطبقت تلك اللعنة على القرية. جريه في الشارع، وهو يحذر من الموتى، إنقاذه لـــ(مريم) في بيت العمدة.

كانت الشوارع خاوية رغم أن الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف صباحًا. في مثل هذا الوقت قبل أسبوعين كانت طرقات النجع تعج بالقوم؛ من فلاحٍ ذاهب لأرضه؛ لراعٍ يرعى دوابه؛ لنساءٍ عائداتٍ من البئر بالجرار المملوءة بالماء؛ لتجارٍ يفتحون حوانيتهم المختلفة. الآن سكن الخوف القلوب، فاستقر الكل على ملازمة البيوت، حتى وقتٍ متأخرٍ من الصباح، ثم يبدأ يومهم.

قرر أن يبدأ بحثه عن (أيمن) في تلك الخرابة القديمة التي اعتاد سكنها. كان محظوظًا لأنه كان هناك بالفعل، وقد خلد للنوم على الأرض ملتحفًا ببطانيةٍ مهترئةٍ قذرة. أيقظه برفقٍ، فهب (أيمن) من النوم بفزعٍ حقيقي، فهمس له مطمئنًا: "اهدأ يا أيمن، إنه أنا، أحمد بن الحاج عبد الكريم".

هب (أيمن) ودفع البطانية عنه وهو يرمقه بعيونٍ متسعةٍ وجلةٍ، في غير فهمٍ،، ثم دار بعينيه في المكان للحظةٍ. قبل أن يستقر على وجه (أحمد) ثانية الذي ربت على ظهره، وهو يقول مبتسمًا: "لابد أنك لم تتناول شيئًا حتى الآن. ما رأيك لو أتيت معي للبيت؟ هناك طعام كثير يمكنك أن تأكله".

ثم حرك أصابعه أمام عينيه، وهو يعد أنواع الطعام؛ ليشجعه: " بيض، زبدة، جبن، بطاطس، ولحم كذلك".

هنا ابتسم (أيمن) ولمعت عيناه في نشوة. طعام على الصباح الباكر لا ينتظره. كان يعرف (أحمد) بالطبع، واعتاد بصورةٍ شبه يومية أن يذهب لبيتهم حيث تضع أمامه (أم أحمد) أطباقًا تحوي طعامًا طازجًا ساخنًا، بخلاف الطعام البائت غالبًا، والذي تجود به بعض بيوت النجع عليه؛ لهذا كان يحب بيت الحاج (عبد الكريم)؛ ولهذا لم يمانع دعوة (أحمد) بل لحقه على الفور، وهو يدور حوله في فرحةٍ حقيقية..

وصلوا البيت. رأته أمه قادمًا مع (أيمن) فشعرت بالعجب، لكن (أحمد) سألها أن تعد إفطارًا سريعًا له، ولـ(أيمن). حركت كتفيها بغير فهم ثم غابت في المطبخ، وبعد قليلٍ عادت حاملةً صحافًا عليها الخبز والطعام، وضعتها أمامهما ثم ذهبت. انهمك (أيمن) في الطعام على الفور، وراقبه (أحمد) بتأنٍ وغير استعجال. عليه أن يبعث الطمأنينة التامة في نفسه قبل أن يحثه على الكلام. انتهى (أيمن) من طعامه وقد أتى على أغلبه، ثم تراجع بظهره للخلف في رضًا، ومسح فمه بظهر كفه. هنا قال (أحمد): "هل تريد المزيد؟"

أشار (أيمن) لمعدته في سعادةٍ، وقال: " لقد شبعت".

" - بالهناء والشفاء، والآن هل تسمح لـــ(أحمد) أن يسأل (أيمن) عن شيءٍ ما؟"

هز (أيمن) رأسه موافقًا ولم يرد، فواصل (أحمد): " هل تعلم لماذا جاء الموتى للنجع؟"

كان سؤالًا مباشرًا، ولدهشته رأى الفزع في عيني (أيمن)، وقد ظهر مرةً واحدة. مد يده نحوه ليهدئ من روعه، لكن (أيمن) تراجع للخلف، وكأنه يتحاشاها ثم نهض، وقال: " أيمن يريد أن يذهب".

هبّ (أحمد) خلفه، وقال له، وهو يجذبه من ذراعه: "سوف يذهب (أيمن) بعد أن يخبرني بما يعرفه".

انكمش (أيمن) حول نفسه وخبأ رأسه بين ذراعيه، وردد: " أيمن لا يعرف شيئًا. أيمن لا يعرف شيئًا".

ربت (أحمد) على ظهره، وهمس: " بل (أيمن) يعرف الكثير، لكنه يخاف".

لم يجبه، فأردف (أحمد): " (أيمن) يخاف من الحاج (حسنين) والحاج (حمد) و(خليفة). هل هذا صحيح؟"

رمقه (أيمن) في ذعر، لكن عينيه وشت بالإجابة، فقال (أحمد) بسرعةٍ، ليدفعه على البوح بما يعلمه: "أقسم أنهما لن يعلما أنك أخبرتني شيئًا. لن أخبرهما أبدًا أنك قد تحدثت إليّ. لكن عليك أن تخبرني بالحقيقة".

استغرق (أيمن) أكثر من دقيقةٍ في التفكير قبل أن يبدأ الكلام: " سوف يقتل (سليم) (أيمن) لو أخبر أحدًا بما رآه".

كانت الدهشة من نصيب (أحمد) هذه المرة. هل لـ(سليم) يد في الأمر؟ لم يتوقع هذا.

غمغم؛ ليطمئنه: "سليم كذلك لن يعرف بما دار بيننا. هذا وعد".

ارتعشت يد (أيمن) وارتجفت شفتاه. قبل أن يقول بصوتٍ خافت: " لقد وجدوا القبر. كنت هناك، ورأيتهم".

انتفض (أحمد) لدى سماعه كلمة القبر، وعلى الفور عادت حكاية نجع الموتى القديمة لتطفو أمام عينيه. الحكاية تكرر نفسها على نحوٍ متماثلٍ مخيف.

وقال لـــ(أيمن) في حزم:

" -وهل يعرف (أيمن)؛ أين يكون هذا القبر؟"

أشار (أيمن) نحو الجبل بيده، وقال: " لقد كان (أيمن) يسير خلفهم حتى وجدوه. (أيمن) يعرف طريقه. لكن (أيمن) لن يذهب إلى هناك أبدًا. سوف يقتلون (أيمن) لو عاد ثانيةً إليه".

دفعه (أحمد) في حزم، وخرج به من البيت، وهو يقول: "بل سنذهب الآن سويًّا إلى ذلك القبر. سوف أكونً معك، ولن يجرؤ أحد على أذى (أيمن)، وأنا معه".

بدأ (أيمن) في البكاء، وهو يصرخ: "(أيمن) لا يريد أن يذهب إلى هناك. دعني أذهب".

هنا قرر (أحمد) أن يمارس الحزم معه: " لو لم يخبرني (أيمن) بمكان القبر، فسوف أخبر (سليم) بما قلته لي، ولن أدافع عنك لو قرر الانتقام منك. أنت تعلم أن (سليم)

يمتلك ذئبًا متوحشًا يدعى (جابر)، وأنا متأكد أنه سوف يلقيك له لو غضب منك".

وَلوَل (أيمن) قليلًا محتجًا، قبل أن يذعن للأمر ويستسلم، تحرك برفقة (أحمد) إلى الجبل. وهو يتقدمه في كثيرٍ من الدروب الصخرية النائية غير المطروقة. احتاج الأمر لأكثر من الساعة والثلث. حتى بلغوا طريقًا صخريًّا ضيقًا يشرف على هاويةٍ مخيفةٍ فتوقف (أيمن)، وأشار إلى الصخرة التي تسد نهاية الطريق هامسا: " القبر هناك فوق الصخرة.. لكن رجال (سليم) هناك يحرسونه".

رمق (أحمد) الصخرة بترقبٍ، ثم أشار لـــ(أيمن) أن يمكث مكانه، وتحرك بحذرٍ نحو الصخرة. بحث بعينيه عن حفرٍ فيها، أو نتوءاتٍ تصلح لاستخدامها ليرتقيها، ثم بدأ تسلقها، أطل برأسه بحذر فوقها فشاهد الرجلين اللذين يحرسانها، وقد جلسا في مواجهة بعضهما البعض وهما يقومان بشيءٍ ما. تراجع برأسه على الفور، وهبط بهدوءٍ كي لا يشعرا به. قرر أن يكتفي بمغامرته تلك الآن، وقد اتضحت الرؤية أمامه. لقد وجد (سليم)، والعمدة المقبرة الذي جلبت اللعنة للنجع من قبل، وحتمًا كل الأحداث المريعة في النجع بسببها. ليعود الآن، وليفكر في الخطوة القادمة فيما بعد.

عاد للنجع ثانية فتركه أيمن فور أن دلفوا النجع، وهرول مبتعدًا، بينما اتجه أحمد مباشرة الي داره. هناك كان أبوه قد استيقظ، وجلس في مقدمة الدار على الأريكة الخشبية، وقد جلس أمامه رجلان يحدثانه، تعرف على أحدهما وقد كان الشيخ (حمدي المنياوي) إمام المسجد، وكان بجواره شيخٌ آخر يرتدي الجبة والقفطان الأزهري المألوف. قدمه الحاج (عبد الكريم) فور أن ذهب إليهم بعد أن حياهم، وقال: "هذا هو الشيخ (عبد الرحيم الراضي) إنه عالم أزهري جليل، وقد أتى للمساعدة".

أومأ للشيخ مبتسمًا في دهشةٍ، وقال: "المساعدة في أي شيء؟"

أجاب الشيخ حمدي: " لقد طلبت مشورة الشيخ (عبد الرحيم) فيما يدور في النجع، قصصت عليه كل شيءٍ، وهو يؤمن مثلي أن ما يحدث أعمال الشيطان".

التقط الشيخ طرف الحديث، وقال:

" -حين أخبرني تلميذي العزيز الشيخ (حمدي) بما يدور في نجعكم الكريم؛ لم أتردد في القدوم، وفور أن وصلت إلى هنا اقترح الشيخ (حمدي) أن نأتي للحاج (عبد الكريم) ؛ كي نتشارك في التفكير في ما علينا أن نفعله سويًّا..

بالطبع أشار إليكم لِمَ عَهِده فيكم من أخلاقٍ، ودينٍ لا غبار عليهما".

شكره الحاج (عبد الكريم) على ثنائه. بينما جلس (أحمد) جوار أبيه، وقال: "وهل أخبرك الشيخ (حمدي) بالموتى الذين عادوا للنجع؟"

"الموتى يا بني عند الله، ولا يعودون للحياة ثانيةً إلا بمشيئته".

"إذًا؛ من يكون هؤلاء؟"

"ربما كانوا شياطين تتلبس صورتهم. ربما كانوا قرناء الموتى من الجان، وربما كانوا من الجان المتشّكلين، وهؤلاء طائفة من الجان تمتلك القدرة على التشكل في صورة أي كائنٍ ما، وربما تشكلوا في صورة موتاكم".

بدا الحديث منطقي للغاية، وفكر (أحمد) للحظةٍ، ثم قال: "وماذا لو كانوا أي من هؤلاء، فما هدفهم مما يقومون به؟"

" - الشياطين لا يبغون إلا إفساد الأرض، وإهلاك أهلها. هذا دأبهم منذ بدء الخليقة".

هنا قال الحاج (عبد الكريم): "وما العمل إذًا؛ يا مولانا".

ابتسم الشيخ (عبد الرحيم) بثقةٍ، وقال: "القرآن الكريم.. ألم يقل الله في كتابه العزيز: " وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا".. يقول ابن عباس:" أنهم الشياطين."، ويقول تعالى: "وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"، وقال عز وجل أيضًا: " وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ".. كل تلك، وأكثر تفلح بلا ريبٍ في دحر أي شيطانٍ، وطرده".

تبادل (أحمد) النظر مع الحاج (عبد الكريم)، ثم قال الشيخ (حمدي):

" - لقد كنت أفكر في الأمر نفسه؛ حين حدثت أستاذي الشيخ (عبد الرحيم) ، ولقد وافقني على الاستعانة بالقرآن، ولما كان الأمر غير محدودٍ، ويشمل النجع كله، فإن لدي اقتراح أعتقد أنه قد يفلح".

نظروا إليه في تساؤلٍ بانتظار أن يواصل حديثه، فابتلع ريقه، وقال: "أقترح أن نستعين بمكبرات صوتٍ فوق أسطح البيوت في كل ناحيةٍ من النجع.. سوف نصل كل تلك المكبرات بميكروفون المسجد مثلًا، وحين تحضر تلك الشياطين في موكبهم الليلي؛ سوف يبدأ الشيخ (عبد الرحيم) في تلاوة القرآن الذي سيغمر كل شبرٍ في القرية. هناك آيات من القرآن تطرد الشياطين بل وقد تحرقهم، سوف نتلو تلك الآيات، وبهذا سوف نتخلص من شرهم للأبد".

تنهد الشيخ (عبد الكريم)، وقال: "فكرة معقولة يا شيخ حمدي، يمكنك أن تبدأ بها على الفور".

ابتسم الشيخ (حمدي) في حرجٍ، وقال بصوتٍ خافت: "لكنها تحتاج للمال، وما معي قد لا يكفي".

وأردف الشيخ (عبد الرحيم) وهو يبتسم في رجاء: "ولهذا، فنحن هنا نسألكم أن تساعدونا في هذا التدبير".

هتف (أحمد) على الفور: "لا تلق للمال أي بالٍ يا مولانا، كل التكاليف سوف نتحملها نحن. المهم أن تخلصونا من هذا الكابوس".

قالها ونظر إلى أبيه أخرج محفظته من جيبه، قبل ان يتناول منها رزمة كبيرة من النقود ناولها للشيخ (حمدي)، وهو يغمغم: "وهذه هي النقود، ولو احتجت للمزيد، أخبرني".

أشرق وجه الشيخ (حمدي) في امتنانٍ، وقبل أن يشكر الحاج (عبد الكريم)؛ عبر رجل قصير القامة باب الحديقة التي تحيط بالبيت مهرولًا، وقال لاهثًا:

" - الشرطة تهاجم بيت العمدة يا حاج عبد الكريم، والبلدة كلها هناك".

☆ ☆ ☆

عند العاشرة صباحًا. تحركت سيارتان من طراز قديم للجيب من نقطة الشرطة نحو النجع. في المقدمة كانت سيارة الرائد (فؤاد) الذي جلس بجوار الجندي الذي يقودها، وفي الخلف؛ جلس (خميس) في كآبةٍ، وحوله ثلاثة جنود وجهوا فوهات أسلحتهم للخارج في وعيد، وفي السيارة التالية؛ كان هناك باقي الجنود في وضعٍ مماثل. بدا الأمر، وكأن مواجهة عنيفة تلوح في الأفق. تحركت السيارة العتيقة على الطريق الصخري غير الممهد ببطءٍ،

وأصدر محركها العتيق ضجيجًا مرتفعًا، وهو يقذف من ماسورة العادم الكثير من الدخان الأسود. تجاهل (فؤاد) العيون المتوترة في الطرقات، والتي رمقت السيارتين في عداءٍ وتحفز، وشعر بالأنفاس السريعة القلقة لجنوده. طرد كل هذا عن عقله وحاول ألا يفكر في غير ما هو مقدم عليه.

ظل صامتًا حتى بلغوا بيت العمدة، فتوقفت السيارتان أمام مدخله تمامًا. هرع الجنود على الفور نحو البيت شاهري أسلحتهم في تحفزٍ، وهبط (فؤاد) في نشاط، ورسم على وجهه كل ما يقدر عليه من بأسٍ، وصلابةٍ. شدّ قامته في قوةٍ ورمق البيت في حزم وهو يرى الحركات المتوترة للخفر في المكان وهم يتوافدون من خلف الحديقة نحوً مدخل الدار، ثم ظهر الحاج (حسنين) من الباب وقد بدا عليه الانزعاجٍ، وصاح باستنكار: "أي عبثٍ هذا؟! هل تداهمون البيت؟"

كان الغضب في نفس الحاج (حسنين) هائلًا. راح جسده ينتفض وهو يصرخ، وقد انتفخت أوردة عنقه، وشرايينه بصورةٍ مخيفةٍ حتى ظن (فؤاد) أنها قد تنفجر، ومن خلف الرجل؛ اندفع خليفه متحفزًا، وهو يقبض على سلاح يخفيه في جيب جلبابه، وواصل العمدة احتجاجه هاتفا: "ما هذا الذي تقوم به هنا أيها الضابط؟ مُر جنودك أن يخفضوا أسلحتهم السخيفة تلك؟ وكف عن تباهيك الصبياني هذا بالقوة. أسلحتك هذه لن تفيد بشيءٍ هنا وقت الجد".

لاحظ (فؤاد) أن عيني العمدة، وخليفة حمراوين كالدم، وكأن نزيف ما أصابهما في وقتٍ واحدٍ إلا أنه أخرج هذا الأمر على الفور من رأسه، وهو يهتف: "هذا ليس تباهيًا بالقوة يا حاج حسنين، والجنود يقومون بعملهم".

" - وهل يتضمن عملهم تصويب أسلحتهم في وجوه الناس هكذا. هذا تصرف صبياني غير مسؤول، وغير معقول"!

لمح (فؤاد) الأسلحة التي شهرت على الفور نحو رجاله. عشرات الخفر وغيرهم ممن توافدوا نحو المكان، بينما برز آخرون من فوق سطح المبنى، وكلهم قد أشهروا اسلحتهم نحوه. هنا تحرك (خميس) من خلف (فؤاد)، وقد اشتم رائحة المعركة المنتظرة، فأسرع يقول ملطفًا: "الأمر غير مقصود يا حاج (حسنين) أبدًا. الأسلحة ليست من أجلك بلا شك. أليس كذلك يا فؤاد بك؟"

التفت إليه (فؤاد)، ورأى الذعر في عيني تابعه، فأجاب ببطء: "بالطبع يا خميس، لسنا هنا للقتال بلا شك. مر الجنود أن يخفضوا أسلحتهم".

ثم عاد لينظر للحاج (حسنين)، وهو يكمل بنفس البطء: "هل هذا يرضيك يا حاج حسنين".

لكن خليفة كان من أجابه في تحد:

"هذا أفضل لكمٍ بالطبع. لا أحد يأتي لدار الحاج (حسنين) شاهرًا السلاح، ويخرج على قدميه ثانيةً أيها الضابط".

"هل تهددني أيها الشاب؟"

استعد (خليفة) للرد، لكن كف أبيه التي ارتفعت نحوه مقاطعةً منعته فابتلع كلماته، وقال الحاج حسنين:

" - هذا ابني (خليفة) يا فؤاد بك، وهو لا يقصد تهديدك. إنه مستاء مما حدث ولا ألومه. أنت أول ضابط يأتي إلى بيتي مدججًا بالجنود والسلاح هكذا، ولا أجد مبررًا لما تقوم به إلا لو كنت جئت؛ لتلقي القبض عليّ".

تحرك (فؤاد) نحوه مجتازًا الحديقة في خطوات سريعة، وهو يقول: "لست أفعل بالطبع. حتى الآن لم تقترف جريمةً حقيقيةً أعلمها لأفعل".

احتشد الكثير من الأهالي حول المكان. البعض في فضولٍ ودهشةٍ، والبعض في ضيق وترقب. بدا وكأن البلدة كلها في طريقها نحو بيت العمدة، الذي جلس على أريكته الخشبية في مواجهة بيته دون أن يدعو (فؤاد) للجلوس، وقال بلا ودّ: "ماذا تريد يا فؤاد بك؟"

" - أريد أن أعلم؛ كيف مات علوان؟ ذلك الرجل الذي دفنتموه بالأمس".

ضاقت عينا الحاج (حسنين)، وتنهد قبل أن يجيب بحنق: "لا أرى؛ لماذا تهتم بشأنه هكذا؟ لقد انتهى أجل الرجل فمات، وقد أخبرتك بهذا بالأمس، لماذا لا تصدق؟"

أخرج (فؤاد) علبة تبغه من جيبه، والتقط منها لفافة تبغٍ، وهم بإشعالها، وهو يجيب: "معلوماتي تؤكد أن الرجل قد يكون مات مقتولًا".

" - ومن أين جئت بمعلوماتك السخيفة هذه؟"

لم يجب (فؤاد) على الفور، ورمق (خليفة) المتحفز في لامبالاة للحظةٍ، وهو يلحظ للمرة الأولى البروز الواضح للسلاح المختفي في جيب جلبابه، أخرج من فمه

سحابة كبيرة من الدخان، ثم أجاب ببطء:

"لست مضطرًا للإفصاح عن مصادري، وعملي هو التيقن من صدق ما يصل لأذني من شكوك".

"عملي - أيضًا- يتيح لي أن أعرف كل شيءٍ يجرى في النجع، وهذا يعني أنني أكثر من يعلم بما يدور هنا؛ ولهذا فإني أؤكد لك وبكل الثقة، أن مصدر معلوماتك المجهول يضللك يا فؤاد بك، لو شئت النصيحة فعليك أن تبحث

عن مصدرٍ آخر غيره لا يطرح بالأكاذيب في أذنيك".

"أريد أن أتأكد بنفسي أنه يضللني، وأعدك أن أبدله بعدها".

"ما أنت مقدم عليه خطأ لا يغتفر في مكانٍ كهذا يا فؤاد بك".

"سوف أعتذر لو اكتشفت أن شكوكي كانت غير صائبة".

أطلق (خليفة) ضحكةً متهكمةً، وتحرك بين الرجال المشدودين، وصاح ساخرًا: "هل سمعتم يا رجال؟! الرجل سوف يعتذر. يأتي إلينا مدججًا بالسلاح، ويلقي بالتهم يمينًا، ويسارًا، وحين يدرك أنه كان مخطئًا يعتذر. أخبرني أيها الضابط، بماذا يفيد اعتذارك حينها؟"

ألقى (فؤاد) السيجارة التي يحملها أسفل حذائه، وسحقها في قوةٍ، وهو يجيب:

" -وماذا تنتظر مني غير الاعتذار، هذا بالطبع لو كنت مخطئا"!

هم (خليفة) بالرد لكن الحاج (حسنين) قاطعه ملوحًا بكفه بضجرٍ، وقال في حزم: "ماذا تريد الآن أيها الضابط. لننهي هذا العبث؟"

كره (فؤاد) بشدةٍ مناداته طوال الوقت بـــــــــــ "أيها الضابط" بدلًا من اسمه. شعر أنهم يريدون بهذا ازدراءه، والتقليل من شأنه، لكنه تجاهل الوقوف عند تلك النقطة، وأجاب في هدوء: "أريد أن أتحدث مع أهل (علوان)، وأن أستجوبهم بنفسي".

قال الحاج (حسنين) في بساطةٍ، وهو يلوح بكفه المعروق في وجهه: "لا مشكلة في هذا. سوف آتيك بامرأته".

ثم التفت إلى ابنه، وقال آمرًا: "أرسل أحدًا؛ ليحضر امرأة عمك".

أشار (خليفة) لأحد الأتباع، فذهب مسرعًا ليحضرها. بينما أشار الحاج (حسنين) نحو الأرائك الخشبية، وقال:

" - تفضل بالجلوس يا فؤاد بك، لن تنتظر المرأة وأنت واقف هكذا".

جلس (فؤاد) على طرف أريكةٍ مبطنةٍ بالقطن في مواجهة مقعد الحاج (حسنين). بينما تقدم (خميس)، وجلس إلى جوار الحاج (حسنين)، وراح يتحدث إليه بصوتٍ خافتٍ في تملقٍ، وتوددٍ لم يرق كثيرًا لـــــ(فؤاد). لم يجاريه الحاج (حسنين) في حديثه، وظل وجهه محتقنًا غاضبًا. أشعل (فؤاد) سيجارةً جديدةً، وخاطر ملح يقرع

عقله. ماذا لو كان مخطئًا؟ ماذا لو كان (علوان) هذا قد مات بصورةٍ طبيعية؟! هل خدعه ذلك الشاب الذي لحقه بالأمس في الغابة حين أدخل الشك في نفسه؟ لو كان هذا صحيحًا، فستهتز صورته بشدةٍ في المكان، وربما صار أضحوكةً في كل العيون. لكن ماذا عن تلك الأسرار الغامضة التي تحيط بالنجع؟ ماذا عن رواية الطبيب عن موتى النجع، وماذا عن الضباب الغامض الذي يحيط بالقرية كل ليلة؟ وماذا عن تلك الأشباح التي خرجت من التليفزيون؟ لقد رأى هذا بعينه وهذا يعني أن المكان ليس بريئًا أبدًا من الغموض، والأسرار. هناك ما يخفيه هؤلاء عنه، ولن يهدأ حتى يكشف سر تلك الألغاز.

لمح من بعيد الحاج (حمد) وهو يتحرك نحوهم، يرافقه رجل عجوز يبدو وكأنه يعاني من إعاقة ما، ويتبعهما شاب في مقتبل العمر. غمرته الدهشة وهو يتعرفه منذ الوهلة الأولى. كان نفس الشاب الذي ألقى بالشكوك في وجهه. ترى من يكون؟ أخفى كل أثر للدهشة عن وجهه، كي لا يفضح أمر الشاب، وحاول ألا ينظر إليه، وهو يتتبع بعينيه الشيخين القادمين، حتى بلغوا المكان، وفوجئ بالحاج (حمد) يهتف فيه في حدة: "تثير الكثير من الغبار والضجيج من حولك أيها الشاب. لا أدري؛ هل هي شجاعة، أم تهور غير محسوب؟"

لم يعقب (فؤاد) على تساؤله، وواصل تدخينه، بينما أفسح (خميس) للحاج (حمد) مكانا، ليجلس إلى جواره، فقال له الأخير بضيق: "لماذا لم تحدث ضابطك عنا يا خميس، أخبره من نكون؟ وماذا يكون النجع، وأهله؟"

لم يهتم (فؤاد) بالرد عليه، ولا بما قاله (خميس) بارتباكٍ حقيقي، وقد بدا أنه لا يريد إغضاب أحد في النجع، وجاهد في الوقت نفسه ليبعد عينيه عن الشاب الذي رمقه للحظةٍ بنظرةٍ محذرةٍ، وكأنه يقول له: " تماسك كي لا يعلموا بما دار بيننا! " بينما جلس الرجل العجوز الآخر إلى جوار العمدة الذي قدمه، والشاب لـــ(فؤاد) قائلًا:

" - هذا هو الحاج (عبد الكريم دياب). كبير عائلة (الديابة) في النجع، وهذا ابنه (أحمد)".

تأمل (فؤاد) الرجل العجوز الوقور، ونظر إلى وجهه الذي حافظ على هدوئه. بدت عينا الرجل أكثر حياة من وجهه وجسده، وهو يقول بصوتٍ قوي: "ماذا هناك يا حاج حسنين، ولماذا أجد الشرطة هنا؟"

أجابه الحاج (حسنين) في سخط، وهو يشير إلى (فؤاد): "سل الضابط الجديد الذي يعتقد أن (علوان) قد مات مقتولًا. بل ويتهمنا هنا بالتستر على مثل تلك الجريمة التي لا وجود لها إلا في خياله".

ارتفع حاجب الحاج (عبد الكريم) في دهشةٍ، ولاحت ابتسامة واهنة على جانب فمه. قبل أن يداريها بسرعةٍ، ويقول بهدوء: "ومن أدخل في رأسك فكرةً كهذه يا بني، الحاج (حسنين) والحاج (حمد)، هما آخر من قد يتسترا على جريمةٍ كهذه بالطبع. ببساطةٍ لأن (علوان) هو ابن عمهما".

شعر (فؤاد) بالدهشة ثانية. (علوان) هذا هو ابن عمهما. هذا يغير الأمر بلا شك. صارت الخيارات أكثر وضوحًا، فإما أن يكون الرجل قد مات بصورةٍ طبيعيةٍ وهو مخطئ، وإما أنه قد قتل بالفعل، وهما يتستران على الأمر رغبةً في الثأر له مثلًا بعيدًا عن الشرطة، أو ربما كانا متورطين في قتله! شعر بالصداع يطرق رأسه بقوةٍ من كل هذه التخمينات، والألغاز، فعاد ليدخن، وقال للحاج (عبد الكريم): "أنا لا أتهمهما بشيءٍ يا حاج عبد الكريم، أنا هنا فقط لأقوم بعملي".

" - وهما سوف يساعدانك في إتمام عملك يا بني، كن متأكدًا من هذا".

خيم الصمت المشوب بالتوتر على الجميع بعدها. حتى عاد الخفير الضئيل، وخلفه امرأة نحيفة ترتدي عباءةً سوداء فضفاضةً للغاية، وتخفي أكثر وجهها بقطعةٍ من غطاء رأسها الأسود. وقفت المرأة غير بعيدٍ، وقال لها الحاج (حسنين) بودّ، وهو يشير نحو (فؤاد): "معذرة يا ابنة العم؛ لأننا أخرجناك من البيت، وأنت في حداد، لكن (البيه) هو ضابط الشرطة الجديد، وهو يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة بشأن (علوان)".

لم تتحدث المرأة، وظلت عيناها جامدتان لا تشيان بما يدور بداخلها، وأدرك (فؤاد) أن هذا دوره في الحديث، فقال بهدوء: "في البداية؛ دعيني أقدم تعازيّ في المرحوم".

لم تلتفت المرأة إليه، ولم تعقب. رأى اليد النحيلة السوداء المعروقة، وهي ترتعش قليلًا، فواصل حديثه، وهو ينتقي كلماته بعناية:

" - الأمر لا يعدو مجرد سؤالٍ واحد؛ كيف مات الحاج (علوان)؟"

رأى الانتفاضة الخفيفة في الجسد النحيل، وشاهد الأصابع التي تقلصت في توتر. لم ترد المرأة، وبدا عليها أنها لن تفعل أبدًا. هنا صاح بها الحاج (حمد): "تحدثي إلى الضابط يا ابنة العم؛ لننتهي من هذا السخف. هيا أجيبيه.

كيف مات (علوان)؟"

خرج من فمها صوت بارد، وهي تقول: "وماذا يفيد الآن الحديث؟ لقد مات الرجل، ولن يعود. لقد عاد لخالقه وتركنا للأبد".

كانت إجابتها مبهمة، وشعر (فؤاد) أنها تؤكد شكوكه أكثر مما تنفيها، ويبدو أن الحاج (حسنين) لم ترقه الإجابة، فصاح بها في عصبية: "تحدثي يا ابنة العم، وأخبريه؛ هل مات (علوان) مقتولًا؟"

صمتت المرأة، وبدا الكل في انتظار إجابتها. قبل أن تتحدث بصوتٍ محايد:

" - لا. لم يمت (علوان) مقتولًا".

هنا التفت (خليفة) بظفرٍ نحو (فؤاد)، وصاح في شماتة: "هل سمعت يا رجل؟ زوجته تنفي أنه قد ماتَ مقتولًا. هل هذا يكفي لتقديم اعتذارك العلني، وترحل؟"

لم يرتبك (فؤاد) من تلك الإجابة التي أخبرتهم المرأة بها. هذه المرة أيقن بحدسه البوليسي أن (علوان) قد مات مقتولًا. المرأة لم تمنحهم إجابةً مباشرةً إلا بعد تفكير، وقبلها لم تنف الأمر، أو تؤكده. المرأة رغم تماسكها لم يربكها سماع أن زوجها قد يكون مات مقتولًا، وسمع الحاج (حمد) يقول للمرأة: "هذا يكفي يا ابنة العم، عودي للبيت لترعي حزنك، وليعنك الله".

أراد (فؤاد) أن يستبقيها؛ ليضغط عليها قليلًا، فقال بسرعة: "لكنني لم أنته بعد! انتظري يا سيدتي"!

لكن (خليفة) اندفع؛ ليقف أمامه في تحدٍّ، وقال بصرامة: "هذا يكفي أيها الضابط. لا تنس أنها مازالت في حدادٍ، وتقاليدنا تحتم عليها ألا تغادر منزلها، أو تحدث الرجال أثناء هذا مهما حدث. لقد خالفنا تقاليدنا كي ننتهي من تلك الترهات التي تلقيها على أذاننا، وها هي قد أكدت أن عمي (علوان) قد مات موتةً طبيعية"

نهض (فؤاد) من مكانه، وقد بدأ يفقد تماسكه من تلك اللهجة التي يحدثه بها (خليفة). هذه المرة أراد أن يثيره ويتحداه، فقال له: "وماذا لو أخبرتك؛ أنني ما زالت على رأيي، وشكوكي".

في تلك اللحظة؛ ظهرت من بعيدٍ فتاة مسرعة الخطى نحوهم. كانت حاسرة الوجهة على قدرٍ كبيرٍ من الجمال رغم شحوبها، وما إن اقتربت منهم، حتى ظهر الاضطرابً على الجميع، وصرخت زوجة (علوان) فيها، وهي تندفع نحوها بغضبٍ، وحنق:

" - ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ولماذا تركت البيت؟"

لكن الفتاة تجاوزت أمها، وقد تخلصت من كفيها اللذين حاولا القبض عليها. قبل أن تتوقف أمام (فؤاد)، وتنظر نحوه بعينين واسعتين حمراوين من أثر البكاء، وتصرخ: "لقد قتلوا أبي. الشياطين فعلوها. خرج من البيت في

الضباب، فقتلوه".

دار رأسها بين الجميع في جنونٍ، وبدت، وكأنما أصابها الخبال، وفي اللحظة التالية هوت يد نحيلة على وجه الفتاة وصفعتها. كانت أمها التي صرخت فيها: "ماذا تقولين يا حمقاء، هؤلاء هم أعمامك، ولم يقتل أحد أباك. هل ترغبين أن يجلل العار رؤوسنا؟"

لاحظ (فؤاد) (أحمد) الذي اندفع نحو الفتاة على الفور، ووقف بينها، وبين أمها ربما ليمنع أمها من ضربها ثانيةً. خمن أن علاقة ما تربطهما سويًّا. بينما هتفت الفتاة في عنادٍ دون أن تأبه بالصفعة التي هوت على وجهها:

" - بل قتلوه يا أمي، قتلوه؛ لأنهم لم يعودوا بشرًا مثلنا. لا أحد منكم يدري ما صاروا إليه، لكنني أعلم، أنا وحدي كنت هنا من قبل وقد رأيتهم، أليس كذلك يا خليفة؟! هل أخبر الكل بالحقيقة؟"

كانت تقول الكلام بسرعةٍ، وهي تشير نحو العمدة، والحاج (حمد)، و(خليفة)، ثم صمتت بغتةً، وكأنما فقدت قواها كلها في لحظةٍ واحدة. أطبق الصمت بعدها على المكان، وتبادلت الكثير من الأعين النظرات. قبل أن يقول الحاج (حمد) في صرامة:

" - عودي بالفتاة للبيت يا أم (سعدون)، يبدو أن فقدها لأبوها قد ذهب بعقلها"

لكن (فؤاد) تحرك نحو الفتاة، وقال بسرعةٍ، وهو يبسط ذراعيه في وجه الجميع: "ليس قبل أن أتحدث إليها. لقد اتهمت الفتاة الجميع، وحتمًا هناك أسباب دعتها لهذا".

اندفع (خليفة) نحوه وتوقف بينه وبين الفتاة في نفس الوقت الذي جذب (أحمد) الفتاة من يديها برفقٍ بعيدًا عن طريقهما.

وقال (خليفة) لـــ(فؤاد) بخشونة: "لا شأن لك بـــــــ(مريم)، ولا بما تقوله. إنها تهذي من تأثير الصدمة التي أثرت على تفكيرها".

بينما سحبت الأم ابنتها من بين أنامل (أحمد)، وهي تصيح في وجهه: "ليس من حقك أن تلمسها".

رمقها (أحمد) في دهشةٍ، وقال بإحراج: "لكنها خطيبتي".

" - كانت كذلك يا ابن الحاج عبد الكريم، لكن، وقد مات أبوها، فكل شيءٍ قد تغير. الأمر الآن في يد أعمامها".

حركت الفتاة رأسها بإعياءٍ بين وجه أمها الصارم، ووجه (أحمد) المذهول، وفي اللحظة التالية؛ اتسعت ابتسامة (خليفة)، وتحرك هو الآخر؛ ليقف بين (مريم) و(أحمد) قائلًا: "أعتقد أنك سمعت أنت الآخر ما قالته امرأة عمي، لم تعد خطيبها بعد الآن؛ ولهذا ابتعد عنها".

دفعه (أحمد) بتحدي، وتوتر، وصاح فيه: "بل هي خطيبتي رغما عنك، ولن تنالها مهما حلمت، ولو اضطررت لقتلك".

" - أتمنى أن أراك وأنت تحاول؟.. هيا اقتلني لو كنت تجرؤ".

تكهرب الجو، واندفع الحاج (عبد الكريم)، والحاج (حسنين) للحول بين الشابين المتناحرين. قبل أن يشتبكا، وقال الحاج (عبد الكريم) لابنه، وهو يبعده: "مثل تلك الأمور لا تناقش أمام الجميع هكذا، ولن تحل بالشجار. أمسك لسانك يا (أحمد) وارحل من هنا الآن".

بينما سحب الحاج (حسنين) ابنه وهو يقول أم (سعدون):

" - عودي بـــ(مريم) للبيت الأن، إنها لا تدري ما تقوله، ووجودها يوتر الجميع. هيا اذهبي بها".

بدت (مريم) في ذهولٍ، حتى أنها تخلت تمامًا عن تماسكها، وألقت بنظرةٍ مستنجدةٍ لـــ(أحمد) الذي هز رأسه لها مطمئنًا، ثم استجابت لكفٍّ أمها التي تجذبها لتفارق

المكان، قبل أن يتبعها (أحمد) الذي رمى (خليفة) بنظرةٍ ناريةٍ، وقال وهو يغادر: "لم ينته الأمر بعد يا هذا، فلا تطمئن كثيرًا".

قابله (خليفة) بابتسامةٍ متهكمةٍ ولم يرد. بينما اكتفى (فؤاد) بمراقبة كل ما يدور. علم أن مثل تلك المواجهات تبرز دومًا ما خفى في النفوس واستتر. أدرك مما يدور أن هناك صراعًا بين (أحمد) و(خليفة) على (مريم). صراع بين ذكرين من أجل أنثى، وها هو يشهد من أجل هذا الصراع تهديدًا صريحًا بالقتل أمام عشرات الشهود. لكنه بسرعةٍ استعاد تركيزه بشأن قضيته الأساسية التي جاء من أجلها، فقال بانتصار:

"والآن ما رأيكم؟ الفتاة تؤمن أن أباها قد قتل. بل، وتعتقد أنها تعلم من قتله، أو تسبب على الأقل في مقتله".

لكن (خليفة) أجابه بسرعة: "هذا لا يعني أي شيء. إنها تهذي وقد أفقدها موت أبيها عقلها. من الحمق أن نأخذ كلامها مأخذ الجد".

أجاب (فؤاد) ببرود: "بل سأكون أحمقًا لو صدقت هراءك هذا، وكذبت حدسي. لقد قتل الرجل وسوف أثبت هذا، ولن أرحم من فعلها أو من تستر عليه. أقسم أن أفعل".

نطق لسانه: "من تستر عليه" ببطءٍ وهو ينظر للحاج (حسنين) و(حمد)، وكأنه يخبرهما أنه يعنيهما بكلماته، فنهض الحاج (حسنين) بدوره وصاح وقد انتفخت عروق رقبته غضبًا، حتى أنه راح يلهث: "افعل ما شئت أيها الضابط. لكننا لن نعاونك في عملك هذا ثانيةً".

لم يتمالك (فؤاد) نفسه هذه المرة أمام هذا التحدي الذي ينال من هيبته، وقال مهددًا: "سوف أفعل بالتأكيد أيها العمدة. بل وسوف أستخرج الجثة نفسها لتذهب إلى الطبيب الشرعي الذي سيؤكد شكوكي، وسوف يكون بيننا بعدها حديث آخر".

جاء دور الحاج (حمد) هذه المرة ليتحدث، فقال متوعدًا: "حذار أيها الضابط مما تفكر فيه. للموتى حرماتهم، ولن يقبل أحد مهما حدث أن تُنتهك. دع الموتى لخالقهم أيها الضابط ولا تفضح سترهم، ولتعلم أن هناك أمورًا لا قبل للمرء بها مهما علا شأنه".

" - ما أعلمه هو أني أقوم بواجبي، وأني أفعل أي شيءٍ كي أتمه".

قالها (فؤاد) بجفاف، فأخرج (خليفة) مسدسه من جرابه، ورفعه نحو (فؤاد) في تهديدٍ حقيقي، وقال: "لو اقتربت من المقابر يا هذا، فلن تخرج منها على قدميك. أعدك بهذا".

هب الكل من مقاعدهم، وارتفعت الأسلحة كلها في وجه الآخرين من الجانبين. كانت الغلبة بالطبع لرجال العمدة وأنصاره. بينما نظر (فؤاد) إلى خليفة ببرودٍ وقد اتسعت عيناه في دهشةٍ حقيقيةٍ من هذا التهديد المباشر، وقال ببطء: "هل ترفع سلاحك في وجه ضابط شرطة يا هذا؟"

"بل، ويمكنني أن اقتله لو تطلب الأمر. رصاصة واحدة في هذا المكان تحسم أي خلاف".

"نعم! أنت مصيب بالفعل. رصاصة واحدة تحسم أي خلاف.. لن أنسى هذا الوعيد ولا هذا السلاح المصوب ناحيتي، وقريبًا للغاية ستفهم ما أعنيه"!

قالها (فؤاد) بصرامةٍ، وتحدٍّ، وهو ينظر في عيني (خليفة) دون أن يرمش. بينما قال الأخير، وهو يبتسم باستخفاف: "أنتظر ما ستفعله على أحر من الجمر".

لمح (فؤاد) نظرة رضًا في عيني الحاج (حسنين)، وكأنما يؤيد ما قام به ابنه. صار الجو مشحونًا بالتوتر تمامًا. لم يعد هناك ما يقال أكثر من هذا، فغادر (فؤاد) دون أن يودعهم نحو السيارة، وهو يقول لـــ(خميس) آمرًا: "هيا بنا يا خميس، لقد انتهت جولتنا الأولى هنا".

سمع (خليفة) يهتف من خلفه ضاحكًا: "وستنتهي كل جولة هنا بالنتيجة نفسها. لا تنتظر معجزةً في نجع الذئاب".

كان هناك هذه المرة وهم يغادرون الكثير من أهالي النجع على جانبي الطريق، وقد راحوا يرمقونهم في عداءٍ حقيقي، وكأنما لا يرغبون في وجودهما داخل نجعهم، وانتقل التوتر إلى الجنود، فقبض كل منهم على سلاحه بتحفزٍ شديد، وفور أن خرجت السيارة من النجع؛ قال (خميس): "هل تنوي حقًّا أن تنبش قبر (علوان) هذا يا فؤاد بك".

" - سوف أفعل لو اقتضى الأمر".

هنا قال (خميس) في ذعرٍ حقيقي: "بالله عليك لا تفعل. لن يسمحوا لنا بهذا، وستكون مجزرة كاملة. لقد عشتُ هنا لفترةٍ كافيةٍ لأدرك كيف يفكرون. سوف يمنعونا بالقوة لو اقتضى الأمر. صدقني حين أخبرك أنهم لا يفتقدون الشجاعة والاندفاع. كما لا يفتقدون السلاح والذخيرة. لا تفكر في هذا أرجوك".

اتجه (فؤاد) مباشرةً إلى مكتبه في نقطة الشرطة فور أن وصلها، وما إن دخلها حتى انبعث من الهاتف الأرضي العتيق الرنين المعدني المميز له، وكأنما كان بانتظاره. رفع السماعة وعبر الخط وصله الصوت الغاضب لمدير أمن المحافظة وهو يصرخ فيه: "ما هذا الذي تفعله عندك أيها الرائد، أرسلناك لترعى الأمن لا لتشعل النيران من حولك. يبدو أنهم كانوا على حقٍّ حين أخبروني؛ أنك مشاغب تثير المشاكل طوال الوقت. يلوح لي أنك غير قادر على السيطرة على جموحك".

شعر (فؤاد) بالذهول. كيف علم مدير الأمن بما جرى بمثل هذه السرعة، وأي نفوذ يمتلكه هؤلاء؛ ليغضب منه رئيسه هكذا؟ فكر في تبرير فعله، وقال: "يا فندم، هناك جريمة قتل، و"..

وقاطعه مدير الأمن في ثورة: "الجريمة الحقيقية أيها الرائد، هو ما تقوم به. هل تهددهم بنبش القبور؟ ما هذا الغباء والتهور؟ لقد أخبروك؛ أن الرجل لم يقتل، وهذا يحسم الأمر. هم أدرى بشؤون بلدتهم وطالما لم يتقدم أحد بشكوى، فلا مجال للتنقيب في الأمر. اسمعني جيدًا أيها الرائد، سوف تنسى ما حدث وسوف تطرح الأمر كله عن رأسك. هل تفهم؟ لا مزيد من التحقيقات في تلك المسألة، هذا أمر"!

وصمت برهة؛ ليجعل صوته أكثر صرامة، وأردف:

" - وصدقني لن ترغب حقًّا في اختبار غضبي لو خالفت ما أقوله. هل تعي ما أقوله؟"

☆ ☆ ☆

بعد صلاة العصر؛ طلب الحاج (عبد الكريم) من زوجته أن تذهب بالطعام إلى حجرة أمه. شعر برغبةٍ ملحةٍ في أن يجلس إليها، وأن يتناول الطعام معها، كما كان يحدث في الأيام الخوالي. تحرك ببطءٍ مستندًا على عكازه، وطرق الباب مرةً واحدةً، ثم دخل دون أن ينتظر الرد، وما إن دخل، حتى رآها على فراشها تنتحب. تسمر في مكانه، وهاجمت قلبه الهواجس كلها دفعةً واحدةً. مرةً أخرى تبكي أمه وهي التي لم تبكِ من قبل إلا حين مات أبوه وحين فقد ساقه. بل، وكان الأكثر حيرة، أنها كانت تبكي قبل حدوث تلك المصائب وليس بعدها. يتذكر كيف ظلت لأيامٍ قبل مقتل أبيه تبكي طوال الوقت؟ وحين كانت تراه، كانت تلوذ بالصمت وتكتفي بالتحديق في وجهه بعيونٍ غارقةٍ في الدموع، وكأنما كانت تشبع عينيها منه قبل الرحيل. لكن وبعد تأكدها من وفاة الأب راحت تستعين بصبر الجبال كله، فلم تزرف عليه دمعةً واحدةً، واكتفت بترديد " الحمد لله. لله ما أعطى ولله ما أخذ" نفس الأمر تكرر قبل أيام من فقدانه ساقه في الجبل. ظلت تبكي، حتى إذا شعرت به كفكفت الدموع وتحلّت بالجلد، فكانت تنظر اليه بصمت حينا، أو إلى ساقه أحيانًا، حتى حلت الحادثة، فلم ير الدمع في عينيها، ولم تردد غير: " الحمد لله، أمانه استودعها لعبده ثم استعادها."

والآن عادت للمرة الثالثة تبكي. لو كانت تبكي عليه، فلا مشكلة هناك، إنها أعمار، لقد شاب شعره، وقضى في هذ العالم أمدا طويلا، فما العجب في أن يقضى نحبه في أي حين، كأي عجوز آخر يموت في كل لحظة. لكنها لا تنظر إليه كما كانت تفعل، وهذا ما أرعبه، فكل نظراتها انصبت على (أحمد). تمامًا كما فعلت معه من قبل، وكما فعلت مع أبيه قبلها. تحرك نحوها فأشاحت بوجهها عنه، وهي تبكي في صمت. وجد دموعه تنحدر هي الأخرى بلا إرادة منه، فجلس على طرف الفراش، وقال متنهدًا: "ما الذي تخفيه في عقلك هذه المرة يا آمنة؟"

لم ترد. بل ولن ترد أبدًا ككل مرة، شعر بالتيه وهو يتمنى أن تكون هواجسه غير صحيحة، دخلت زوجته بالطعام. فرأت بكاءهما، فهمت بالسؤال عن تفسير بكاءهما، لكنه أمرها أن تضع الطعام بينه وبين أمه، وأن تغادر الغرفة، ففعلت. ينظر إلى أمه التي توليه ظهرها، ويتردد في عقله السؤال آلاف المرات، وهو يخشى أن يسأله، وكأنما يخشى أن تمنحه الإجابة التي يتمنى الموت قبل أن يسمعها. في النهاية يغالب تردده، ويقول: "هل هو الولد هذه المرة يا آمنة؟ هل سيذهب أحمد؟"

يرى الجسد الضئيل، وهو ينتفض فور أن ألقى السؤال. هل تؤكد أمه مخاوفه؟ وهل سيموت أحمد؟ يختلج قلبه، وتصير الدموع في عينيه بحيراتٍ، وبِركًا، ويتمتم في

قنوط: "رحماك يا رب العالمين".

وينظر إلى الطعام بلا شهية. لن يمس هذا الطعام أحد.

☆ ☆ ☆

شقت سيارة دفعٍ رباعي طريقها نحو الجبل. كان قائدها يحفظ طريقه جيدًا، يعرف متى يسرع ومتى يبطئ، وأين ينحرف الطريق خلف الصخور الضخمة، ومتى يصير الطريق ممهدًا. كان السائق أحد المطاريد، وبجواره جلس رفيقه، وهو يحمل على حجره سلاحه بتحفز. لم يتحدثا سويًّا طوال الطريق، وكأنما ذهب الكلام كله من عقليهما. في الواقع كانت المهمة خطيرة، وشعرا بالكثير من التوتر من الركاب الموجودين بالخلف. أربعة من الدجالين، والسحرة، وخامسهم الشيخ (عتمان)، الرجل اللعين الذي صب اللعنة فوق رؤوسهم في الجبل. سافروا إلى محافظاتٍ بعيدةٍ لأسبوعٍ كاملٍ، ودلفوا جبالًا وعرةً، ثم ارتحلوا لواحةٍ على الحدود، كي يجلبوا كل واحدٍ من وكره، أو بيته. تولى الشيخ (عتمان) إقناع السحرة بالقدوم، واقتصر دوريهما على مراقبة الشيخ (عتمان) كي لا يهرب، وتأمين احتياجات السحرة من المؤن، والتنقلات، وغيرها.

واصلت السيارة رحلتها لبعض الوقت، حتى اختفى الطريق الممهد تماما. صار التقدم مستحيلًا بعدها بالسيارة، فالطريق ضيق، والصخور حادة، والحفر والاخاديد في كل متر منه. توقفا واندفع حامل السلاح للخلف حيث فتح الباب الخلفي، وجاهد ليتغلب على غثيانه من بشاعة الرائحة المنبعثة من أجساد هؤلاء السحرة الذين لا يعرف الماء طريق أجسادهم بلا شك، وقال باقتضاب: "سوف نواصل طريقنا بالأقدام من هذه النقطة. هذه نهاية الرحلة بالسيارة".

تراجع، فبدأوا الهبوط. هبطت في البداية (جواهر) العرافة، بلونها الأسود وجسدها النحيل، وحليها التي تغمر جسدها كله وملابسها المتنافرة الألوان، وعصاها الغريبة، وكان التالي هو الشيخ (مفتاح). جسد ضخم، وأعضاء وخلجات غليظة، وشعر أسود كالحبر؛ رغم تجاوزه السبعين من عمره، وفي عينيه كان الشر كامن. غادر السيارة في نشاط رغم عمره، ليظهر الشيخ (زيدان) الذي كان أكبرهم سنًّا بعمره الذي يشرف على المائة، اضطر رجل المطاريد لحمله بذراعيه من السيارة إلى الأرض، كي لا يهوي أو يتعثر، ثم ناوله عصاةً غريبة الملمس، وهو يتساءل في سره عن أي قوةٍ قد يمتلكها هذا الشيخ الفانِ، وهو يراه مجرد حفنةٍ من العظام البالية، والجلد المترهل المتآكل. هبط بعد ذلك الشيخ (مبروك) الوحيد الذي لا يبدو أنه مسن مثل الجميع، والوحيد الذي بدا على وجهه النفور من الباقين، والوحيد الذي تضمخ بعطورٍ زيتيةٍ ثقيلةٍ طيبة الرائحة، وفي النهاية؛ نزل من السيارة الشيخ (عتمان).

نظر الجميع إلى الجبال، والصخور التي تحيط بهم، وقالت (جواهر): "مقبرة فرعونية في قلب الجبل! هذا جديد." لم يعقب أحد على كلامها، وكل واحدٍ من الباقين يخرج جرابًا قماشيًّا، أو حقيبةً جلديةً من السيارة، ثم أشار الشيخ (عتمان) لأحد رجلي المطاريد قائلًا: "هيا احملا هذا الصندوق، لكن إياكما، وأن يسقط

منكما." تقدم الرجلان، وفعلا ما أمرهما به. لم يكن الصندوق ثقيلًا، لكن أصواتًا مكتومةً كبكاء الأطفال؛ راحت تتردد من داخله، وقال أحد الرجلين بوجل: " ما الذي بداخل الصندوق يا شيخ عتمان، هل هم أطفال؟"

لكن الشيخ (عتمان) واصل التحرك، وهو يقول لهما بخشونة: " وما شأنكما بما في داخل الصندوق.. احملاه، وحسب".

تحرك بعدها الحشد الصغير المكون من السحرة الخمسة الكبار في الطريق الجبلي المتعرج المؤدي للمغارة التي تحوي القبر الفرعوني الثمين، وبعد أن شعر الجميع بالإعياء؛ قال الشيخ (مفتاح):" نسير في الجبل منذ أكثر من ساعة، ولم نصل بعد يا شيخ عتمان، إنني أتساءل؛ كيف عرفتم إذًا بمكان المقبرة، والمكان موحش لا حياة فيه هكذا؟"

أجابه الشيخ (عتمان): "كان الأمر مصادفة. عثرت منذ أعوامٍ على مقبرةٍ صغيرةٍ يحميها أحد الجان. كان مسنًّا، وكان يفقد قواه مع تقدمه في العُمر. لم أرغب في التخلص منه يومها حين أزلت سحره، وقررت أن أستخدمه في عملي. حدثني بعدها عن تلك المقبرة، وأخبرني أن الجبل يخفيها، لكنه حذرني من حراسها" .

ثم دار حول صخرةٍ تعترض طريقه، وأكمل: " ظللت أنقب عنها منذ ذلك الحين، واستغرق الأمر عامين كاملين حتى عثرت عليها".

راقبتهما بمكرٍ (جواهر) العرافة. ساحرة الصعيد السوداء، وقالت: " لقد كان الجني أمينًا معك. أخبرك بشأن المقبرة، وحذرك من قوة رصدها، ولم تصدقه؛ ولهذا أسقطك سحرها. ربما كان عليك أن تسألني المساعدة. وقتها كنت لأوفر عليك كل هذه المشقة، والعناء مقابل القليل من الذهب".

تنهد الشيخ (عتمان)، وقد كان لا يحبها، لكنه كان يخشى قوتها وبأسها، وأجاب: "لقد خدعوني، ولم أشعر بهذا إلا متأخرًا.. أزلت رصد الباب الحجري، وأظهرته بعد أن كان مخفيًّا. اعتقدت حينها أن الأمر قد انتهى كما يحدث في كل المقابر الأخرى. لم أكن أعلم أن هناك رصدًا أقوى في المقبرة نفسها".

رمق الشيخ (مبروك) الأفق المصبوغ باللون الدموي للغروب، وقال: " لن يجدي سحرهم معنا هذه المرة. لو فشلنا، فلن يقدر عليهم أحد بعدها، ولا حتى الشيخ الأسود نفسه".

أطبق عليهم الصمت بعدها، وواصلوا السير في الدرب الوعر. دنت (جواهر) من الشيخ (عتمان)، وقد تذكرت شيئًا، وهمست: " حين ننجح لن نتقاضى النقود. أريد بعض الذهب القديم، وجزء من جسد المومياء".

لم ينظر إليها الشيخ (عتمان)، وأجاب بصوتٍ مرتفعٍ؛ ليسمعه الكل: "ستكون المقبرة أمامكم بكل ما فيها. خذوا منها كل ما تشاءون، لكن ساعدوني أولًا على محو لعنتها".

في الواقع؛ كان السحرة الأربع لا يعنيهم النقود، ولا الذهب نفسه كقيمةٍ ماديةٍ نفيسة. لكن سحر الفراعنة دومًا كان ما يثير لعابهم. كانوا يفتشون رغم أعمارهم الطويلة عن قوة الشياطين الحقيقية، ويبحثون منذ عقودٍ عن المستحيل. بعضهم بحثٍ عن النفوذ، والثروة، وبعضهم مثل (جواهر) العرافة أراد أن يستعيد شبابه ثانيةً، فرغم كل الطرق السحرية التي جربتها (جواهر)، ورغم كل كتب السحر القديم التي أتقنت كل تعاويذها، فلم تقترب يومًا من هدفها. كانت تؤمن أن سحرة الفراعنة قد نجحوا في هذا منذ عصور سحيقة.. لكنها لسوء حظها لا تدري؛ كيف فعلوها؟ ولهذا ظلت تنبش قبورهم طوال الوقت. عسى أن تجد يومًا ما نقشًا ما ينير طريقها، أو لفافةً مطويةً ترشدها في بحثها عن الشباب الدائم والخلود.

بعد قليلٍ كانوا أمام الصخرة المرتفعة التي يختفي باب المغارة خلف سقفها، وكان هناك سلم من الحبال مثبت أعلاها. تشبثوا به، ثم صعدوا. راقبهما رجلان من المطاريد يحرسان المكان، وتنقلت عيناهما بين الوجوه العابسة المسنة، وبين الشمس المشرفة على الزوال خلال أقل من الساعة، وفكر أحدهما إن كان الوقت قد صار متأخرًا، وأنه من الخطأ أن يكونوا هنا الآن. بينما شعر الآخر بالدهشة من وجود امرأة بينهم..

عبر السحرة الخمسة باب المغارة، وغمزت (جواهر) بعينين ذابلتين لا رموش فيها للرجل الذي شعر بالدهشة من وجودها، وهي تقول بفمٍ بلا أسنان: "لا تستخف بجواهر أيها الوسيم، أستطيع أن أقوم بما لا يقدر عليه هؤلاء الرجال".

تراجع الحارس للخلف برعبٍ، وهو يفكر؛ هل قرأت أفكاره؟ ثم ابتعد بنظره عنها على الفور. بينما اختفى السحرة، والرجلان اللذان يحملان الصندوق داخل المغارة. أضاءت شعلات نارية كثيرة المكان، وبعد خطواتٍ توقف

الشيخ (زيدان) في توترٍ، وهمس، وهو يتحرك بعينيه في المكان:" لسنا بمفردنا في المكان. هل تشعرون بهم كما أشعر؟"

لم يعقب الباقون، وقد شعروا بما شعر به، وأمام عيونهم التي اعتادت رؤية الجان؛ ظهرت أشباح، وظلال، وكيانات لا يعرفونها. ورغم خبرتهم الطويلة بتلك الأمور، فقد تسلل الرعب في الحقيقة إلى قلوبهم، وراحت الثقة التي جاءوا بها في الزوال. تحركوا بعدها في وجوم صمتٍ، حتى وصلوا لباب المقبرة في النهاية. رمقوا الهوة العميقة المظلمة التي خلفها تقديم القرابينٍ حين فتح الشيخ (عتمان) باب المقبرة في المرة الأولى، ثم دخلوا المقبرة في صفٍّ واحد.

لم تبهرهم في الواقع الكنوز الغير مسبوقة التي تملأ المكان، فقد كان الشر يحيط بهم من كل جانب. هنا لم يعد هناك أشباح، ولا جان، ولا أي شيءٍ آخر داخل المقبرة. لكنهم شعروا بالقوى الملعونة الرهيبة التي تحوم في المكان، ودون أي كلام، وكأن كل منهم يدرك دوره؛ جلسوا في مساحةٍ فارغةٍ بجوار التابوت في حلقة. فتح كل منهم جرابه، وأخرج أغراضه. أخرج الشيخ (زيدان) خاتمه المطلسم، وأخرج الشيخ (مفتاح) لفافاتٍ من البردي تحوي تعاويذًا قديمة، وأمسك الشيخ (مفتاح)

بمبخرة من النحاس أشعلها، وقرأ عليها عزائمه، ثم أضاف البخور إليها، وراح يديرها بذراعه حولهم، وهو ينشر الرائحة الزيتية المميزة لبخورٍ هندي، وراح الشيخ (عتمان) يخط على الأرض نجمةً خماسيةً ضخمة، وراح يرسم داخلها، وخارجها عزائمًا، وحروفًا، ورموزًا سحريةً، بينما نشرت (جواهر) العظام، والجماجم الصغيرة في قلب النجمة الخماسية، ثم دهنت الأرض من حولها بمادةٍ دهنيةٍ يعرف الجميع أنها من شحوم الموتى.

هنا جاءت الخطوة الأكثر شناعة. أشاروا للرجلين اللذين يحملان الصندوق الخشبي، فوضعوا الصندوق الذي ينبعث منه بكاء أطفالٍ بين أيديهم، ثم طالبوهما أن يغادرا المكان. أسرع الرجلان، وقد كان هذا أكثر ما يتمنياه في تلك اللحظة، وقد راح عقليهما يفكر في عشرات الأمور المريعة التي قد تحدث أمام أعينهما لو ظلوا مع هؤلاء السحرة الملاعين.

فتح الشيخ عتمان الصندوق الخشبي، وظهر على ضوء اللهب خمسة أطفال رضع لا يتعدى أيهم عامه الأول في العمر.. كانوا جميعًا عرايا، وقد لوث أغلبهم نفسه بفضلاته. لم يبال الرجل بتلك الأمور، وراح بلا شفقةٍ يحملهم، ويضع في حجر كل واحدٍ من زملائه طفلًا، ثم جلس هو الآخر في مكانه. كان الكل الآن داخل النجمة الخماسية. كل ساحرٍ في قلب ذراعٍ من أذرعها، وفي حجر كل ساحرٍ طفل يصرخ، وصمت الكل، وتردد صوت الشيخ (زيدان) عاليًا في فضاء المكان. كان يصرخ بقوةٍ، وهو ينادي على (أزمديوس). أحد الشياطين القدماء. كانوا قد قرروا الاستعانة به لشدة بأسه. رغم خطورة استدعائه، والطقوس الصعبة اللازمة لهذا. انتظر الكل حتى انتهى الشيخ (زيدان) من ترديد عزائمه، ثم رفع بعدها سلاحًا غريبًا من جواره، وهوى به بلا تردد نحو عنق الرضيع الذي ظل يصرخ على قدميه. صمت الرضيع على الفور، وقد انفصلت رأسه عن جسده، فألقى الجسد الذي يرتعش بوهنٍ، وهو يفتش عن رأسه التائه، مع الرأس المبتور في قلب النجمة الخماسية، فعل الكل بعدها نفس ما فعله بنفس سلاحه، فصلوا رؤوس الرضع عن أجسادهم، ثم ألقوا بالرؤوس والاجساد في قلب النجمة الخماسية. قبل أن يمد كل منهم بيده المخضبة بالدماء نحو زميله. تعانقت الأكف الحمراء، وراح الكل يردد تعويذةً واحدةً في صوتٍ واحد. تراقص لهب الشعلات، وبدأت كيانات غير مرئية في البروز، فأغمضوا عيونهم، ورددت أفواههم الطلاسم السوداء التي يقومون بها طوال الوقت. شعروا بالحرارة الشديدة التي تكاد أن تذيب وجوههم، لكنهم واصلوا القاء العزائم، ثم سمعوا الكلمات الأعجمية الغريبة التي بدأت تتردد من حولهم، فلم يفتح أحدهم عينيه؛ ليرى من يرددها. إنهم محترفون، ويعرفون أن ثمن المعرفة في هذا الوقت، وقبل أن يتموا عملهم؛ هو العمى إن لم يكن الجنون.

مضى بعض الوقت قبل أن تبدأ رؤوس الرضع في الاصطفاف في دائرةٍ واحدةٍ دون أن يمسها أحد. واجه وجه كل رأسٍ مقطوعٍ وجه الساحر الذي ذبحه، والتصقت مؤخرات الرؤوس ببعضها. صمت السحرة، وقد أدركوا أن الوقت قد حان، وفي لحظةٍ واحدةٍ بدأت الرؤوس المقطوعة في الكلام في صوتٍ واحدٍ كالجوقة.

"اللعنة، والألم لمن أيقظ (أزمديوس) من رقاده، وأتى به من جحيمه".

قال الشيخ (زيدان) بسرعةٍ، وهو يشير بخاتمه المطلسم في وجه الرأس الذي يحدثه: "نحن خدام (أزمديوس). رددنا الابتهالات، ومسحنا الأرض بشحوم الموتى، وأرقنا دماء الرضع، وقدمناها كقرابين من أجله كي يرضى".

كان خاتمه يتألق في الظلام في تلك اللحظة، وعادت رؤوس الرضع للحديث:

"(أزمديوس) راضٍ منتشٍ بالموت أيها الفانون، سلوه يمنح؟"

" - نرجوه أن يطهر هذا المكان من سحره ولعنته".

ران الصمت بعدها، ومرةً واحدةً ذهب ضوء الخاتم المشع، وأطفئت المشاكل كلها في آنٍ واحدٍ، فغمر المكان ظلام سرمدي مخيف. تحسست أجسادهم أيدٍ ذات أصابع ثلاث، فتواثبت قلوبهم في فزع. لم يحدث هذا من قبل، وبلا صوتٍ عاد باب القبر لمكانه ثانيةً، فحبسهم داخل المقبرة دون أن يشعر أيهم، وبعد قليل تناهت لأنوفهم رائحة كريهة لم يشموها من قبل.

وبغتةً؛ اشتعلت النار في رؤوس الرضع، فراحت تصرخ مصدرةً عشرات الأصوات المريعة، وعلى ضوء النار التي تحرق الرؤوس؛ رأى السحرة المومياء في منتصف دائرتهم. كانت تجلس القرفصاء مثلهم تمامًا، وقد اتكأت بمرفقيها على فخذيها تمامًا كوضع الكاتب المصري القديم.

دقت قلوبهم في فزع حين رأوا العيون الصفراء التي تشع في الظلام. لكنهم لم يروا الغضب المرسوم على الوجه المحنط المتآكل. تحركت الظلال على الوجه الغاضب، وأسفل لفافات الكتان البيضاء؛ تحركت الشفتان، وفتح الفم المظلم، وعاد اللسان المتيبس للحركة، والنطق، فشقت الكلمات المظلمة طريقها للعالم.

ولأول مرةٍ في حياتهم؛ أدركوا أنه هناك سحرًا آخر لا قبل لهم به، وقبل أن يتحرك أيهم من مكانه كانت عشرات الأشياء التي لا تنتمي لعالمنا تحيط بهم جميعًا، وهي تذيب الجلود، واللحم، والعظام في وحشية..

وبعد دقيقةٍ واحدةٍ؛ كان الأمر قد انتهى.

غادر بعدها الشيخ (عتمان) بخفةٍ نحو الباب. اخترق حجارته بسهولةٍ، وكأن جسده قد فقد ماديته تمامًا، وصار شبحًا. اجتاز ممرات المغارة بهدوءٍ، ثم توقف أمام باب المغارة. رمق الحارسان جسده الطيفي، وعينيه الصفراوين في هدوءٍ، ثم طار جسده؛ ليبتلعه ظلام الليل، وبعيونٍ صفراءٍ مماثلةٍ تبادل الرجلان النظر، ثم رمقا الأفق في خواء.

☆ ☆ ☆

يهوى الحاج (سعيد الرشيدي) السفر بالليل، فالليل ستّار كما اعتادت أمه أن تقول، وهو صغير. بالطبع لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي يجعله يفضل السفر بالليل، فالسبب الرئيسي؛ كان طبيعة أعماله التي لا يمكن بأي حالٍ إتمامها في النور. كانت أعمال مشبوهة؛ ولهذا، فقد كان النهار عدوها الأول. الليل يستر، أجل، هذا أمر مؤكد، فبعد ثلاثين عامًا من نشاطه السري؛ صار متأكدًا من تلك الحقيقة.

تحركت السيارتان ببعض البطء على الطريق الصخري بين دروب الجبل المتجه لنجع الذئاب. كانت السيارة الأولى من نوع الجيب المكشوفة، وكانت تحمل أربعة من رجاله المدججين بالأسلحة المستعدين كالضباع لأي أمرٍ طارئ، وفي الخلف تحركت سيارته المرسيدس محافظةً على مسافةٍ كافيةٍ بينها، وبين السيارة الأخرى. كان عائدًا في تلك اللحظة من القاهرة بعد شهرٍ كاملٍ من الغياب عن النجع. أتم بعض أعماله، ثم تفرغ بعدها للمتعة.

كان هناك الفتيات الصغيرات النحيفات البيضاء، وقضى أكثر من أسبوعٍ كاملٍ مع (برديس) الراقصة. كانت المفضلة لديه من أي امرأةٍ أخرى. امرأة مثيرةً وذكية، وتجيد الوصول به إلى نشوةٍ لم يختبرها قبلها، ولهذا لم يشعر بأي بأسٍ من الخمسين ألف جنيهٍ التي أنفقها عليها في هذا الأسبوع..

أشعل لفافة تبغٍ، وفتح زجاج النافذة المجاورة له، وهو يبتسم مفكرًا. ما قيمة النقود لو لم تحقق المتعة لصاحبها؟ وأين تذهب كل تلك النقود التي يكتسبها لو لم ينفق بعضها على ملذاته؟. لقد عاش الفاقة والحرمان والعوز لأعوامٍ كثيرةٍ في مقتبل عمره. كان ينتمي لمزارعٍ فقيرٍ من عائلةٍ وضيعةٍ بالنجع يعملُ أغلبها في فلاحة الأرض والرعي وخدمة العائلات الأخرى. بل وكانت أمه تخدم في بيتٍ من بيوت (الخلفاوية). كان المستقبل الذي ينتظره لو قبل به غير مختلف. سيعمل هو الآخر في حقلٍ مثل أبيه وأخوته الأكبر عند أحد أعيان العائلات الكبيرة المتجبرة في النجع، وقد يتزوج بواحدة تخدم في بيتٍ من بيوت تلك العائلات مثلما كانت أمه تفعل.

احتبس الدخان في صدره، وعقله يتذكر تلك الذكريات المؤلمة التي لا تبارح خياله. سعل بقوةٍ، ثم بصق خارج النافذة المفتوحة. قبل أن يرمق الظلام بالخارج في شرود.

في يوم رأي ابن الرجل الذي كان أبوه يعمل أجيرا لديه يحتد على والده ويهينه. لازال يَذكر كيف انكمش أبوه أمام ذلك الصبي الذي كان في عمر أبنائه، ولم يفكر في الدفاع عن نفسه حين تطاول الصبي عليه، وصفعه على خده. كان (سعيد) هناك في ذلك الوقت. كان طفلًا في العاشرة من عمره.

يومها أدرك ما معنى الذل الذي تجلبه الفاقة؟ يومها قرر أن هذا لن يكون مصيره هو الآخر. لن يكون فقيرًا ذليلًا كأبيه، ولن يعمل كمستأجرٍ في الأرض لأي أحد، ولن يتزوج إحدى الخادمات كأمه؛ ولهذا، فقد هرب ذات ليلةً حين بلغ السادسة عشرة من عمره. كان هذا هو الوقت المناسب حينها. أدرك أنه لا فرصة أمامه للرقي في قلب هذا النجع العنصري الذي يعتد بالعائلات، والدم، والنفوذ، والثراء. كان عليه أن يشق طريقه بعيدًا عن هنا. رأى الكثير، وعانى من الكثير. نام في الطرقات كالكلاب الضالة، ونهشه الجوع لليالٍ طوال. طاردته الشرطة، وأذاه الكثيرون في بداية رحلته الطويلة. لكنه كان يتعلم، وبعد أعوامٍ قليلةٍ؛ كان قد عرف طريقه. تاجر في المخدرات بعد أن تعرف على أحد كبار تجارًها.

مضت أعوام طوال عليه، وهو يتعلم فنونها، وأسرارها ملتزمًا بالصمت، والطاعة لسيده، وحين قبضت الشرطة على ذلك التاجر مع بعض أعوانه الكبار، وحكمت

عليهم بالإعدام. لم يكن معهم حينها؛ لأنه كان من أرشد الشرطة عليهم في الواقع. كان هذا هو الدرس الأول الذي تعلمه من لياليه الطويلة الباردة التي قضاها في الطرقات، والأرصفة. لتعيش في هذا اليم يجب أن تكون قرشًا؛ ولترتقي يجب ألا يكون لك صديق؛ ولتعتلي القمة يجب ألا يكون هناك سادة غيرك. ولهذا أزاح من طريقه ذلك التاجر الذي أواه بلا ذرة تردد. هنا بدأت رحلة صعوده التي دفعت به نحو القمة، وحين حان الوقت المناسب؛ عاد للنجع ليكون أحد السادة. كان أبوه قد مات لكن إخوته، وأمه كانوا هناك. علم أن المال وحده لا يأتي بالنفوذ في النجع. لابد أن يكون هناك عزوةً، وقوةً، وأطيانًا، وأملاكًا، وشرفًا. اشترى الكثير من الأراضي، والعقارات، ومنع رجال عائلته، ونساءهم من خدمة الآخرين. قدم لهم العمل البديل، فعملوا لديه، وأغرقهم بالنقود. لقد حان الوقت؛ لينتهي عمل الرشايدة -عائلته- عند الآخرين. بعدها نجح في الزواج من احدي سيدات (الخلفاوية)، وكانت ابنة عم الحاج (حمد)، والحاج (حسنين). كانت تكبره بأعوام، وكانت مطلقة بلا أولاد، وكانت قبيحة كالقرود، لكن كل هذا كان غير مهم. إنهَ لا يتزوجها لأنها أنثى يشتهيها، بل يتزوجها لينال من بعض شرفها، ومكانة عائلتها.

خرج من أفكاره؛ حين توقفت سيارته بغتة. هتف في سائقه الذي كان أحد شباب عائلته: "لماذا توقفتم؟ هل حدث شيء؟"

" - لا أدري! لقد توقفت الجيب فجأة، وخرج منها الرجال".

ضيق من جفنيه، وهو يحاول اختراق الظلام الكثيف بعينيه، لكنه لم ير أثرًا لرجاله؛ رغم السيارة الجيب التي ظل محركها يهدر، ومصابيحها الأمامية القوية متوهجة. لم توقف رجاله، وأين اختفوا؟ وهل هناك من خطر؟ لا يدري. كانوا قد بلغوا مشارف النجع في تلك اللحظة، وكان الضباب يغمر الطريق تمامًا. لم يفكر في شأن الضباب، واستبعد أن يكون هناك أي خطرٍ، وقد بلغ تلك النقطة. إنه في أرضه، ولا أحد هناك قد يجرؤ على مهاجمته.

حتى المطاريد لن يفعلوا، وهو يشاركهم بعض تجارتهم. إذًا ماذا حدث؟ ولماذا لا يسمع أصوات رجاله؟ في النهاية أمر سائقه قائلًا: "اهبط، وانظر أين ذهب الرجال؟ وماذا يفعلون؟"

هبط الشاب على الفور، وقد استل مسدسًا خبأه أسفل مقعد السيارة. راقبه (عبد الرحيم)، وهو يخترق الضباب بحذرٍ، وراح يرهف السمع. مضى بعض الوقت دون أن يعود الشاب، وقد اختفت صوت أقدامه تمامًا. أين ذهب هو الآخر ذلك الأحمق؟ خرج برأسه من السيارة، ونادي في الظلام سائقه: " رضا"!

لم يسمع إجابةً رغم صوته الذي تردد في المكان برنينٍ غريب. شعر بغريزته أن هناك خطب ما، وأدرك أنه من الغباء أن ينتظر في مكانه مقيدًا هكذا داخل السيارة. استل سلاحه من جيبه، وبحذر الضباع ترجل منها، وتحرك ببطءٍ مخترقًا الضباب. بالكاد كان يرى قدميه، وطريقه. أرعبته فكرة أن ينادي رجاله مرةً أخرى دون أن يجيبوه، راح يتلفت حوله بتحفز، ومضت أكثر من الدقيقة. قبل أن يرى رجاله

الخمس الواقفين في الضباب في جمود غريبٍ، وظهورهم نحوه. بدت وقفتهم مريبة، وأجسادهم متصلبة تمامًا. همس في توتر: " ماذا تفعلون هناك؟"

لم يجبه أحد. فكر في التراجع، لكن فضوله كان عاتيًا. كان عليه أن يفهم ما يحدث. تحرك نحو الرجال ببطءٍ، وحين بلغهم استداروا نحوه.

كانوا رجاله بالفعل، لكن وجوههم في تلك اللحظة لا يمكن أن تنتمي بأي حالٍ للأحياء. كانت مشوهة تمامًا، وقد تقاطر الدم منها، وكانت عيونهم محترقة تمامًا. شهق وهو يتراجع للخلف في رعبٍ، وقبضة باردة تعتصر صدره، وحين تحركوا نحوه، وكشروا عن أسنانهم؛ علم أن الرحلة الطويلة التي قطعها في تلك الحياة قد بلغت نهايتها.



(4)

اشتعل النجع بالغضب في الصباح. أخذ (أيمن) العبيط في العدو في شوارع النجع، وهو يصرخ: " قتلوا الحاج (سعيد الرشيدي) الموتى ذبحوا الحاج (سعيد الرشيدي)"

كان أبناء عمومة (عبد الرحيم) هم أول من تقاطروا في الطرقات نحو القتيل الذي قادهم (أيمن (إلى مكان جثمانه. ارتفعت صرخات النساء تشق الفضاء، وارتفع اللغط الغاضب من رجاله وأبناء عمومته، وراقب الباقون في صمتٍ وخوفٍ مبهمٍ ما يحدث، ومع أول طلقةٍ انطلقت في الفضاء كان (أحمد) هناك. رأى الجثة المشوهة الغارقة في الدماء، وقد تراصت حولها جثث رجاله الخمسة. كانت الدماء في كل مكانٍ، وانعقد لسانه في حيرةٍ، وهو لا يدري ما يقوله. هتف أحد أبناء عمومة القتيل، وكان كهلًا تخطى العقد الخامس: "قتلته الذئاب هو الآخر. قتلت الذئاب سيد الرجال".

لكن الشاب الذي أطلق النار من طبنجةٍ كانت في يده؛ صرخ وهو يشير في القتيل: " الذئاب لم تقتله يا عم، إنهم الملاعين." علت الهمهمة، وتبادل الحضور النظرات القلقة، وقد أدركوا ما يلمح له الشاب، وبرقت عينا (أحمد) في ظفرٍ عند تلك النقطة، ورأى أن الوقت قد حان لاستثمار هذا الغضب المشتعل في النفوس، فتحرك بسرعةٍ نحو القتيل، وصاح بصوتٍ مرتفع: "إنه محق.. ليست الذئاب من قتل هؤلاء الرجال أو غيرهم. انظروا إليهم.

انظروا إلى عيونهم. ألا ترون كيف احترقت؟! هل سمعتم يومًا عن رجلٍ قتلته الذئاب في نجع الذئاب، أو غيرها، وقد احترقت عيناه هكذا؟"

رأى الإجابة في الوجوه، ورأى معها الذعر في العيون، وسمع رجل أسود البشرة مجعد الشعر يقول: " لو لم تكن الذئاب من قتلته، فمن فعل؟" عادت الهمهمات مرةً أخرى بين الحشد، لكن (أحمد) صرخ في الناس بحزم: " ما بالكم يا قوم، ألا تدركون أي كارثةٍ أحاقت بنا؟ النجع صار ملعونًا، وأنتم تتحدثون عن الذئاب. هل نسيتم التاريخ القديم؟ هل نسيتم نجع الموتى؟ ألا ترون تلك السحب التي لا تفارق السماء؟ ألا ترون اللعنة في الضباب؟"

هنا تشجع الشاب الذي أطلق النار، وقال: " النجع أصبح ملعونًا بالفعل، وكلنا يعلم من تسبب في هذا. الكل يعلم من جلب اللعنة لدورنا"

هنا اندفع رجل مسن نحيف. بدا أنه أحد أعمامه، ووضع كفه على فمه، وهو يهتف محذرًا: " اصمت أيها الأحمق، ستجلب الهلاك لنا بهذيانك هذا".

لكن (أحمد) الذي كان غاضبًا بالفعل في تلك اللحظة. لم يشأ أن يترك الخوف يهمد هذا الغضب، والحماس، فقال بسرعة: "إنه العمدة وأعوانه، والكل يعلم هذا، لكنكم تخافون بطشهم. كم واحدًا تنتظرون موته؛ لتفيقوا وتتحركوا؟ اذهبوا إليه، واسألوه ماذا يحدث في النجع؟ وأي لعنة شيطانية أتى بها لنا، قبل أن نهلك جميعا".

تعالت الصيحات الغاضبة من أفواه الشباب خاصة، وانتقلت عدوى الحماس إلى الجميع، وهتف أحد الشباب، وهو يرفع سلاحه عاليًا: " إلى بيت العمدة يا رجال".

وافقه الكل، وترددت في الفضاء أصوات طلقات النار التي يطلقها البعض تشجيعًا. قبل أن يندفع اثنان نحو جثمان (سعيد)، ويتعاونا في حمله، ثم يندفعان ليتقدما الحشد الغاضب نحو بيت العمدة. تحرك (أحمد) في المقدمة، وراح الحشد الغاضب يتضخم بسرعة. بدا وكأن كل الخوف الذي علق بالنفوس طويلًا قد توارى تمامًا في تلك اللحظة. في الواقع كان الخوف والذعر يملآن النفوس، وكانت الهمسات في كل مكانٍ تتردد عن الأحداث الغريبة التي حلت ببيت الحاج (حسنين) والحاج (حمد)، ومنازل عائلتهم، ورجالهم، ورغم خشية الكل من مجرد ذكر اللعنة القديمة التي حلت يومًا بالنجع، وأهلكته، إلا أن رهبة هذا التاريخ القديم ظلت عالقة في عقول الجميع طوال الوقت.

رفع الكل أسلحتهم في الهواء بإنذار، وانضم الكثير من رجال عائلات النجع الأخرى للجماهير الثائرة، وفي النهاية بلغ الحشد بيت العمدة. كان المكان مزدحمًا هناك برجال (الخلفاوية) جميعًا، وخفرائه الذين رفعوا أسلحتهم، وبنادقهم في وجه الحشد الغاضب. بينما ارتقى الأطفال أسطح البيوت بتحفزٍ مسلحين بالحجارة، والعصي، وحين توقف الحشد؛ خرج الحاج (حسنين) إلىٍ فناء بيته، وهتف فيهم: " ما الذي أتى بكم إلى هنا، ولماذا ترفعون أسلحتكم هكذا في وجوهنا؟"

تقدم الشابان اللذان يرفعان الجثمان المشوه لـــ (سعيد الرشيدي)، ووضعاه أمامه، وقال أحدهما: "لقد قتل الحاج (سعيد) يا حاج (حسنين)".

نظر الحاج (حسنين) للجثمان بتوترٍ. بينما قال الحاج (حمد): " ليرحمه الله، لكن ما شأننا بمقتله؟"

أجابه أحمد بسرعة: " إنها اللعنة التي حلت بالنجع، ونحن هنا لتخبرونا؛ ماذا فعلتم لتحيا اللعنة مرة أخرى؟"

ران الصمت كله في المكان. قبل أن يقول الحاج (حمد) ببطءٍ محاولًا التماسك:" أي لعنةٍ تتحدث عنها يا ابن الحاج (عبد الكريم)؟ هل قدت هؤلاء الرجال إلى هنا؛ لتحدثنا بهذا الهراء؟"

أجابه (أحمد) بتحدٍّ: " ما أدعيه ليس هراء. لقد عثرتم على المقبرة الملعونة التي أهلكت النجع قبل قرون. فتشتم عنها رغم كل التحذيرات التي أطلقها الأجداد على مر الزمن، والآن جاء الضباب والغيوم، وماتت الحيوانات والبشر، وظهرت مواكب الموتى. أليست هذه نفس العلامات القديمة؟"

شهق البعض خلف (أحمد) حين ذكر المقبرة، لكن الحاج (حمد) اقترب من (أحمد)، وقال: " كل هذا كلام لا دليل عليه، لقد أشعلت الفتنة في النجع يا فتى بتلك الأوهام. ما فعلته خطير ولن يمر مرور الكرام. الحاج (عبد الكريم) نفسه لن يرضى بأي حالٍ من الأحوال بما فعلته".

كان من المستحيل أن يخبره، أو يخبر أي أحدٍ آخر أنه قد رأى المقبرة. كان هذا ليثير بلبلةً لا حصر لها، وقد يدفع البعض للتفتيش عنها. في النهاية كان مكان المقبرة سري، وكان يجب أن يبقى كذلك، فرغم أنها ملعونة إلا أن كنوزها التي طالما تحدث عنها الأجداد قد تغري أحدهم بالبحث عنها ثانيةً لو انتهت اللعنة. في تلك اللحظة؛ اندفع من باب البيت (خليفة) شاهرًا سلاحه، وأسرع نحو (أحمد) وهو يقول بغل: " أتيت بهم هنا للقتال. حسنًا، ستكون أنت أول ضحاياه يا ابن الديابة، لا أحد يجرؤ على مهاجمة سيد النجع، ويعود حيًّا".

كان يستعد بالفعل لضغط الزناد، وإطلاق نار سلاحٍ نحو صدر (أحمد)، لكن الحاج (حسنين) أدركه قبل هذا، ودفعه بعنفٍ، وهو يصرخ فيه: " إياك أن تفعل." في نفس اللحظة؛ اندفع بعض رجال عائلته، وأحاطوا به وهم يخلصون مسدسه من قبضته، ثم يقيدون حركته. بينما راح يصرخ بجنونٍ، وهو يقاومهم: " دعوني أقتله. سوف يموت. أقسم أن أفعل. دعوني أيها الحمقى".

أشار لهم الحاج (حمد) بإدخاله في البيت ففعلوا. كان يدرك أن القتال ليس في صالحهم بأي حالٍ، والحشد يفوقهم عددًا وسلاحًا وغضبًا. ستكون مجزرة بحق لو حدث القتال، لكن الخاسر الأكبر سيكون أبناء عمومته؛ لذا لا يجب أن يكون هناك قتال. يجب أن يستغل مكره وحنكته لينتهي الأمر بسلام، وبعدها يمكنه أن يفكر في الانتقام ممن دفع هؤلاء لتلك الثورة، ولهذا التفت إلى الحشد الغاضب، وخاطبهم بحزم: " الحاج (سعيد) رحمه الله؛ هو زوج ابنة عمنا كما تعلمون جميعًا، وهذا يعني أنه واحدًا منا. لقد حزنا عليه مثلكم جميعًا، لكن لا يد لنا في مقتله. لقد مات ككل واحدٍ آخر في النجع، ومن يعلم منكم من قد يكون قد أقدم على اقتراف تلك الجريمة الشنعاء، فليتقدم، ويخبرنا؛ ليرى ماذا سنفعل بقاتله؟"

تبادل الحشد النظر في اضطرابٍ مع بعض الضجيج المكتوم، لكن الشاب المتحمس الذي كان أول من أطلق النار في الفضاء؛ اندفع للأمام، وصرخ فيه، وهو يلوح بسلاحه: " بل أنتم من عليه أن يخبرنا بمن قتله. الكل يعلم في النجع ما أصابكم، ولماذا تتوارون في بيوتكم؟ لقد صرتم ملعونين، ولهذا لن نغادر أماكننا إلا حين تخبرونا بالقاتل؟"

في اللحظة التالية؛ أصاب وابل من الرصاص أسفل قدميه، وحين رفعوا رؤوسهم نحو من أطلق الرصاص؛ شاهدوا (سليم دياب) زعيم المطاريد. كان يتقدم رجاله فوق حصانه بوجهه المخيف الذي لفحته الشمس، وصرامته الشديدة. كيف ومتى جاء؟ ولماذا لم يشعروا به؟ لا أحد يدري. إنه ذئب حقيقي رهيب، وبينما تراجع الشاب الذي أصابت الرصاص الأرض من تحته في قلقٍ، وخوفٍ حقيقي؛ امتلأ الأفق بعشرات المطاريد المدججين بالأسلحة فوق خيولهم التي هرعت لنجدة العمدة. تراجع الناس ليفسحوا لحصان (سليم) بالتقدم، ودخل (سليم) مدخل البيت بوجه غاضب مكفهر، ثم التفت إلى الجميع ورمقهم بعينٍ ظلت مرعبة رغم الدماء التي كست بياض عينيه، وزحفت نحو حدقته، ثم قال بخشونة: " عودوا بجثمان الحاج (سعيد) لداره، واستعدوا لدفنه. ما يحدث هنا حماقة، أقسم أن يدفع من أقدم عليها الثمن، هيا احملوا قتيلكم، وارحلوا".

كان هذا نهاية الغضب، وفي لحظةٍ؛ عاد الخوف للقلوب، فأمام ما يقرب من مائة رجلٍ من رجال (سليم) المسلحين لا فرصة لأحدٍ في النجاة. حملوا الجثمان في بعض العجلة، وتفرقوا في صمتٍ. بينما تبادل (أحمد) النظرات المتحدية مع (سليم) قبل أن يتراجع في حنق. لماذا أقدم (سليم) على نجدة (الخلفاوية). رغم أنهم أعداؤه، وأعداء عائلته منذ القدم؟ وهل صار (سليم) حليفًا، وظهرًا للخلفاوية؟ وفي تلك اللحظة تمنى لو يخبره أنه يكرهه..

☆ ☆ ☆

كان الصباح باردًا، ومن فوق صخرةٍ مرتفعةٍ تشرف على هاويةٍ مخيفةٍ؛ وقف متكأً على عصًا قديمة غير مستوية، وهو يرمق النجع المسقوف بالغيوم في هدوء. حركت الريح الخفيفة طرف جلبابه فطوحته بعيدًا. بينما رفع رأسه نحو الغيوم، وضيق عينيه المسنتين، وراح يقرأ العلامات. مضى الكثير من الوقت وهو واقف في مكانه كالصنم لا يتحرك، وتململ الذئب العجوز أسفل قدمه، وتثاءب في كسلٍ. خفض الشيخ رأسه بعد حين، وهو يتمتم، وقد تكاثفت تجاعيد وجهه:

" - النجع يزحف نحو هلاكه، والعلامات تتوالى باطراد".

وبوهنٍ استدار، وراح ينقر الصخر بعصاه، ويتحرك في ضعف. هب الذئب من مكانه واندفع أمامه ليتقدمه، وواصل العجوز - الذي تجاوز عمره المائة عام بأعوام كثيرة- خواطره، وهو يقول: "تمضى السنون، وتتساءل أيها العجوز؛ لِمَ لا تفنى، وتذهب كالآخرين؟ تصارع الليالي، والأشباح، والوحدة، والماضي المرير دون أن تنال راحةً تستحقها بعد كل تلك الأعوام الطوال، والآن ترى من فوق صخرتك؛ أن اللعنة قد غادرت كفنها، وأن نجع الموتى يحيا ثانيةً. هل ظللت حيًّا كل تلك الأعوام من أجل هذا؟ وهل مازال بجعبتك أيها الشيخ البالي بعض الحيل القديمة، وهل تفلح حقا تلك الحيل لو احتجت لها؟..

كان قد بلغ مدخل مغارةٍ مظلمةٍ في تلك اللحظة، وكان هناك ذئب آخر أكثر شبابًا مما معه ينتظره. جرى الذئب نحوه، فربت على رقبته بأناملٍ متيبسة، ثم استقام ثانيةً. قبل أن تبتلعه ظلمة المغارة، وهو يقول:

" - وهل مازال هناك من يتذكرك أيها الرجل القديم؟"

وبينما قبع الذئبان في مكانهما المحدد أمام المغارة؛ راحت ظلال، وأضواء غريبة تتراقص على جدران الكهف من الداخل. بينما جلس الشيخ، وأسند ظهره الواهن على الجدار بإعياءٍ، وأغمض عينيه دون أن يبالي بما يدور حوله.

☆ ☆ ☆

كان النهار ممل للغاية، ولا جديد ينتظر في هذا المكان الميت. لا حوادث ولا سرقات، ولا حتى مشاجرات قد يبلغ الأهالي عنها، ليحقق فيها، ولا مجرمون هناك ليتعقبهم. استيقظ (فؤاد) فذهب إلى مكتبه قبل أن تدق الساعة معلنةً الثامنة. رأى التذمر في عيون العساكر لكن أحدًا بالطبع لن يبوح بهذا. خمن أنهم اعتادوا حياة

الدعة والخمول هاهنا. فالاستيقاظ المبكر لا فائدة منه طالما لا عمل هناك. الالتزام بالقواعد العسكرية أمر مضحك في مكانٍ كهذا. هذا مكان لا تراه وزارة الداخلية ولا تهتم به، مثلما لا يراه النجع ولا يكترث به. أنهى علبة سجائرٍ كاملة في أقل من ساعتين مع كوبين كبيرين من القهوة. أخبره (خميس) أن (فوزي) قد غادر نقطة الشرطة في الصباح، وأضاف بأن هذا هو يوم عطلته الأسبوعية. سأله (فؤاد) إلى أين يذهب؟ فأجابه (خميس) كعادته في غموضٍ ومكرٍ مقيت: " ومن يدري؛ سألته مرةً، ولم يجبني، فعلمت أنه لا يرغب في البوح. ربماً يذهب إلى الجبل أو إلى المدينة، أو حتى إلى نجعٍ مجاور. كل شيءٍ محتمل، وهو كعشيرته يجيد الصمت".

وجد نفسه يفكر في أمر أمين الشرطة هذا. لماذا لا يذهب للنجع؟ وإلى أين تراه يذهب؟ ولماذا كل هذا الغموض المثير حوله؟ استبعد أن يكون للأمر علاقة بالثأر مثلًا. لو كان ملاحقًا لفضل الرحيل إلى مكانٍ بعيدٍ غير معروف. لكن هل يلاحق أحد ما؟ من يدري؟! هل يتعاون (فوزي) مع المطاريد، وزعيمهم (سليم دياب) ينتمي لنفس عائلته؟ وهل يكون عينًا لهم وسط الشرطة؟ ربما.

لكن الأمر المحير هنا؛ كيف لم يفكر أحد من قبله في احتمالٍ كهذا؟ هل راودت نفس الشكوك من سبقه، وهل تراها ذهبت حين تيقنوا من خطأ شكوكهم؟ بالطبع لا يستبعد للحظةٍ وجود أعوان للمطاريد بين رجاله هنا. ربما كان (فوزي) وربما كان (خميس) اللزج الذي يدعي الولاء التام لرؤسائه، وهو أول من يخونهم لو اقتضت مصلحته، وربما يكون أحد من هؤلاء العساكر. الأمر لا غرابة فيه طالما هناك نفوس بشرية ضعيفة، وأموال حرام لا تحصى، ومجرم يتحايل للفرار من العدالة. كل العصابات الإجرامية التي حقق في شأنها، اتضح أن لها أعوان في الشرطة، وكثير من رجال الشرطة الذين خدم بينهم، اتضح أنهم كانوا عين المجرمين الساهرة على أمنهم، كي لا تبلغهم يد الشرطة.

قرب الظهر؛ غادر نقطة الشرطة، وتحرك نحو الوحدة الصحية على قدميه. أراد أن يخبره الطبيب الشاب بالمزيد عن المكان، وما تراه قد يعلمه. اتخذ الطريق الرملي مفضلًا ألا يصل إلى هناك عبر الغابة. أتاه اتصال من محاميه في الطريق حيث أخبره بكم القضايا التي رفعتها زوجته عليه. نصحه المحامي بالحلول الودية ملمحًا بخشيته من نفوذ أبيها. كان الأمر مثيرًا للسخرية. لقد اقترن بها؛ ليكون صهره سلمًا يرتقي فوقه نحو القمة، فإذا به يتحول إلى الحبل الذي سيلتف حول عنقه، ويشنقه.

حين بلغ الوحدة الصحية؛ وجد الطبيب مازال في عيادته حيث اصطف المرضى في بؤسٍ حول الباب. كان هناك أكثر من طفلٍ يصرخ، ورأى الممرضة العجوز البدينة، وهي تحكم القبض على جذع طفلٍ قبل أن تغرز إبرة محقنها في مؤخرته بلا تردد. لمحه (بهاء) فرفع نظارته لأعلى قبل أن يبتسم له في قلق. أشار إليه (فؤاد) أنه ينتظره في حجرته، فهز (بهاء) رأسه في تفهم.. قبل أن يرفع هاتفه، ويطلب رقمًا ما متجاهلًا الرجل الذي كان يفحص بطنه، وهو يسأله بإلحاح؛ هل هناك ثعابين بالفعل في بطنه تتغذى على غذائه، كما أخبره البعض؟"

انتظر (فؤاد) بصبرٍ لنحو الساعة، وهو يشعل المزيد من السجائر. عاد ليطرد كل أفكاره، ويركز فقطً في أمر النجع. فكر في كل من مات. في (علوان) وغيره، وفي رغبته في ملاحقة هذا الأمر. رغم عدم تعاون الكل معه. حتى رجاله لم يبد عليهم الحماس لمواصلة التحقيق. هل يخافون النجع وأهله، أم أن انعدام العمل في نقطة الشرطة قد أصابهم بالخمول والكسل؟ لكنهم لا يعرفونه، لا أحد هنا يعرف من يكون؟ وكيف يكون حين يركبه العناد ويصر على أمرٍ ما؟ حان الوقت ليرى الكل ضابط شرطةٍ حقيقي؟

جاء (بهاء) مبتسمًا في ود هذه المرة. اقترح (بهاء) أن يجلسا في فناء الوحدة الصحية الفسيح، وهو يشير إلى الشمس المشرقة فوق المكان بخلاف النجع. جاءت الممرضة بأكواب الشاي، وهي ترمق (فؤاد) في بعض الذعر، فحاول طمأنتها بأكبر ابتسامةٍ مريحةٍ ممكنة. لكن تلك الابتسامة لم تخلف أي أثرٍ في نفس الممرضة وهي تفارقهما. تناول (فؤاد) كوب الشاي الساخن، وارتشف القلّيل منه، وغمغم: " هل ضايقتك زيارتي؟" أجابه الطبيب الشاب بالنفي مضيفًا أنه فقط يتعجب من سببها، ثم أضاف (بهاء) بعدها في ارتباك: " في الواقع؛ كنت لأذهب إليك هذا اليوم لو لم تأت".

رمقه (فؤاد) في تساؤلٍ، فأردف (بهاء): " أحد أصدقائي هنا يرغب في الحديث إليك".

سأله (فؤاد) من يكون؟ لكن (بهاء) أخبره أنه من الأفضل أن ينتظر، ليراه بنفسه. واصل (فؤاد) شرب الشاي، وأشعل سيجارةً أخرى، فقال (بهاء)، وهو يرى أعقاب السجائر الكثيرة على الأرض: " تدخن كقاطرة بخارية".

أجاب (فؤاد) بلا اكتراث: " والسجائر مضرة جدًّا للصحة، وتسبب السرطان. هل هذا ما تنوي قوله؟ أخبرني بشيءٍ جديدٍ غير هذا".

ابتسم (بهاء)، وهز كتفيه في صمتٍ ولم يعقب. قبل أن يقول: " أنت هنا من أجل النجع كما أخمن".

وافقه (فؤاد) برأسه، فأردف الطبيب الشاب: " أخمن كذلك أنه لا أحد في النجع يتعاون معك".

أجابه (فؤاد) بهدوء: " ولا حتى رجالي"!

رمقه الطبيب في هدوءٍ قبل أن يلقى نظرة نحو النجع، ويقول:" لو كنت تعرف المكان مثلي؛ لأدركت أن كل هذا شيء طبيعي. لقد أخبرتك أنهم لا يثقون بك هنا. لا أنت ولا أنا أو أحدًا غريبًا غيرنا. لكنهم بحاجةٍ لطبيبٍ في المكان كي يداوي أطفالهم وعجائزهم. على عكس الشرطة التي تأتي هنا لتنازعهم سلطتهم المطلقة على أرضهم وتضيق عليهم".

" - أنا هنا لأقوم بعملي".

هز (بهاء) رأسه مؤكدًا أنهم لا يفهمون هذا. مضيفًا أن الأمر ليس شخصي معه، فكل ضابطٍ آخر في مكانه؛ كان ليلقى نفس العداء إلا لو نجح في تملقهم، وطمأنتهم إليه. نظر إليه (فؤاد) محاولًا سبر أغواره، قبل أن يقول ببطء: " أتمنى لو كنت أول من يصدقني القول يا دكتور، ما الذي يجري حقًّا في النجع؟"

ابتسم (بهاء)، ورمق عينيه قبل أن يقول: "لا أعلم يا فؤاد بك، حقًّا لا أعلم، لكنني أعتقد أنك بحاجةٍ لمن يخبرك بشأن هذا الأمر أكثر مني. شخص من النجع يدري أسراره ويعلم حقيقة ما يدور.. من حسن الحظ أن هناك من

يرغب في الحديث معك عن هذا".

سأل (فؤاد) في حذر: " من يكون هذا؟"

فأشار (بهاء) إلى الطريق حيث ارتفع هدير محرك سيارةٍ تقترب، وقال: " لن تنتظر طويلًا؛ لترى هذا الضيف. لقد جاء"!

نظر (فؤاد) حيث ينظر. رأى (أحمد) يوقف سيارة مرسيدس أمام باب الوحدة الصحة، ويترجل منها. رمقه (فؤاد) في هدوءٍ. بينما نهض (بهاء) لتحية الشاب الذي تحرك نحوهم في خطواتٍ سريعة: " دعني أعرفك بـــ (أحمد بن الحاج عبد الكريم دياب) كبير عائلة (الديابة) في النجع، وصديقي الوحيد في المكان".

نهض (فؤاد) بدوره، وسلم على (أحمد)، قائلاً: " أعتقد أننا تحدثنا من قبل، لكن هذه هي المرة الأولى التي أتعرف فيها عليه".

نظر (أحمد) للمكان في بعض توتر، وغمغم: " هل تمانعان لو واصلنا حديثنا بالداخل؟ لا يجب أن يراني أحد، وأنا أحدث حضرة الضابط".

تفهما طلبه، ودخلا حجرة (بهاء). وقال (أحمد) بعد أن اتخذ مقعدًا في مواجهة (فؤاد): " أنا هنا لأسألك المساعدة. لا أدري كيف يمكنك أن تفعلها؟ لكن ليس أمامي غيرك".

أجابه (فؤاد) في حذر: " ليس قبل أن أعلم ما يدور في النجع لماذا يموت الناس في النجع؟ وما سر هذا الضباب الذي يهبط على بلدتكم كل مساءٍ، وما الذي تخفونه عني؟ أخبرني عن هذا في البداية، قبل أن نتحدث فيما يمكنني تقديمه لك من مساعدة".

تنهد (أحمد) في توتر، قبل أن يقول: " النجع ملعون يا فؤاد بك".

كان هذا آخر ما يتوقعه (فؤاد) حتى أنه اختنق بدخان السيجارة التي يشربها. سعل بقوة، قبل أن يقول في دهشة: "ماذا؟"!

قص عليه (أحمد) كل شيءٍ حدث بالنجع. متى هبط الضباب؟ وما واجهه في قلب الضباب دون أن يخبره أن جدته من ساعدته، فهو لا يعرف (آمنة) ولن يفهم كراماتها تلك. حدثه عن الحيوانات التي مزقت، وعن الجثث محروقة العيون، وعن

شكوكه في (الخلفاوية)، وتحديدًا في العمدة، والحاج (حمد) و(خليفة). وفي النهاية؛ أخبره بشأن المقبرة التي ذهب إليها برفقة (أيمن) العبيط. استمع (فؤاد) لكل ما يقوله في ذهولٍ مع الكثير من التشكك، ثم غمغم، وهو يهز رأسه: " كأنك تقص عليّ حكاية خرافية! لولا أنني أراك شابًّا مثقفًا لقلت أنك مجنون تختلق كل هذا. من الصعب تصديق أن تغرق بلدة بأكملها في لعنةٍ غير مفهومةٍ كهذه. هذا لا يكون إلا في شاشات السينما".

رمقه (أحمد) في صمتٍ لبرهةٍ قبل أن يغمغم: " لا أنتظر أن تصدق خرافاتٍ، أو قصص نجع ناءٍ في قلب الجبل. إنها في النهاية موروثاتنا التي لا تهم أحد غيرنا، لكني أعتقد أن حوادث القتل المتكررة في القرية تثير اهتمامك حتما كرجل قانونٍ، وشرطة".

قدم (فؤاد) له سيجارةً أخرج طرفها من علبة سجائره، فرفضها (أحمد) في تهذيب، فالتقطها لنفسه، وأشعلها، ومجَّ سحابةً من الدخان الكثيف، وقال: " لا يمكنني فعل أي شيءٍ طالما لا توجد شكوى. لا أحد منكم أتى إلى نقطة الشرطة، وأبلغ عن أي جريمة".

وافقه (أحمد) مجيبًا: " ولا أحد سيفعل. للأسف ثقافة النجع لا تؤمن إلا بسلطة كباره، وكبار عائلته. من يلجأ للشرطة في أي حادثةٍ فيه يلقى الازدراء من الجميع".

"والعمل إذًا؟"!

"لا أدري! هل علمت بما حدث هذا اليوم؟"

"هل قتل أحد آخر؟"

"عثرنا على الحاج (سعيد الرشيدي) مقتولًا وسط رجاله على مشارف النجع، إنه أحد كبار النجع".

"وكان مشوهًا كالآخرين؟"

"ما قتله هو نفسه ما قتل غيره. الجسد الممزق، والعيون المحترقة. هذه المرة ثار أتباعه وأبناء عمومته. كنت هناك، وللمرة الأولى قررنا المواجهة مع العمدة ورجاله. فهو كما أخبرتك المشتبه الأول فيما يحدث مع أتباعه وأقاربه. الكثير ممن راقب مواكب الموتى التي تمضي في الضباب طوال الليل رآهم.. لكن الكل يخشى بأسهم؛ ولهذا تنعقد الألسنة، وتكذب العيون".

"وهل أعترف لكم، أم تقاتلتم".

نهض (أحمد)، وهو يبتسم بمرارةٍ، وقال بإحباط: " أنقذهم منا (سليم دياب) ورجاله. فجأةً ظهروا أمامنا، فذهب حماس الرجال في تلك اللحظة وقد حل الخوف في النفوس".

" - تقصد زعيم المطاريد؟"

"إنه حليفهم".

غمغم (فؤاد) في غضبٍ، وهو يضرب سطح المنضدة بكفّ يده: " الأوغاد. لقد كذبوا عليّ! سألتهم عن المطاريد، فأكدوا أنه لا شأن لهم بهم".

ضحك (بهاء) هذه المرة، واشترك في الحديث قائلًا: " هذا لأنك حديث في المكان. الكل هنا يعلم بشأن هذا التحالف المعقود بينهم منذ عقود. هناك أعمال ومصالح مشتركة بينهم".

نقل (فؤاد) نظره بين (بهاء)، وبين (أحمد)، وقال ببطء: " مخدرات، أم آثار؟!" أجاب أحمد: " كل شيء. إنني أؤمن أنهم من فتح تلك المقبرة الملعونة، وجلب النهاية للنجع، ومن يدري؛ فربما أصابت اللعنة المطاريد كما أصابت العمدة، ورجاله." حك فؤاد رأسه بظفره، ودفن عقب السيجارة في مطفأةٍ قريبةٍ، وقال بشرود: " أخبرتني أنك تعلم مكان تلك المقبرة؛ أليس كذلك؟"

"بلى".

"إذًا؛ قدني إليها. أريد أن أراها بنفسي".

"الأمر ليس آمنًا تمامًا. ربما كانت اللعنة تصب على من يدخلها. كما أن هناك من يحرسها من المطاريد".

"لنقل أنني لا أخشى أي من هذا. فأنا لا أؤمن كثيرًا بتلك اللعنة التي تتحدث عنها، لا أقصد أنني لا اصدقك، لكني فقط لا اؤمن بها. أما عن المطاريد، فيمكنني التعامل معهم بشكلٍ ما".

ابتسم (أحمد) بتفهم، وقال: " لم أطالبك بتصديقها؛ رغم أنها حقيقة، فهذا شأنك. لكن ما دمت مصرًّا علىٰ زيارة تلك المقبرة، فسوف أقودك إليها"!

واتسعت ابتسامته، وهو يردف: " أنا نفسي أفكر في القيام بتلك الزيارة مهما كانت العواقب؛ ولهذا فمن الأفضل أن أجد رفيقًا مثلك في تلك المغامرة".

تنهد (فؤاد) بارتياحٍ، وقال:" إذًا؛ متى يمكننا أن نذهب؟"

" - ليس اليوم بالطبع. أعتقد أن أفضل توقيتٍ للذهاب هناك هو الصباح المبكر فور انقشاع الضباب. يمكننا أن نذهب هناك دون أن نثير الفضول، كما أن الغد غير مناسب، فاليوم سنقوم بمحاولةٍ لطرد تلك الشياطين من النجع".

سأله (بهاء) هذه المرة: "ماذا ستفعلون؟"

" -إمام المسجد الشيخ (حمدي) اقترح طردها بالقرآن الكريم. لقد جلبنا مكبرات صوت. بل ولقد وتركتهم الآن، وهم يثبتونها فوق الأسطح في كل مكانٍ بالنجع. سوف يبدأ الشيخ (حمدي) في تلاوة القرآن فور ظهور تلك المواكب الملعونة، وسوف تنقل مكبرات الصوت تلك التلاوة إلى فضاء النجع كله".

نظر إليه (فؤاد) في شك، لكنه لم يعقب. شك في إمكانية نجاح تلك الفكرة، لكنه لم يحب أن يثبط عزيمتهم. فمن يدري، ربما أفلح الأمر. تذكر في تلك اللحظة رغبته

القديمة في نبش القبور ليرى بعينيه، كيف مات القتلى؟، فقال لـــ(أحمد): " هناك أمر آخر أريد مساعدتك فيه. أريد أن أزور المقابر بنفسي، وأن أفتح أحد القبور؛ لأرى جثمان أحد القتلى بنفسي".

رمقه (أحمد) في دهشةٍ حقيقيةٍ، وقال بسرعة معترضًا: " هذا محال يا فؤاد بك، نبش القبور من الكبائر التي لن يتسامح أحد فيها مهما قيل من مبررات. من المستحيل أن أشترك في أمرٍ كهذا. المقابر أمامك، اذهب إليها لو شئت، لكن لن أساعدك. لكن لو شئت النصيحة؛ لا تفعل. لو شعر بك الأهالي، فقد يفتكوا بك. لو شئت نصيحتي، لا تفعل"!

☆ ☆ ☆

في طريق عودته من الوحدة الصحية نحو نقطة الشرطة؛ تذكر (فؤاد) صديقًا قديمًا قد يكون ذا فائدة في الأمر، إنه (طارق سرحان)، عالم الآثار الشاب وصديق دراسته القديم. أخرج هاتفه وبحث عن رقمه، ثم اتصل به.

انتظر حتى الرنة الخامسة حتى أجاب. جاءه صوته الرفيع ينضح بالدهشة، وتبادلا التحيات، والعتاب. قبل أن يقول (طارق) بجدية: "والآن؛ ماذا هناك يا فؤاد؟ لا أظن أن اتصالك هذا لمجرد الاطمئنان على صديقٍ قديم".

"هناك مقبرة فرعونية تدور حولها الأقاويل حيث أعمل".

"أفصح بالمزيد".

"لا أدري؛ لكن نجعًا كاملًا هنا يقع تحت رحمة لعنةٍ غريبة. حوادث قتل، نفوق حيوانات، ضباب غريب.. الأمر كله عجيب".

صمت (طارق) للحظةٍ، وكأنما يزن الأمر بعقله، ثم قال بحذر: "انتظر. هل تتكلم عن لعنة الفراعنة؟"

نفث (فؤاد) بعض الدخان من فمه، وأجاب: "لا أدري؛ لكن الأمر كله مريب؛ ولهذا أريدك هنا. لا أرغب أن يخدعني أحد بحيلةٍ ما، وأريد التأكد من الأمر".

"وأين تلك المقبرة؟"

"في نجعٍ صغير يدعى (نجع الذئاب)".

"أعرف هذا المكان. إنه أحد المناطق السوداء التي تتاجر في الآثار".

"هذا يقصر الأمر. إذًا متى تأتي؟"

"ليس قبل أسبوع. هناك بعض الأمور الملحة التي يجب أن أنتهي منها قبل القدوم".

"بل أريدك هنا غدًا. الأمر ملح، ولا يحتمل العطلة".

هتف (طارق) محتجًا: "أنت تمزح يا رجل، أي غدٍ هذا الذي تتحدث عنه. لن أدع كل ما في يدي، وأهرع إليك لمجرد أنك ترى أن الأمر ملح. أعطني بعض الوقت لأستعد".

ركل (فؤاد) حجرًا صغيرًا يعترض طريقه، وتنهد قبل أن يقول: "الوقت هو آخر ما نملكه، وقد لا تنتظرك المقبرة. من يدري، ما قد يحدث حتى تأتي. هناك شائعات تتحدث عن الكثير من الآثار، والذهب داخلها. شيء مثل مقبرة (توت عنخ آمون). ربما أفرغوها من كل هذا قبل قدومك".

ضحك (طارق)، وقال بتهكم: "ومن يدريك أنهم لم يسلبوا تحفها منذ البداية؟"

وصله الأنفاس المتلاحقة الكئيبة لـــ(فؤاد) عبر الهاتف. شعر (طارق) بعجز صاحبه، فأردف بجدية: "حسنًا. سوف آتي يا فؤاد، ليس من أجل المقبرة، وما قد نجده داخلها. بل من أجل صديقٍ قديم".

أنهى (فؤاد) الاتصال، وواصل سيره نحو نقطة الشرطة. تذكر التجربة التي سوف تتم الليلة في النجع، فقرر ألا يفوتها.

☆ ☆ ☆

بعد العصر؛ شعر بعقله يناضل من أجل النوم. لم يكن هناك ما يقوم به، فاستلقى على أحد الأرائك، واستسلم لتلك الرغبة الملحة الطارئة، وفي النوم رأى نفسه في حجرةٍ حجريةٍ معتمةٍ لا يعكر ظلامها إلا جمرات صغيرة تتوهج أمامه. كان يردد كلمات بلغةٍ لم تتردد على سطح الأرض منذ عهودٍ موغلةٍ في القدم.. كانت مرادفاتها لا تحمل إلا الهلاك، والشر المطلق.. العجيب أنه كان يدرك ما يقوله، وحين تجسد الشيء الرهيب أمامه من وسط الجمرات؛ وجد أنه ينحني أمامه في خشوعٍ بلا خوف، ورغم أن جل جسده الضخم المفزع توارى في الظلام، ورغم أن عينيه كانتا صوب الأرض حينها إلا أنه كان يراه بعقله.

لقد استدعاه لأنه يريده. تحدث الشيء بنفس اللغة المقيتة. اهتزت الجدران الحجرية للحجرة في رهبة، وهرب الهواء نفسه من المكان. أدرك ما يريده السيد، ودون أن يرفع رأسه راح يجيبه. اندفع إصبع كالمخلب من كف هذا الشيء نحو صدره، واخترقه في موضع قلبه. شعر ببرودةٍ رهيبةٍ مكان الإصبع، لكنه لم يهتز، أو يَخف، وحين اختفى الشيء بعدها؛ شعر بالشر يندفع في أوردته، وشرايينه.

علم ما ينتظر هذا العالم، وما عليه أن يقوم به. دماء وموتى وجيوش ظلام تتوارى خلف الأبعاد وتنتظر. هنا وجد نفسه يتقدم الصفوف الرهيبة لجيوش الموتى. كان الكل يردد نفس التراتيل الملعونة كالجوقة، وفي الأفق راحت جيوش الظلام تمتص كل أثرٍ للضوء. أظلم العالم كله، ورأى في حلمه الدمار في كل بقعة. كان يشعر بنشوةٍ لا حد لها، وبعد حينٍ تردد النداء من قلب عالمه الحقيقي. خرج من نومه، فرأى الشمس، وقد ولّت، والضباب قد حل. لقد حان الموعد اليومي. خرج من ملابسه ككل ليلةٍ كالأطياف. اتجه صوب الجدران، واخترقها؛ ليغادر المكان، وفي الضباب كانوا بانتظاره؛ ليبدأ الموكب اليومي للموتى والعبيد، وكان الموكب كله بانتظاره؛ لينشدوا التراتيل الوثنية الشيطانية، وها هو بينهم؛ ليقودهم!!

☆ ☆ ☆

تسللت عباءة الليل حثيثًا على ضوء النهار، فحجبته. لقد عاد الظلام، ومن بعيد هرعت جيوش الضباب نحو النجع؛ لتبدأ ليلة جديدة من الرعب. خرج الملعونون من ديارهم، وقد فارقوا كياناتهم المادية، وغادرت أشباح الموتى قبورها؛ لتلبي نداء قائدها، وفي النجع كان الكل يترقب ما ستسفر عنه محاولة الليلة. امتدت الأسلاك فوق الأسطح، والأعمدة، ونصبت مكبرات الصوت أعلى الدور..

راحت تراتيل الموكب الملعون تتردد ككل ليلةٍ، وهي تجوب الشوارع في رحلتها المسائية اليومية، وفي بيته راح (أحمد) يدور حول نفسه في ترقب. لماذا تأخر الشيخ، ولم لم يبدأ التلاوة بعد. نظر إلى النافذة، فلم ير غير ستائر الضباب الكثيفة. زفر في ضيقٍ، فقال له أبوه الذي كان يراقبه: "تحلى بالصبر يا ولدي، ما زلنا في بداية الليل".

"أخشى أن يكون الملعونين قد فطنوا لما نعده فاستعدوا له. بل وربما تخلصوا من الشيخ (حمدي) نفسه. المشكلة أن شبكة الهاتف معطلة ككل ليلةٍ، ولا سبيل للاتصال به، والاطمئنان عليه".

"هذا يعني؛ أنه لا شيء بيدنا إلا الانتظار والدعاء".

تحسس (أحمد) جبهته في توترٍ، وقال: "هل تعتقد أننا قد ننجح يا أبي؟"

رمقه الأب في صمتٍ، وبدا التشكك على محياه. قبل أن يجيب بصوتٍ خافت: "كل شيءٍ بأمر الله. ما هو مقدر سيكون وقد جفت الأقلام، وطويت الصحف".

أما خارج النجع خلف أشجار الغابة، فقد قبع الرائد (فؤاد) برفقة الدكتور (بهاء) في الظلام بتحفز. رغب (فؤاد) في أن يراقب الضباب عن كثب، وأن يرى بنفسه نتيجة محاولة الليلة. فكر في خطورة تلك الرحلة في الظلام، وفكر في اصطحاب (خميس)، أو (فوزي)، لكنه تراجع. إنه في الواقع لا يثق في أيهما، ولا يدري لمن يكون ولاؤهما الحقيقي وقت الجد. فكر في الذهاب مع بعض العساكر، لكنه فضل الدكتور (بهاء). سيكون صحبة مناسبة.

خاصة وهو يفكر في مغامرةٍ أخرى في هذه الليلة، ووجود الطبيب خلالها سيكون مفيدًا لأقصى حد. تذكر وقد ربضا أسفل إحدى الأشجار العملاقة في الغابة المحاولات المضحكة للدكتور (بهاء) للتملص من صحبته. لكنه أصر ولم يكن أمام الطبيب الشاب في النهاية إلا الرضوخ. سمع (بهاء) يهمس، وهو ينظر حوله بتذمر، وقلق: "هل تلاحظ؟ الضباب هنا لا يتجاوز النجع، والغابة ملاصقة للنجع، ومع ذلك لا أثر للضباب فيها. أليس هذا غريبًا؟"

" -وما هو الشيء الطبيعي في هذا النجع؟"

كان السكون كاملا، فلم يعكر صفوه أي صوت. لا نسمة هواءٍ تهب، ولا ورقة شجر تتحرك، ولا صوت حيوانٍ، أو طائرٍ ليليّ ينبعث. حتى النجع كان صامتًا كالقبور. كان هذا أكبر من أن تحتمله أعصابُ أي أحد، وجالت فكرة أخرى في نفس (بهاء)،

فهمس ثانية، وكأنما يخشى أن يسمع صوته أحد: "هل أنت متأكد أنه لا ذئاب تختبئ في الغابة؟"

" - سيدهشني ألا يكونون حولنا مستترين بالظلام. لو انتظرنا قليلًا قد نرى بعضهم".

تلفت (بهاء) حوله برعبٍ، وهو يعدل من نظارته، ويضيق من عينيه؛ ليخترق العتمة الكثيفة التي تغمر أشجار الغابة من حوله، وهتف: "أنت تمزح! أليس كذلك؟"

أجابه (فؤاد) في خبث:

" - هل سمعت يا دكتور، عن غابةٍ بلا ذئاب؟ النجع نفسه يدعى (نجع الذئاب)؛ لأنه يعج بالذئاب، فلا عجب أن يكونوا حولنا في مكانٍ ما في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض علينا".

أراد (بهاء) أن يعقب، لكن الأصوات الحلقية المريعة التي بدأت تشق السكون من حولهم أسكتته. تبادلا النظرات وقد ارتفع الصوت، وكأنما هناك حشد يدنو من مكانهما. شقت التراتيل الغامضة عنان السماء، وراحت تقترب من مكانهما. كانت غامضة غير مفهومة، لكن كل حرفٍ فيها كان مخيفًا بصورةٍ تقشعر لها الأبدان. لاذا بالصمت، وقلوبهما تدق في صدريهما كالطبل، تحسس (فؤاد) مسدسه، وكأنما يبحث عن بعض الأمان بملامسته، وتعلقت عيونهما بستائر الضباب الكثيفة التي أخفت النجع تمامًا في ترقبٍ، وبعد حينٍ، وقد صارت الأصوات قريبة للغاية من مكانهما؛ خفت حدة الضباب، وهناك اتضح الموكب.

موكب فرعوني يتقدمه أحد الأشخاص الذين يرتدي زيًّا فرعونيًّا من قطعةٍ واحدةٍ، ويغطي رأسه بقناعٍ يشبه حيوان (ابن آوى)، ومن خلفه تحرك حشد شبحي ضخم من كائنات من المستحيل أن تصدق أنها حية. إنهم موتى بلا شك، أو هم أشباح من ظلال. كانت حركتهم بطيئة آلية، ورغم أعدادهم الضخمة إلا أنه لم يكن هناك أي صوتٍ لدبيب أقدامهم على الأرض. كان مشهدًا مفزعًا كالكوابيس المريعة، وكتم (فؤاد) و(بهاء) أنفاسهما، وتراجعا برأسيهما؛ ليختفيا تمامًا خلف الشجرة، وكأنما يخشيان أن يشعر بهما أحد في هذا الحشد الملعون. ما هذا الفزع، وأي شياطين هذه. فكر كليهما؛ إلا أن الأمر لا خدعة فيه على الإطلاق. من المستحيل تزييف شيء كهذا، وفي هذه اللحظة؛ لم يعد هناك في صدر (فؤاد) ذرة شك في أن النجع ملعون بالفعل. لكن السؤال؛ كيف يمكن التغلب على شيءٍ كهذا؟

ابتعدت الأصوات المخيفة رويدًا رويدًا، وحين نظرا لم يريا غير الضباب. لكن التراتيل الحزينة المرعبة ظلت تتردد في أذنيهما لوقتٍ طويلٍ بعدها.

وفي المسجد؛ تعلقت عينا الشيخ (حمدي) بالشيخ (عبد الرحيم) في انتظار أن يؤذن له ببدء التلاوة. كان الشيخ (عبد الرحيم) منهمكًا في قراءة آياتٍ معينةٍ من القرآن ثم أتبعها بأورادٍ، وأذكار، ذكر له من قبل أنها لازمة قبل أن يبدأ. في النهاية أومأ له الشيخ (عبد الرحيم)، فالتقط (حمدي) الميكروفون الذي أصدر رنينًا معدنيًّا فور أن شغله؛ راح يتردد في طرقات النجع، فاضطربت القلوب في صدور أهالي النجع.

التقط (حمدي) نفسًا عميقًا، وجلس في مكانه، وهو يمسك الميكروفون بيده اليمنى، وقربه من فمه، وبصوتٍ شجي بدأ التلاوة:

"بسم الله الرحمن الرحيم

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)

ترددت الآيات في كل بقعةٍ من بقاع النجع. راحت تغسل النجع من شروره، وآثامه، وكجلمود صخرٍ حطه السيل من علٍ، فراح يكتسح في وجهه كل ما يعترضه؛ راح الضباب الكثيفُ يتبدد. وخلف كل جدارٍ، وشرفةٍ في النجع؛ حبس الكل أنفاسه بحذرٍ، وتردد. انطلق من الدروب صراخ مذعورٍ غاضب يائس، وتبدد الحشد الملعون من الموتى، والأحياء، وفارقوا انتظامهم. اختفت أشباح الموتى. بينما هوى الأحياء الملعونون على الأرض، وراحت أجسادهم تنتفض، وتتشنج، وحناجرهم تصدر عواءً وأنينًا غير آدمي. بدا وكأن الأمر ينجح، وارتفع صوت الشيخ (حمدي) في حماس، وهو يرى انقشاع الضباب خارج باب المسجد:

(وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

هنا أطلت الرؤوس من النوافذ، وغامر البعض الآخر، فانطلق خارج بيته؛ ليتأكد من النصر. هل نجح الأمر، وذهبت اللعنة؟ وفي خارج النجع، ومن قلب الغابة؛ شاهد (فؤاد) و(بهاء) المعجزة. انسحب الضباب كالسحر أمام عيونهم؛ ليختفي وراء القمم المظلمة للجبل.. بعدها سمعا أصوات التهليل السعيدة لأهالي النجع، وزغاريد النساء الفرحة، وطلقات النار المبتهجة ممتزجة بالتلاوة المباركة التي لم تنقطع.

تبادلا النظرات المرتبكة المتوترة، وقال (فؤاد) بحذر: "يلوح لي أنهم قد تخلصوا من اللعنة".

لم يشاركه (بهاء) التفاؤل، ومازال الحشد الجنائزي الملعون ماثلًا أمام عينيه. لا يدري؛ لماذا يرفض عقله تصديق أن ينتهي هذا الكابوس بمثل تلك السهولة؛ ولهذا اكتفى بالنظر إلى النجع الذي ظهرت حدوده أمامهم في صمت.

مضى بعض الوقت السعيد. قبل أن يحل الصمت، والظلام مرةً واحدةً. انقطعت الكهرباء بغتةً، ومعها انقطعت التلاوة القرآنية التي تنبثق من مكبرات الصوت المنتشرة فوق الأسطح، وصمتت كل الأصوات في اتفاقٍ غريب، وكما تلاشى الضباب عاد ثانيةً، ومعه انطلقت الصرخات من كل مكانٍ في قلب النجع.. كان الأمر قاتلًا لكل من لم يجد الوقت الكافي للعودة لداره، وإحكام إغلاقه في وجه كائنات الظلام الملعونة تلك. كانت (مريم) بجوار أمها أمام النافذة حينها تترقب الشوارع التي استعادت حريتها في شرودٍ حين انقطعت الكهرباء، فصرخت الأم في وجلٍ، قبل أن تتحسس طريقها في الظلام نحو مصباحٍ زيتيّ في حجرة (مريم) أضاءته، فبدد ظلام الغرفة، وحين التفتت نحو (مريم) التي تجمدت أمام نافذة الحجرة في شرودٍ كالمنومة مغناطيسيًّا، كان زوجها الحاج (علوان) هناك أمام ابنتها خلف النافذة في الضباب. كان وجهه جامدًا، وعيناه تشعان بذلك البريق الأصفر المخيف. صرخت في جنونٍ وقتها من الرعب، فأفاقت (مريم) من شرودها مرةً واحدةً، وحدقت لبرهةٍ في شبح أباها الماثل أمامها للحظةٍ.. قبل أن تفطن لموقفها، فتغلق النافذة بلا إبطاءٍ في وجهه. ثم تتراجع للخلف بأنفاسٍ متلاحقةٍ، وتقول بإعياء: " إني خائفة"!

أما (أحمد) و(أبوه) الحاج (عبد الكريم)، فقد كانا أكثر تعقلًا من الجميع، لم يغادرا موقعيهما خلف النافذة حين انقشع الضباب بغتة، وتمنى (أحمد) لو كان بإمكانه تحذير الجميع من مغادرة بيوتهم في تلك اللحظة؛ ولهذا لم يصبهم أي سوء حين انقطعت الكهرباء بغتة، وعاد الضباب، وحشد الأموات؛ ليرتعوا في أنحاء النجع ثانيةً.. سمعا الصرخات المذعورة للضحايا الجدد في أسفٍ، وقال (أحمد) في إحباط: "أراهن أن الكهرباء لم تذهب مصادفةً. هناك من قطعها متعمدًا".

رمق الحاج (عبد الكريم) الضباب المظلم في قلقٍ، وقال باقتضاب: "هذا محتمل".

ومن خلفها؛ انتشر ضوء كشافٍ كهربائي كبير أضاءته (أم أحمد). في نفس اللحظة التي كان (خليفة) هناك في الضباب، وقد ظهر أمامهم خلف زجاج الشرفة. كان يبتسم في تشفٍّ، وكانت عيناه تتوهجان بالبريق الأصفر المميز للملعونين، وعلى جذعه العلوي العاري؛ راح الوشم الغريب فوق صدره يتوهج بضوءٍ فسفوريٍّ مخيفٍ، وكأنه مصباح صغير. صرخ الحاج (عبد الكريم) في زوجته بتوترٍ، وهو يحجب النافذة بجسده؛ كي لا ترى (خليفة): "عودي للخلف يا (كوثر)، ولا تنظري هاهنا..".

تسمرت بمكانها، وقالت بيدٍ راح الكشاف يرتجف فيها: " هل ظهروا أمامك؟ ".. لم يجبها، وهو يرى؛ كيف اختفى (خليفة) في الضباب قبل أن يظهر وجه آخر؟.. كان

وجهًا مظلمًا أسودًا مخيفًا، ورغم أنه بدا مألوفًا بصورةٍ مبهمةٍ لكليهما إلا أنهما لم يتعرفا على صاحبه.. رمقهما بنفس العينين الصفراوين في غضبٍ غمر وجهه الأسود. قبل أن يرفع كفًّا بها أصابعًا ثلاثًا في وجهيهما، ويشير بأحد أصابعه نحو (أحمد) في وعيد. في الواقع؛ كان الرعب في نفسيهما كاسحًا هذه المرة، فرغم كل ما شاهداه من قبل؛ حمل هذا الوجه شرور الجحيم كلها. كان يحمل وجه الشيطان نفسه في الواقع، ومن خلفيهما سمعا الصوت الضعيف لـــ(آمنة)، وهي تردد: " ابتعدا عن النافذة، ولا تنظرا لعينيه.. لا تدعاه يلعنكما بسحره"!

تراجعا، ونظرا للمرأة العجوز العمياء التي ترى ما لا يراه المبصرون. بينما تقدمت هي نحو النافذة، وهي تشيح بيدها في وجه صاحب الوجه البشع، وكأنها تهشه، وهي تردد همهمةً مبهمةً كعادتها، وتنثر بعض الملح الأبيض، وتلقيه على النافذة الزجاجية المغلقة. تراجع صاحب الوجه المخيف، واختفى هو الآخر في الضباب. بينما التفتت (آمنة) نحو (أحمد)، ونظرت إليه بعينين مطفأتين مليئتين بالدموع للحظةٍ، ثم أبعدت وجهها عنه في ألم لم يخف على نظر الحاج (عبد الكريم)، فانقبض قلبه ثانيةً، وهو يشعر بالنذير، ومرةً أخرى؛ فكر في يأسٍ؛ هل تشعر أمه بكارثةٍ قد تصيب ابنه؛ لماذا لا تفصح، ولو مرةً واحدةً بدلًا من هذا العذاب المقيم الذي لا يفارقه لحظة؟. ثم سمع أمه تقول، وهي تتحرك نحو حجرتها: " كل هذا بلا جدوى. سيد الموتى قد عاد، وكل الدروب في وجوهكم صارت مسدودة. ابحثوا عن الشيخ (عايد) ربما مازال يحتفظ ببعض الحيل التي قد تفلح."!

كان ما تقوله غير معقول؛ ولهذا لم يكن عجيبًا أن يتبادلا النظرات في ذهولٍ لاحد له.

الشيخ (عايد)؟!

أما في المسجد، فقد انعقد لسان الشيخ (حمدي) في غضبٍ حقيقي، كان الأمر لينجح لولا انقطاع الكهرباء. ظل يلهث في مكانه للحظاتٍ في ظلام المسجد. قبل أن يقول بإصرار: " كلا، لن تنتصر الشياطين.. لن يظفر الشر بالنجع، ولو هلكت".

أدرك الشيخ (عبد الرحيم) ما ينوى فعله رغم أنه لا يراه في الظلام، حاول أن يقول أي شيءٍ؛ ليهدئ الشاب، لكنه في الواقع لم يكن هناك. كان خارج المسجد في تلك اللحظة، وصدى صوته القوي يتردد من حوله، وهو يواصل تلاوة القرآن. كان قلبه ينتفض بعنف. دون أن يكون هناك أي أثرٍ للخوف في قلبه في تلك اللحظة. كان يرى أن من واجبه كإمام، وشيخ أزهري أن يحارب قوى الشر، وأن يدفع الناس للإيمان بقوة معتقدهم، ودينهم القادر على دحض كيد الشيطان، وأتباعه. راح يتحرك، وهو يردد بلا توقف:

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

اخترق الضباب الذي راح يتلاشى من حوله مع كل مكانٍ يطأه. قبل أن يعود ثانيةً فور أن يبتعد. بدا كمصباحٍ يزيح الظلام من حوله، وهو يتحرك. كان يشعر

بالهمهمات، والصرخات المكتومة الغاضبة من حوله. إن كائنات الظلام الملعونة في أوج غضبها منه في تلك اللحظة، وكان يشعر بهذا الغضب تمامًا، لكنه ظل واثقًا في الله، وفي قرآنه. لن يمسه أي سوء طالما لسانه يتلو الآيات بلا انقطاع. قادته قدماه لبيت العمدة، وكان هذا حين شعر بالخطوات المهرولة نحوه، وأدرك حين استدار؛ كم كان متأخرًا في ردة فعله هذه المرة، فقد شعر بعامود النار الذي اخترق ضلوعه حتى أصاب قلبه.. لقد طعنه أحدهم بسكين حاد، وحين رفع بصره كان هناك آخر بشري يتوقع رؤيته في تلك اللحظة. ردد في غير تصديق وإعياء: "أنت؟!".. وبينما ابتسم ذلك البشري؛ ظهر صاحب الوجه الأسود، وخلفه أتباعه من قلب الضباب. تقدموا نحوه، وقد هوى نحو الأرض محتضرا. حاول أن يواصل قراءة القرآن للنهاية، لكن لسانه عجز عن التحرك. رأى الكف المخلبي ذي الأصابع الثلاث يندفع نحوه، ووجده في اللحظة التالية؛ داخل فمه بصورةٍ غريبة. قبل أن يقتلع لسانه في وحشية. توقع الشيخ (حمدي) أنه لن يكون هناك أي ألم مع إصابة قلبه القاتلة، لكن لسانه الذي تمزق حمل معه ألمًا جديدًا لا يوصف. انتفض جسده للمرة الأخيرة، وأظلمت الدنيا في وجهه، ونور الحياة يفارقها، وكان أخر ما سمعه هو الصوت الخشن الذي همس في أذنه بلغةٍ لم يسمعها من قبل، لكنه أدرك معنى كل حرفٍ فيها: " مرحبًا بك في عالمي"!



"هذا يكفي. لنعد"!

قالها (بهاء)، وقد فاق توتره احتماله. لقد اكتفى مما رآه، النجع المرعب والضباب المريب والموكب الفرعوني الشبحي الملعون. كان هذا الرعب يكفيه حتى نهاية عمره، وليس تلك المرة فقط. هب من مكانه أسفل الشجرة، فنهض (فؤاد) بدوره، وتطلع له في الظلام للحظةٍ بصمت. قبل أن يقول: "بقيت أمامنا مهمة صغيرة أخيرة. إنها المهمة التي أتيت بك من أجلها".

رمق (بهاء) الأشجار الساكنة من حوله، والتي بدت في هذا الظلام المنذر كوحوشٍ قديمةٍ حيةٍ تراقبهم في خبث، وهي تعلم أنها قادرة على اقتناصهم متى شاءت، وهمس في عناد: "لن أذهب إلى أي مكان.. سوف نعود حالًا".

تجاهل (فؤاد) كل الحذر في تلك اللحظة، وأوقد عود ثقاب؛ ليشعل به لفافة تبغ.. رغم خطورة أن يكتشف أحد ما مكانهم، وقال: "لا بأس.. يمكنك أن تعود.. الطريق من هنا لو شئت".

أشار بإصبعه نحو الدرب المظلم الذي يخترق الأشجار. رمقه (بهاء) بقلقٍ، وعشرات الهواجس، والمخاوف ترتع في عقله في تلك اللحظة بعدما رآه يحدث في النجع. تخيل عشرات العفاريت، والأشباح، والمسوخ المتوارية وراء الأشجار المتشحة بالسواد، والسكون المريب يلفها. بالطبع لم يكن ليعود بمفرده. خوفه أزاح كل ذرة شجاعة في نفسه. كره ضعفه في تلك اللحظة، وتساءل؛ هل هو جبان بالفعل، أم أن ما يحدث يفوق شجاعته؟ وهل يكون هذا الضابط الشاب أكثر بأسًا،

وشجاعة منه، أم أنه يتظاهر بالتماسك أمامه كي لا يزيد من ذعره؟ في النهاية قال باستسلامٍ حانق: "إلى أين تريد أن نذهب؟"

وعلى وهج السيجارة؛ بدت ابتسامة شريرة ماكرة على وجه (فؤاد) الذي أجاب بهدوء: "إلى المقابر"!

غادر قلبه مكمنه، وانقبض بقوة. ذهاب إلى المقابر الآن بعد ما حدث؟! هل يستمتع رجل الشرطة هذا بإثارة رعبه. تبًّا! تحرك (فؤاد)، وابتعد قبل أن يعترض. تجمد (بهاء) في مكانه للحظةٍ. قبل أن يتبعه في سخط، وهو يخشى أن يغيبه الظلام من أمامه. لحقه بخطواتٍ سريعةٍ، وقال بصوتٍ مخنوق: "ولماذا تريد أن نذهب إليها الآن؟ لماذا لا تؤجل هذا للصباح؟"

" - ببساطةٍ؛ لأنهم لن يسمحوا لنا بتفتيشها الحل الوحيد المتاح؛ أن نذهب إليها في الليل؛ كي لا يشعروا بنا".

كاد (بهاء) أن يتعثر في أحد الأغصان المنخفضة الذي لم يره مع العتمة، وهو يقول: "وماذا تنتظر أن تجده هناك؟ المجرمون الوحيدون هنا هم المطاريد، ولا حاجة لهم للاختباء في المقابر. الجبل مأواهم الوحيد".

"ومن قال أنني أفتش عن أحياء هناك. إننا سنذهب هناك من أجل ماتوا".

"لا أفهم"!

"سوف ننبش بعض قبور من قتلوا هذه الأيام. لأرى بعيني ما حدث لهم".

هذه المرة لم يحتمل (بهاء) كل هذا السخف، والخبال كما رآه، فوقف في مكانه، وصرخ معترضًا: "أنت مجنون، ولن أشاركك جنونك هذا".

هنا توقف (فؤاد)، واستدار إليه.. ألقى بعقب لفافة التبغ أسفل قدمه، ودهسها بعنفٍ، وهو يرسم تعبيرًا مخيفًا في وجهه، ويعد نبرة حزم قاسية في صوته ليخيف (بهاء). استعاد في تلك اللحظة البرود، والقسوة المميزتين لضباط أمن الدولة، والتي تنجح غالبًا في إثارة رعب من يسمعها، وقال: "اسمع يا دكتور بهاء، أنا لست مجنونًا كما نعتتني. أنا ضابط شرطة، وما أفعله هو واجبي. هناك جرائم قتلٍ غامضة، وهناك قتلى، وعليّ التيقن من سبب موتهم، وطالما لم تتح لي الفرصة؛ لأرى أحدهم قبل دفنه، فلماذا لا ألقي نظرةً على بعضهم داخل قبورهم؟"

" - لقد رأيت بعضهم. يمكنني أن أصف لك؛ كيف كانوا؟.. وأن"..

قاطعه (فؤاد) ببرود: "أريد أن أرى هذا بعيني".

وماذا لو وجدنا المقابر يغطيها الضباب مثل النجع؟"

" - حينها سنعود أدراجنا.. لكني متأكد أن الضباب لن يصل إلى هناك، فكما علمت توجد المقابر على بعد كيلو مترٍ كامل خلف النجع، وكما ترى، فالضباب يغطي النجع وحده، ولا يتخطاه. هذا بالطبع مريب، وغريب. لكن ربما كان هذا في صالحنا هذه المرة".

قالها (فؤاد) بهدوء، ثم رمق العتمة الساكنة من حولهم، وأردف بقلق: "والآن؛ هلا تحركنا، وابتعدنا عن هذا المكان.. لا ندري ما قد يختبئ لنا خلف تلك الأشجار الضخمة".

عادا للتحرك في صمتٍ هذه المرة. كان عليهما أن يقطعا الغابة بطول النجع؛ ليلتفا حوله قبل أن ينطلقا في طريقٍ رملي نحو المقابر البعيدة. كان السكون حولهما غريبًا. سكون تام لا يقطعه إلا أصوات خطواتهما على الدرب المترب بين الأشجار. مضى بعض الوقت قبل أن يعاود (بهاء) الحديث: "ألا تشعر بغرابة هذا المكان؟"

" - ماذا تقصد؟"

"الصمت الثقيل التام. كل شيءٍ حولنا صامت متجمد تمامًا. حتى الهواء أشعر أنه ساكن لا يتحرك. هذا ليس أمر طبيعي بأي حالٍ من الأحوال. إننا في قلب غابة، وهناك أشجار، وحيوانات، وطيور، وزواحف، وكائنات ليلية من المفترض أنها تحيا هنا. أين ذهب كل هؤلاء؟. وأين ذهبت ضوضاؤهم؟"

كانت نفس الملاحظة التي انتبه لها منذ البداية، وبالطبع لم يكن يملك تفسيرًا واضحًا لها؛ لذا أجابه (فؤاد) دون أن يتوقف: "أرى ألا تفكر كثيرًا في هذا الآن.. ليس هذا الأمر العجيب الوحيد الذي نواجهه هنا".

"ماذا نواجه إذًا؟"

"من يدري يا دكتور؟.. هل هي خدعة متقنة، أم شر مستطر لا قبل لأحدٍ به، أم لعنة أشعل وقودها بعض الحمقى؟.. حتى الآن لا أعلم، لكن لا شيء سيوقفني حتى أعرف الحقيقة؟"

واصلا تحركهما بعدها في صمتٍ، ولم يحاولا تبادل الحديث ثانيةً. وصلا إلى الناحية الأخرى من النجع، فغادرا الغابة، وشعرا بالارتياح الشديد؛ حين أدركا أن الضباب بالفعل ينتهي عند حدود النجع. إذًا؛ لا مكان له بالمقابر.

تحركا في الطريق الرملي المظلم لثلث الساعة، حتى بدت لهما من بعيد القباب الكئيبة المنذرة الرابضة في الظلام لمقابر النجع. تحركا نحوها في هدوءٍ، وما إن بلغوا أول صفٍّ فيها؛ عوى ذئب من بعيد. ارتجف الاثنان مع هذا الصوت الذي شق السكون بغتةً، وقال (بهاء) في توجس:

" - والآن ها هي المقابر. ماذا سنفعل بعدها؟. وهل تعرف أين توجد قبور من قتلوا؟"

أجابه (فؤاد) في بساطة: "بالطبع لا أعرف. لكن اللحاد الذي يعيش هنا حتمًا يعرف. سوف نذهب إليه الآن؛ ليدلنا أين توجد تلك المقابر؟"

توغلا بين صفوف الشواهد المنذرة، ورغم كل ما شاهده (بهاء) من هولٍ قبل قليل؛ إلا أن خوفه القديم من المقابر عاوده. عاد ليفكر ثانيةً في كل تلك الأسرار المنسية

التي تحجبها تلك القباب القديمة المتهالكة. ما الذي يدور داخلها من أحداث؟ وهل يشعر الأموات ببعضهم البعض، وهل يتبادلون أطراف الحديث؟ ولو فعلوا، ففيما يكون حديثهم؟ وأي حقائق تلك التي أدركوها بعد موتهم؟

ورغم أنه بحكم دراسته، وعمله كطبيبٍ قد رأى الموت، والموتى مرارًا؛ إلا أن القبور مازالت تحتفظ في أنفه برائحةٍ مختلفةٍ تمامًا عن رائحة العفن في الجثث المتحللة. رائحة الخوف من المجهول، والقوة المطلقة التي زعم البعض أنها تتاح للموتى بعد أن تخلصوا من أعباء الجسد المادي الهش، والعالم المادي المحدود. هل يشعر بهم الموتى الآن؟ وهل يفكر بعضهم في اعتراض ما قد يقوموا به من تدنيسٍ لقبور بعضهم؟ ومرةً أخرى عاوده الذعر القديم. (الليل البهيم، والسماء المظلمة، وذئب يعوي من بعيدٍ، ويد تشق التربة؛ لتقبض على ساقه لتجذبه لسفل). عند تلك النقطة؛ وجد نفسه ينظر أسفل قدميه في توتر، كأنما قد يحدث هذا. في تلك اللحظة؛ كانوا قد بلغوا حجرة حجرية متوسطة الارتفاع تتوسط المقابر لها نافذة زجاجية واحدة، وباب خشبي عتيق مغلق، ومسقوفة بالألواح الخشبية، والحطب. كان القرآن ينبعث من مذياعٍ داخلها، وتقدم (فؤاد) بثقةٍ من الباب الخشبي، وطرقه بقوة، ثم صاح آمرًا بلهجةٍ رسميةٍ تميز رجال الشرطة جميعًا: " افتح يا رجل"!

سمعا الخطوات المترددة داخل الغرفة.. قبل أن يقول صوت مرتعش من داخلها: "من أنتم؟" "الشرطة، والآن هلا فتحت؟"

سمعا أصوات أكثر من مزلاجٍ، وهو يتحرك. قبل أن حرك الباب للداخل، ويظهر على عتبته رجل مسن متهالكٌ يلوح على وجهه ذعر الجحيم نفسه. رمقه بعيونٍ مرتعشةٍ، وخلجاتٍ متوترة. قبل أن تدور عيناه في المكان حولهما في ذعر، وكأنه يفتش عن شياطين سقر، وهتف (فؤاد) بشيءٍ من الغلظة: " هل أنت اللحادٌ؟"

كان سؤالًا لا معنى له، فلم يريا غيره بالمكان. اومأ الرجل برأسه، فواصل (فؤاد) الحديث: "إذًا؛ أرنا قبور كل من ماتوا مؤخرًا في النجع".

رمقه الرجل في غير فهم، وجسده كله يرتعش بصورةٍ تقارب الانتفاض. أدرك (بهاء) أنه متوتر مذعورٌ لأقصى حد. من المستحيل أن يكون هذا لأنه يواجه أحد رجال الشرطة مثلًا. هذا الرجل مذعور بحق، وهناك ما يخيفه حتى الموت. طال صمت الرجل دون أن يجيب، واكتفى بالنظر إليهما، والوقوف أمام باب حجرته دون أن يقوم بشيءٍ آخر، فصرخ (فؤاد) في وجهه: " لماذا تقف أمامي كالصنم هكذا. هل أنت أصم أم أخرس؟"

هنا قام الرجل بأغرب شيءٍ يتوقعانه. تراجع بظهره للخلف، واندفعت كفاه نحو الباب؛ ليغلقه في وجهيهما. تحرك (فؤاد) في سرعةٍ، ووضع طرف حذائه السميك في طريق الباب؛ ليحول دون غلقه، وهو يقول بشراسة: " هل تمزح معنا يا رجل؟.. ألا تدرك ما يمكنني أن أفعله بك. صدقني لن يعجبك، ولن يدور ببالك قط؛ كيف يكون بطشي؟"

أدرك (بهاء) أن (فؤاد) متوتر هو الأخر تماما كالرجل. لقد زال القناع البارد الذي حاول ارتداءه طوال الوقت. خشي أن يتطور الوضع، فتحرك بين الرجلين، وقال: " لحظة يا فؤاد بك". ثم التفت للرجل المسن، وقال: "ما اسمك يا حاج؟"

" - عبد الواحد".

أجاب الرجل. كانت أول كلمة يقولها، فرسم (بهاء) ابتسامةً حاول بها تهدئة الرجل، وقال: " حسنًا يا عم عبد الواحد، أنا الدكتور (بهاء) طبيب الوحدة الصحية بالنجع لو كنت سمعت بي، وهذا هو الرائد (فؤاد) الضابط المسؤول عن نقطة شرطة النجع، ونحن هنا لنرى بعض القبور، لكننا لا نعرف أين تكون؟ هل يمكنك أن تخبرنا بمكانها"..

سرت قشعريرة في جسد الرجل، ورفع كفا مليئًا بالعروق قبل أن يهمهم: " ليس الآن. ليس وهم خارج القبور"

تبادل (فؤاد) و(بهاء) النظرات، وقال الأخير بسرعة: " لو كنت تخشى رجال النجع فلا تقلق، لا أحد منهم قد يأتي الآن".

زاغت عينا الرجل، وهو يردد في شيءٍ من الخبال: "إنهم الموتى، لقد عادوا"!

أدرك الاثنان أن الرجل قد شاهد شيئًا مفزعًا، ولم يكن من العسير تخمين كنه ما رآه. ربما رأى الموكب الملعون، وربما رأى أشباح الموتى.

في الواقع؛ كانت الأيام الماضية مريعة لأقصى حد، وقد غدا الليل مفزعًا لأقصى حد في المقابر.. لقد رأى الرجل أسوأ كوابيسه مجسدًا هذه الأيام، والآن يأتي هذان؛ ليسألاه أن يرشدهما لقبور من بدأت اللعنة بهم. طال صمته، فأزاح (فؤاد) (بهاء) عن طريقه، وهتف في الرجل: "هيا يا رجل، أخبرنا؛ أين تلك القبور اللعينة؟ لن نمضي الليل كله في هذا الهراء، ولا تنس فأسك".

هنا تحرك الرجل ببطءٍ دون أن يرد. قبض على مصباحٍ زيتي، وتقدمهما للخارج بعد أن تأكد من إغلاق باب حجرته، وكأنما يخشى أن يتسلل إليها شيء ما، وهو بالخارج، وقال وهو يتقدمهما: "أي قبرٍ تبغيانه؟"

"آخر قبرٍ فتحته.. أظن أن صاحبه يدعى (عبد الرحيم) ...".. اتجه الرجل إلى صفٍّ متأخرٍ من القبور، ودار حول بعض القباب قبل أن يتوقف أمام شاهد قبرٍ حديثٍ مبنيٍ بالآجر الأحمر، وقد كتب على مقدمته تاريخ اليوم نفسه، واسم الحاج (عبد الرحيم). صوب (فؤاد) ضوء مصباحه الكهربائي نحو الباب المعدني شبه المردوم في التراب، والمغلق بإحكامٍ بواسطة قفل حديدي، ثم وضع الكشاف تحت إبطه، وأشعل سيجارةً جديدةً وضعها في فمه، وقال، وهو يزفر دخانها: "افتح هذا القبر".

نظر الرجل للقبر بترددٍ، لكن الحزم البادي على وجه (فؤاد) دفعه لطاعته. رفع فأسه، وراح يحفر حول الباب.. أزاح أكوام الثرى من حوله، ثم أخرج حلقةً معدنيةً كبيرةً من جيبه تحوي عشرات المفاتيح. بحث بعينيه بينها للحظاتٍ، ثم انتقى أحدهم، ودفعه نحو القفل، ففتحه. فتح الباب بعدها، فهبت رائحة عفنة لأقصى حد. لم يبد

على وجه الرجل العجوز أي أثر لها، وكأنما اعتادت أنفه على الأمر، بينما تراجع (بهاء) و(فؤاد) للخلف، ودار برأسيهما، وهما يسدان أنفيهما من هول الرائحة. انتظرا لبعض الوقت حتى خفتت شدة الرائحة، ثم تحركا نحو القبر.. صوب (فؤاد) أشعة كشافه نحو قلبه، فبدا الكفن الأبيض الحديث هناك في منتصفه. كان المكان بالداخل متسعًا، وبلا ترددٍ اندفع (فؤاد) داخل القبر.. بدا الكفن غريبًا، وشعر أن هناك شيئًا ما غير صحيحٍ فيه. كان الكفن متناسقًا، ولا أثر فيه لتضاريسٍ كالرأس، أو الأطراف، أو غيرها.. هتف دون أن يلتفت للحاد العجوز: " هل أنت متأكد أنه هو نفس القبر؟"

" - أنا من قام بدفنه بالأمس".

كان القبر حديث، ولا أثر لأي جثةٍ أخرى، أو حتى رفاتٍ قديمٍ في المكان. تحسس الكفن للحظةٍ قبل أن يضع الكشاف في فمه، ويخرج مطواةً صغيرةً من جيبه؛ دفعها نحو الكفن ومزقه.. هنا انحدر الكثير من الثرى الناعم للغاية، وبينما تراجع (فؤاد) في دهشة؛ أدرك سر غرابة الكفن.. كان لا يحوي إلا التراب فقط، وهذا يعني إما أن الرجل قد تحلل بالكامل في ليلةٍ واحدةٍ، وإما أن يكون في الأمر خدعة رهيبة.. التفت بعدها نحو (بهاء)، وهو يشير للثرى الذي أغرق حذاءه بعد أن انهمر من الكفن الأبيض، وقال للحاد بصوتٍ منقطع: " أريد أن أرى قبرًا آخر"!

ومرة أخرى لم يعثر الا على الأكفان التي لا تحوى الا الثرى الناعم فصرخ في وجه اللحاد العجوز في ثورة: "أين ذهبت الجثث يا هذا؟"

أشار اللحاد العجوز بسبابته المرتعشة نحو النجع وأجاب: " إنهم مع الموتى هناك"!

☆ ☆ ☆

كان أول ما فعله في الصباح هو الاتصال بـــ(سليم). لم يعبأ الحاج (عبد الكريم) باحتجاج (أحمد) الصامت، وقال في الهاتف باقتضاب: " أريدك في الحال. أعلم أنه لا تنام. لكن الأمر ملح. أنا في انتظارك".

كان (أحمد) قد عاد من الخارج محبطًا منذ بضع دقائق؛ حيث أخبره بمقتل المزيد من أهالي النجع مع الشيخ (حمدي) في محاولة ليلة أمسٍ الفاشلة، أخبره كذلك أن سبب انقطاع الكهرباء؛ هو أن أحدهم عبث بكابينة الكهرباء التي تزود النجع كله بالكهرباء. الأمر كله كان مدبرًا. رأى الحاج عبد الكريم في عين ابنه الغضب والثورة؛ راح يدخن الشيشة محاولًا تجنب الجدال معه حتى يأتي (سليم) ليرافقه في المهمة التي لا تحتمل التأخير، الوقت يمضى، والطوفان يكاد أن يبتلع الجميع. لكن (أحمد) لم يتمالك نفسه، وقال:

"مازلت مصرًّا على الاستعانة بزعيم المطاريد المجرم هذا، حتى بعد أن رأيت كيف أنقذ (الخلفاوية) الملعونين من غضب النجع، لولاه لتخلصنا منهم، ومن شرهم للأبد".

"كانت لتكون مذبحة حقيقية لولا ظهوره. وربما كنت أنت أولى ضحاياها".

"يا أبي، أنا لا أفهم؛ كيف لا ترى أنه يتعاون معهم، وأنه ملعون ورجاله مثلهم تمامًا. إنهم من جلب الهلاك للنجع".

أبعد الحاج (عبد الكريم) عينيه عن عيني ابنه، وسحب بعض الدخان، وحبسه في صدره؛ ليداري بعض انفعاله قبل أن يقول: " مازلت صغيرًا، وهناك الكثير من التعقيدات التي لا تفهمها".

"أخبرني بتلك التعقيدات، وأعدك أن أتفهم".

"لم يحن الوقت بعد"!

كان هذا هو نهاية الحديث كالعادة. وبيأسٍ وعجزٍ غادر أحمد المكان، واختفى في حجرته. وبعد أقل من الساعة؛ كانت ثلاث عرباتٍ جيب تتوقف في الباحة الأمامية. كان (سليم) ورجاله. نهض من مكانه، وتناول عصاه، وتحرك نحو الخارج. حياه (سليم) والرجال، ولاحظ الشحوب الشديد على وجه (سليم) وعيناه اللتان صارتا ككأسين من دم، وقد انكمشت قرنيتاها، حتى صارتا كثقبين سوداوين صغيرين وسط بحيرةٍ من الدماء. هز الحاج (عبد الكريم) رأسه بأسى، وغمغم: " لا تبدو في خير حالٍ."

رد عليه (سليم) بلا خوف: " أعتقد أن الأمر قارب النهاية.. لكنني مستعد لما اتفقنا بشأنه".

"هل بدأت أحلامك".

"إنها لا تفارقني. أشعر بها داخل دمائي، وأنفاسي. إنها تشاركني روحي نفسها".

ثم أزاح ياقة جلبابه، وكشف عن صدره، وأعلى بطنه، وأردف: " انظر"!

ربت عليه (عبد الكريم) بإشفاقٍ، وهو يرى الوسم اللعين، وقد اتسع حتى ابتلع صدره وبطنه، وقال: "دعنا لا نضيع المزيد من الوقت. لنتحرك".

"إلى أين يا ابن العم؟"

"نحو الجبل. سنفتش عن الشيخ (عايد)".

ورغم وجهه الجامد الثلجي الذي امتاز به (سليم) طوال عمره؛ إلا أنه شعر بدهشةٍ لا حد لها؛ حين سمع اسم الشيخ (عايد) وهتف بذهول: " الشيخ عايد؟! ومن يعرف طريقه؟! هذا إن كان مازال حيًّا. لقد بلغ الرجل عامه المائة قبل أن نولد حتى".

"لقد أمرت (آمنة) أن نبحث عنه، وما دامت قالت هذا، فلابد أنه مازال حيًّا".

"وحتى لو كان حيًّا؛ فماذا بمقدوره أن يفعل في هذا يا ابن العم؟ الكل يعلم أنه دجال. ولم يره أحد منذ أكثر من ثلاثين عامًا".

"ليس دجال يا سليم، كلنا يعلم كيف كان متصلًا بالجان؟ وكيف كانوا يخدمونه"!

"لو أنه مازال حيًّا، فلابد أنه مجرد كومةٍ من العظام، والجلد المتآكل. لقد تجاوز المائة عام بعمرٍ كامل. لابد أنه قد فقد قواه مع شيخوخته الطويلة هذه".

"مادامت (آمنة) قد طلبت منا أن نسأله المساعدة، فهذا يعني أنها تدرك أنه قادر على القيام بشيءٍ ما".

هز (سليم) رأسه بلا اقتناعٍ، وهمهم بصوتٍ خافتٍ، لكنه مسموع: "وحتى لو كان يقدر، فهل يقبل المساعدة؟. لقد اعتزل عالم البشر كله بعد أن تجاوز المائة عام، ولاذ بكهفه المجهول في قلب الجبل، ولم يره أحد منذ ذاك الحين".

- لنذهب اليه يا سليم ونرى هذا بأنفسنا. سوف نذهب أنا وانت فقط مع الخيل، وسينتظر الرجال هنا"

ثم نادى على غلامٍ صغيرٍ يقوم بخدمته، فأتى بحصانين جديدين، كان قد طلبهما من أحد أبناء عمومته بعد أن نفقت كل دوابه.



قبل مائة عام؛ لم يكن الشيخ (عايد) هو نفس الرجل الهرم الحالي، كان حينها في ريعان شبابه، وكان مجرمًا شقيًّا، يسرق الدواب، ويحرق المحاصيل، ويختطف الأبناء، ويطلب الدية من أهاليهم، بل ويقتل من أجل الثأر لمن يدفع. اشتهر بقسوته، وشره، وتحاشى الكل غضبته، حتى لقبوه بـــــ (عايد السفاح)، ثم التحق بعدها بالمطاريد، وعمل لهم، ومعهم. مضت أعوام طويلة من الشقاء قبل أن يختفي فجأة تمامًا. لم يعرف أحد حينها؛ أين ذهب وما مصيره؟. فتش عنه المطاريد، وقد صار زعيمًا لهم، فلم يعثروا عليه، وخمن الكثير من الأهالي؛ أن يكون أحدهم قد نجح في القضاء عليه، وواري جثته في مكانٍ غامضٍ، ولم يعلن عن هذا، كي لا يصيب غضب أتباع (عايد السفاح).

وكعادة الأمور خفت ذكره، وتناسى الناس حكايته لوقتٍ طويلٍ قارب الأعوام العشر، حتى ظهر الرجل على مشارف النجع ذات صباح. كان قد تغير تمامًا. لم يعد ذلك الشخص القاسي المتأنق الوحشي، بل كان يرتدى الأسمال، وقد ابيض شعره، وحلت سكينة غريبة على وجهه. وكما كان من قبل، فقد عاد ليكون مثار فضولٍ، واهتمام، وثرثرة النجع ثانيةً، وإن لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه؛ ليسأله أين اختفى كل هذا الوقت؟. لكن المطاريد فعلوها، وهرعوا إليه، لقد كان زعيمهم المرهوب قبل أن يختفي، وطالما قد عاد، فمكانه محفوظ. استقبلهم الرجل بود، لكنه لم يكن نفس الرجل الذي فارقهم. رأوا في عينيه وداعةً غير مألوفة، وفي سلوكه شذوذًا غير مقبول. راح (عايد) يتصرف أمامهم كالمجاذيب، وهو يبسمل ويحوقل طوال الوقت، ويمد عقيرته بالإنشاد من حين لآخر. لم يدروا ما معنى ما حدث له، وحين لم يتمالك أحدهم نفسه، وصاح فيه أن يكف عن هذيانه وجنونه هذا وأن يعود لعقله، ولمكانه المعروف كزعيمٍ للمطاريد، غضب (عايد). هنا تبدلت النظرة ولمع في عينيه أثر البأس والقسوة القديمة. تراجعوا حينها خوفًا من بشطه، وغادروا كوخه للأبد، وقد أدركوا أن (عايد)

السفاح قد ذهب بلا عودة، وأن من كان يحدثهم هو شخص آخر في نفس الجسد يدعى (الشيخ عايد) كما طالبهم بمناداته.

اتخذ الرجل كوخًا خشبيًّا خارج النجع كمسكنٍ له، وكان معه امرأة سوداء دميمة قميئة. قال البعض أنها زوجته، وردد الآخرون بل خادمته وتابعته. إن الحكاية قديمة ومن العسير أن تعثر على الحقيقة كاملة بعد مائة عام من حدوثها. راحت المرأة السوداء تجوب النجع، وهي تحث الناس على القدوم للشيخ (عايد) من أجل التبرك بكراماته. قالت أنه يقوم بما لا يقدر عليه غيره، يسخر الجان، ويعيد الحبيب، ويرشد عما ضاع، أو سرق، ويساعد من لا ينجب. راحت تقص القصص عن تلك التي كانت ممسوسة، وقد فقد أهلها كل أملٍ في الشفاء، فنجاها الله من شدتها بعد أن لجأوا له، وأخبرتهم عن تلك المكلومة في فلذة كبدها، والتي سرقها اللصوص قبل أن تلجأ إلى الشيخ (عايد) ليرشدها عن مكانها، فتعثر عليها.

صدق البعض الحكايات، ولجأوا إليه، وقد فكر البعض في تجربته. نجح الرجل في عمله، حتى صار الزوار من كل مكانٍ في النجع والنجوع والمدن المجاورة يحتشدون أمام باب كوخه منذ الصباح حتى المساء. لم يقبل الرجل أي أموالٍ، أو هدايا مؤكدًا أن تلك الكرامات هبة من الله، وأنه يقوم بعمله لوجه الله كي يكفر بعضًا من خطاياه القديمة، لكن المرأة البدينة نالت الكثير من العطايا لقاء إدخال الناس إليه، وهي التي صارت لا تبرح باب كوخه.

وفي الليالي المظلمة؛ اعتاد الناس رؤية اللهب، والصراخ المخيف قادمًا من الكوخ دون أن يجسر أحدهم على الاقتراب. كم مرة رأوا الكوخ يحترق تمامًا بمن فيه، وفي الصباح يعود الكوخ كما كان، وتعود المرأة السوداء لمكانها أمام بابه؛ بينما يكون الشيخ (عايد) داخله في انتظار زواره.

عاد الكل؛ ليخافوه ثانيةً وقد عجزوا عن تفسير ما يحدث. لكنهم واصلوا اللجوء إليه. ظل هذا حتى اختفت المرأة ذات يوم بعد ليلةٍ طويلةٍ مظلمةٍ صاخبةٍ اشتعل فيها الكوخ كعادته، وظل اللهب يلتهمه طَوال الليل، والصراخ لا ينقطع من داخله. وفي الصباح لم يخرج الشيخ من كوخه، ولم يفتح الباب لزواره، دام هذا نحو أسبوعٍ كاملٍ، حتى عثروا على جثة المرأة السوداء البدينة داخل أحد القبور المفتوحة، وقد تشوهت تمامًا، واقتلعت عيناها؛ بينما كانت أطرافها متفحمة تمامًا. راح الكل يتساءل عن سر تلك الميتة البشعة. هل قتلها الشيخ؟. أم قتله أعوانه من المردة والجان؟. أم كان سحر أسود قد أصابها. كثر الحديث وهذه المرة خافه الكل كالشياطين واعتزلوه تمامًا، وخاصة حين وجدوا ثلاثة ذئاب تظهر أمام كوخه ذات صباح، وتستقر هناك، وكأنها تحميه. ومن حينٍ لآخر؛ كان باب الكوخ يفتح، ويظهر الرجل على عتبته بشعره الأبيض، وزيه المهلهل، ونظرته الغريبة؛ يرمق النجع بخواءٍ، وينظر نحو السماء طويلًا، ثم يختفي داخله ثانية.

وبعد عام كامل؛ استيقظوا ليجدوا أن الكوخ قد ذهب بغتةً، واختفى الشيخ (عايد) ثانيةً مع ذئابه، حيث لجأ الرجل إلى مغارةٍ بعيدةٍ في الجبل، علم البعض بمكانها مصادفةً، لكن الجميع قرر أن يدعوا الرجل، وشأنه. مضت الأعوام الطوال، والرجل لا يرى إلا قليلًا فوق الصخرة التي تقف أمام باب المغارة، وتطل على النجع، لم يشغل أحد منهم باله بالسؤال المهم؛ من يرعى الرجل، وقد بلغ أرذل

العمر؟. ومن يأتيه بالطعام؟. هل هم أعوانه من الجان، أم أنه يقتات على زواحف الجبل؟.

ومنذ أكثر من ثلاثين عامًا؛ لم ير أحد الرجل أبدًا، ونسي كل من كان يعرف الكوخ؛ أين يكون؟. لم يفكر أحد في التفتيش عنه، أو البحث عن بقاياه لو كان قد مات. لقد آمن الكل أن الرجل حتمًا قد مات منذ أعوامٍ طويلةٍ، وخاصة أنه قد تجاوز المائة بكثير.

لكن (آمنة) الآن تطلب من ابنها البحث عنه ليساعدهم، هل يعني هذا أنه مازال حيًّا؟. دارت كل تلك الأشياء في رأس الحاج (عبد الكريم) و(سليم)، وهما في طريقهما نحو كوخ الشيخ (عايد) الذي مازال يعرف الاثنان مكانه جيدًا.

☆ ☆ ☆

زمجر الذئبان الرابضان أمام الكوخ المظلم في تحفزٍ حين شاهدا الحصانان القادمان. هبا على الفور، واتخذوا وضعية القتال، وكشرا عن أنيابٍ مصفرةٍ عجوز، وقال (سليم) وهو يهبط من فوق حصانه:

" - ذئابٌ عجوز".

اتجه بعدها لحصان الحاج (عبد الكريم) وساعده في الهبوط، وناوله عصاه، ثم تقدمه نحو مدخل الكوخ، وهو ينظر للذئاب بلا خوفٍ، ويقول: "كلنا هنا ذئاب؛ فلماذا التوتر؟"

رمقته الذئاب في توترٍ قبل أن ينتصب فراؤها لسببٍ غامض، ثم قبعت مكانها في ذعرٍ، وهي تعوي بصوتٍ مخنوق. وتشيح برؤوسها بعيدًا عن (سليم) وبدا أن هناك ما يخيفهم منه، لم يفت هذا على (عبد الكريم) وخمن السبب دون أن يعقب. توقف (سليم) أمام مدخل المغارة المظلم قبل أن يهتف بقوة: "يا شيخ عايد، هل أنت بالداخل؟"

لم يصله رد، وبلا ترددٍ شأن من عاش أغلب عمره بين العقارب والحيات والذئاب، اقتحم الظلام، بينما ظل الحاج (عبد الكريم) بانتظاره بالخارج. مضى بعض الوقت قبل أن يظهر (سليم) ثانيةً، وهو يقول: "إنه بالداخل".

ومن خلفه توهج ضوء مشعلٍ بدد بصورةٍ كبيرةٍ ظلام المغارة. دلفا سويًّا، ودارت عينا الحاج (عبد الكريم) في المكان الغريب. مئات النقوش، والرسوم الغريبة في كل بوصة في جدران الكهف، وسقفه، وأرضه، وعشرات الأغراض الغريبة، تماثيل قبيحة، أسطوانات زجاجية غريبة، لفائف مهترئة غامضة، قوارير تحوي أعشابًا، ورمالًا، وثرى مريب. وعشرات البقع الداكنة في كل مكانٍ، والتي خمن فور أن رآها أنها دم يابس. وفي نهاية المغارة تربع الشيخ (عايد) فوق حصيرٍ من البوص، وأمامه (منقد) توهجت النار في قلبه. رفع رأسه نحوه، وبدا في حالٍ أفضل بكثيرٍ مما تخيله الاثنان، وهو يرحب بهما قائلًا: "كنت أنتظركما؟. فلماذا تأخرتما؟"

تبادلا النظرات، فأشار لهما بكفَ معروقٍ عبارة عن جلدٍ مهترئٍ مجعدٍ يكسو عظامًا متآكلةً ناخرةً، وقال: "اجلسا بجواري لأراكما. لم يعد نظري بعد كل هذا العمر حادًّا كالماضي".

جلسا أمامه، وتصاعدت في الجو رائحة زيتية كريهة، وقال (عبد الكريم): "هل تعلم سبب مجيئنا لك يا شيخ عايد".

نبش العجوز النار المتوهجة، فأثار بعض الدخان، وأجاب: "أخبرتكما أنني كنت بانتظاركما، إنها اللعنة التي أصابت رفيقك. إنها لعنة نجع الموتى".

قالها، وأشار نحو (سليم) وأردف: "لقد صار من الملاعين، وقريبًا سيلحق بهم".

"والحل يا شيخنا؟"

"وهل يملك الشيخ الفاني ما يقدر به على صد كل هذا الشر، واهم أنت لو اعتقدت بهذا؟"

قال (سليم): "لم ينس أحد يومًا كراماتك ومعجزاتك. جئنا كي تقودنا، وتدفع عنا هذا الشر".

رمقه الشيخ بوجهٍ متغضن كثمرة تفاحٍ جافة، وارتعشت عيناه قبل أن يقول: "ربما كان هناك حل لهم، لكن لا أمل لك".

"أعلم هذا ولا أبالي. لكن ماذا عن الباقين؟. ماذا عن النجع؟ هل من أمل؟"

"الشر عظيم، ولم ينجح أحد في صده يومًا. أكثر ما تمناه كل من قاومه هو هدنة قبل أن يعم الهلاك".

هنا قال الحاج (عبد الكريم): "أمي (آمنة) هي من أرسلتنا إليك".

ابتسم الشيخ، وقال: "ومن غيرها سوف يذكرني في وقتٍ مثل هذا. أبلغها تحية الشيخ الهالك، قل لها إن الطريق طويل، والزاد معدوم، والقلب قد جف، والجسد قد مل. سلها أن تدعو للشيخ الشقي بالراحة الأبدية التي نعم بها باقي البشر".

عوى ذئب من ذئابه بالخارج بشكلٍ غريبٍ غير مألوف. فألقى الشيخ ببعض أعشابه العطرية في النار، فانتشر الدخان، وقال بعد فترةٍ من الصمت الثقيل:

" - لقد أعماكم الطمع، فذهبت إلى حيث لا يجب أن تعبثوا. المقبرة القديمة ظلت طوال الدهر ملعونة، ولا تجلب لمن يفتش عنها غير اللعنة والموت. الشيخ الأحمق الذي فك رصدها كان يعلم سرها قبل أن يفعل. كان يدري ما يتوارى فيها من هلاك، لكنه خدعكم. إن صاحبها ملعون منذ بداية الزمن، شر قديم لم يقدر أحد على دحره تمامًا. والآن يستعد ذلك الملعون للعودة، إن جيوشه القديمة، وأتباعه من الموتى، والملاعين بانتظاره. ومن يعتقد أن هناك من قد يقدر على إيقافه الآن؛ فهو واهم أحمق".

غمغم الشيخ (عبد الكريم) في إحباط: "هل يعني هذا أنه لا أمل؟".

"لم أقل هذا. لو كان هناك أمل، فهو محدود، ولو حدث هذا في الماضي في فتوتي لربما كنت قادر على صده. لقد جئت إلى النجع من قبل بعد أن فررت منه من أجل لحظة كهذه. كانت العلامات تصرخ أنه في سبيله للعودة، فرحت أفتش عن كل سبيلٍ لدحره، اعتقدت أن الأمر حينها سيحدث خلال أعوامٍ قصار، لكن السنون مرت، وكان علي أن أنتظر لأكثر من خمسين عامًا، حتى يحين الموعد. لقد انتقت اللعنة الموعد المناسب بعد أن شارف الشيخ العجوز الهلاك، وضعفت قواه، ووهنت عزيمته.

"والعمل الآن يا مولانا".

سأل الشيخ (عايد) (سليم):

"كم مضى من الوقت على فتحكم المقبرة؟".

"نحو السادسة وعشرون يومًا".

"هذا يعني أن أمامنا يومان. لو انقضى شهر قمري، ولم تغلق المقبرة ثانيةً؛ يعود سيد الموتى ولا يكون هناك سبيل لدحره. هذا يعني أنه لا وقت أمامنا لنضيعه".

"وماذا تقترح أن نفعل؟".

"أحضروا ذلك الدجال اللعين الذي فك رصدها، وارسلوا من يذهب بي اليه عصر بعد غدٍ. لكن حذار أن يهرب ذلك الدجال الملعون، لو ذهب فلا جدوى لأي شيءٍ نقوم به حينها".

ثم ابتلع ريقه في صعوبة ونثر بعض البخور ذو الرائحة الغامض فوق النار امامه وأردف: " فقط ادعوا الله أن أظل حيًّا حتى ذلك الحين".

وقبل أن ينصرفا استوقف (سليم) وسأله بهمس:

"من كان أول من وقع بصره على جثة ذلك الملعون داخل تابوته".

"إنه أنا".

"شعرت بهذا؟. لكن هل تدري ما ينتظرك؟".

"أعلم ولست خائف".

وحين انصرفا أظلم الكوخ، فراحت عشرات الكائنات في الظهور في أركانه، وبينما عوت الذئاب في ذعرٍ بالخارج؛ أدرك الشيخ (عايد) ما ينتظره من وقتٍ عصيب. كان عليه أن يحاربَ كي يكون حيًّا، حتى بعد الغد. كان عليه أن يقاوم هؤلاء الشياطين من أتباع سيد الموتى كي يحيا".



ابتسم عالم المصريات الشاب (طارق سرحان) بإرهاقٍ، وهو يهبط من سيارة الشرطة التي جاءت به للنجع قبل أن يحتضنه (فؤاد) الذي كان بانتظاره، وقال:

"يلوح لي أن المتاعب صارت لا تأتي إلا عبر الأصدقاء".

"وهل تنتظر منهم غير هذا؟".

"ليس لدرجة أن أترك كل ما ورائي، ثم أسافر لأكثر من ثلاث عشرة ساعة حتى أكون هنا. لكن بالمناسبة؛ ما الذي ألقى بك في هذا المنفى؟".

"حكاية طويلة. لن أقصها عليك، ونحن هاهنا بالخارج، دعنا ندخل أولًا".

ذهبا مباشرة إلى حجرة (فؤاد). بدل (طارق) ملابسه، واغتسل ثم جلسا يتناولان وجبة غذاءٍ خفيفةٍ سويًّا. تبادلا الحديث عن أخبارهما قبل أن يكتفي (طارق) من الطعام، ويقول، وهو ينهض: "والآن؛ ما هو الأمر الملح الذي انتزعتني من القاهرة بسببه؟".

" - مقبرة فرعونية كما أخبرتك، ولنقل أنها لعنة هذه البلدة التعيسة".

صب (طارق) الشاي له من ترمس أمامه، وسأل: "وما شكل هذه اللعنة؟"

"ضباب غامض ينتشر فيها بعد الغروب حتى الصباح، وميتات غامضة تصيب الأهالي، وحديث عن قومٍ منها ملعونون، ومواكب موتى".

"لعنة (عج حور أب)".

اتسمت الدهشة على وجه (فؤاد) وتمتم: "ماذا؟"

" - إنها لعنة معروفة لدي الكثير من علماء الآثار، والمصريات. أسطورة وجدت مخطوطة في بعض البرديات التي تعود لعهد الأسرات القديمة، لقد ذكر العالم الفرنسي (جاستون كاميلي) في بعض أوراقه أنه وجد القصة كاملة فوق جدارية أحد المعابد القديمة، للأسف لم يخبر أحدًا بمكان تلك الجدارية المزعومة، وهل مازالت في مصر، أم أنها قد نقلت إلى مكانٍ ما خارج مصر؟. المهم أن الكثير من علماء الآثار يعرفونها، لكن أحدًا لا يصدقها بالطبع.

أشعل (فؤاد) لفافة تبغٍ، وقال: "وما هي قصة (حور ابنوب) هذا، وما علاقته بما يدور هنا".

- اسمه (عج حور أب) وليس (ابنوب) يا حضرة الضابط اليقظ. يقال أنه كان ساحرًا ملعونًا، وأنه كان يمارس أشد فنون السحر الأسود شرًّا. وأنه كان قادرًا على إحياء الموتى، وأنه راح يكون جيشه الخاص من الموتى، ويستعد للسيطرة على العالم بمعاونة (ست) وإغراقه في الظلام الأبدي لولا أن انتبه له الكهنة، ونجحوا بحيلةٍ ما في قتله، وتشتيت جيوشه في أطراف البلاد.

قال (فؤاد) بلا اقتناع: "ساحر يُحيي الموتى!. إنها فكرة مفرطة في الكفر، والشطط. هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله".

ابتسم (طارق) وأنهى كوب شاي، وأجاب: "هذا لأنها مجرد أسطورة قديمة، القدرة على إحياء الموتى قدرة إلهية لا جدال فيها. لكننا نتحدث عن عهودٍ سبقت فكرة

الرسالات، والأنبياء، والدين الذي نعرفه. هناك كانت الآلهة المتعددة قادرة على البعث. لقد قتل (أوزوريس) مثلًا، ومزق شر ممزق بيد أخيه (ست) ثم نجحت (إيزيس) في إعادة بعثة، في النهاية كلها حكايات، وخرافات قديمة لا يوجد من يصدق حدوثها".

"لست أفهمك. تقول إنها حكاية خرافية، ومع ذلك تربطها بما حدث للنجع".

"أنا لا أربطها بشيء. أنا أحاول أن أعثر على تفسيرٍ محتمل لما تحكيه. لقد أخبرتني عن لعنةٍ في النجع، وقتلى، ومواكب موتى. وكل هذا يذكرني بشدةٍ بتلك الأسطورة القديمة؛ ولهذا فكرت فيها. السؤال هنا؛ هل تكون تلك المقبرة المجهولة التي تتحدث عنها هي مقبرة (عج حور أب)؟. في الواقع حاول عالم آثار آخر يدعى (جوستاف ليفيفر) تتبع آثار تلك الأسطورة الغامضة، وآمن لسببٍ ما أن مقبرة ذلك الساحر لابد أن تكون في مكانٍ غير معتاد؛ كي لا يعثر عليها أحد. فتش عنها كثيرًا، وقضى في هذا المكان الذي نحن فيه بالتحديد أكثر من خمس سنوات متتبعًا حكاية قديمة دارت في هذا المكان. لكنه لسوء حظه لم يصل لشيء بعد كل هذا، واضطر لقطع بحثه، والعودة لدياره ثانيةً خال الوفاض".

"وما الذي أتى به إلى هنا بالذات؟. لماذا اختار هذا النجع؟".

تطلع (طارق) إلى الجبل عبر النافذة، وأجاب: "لا أحد يدري، لكن يمكنني تخمين السبب. فبعد أن أخبرتني بالأمس عن المكان؛ رحت أبحث في كتبي، وأوراقي عن ما قد ذكر عنه؛ ولهذا عرفت المعلومة الأخيرة المتعلقة بعالم الآثار الفرنسي (جوستاف ليفيفر). نجع الذئاب هذا لم يكن يحمل هذا الاسم حتى مائتي عام سابقة، كان الكل يدعوه بنجع الموتى"

سعل (فؤاد) وقد اختنق بالدخان فجأة، وقال: "مهلًا، لقد سمعت هذا الاسم من قبل، وأنا لم أفهم معناه، أو سببه".

" - الواقع لقد أطلقوا الاسم عليه؛ لأن النجع بكل من فيه وجدوا موتى ذات يوم، كان هذا في أواخر الدولة المملوكية، ويقال أن أحد الرحالة العرب زار المكان، وحين عاد منه كان قد فقد عقله تقريبًا، وهو يتحدث عن الموتى الذين يملئون المكان، وقد قتلوا كل نفس حيةٍ فيه. لقد نوه عن تلك الحكاية بعض المؤرخين كـ (ابن إياس) في أحد كتبه، و(أبو العباس القلقشندي)، لكنهم عدوها من الحكايات الغريبة الطريفة التي انتشرت في ذلك العهد.

أعتقد أن (ليفيفر) سمع بتلك الحكاية بوسيلةٍ ما، وربط بينها، وبين أسطورة (عج حور أب) ولهذا جاء للمكان.

لم يتقبل عقل (فؤاد) الحكاية كلها، فقال معترضًا في حدة: "وحتى لو كانت مقبرته، المفترض أنهم قتلوه منذ آلاف السنين، والموتى لا يعودون للحياة إلا يوم البعث".

" - قل هذا لمن قد يصدق تلك الحكاية. وليس لي".

سأله (فؤاد) بحذر: "ماذا تقصد؟".

" - أقصد أنني لا أصدق أن هناك مقبرة، ولا لعنة، هناك حتمًا تفسير ما لكل ما يحدث".

رمقه (فؤاد) للحظاتٍ، وتمنى لو يشاركه ثقته قبل أن يقول: "ولماذا لا تؤجل حديثك هذا حتى ترى النجع بعد ساعاتٍ قليلةٍ؛ حين يهبط الظلام، أو حتى بعد أن ترى المقبرة نفسها".

كان الذهول هذه المرة من نصيب (طارق) الذي غمغم: "هل تعني أن هناك مقبرةً بالفعل؟"

" - بالطبع؛ ولهذا جئت بك. هناك مقبرة سنزورها سويًّا في الصباح الباكر مع أحد شباب النجع؛ لنرى بأنفسنا إن كانت هي مقبرة ساحرك الملعون هذا، أم أن الأمر كله خرافة؟".

دق الباب في تلك اللحظة، فتحه (فؤاد) ليجد (خميس) الذي دفع رأسه داخل الباب في فضولٍ؛ ليرى (طارق)، فقال (فؤاد) بضيقٍ دون أن يفسح له المجال ليفتح: "هل حدث شيء ما يا خميس؟"

"لا شيء يا (فؤاد) بك. لم أرك منذ الصباح، فجئت لأطمئن عليك. لكن من هذا السيد. هل هو ضابط شرطة؟"

"إنه صديق يا خميس. صديق جاء لزيارتي وسيرحل غدًا. كما أنه ليس ضابط شرطة، والآن هل هناك شيء آخر؟"

ابتعد (خميس) بعدها، وانتظر (فؤاد) أمام الباب، هنا رأى (فوزي) هو الآخر أمام باب حجرته، وهو ينظر نحو حجرته في ثبات. تبادلا النظرات قبل أن يختفي (فوزي) في حجرته. هل كان يراقبه هو الآخر؟ وهل كان من أرسل (خميس) ليعرف من ضيفه؟. تنهد بضيقٍ، وسب المكان كله في سره قبل أن يغلق الباب.

☆ ☆ ☆

النوم هو أكثر ما تخشاه، وتتحاشاه. كانوا هناك دومًا بانتظارها بمجرد أن تنام، ولو للحظات. أبوها و(خليفة) وغيرهم من الشياطين. حاولت أن تبقى عيناها دومًا مفتوحتان. استعانت بالمنبهات، فراحت تستهلك أطنانًا من الشاي، والقهوة. احمرت عيناها، وانتفخت الجفون واسودت، ونحل عودها، وذبل حتى صارت كالمدمنين. تنظر إلى النافذة، وإلى نهار بعد الظهيرة الغائم كعادة الأيام الأخيرة. تتوق للحديث مع (أحمد) لكن شيئًا غامضًا يمنعها، وكأن هناك من يتحكم بها بداخلها، تشعر بجفنيها ثقيلين كالرصاص، ويدق مخها منذرًا بالصداع. إنه النعاس مرةً أخرى. تستلقي على الفراش في يأسٍ بعد أن ظلت مستيقظة لأكثر من ثلاثين ساعة حتى الآن. كانت تعلم أن النهار أقل خطرًا من المساء. وأن أحلام الصباح رغم ما تحويه من فزعٍ أقل عنفًا بكثيرٍ من أحلام المساء الملعونة التي تستيقظ فيها على كابوسٍ آخر في كل مرة. تفكر في (أحمد) وتفكر في قرار أمها الذي أذاعته قبل أيام في بيت

العمدة. هذا القرار التي قررت هي و(أحمد) ألا يجادلاها فيه حتى تنتهي تلك الأيام العصيبة. تفكر في خليفة، في... لا شيء.. إنه النوم.

كانت هناك في منتصف الموكب. أميرة تنحني لها أعناق الجماهير على الجانبين، والتي تحمل وجوهًا شيطانية مفزعة حينًا، أو تتخذ شكل رؤوس الحيوانات حينًا آخر. لكن الكل كان يحمل عيونًا صفراء كعيون الثعابين.

كانت تمر في وسطهم محمولة على محفةٍ يحملها أربعة لهم رؤوس (بنات آوى). كانت الدقات القوية تهدر في كل مكانٍ من العالم، ومن الحناجر الغليظة؛ راحت أنشودة جنائزية صارت تحفظها تتردد بلا انقطاع. وصل الموكب إلى قلب معبدٍ محاطٍ بالتماثيل العملاقة التي تحمل رأسًا آدميًا أسودًا، وأعينًا ترسل ضوءًا أصفرًا مقبضًا؛ بينما كانت أذرع التماثيل، وأرجلها مخلبية تنتهي بأصابع ثلاث. وكان هناك قرنان صغيران على جانبي الرأس.

وجدت أباها في منتصف الممر ينتظرها في رداءٍ فرعوني أبيض طالما شاهدته في كتب التاريخ. كان رأسه أصلعًا يلمع بالزيت. لكن عينيه هو الآخر كانتا صفراوين، كما حملت يديه ثلاثة أصابع غليظة تنتهي هي الأخرى بمخالبٍ مثل التماثيل.
ارتفعت حدة الإنشاد، وللعجب وجدت التماثيل تتحرك، وهي تشير نحوها بأذرعها الحجرية قبل أن تنطق في صوتٍ واحدٍ كالجوقة لفظًا واحدًا: " عج حور أب."
راحت الحشود ترد عليها في جنون" :

عج حور أب.. عج حور أب"..

نقلها الحمالون إلى صخرةٍ مستويةٍ تشبه المذبح، ثم تراجعوا للخلف. وانشقت الحشود التي صنعت دائرةً حولها في تلك اللحظة عن (خليفة). تقدم نحوها قبل أن تدرك أنه يحمل في كفه ذي الأصابع الثلاث خنجرًا عجيبًا.

وجدت نفسها تزيح ملابسها عن صدرها، وبطنها، وكأنها تدعوه إليها. تقدم حتى صار فوقها. ومن الخلف راحت الجدران تهتز من الهتاف: " عج حور أب.. عج حور أب.." رفع الخنجر عاليًا ثم هوى به على صدرها. كان هناك ألم مريع، لكنها لم تحتد، أو تصرخ. شعرت، وكأنما تتمنى أن يواصل عمله. راح الخنجر يشق الجلد، ويرسم وسمًا ملعونًا فوق صدرها. الكل يصرخ في جنونٍ و(خليفة) يبتسم في نشوةٍ، والألم صار لا يحتمل. وحين انتهي من عمله انحنى نحوها، وتألقت عيناه الصفراء، وهو يخرج من فمه لسانًا مشقوقًا كألسنة الثعابين، ويقول بصوتٍ كالفحيح: " أخبرتك أنك في النهاية ستكونين لي." هنا وجدت نفسها تصرخ في عنفٍ و..

استيقظت. لكن الفزع لم يكن قد انتهى بعد. لقد وجدت نفسها عارية الجذع تمامًا، وقد أغرقت الدماء صدرها، وفراشها مع ألم رهيبٍ هناك لا يحتمل. قفزت من الفراش كالملسوعة، ونظرت في المرآة. كانً نفس الوسم الملعون الذي حفره (خليفة) على صدرها في الحلم موجودًا. ولذهولها أدركت للمرة الأولى ما تحمله يدها اليسرى. نفس الخنجر العجيب الذي كان في الحلم. وبالكاد نجحت في قتل

صرخةٍ توقظ الموتى كانت تشق طريقها في حنجرتها. احتاج الأمر لبعض الوقت كي تفيق من ذعرها، ثم اتصلت بـــ(أحمد) ولم تقل غير كلمةٍ واحدةٍ: "أنقذني!". مضت ربع الساعة حتى سمعت (أحمد) وصوته يرتفع محتدًّا على أمها التي كما يبدو كانت تطالبه ألا يدخل. لكنه أصر. دخل عليها، وخلفه أمها التي أصابها الذهول تمامًا من مشهد ابنتها الشاحبة كالموتى، والغارقة في دمائها، وهي تحمل خنجرًا عجيبًا في يدها. سألها (أحمد) بقلق العالم كله عما بها، ولدهشته، وأمها كشفت أغلب صدرها بلا حديث. كانت أمها على وشك الصراخ محتدة على جرأتها، ووقاحتها قبل أن تبتلع احتجاجها في ذعرٍ، وهي ترى الوسم الدموي اللعين الذي حفر في صدر ابنتها. نقل (أحمد) بصره في رعبٍ بين وجهها الممتقع، وصدرها الدامي قبل أن يهتف: "من فعل بك هذا؟"

ارتعشت يدها التي تحمل الخنجر، قبل أن ترفعها، وتشير بها للنافذة في الناحية التي يطل بها منزلهم على منزل العمدة، وقالت: "خليفة." كان رد (أحمد) وجيزًا للغاية، أخرج مسدسه من جيبه، وانطلق مسرعًا نحو الخارج، وهو يصيح: "سوف أقتله".

هنا صرخت أمها في جنون. وفي الخارج رأى رجال العمدة (أحمد) وهو يندفع نحو البيت في جنونٍ ملوحًا بسلاحه، وهو يصرخ: "خليفة، اخرج لي لو كنت رجلًا".

في موقفٍ آخر كان الأمر محسومًا. كانوا ليطلقون عليه النار بلا تفكيرٍ كتهديدٍ لا يجب أن يحدث، لكنه ابن الحاج (عبد الكريم) وعمه هو (سليم)، ولو فعلوا، فستكون بحيرات دم لا تنتهي إلا بسفك كل دمائهم. لذا اندفعوا نحوه محاولين السيطرة عليه، وتهدئته. كان الحاج (حسنين) هناك في صدر الدار مع الحاج (حمد) و(خليفة)، اندفع الأخير، وقد أشعل غضبه التهديد الصريح، أدخل يده في جيبه؛ ليخرج سلاحه هو الآخر، لكن العمدة صرخ في باقي رجاله: " لا تسمحوا له." أحاطه الرجال هو الآخر، وتبادل مع (أحمد) السباب؛ بينما هتف العمدة في غضب: " تأتي لتهددنا بالسلاح في قلب دارنا بالسلاح، لقد صار الأمر لا يطاق. على أبيه أن يعالجه من جنونه هذا".

بينما أمر الحاج (حمد) باصطحاب (أحمد) إلى دار الحاج (عبد الكريم). راحوا يدفعونه في قوةٍ بعد أن استولوا على سلاحه منه، لكنه ظل يصرخ حتى اختفى: "سوف أقتلك يا خليفة.. سوف أقتلك".

بينما وقف (خليفة) في مدخل الباب، وأبعد أذرع رجال أبيه عنه في عنفٍ بعد أن غاب (أحمد) وقال: " بل أنت من حان أجله أيها اللعين".

وعلى شفتي الحاج (حمد) ارتسمت ابتسامة غامضة.

☆ ☆ ☆

ذابت أشعة النهار الأولى في الأفق المعتم، فوهبته بعض من وهجها، تكالبت على ظلامه، وراحت تزيحه في تؤدة حتى انسحب الظلام في إنهاكٍ مفسحًا الطريق لجنود الصباح. لقد عادت الشمس لتبدأ الرحلة الأزلية من جديد. وفي تمام السادسة؛ كانوا هناك أمام الوحدة الصحية للنجع الذي فارقه الضباب بتلك الطريقة الغرائبية المعتادة. أشعل (فؤاد) سيجارةً، وراح يحرقها في نفاذ صبر، بينما فرك الدكتور (بهاء) عينيه في نعاس، وهو يضم ياقتي معطفه اتقاءً لبرد الصباح، قبل أن يقول في سخط: " أعتقد أن السبيل الوحيد للخلاص من هذا الإزعاج؛ هو أن أترك المكان كله. سأقدم استقالتي لو لم يوافقوا على نقلي من هنا".

أيقظه (فؤاد) قبل دقائق، وطالبه أن يرتدى ملابسه؛ ليرافقهم في رحلةٍ أخرى، وككل مرةٍ لم يعر احتجاجه، أو سخطه أي اهتمام، وهو يخبره أنه بانتظاره بالخارج، وألا يتأخر، وألا يخبر الممرضة بوجهته التي لًا يعرفها أصلًا.

بينما راح (طارق) يرمق النجع المغطى بالغيوم الداكنة الكثيفة في عجبٍ، ثم نظر للسماء الصافية من فوقه قبل أن يوجه نظره للغابة المواجهة له لبعض الوقت قبل أن يتمتم: " الأمر مريب فعلًا، لكن أين طيور الصباح؟. لماذا لا يغرد أي عصفور؟. ولماذا لا يحلق أي طائرٍ فوق الأشجار؟. ألا يوجد طيور هنا؟".

وقبل أن يجيبه أحد برز (أحمد) من بين أشجار الغابة أمامهم، وقد غطى وجهه بوشاحٍ بني. تحرك نحوهم في سرعةٍ، وما أن دنى حتى قال: " أعتذر لو كنت قد تأخرتً، انتظرت حتى ذهب الضباب، ثم كان عليّ أن أتأكد أنه لا أحد قد شعر بي، أو يراقبني".

نظر إلى (طارق) بدهشةٍ، فقدمه (فؤاد) له، فرحب به، ثم نظر للشمس التي بدأت في الظهور من بعيد، وقال: " دعونا نتحرك على الفور. قبل أن يظهر أحدهم، ويدرك وجهتنا".

تحركوا في صمتٍ مباشرةً نحو الجبل. وفي الطريق أخبرهم (أحمد) بما جرى من أحداثٍ في النجع، ومن قتل في المحاولة الفاشلة لطرد اللعنة عنه. وكيف مات الشيخ حمدي؟. مات أكثر من ستة، وولد ثلاثة أجنة في تلك الليلة زرقًا مشوهين. ولم تتوقف المواكب اللعينة للموتى لحظةً واحدةً في الليل، ولا تراتيلها الملعونة حتى انقشع الضباب في الصباح. اخترقوا الكثير من الوهاد، والمنخفضات، وشقوا طريقهم في طرقٍ وعرةٍ غير مألوفة، وبعد أكثر من ساعةٍ بلغوا تلك الصخرة الضخمة التي ينتهي الطرق عندها، وتختفي المقبرة خلف سطحها. أشار لهم (أحمد) بالتزام الصمت، وبلياقةٍ كبيرةٍ أمسكت كفاه ببعض نتوءات الصخرة، وارتقاها بحذر. نظر بعينيه نحو مدخل الكهف، وبحث عن الحراس. لم يكن أيهم هناك. راح يدير رأسه شمالًا، ويمينًا؛ ليرى إن كانوا بالجوار، لكن المكان بدا ساكنًا تمامًا. هبط ثانيةً، وقال: "لا أثر لأحدٍ أمام الكهف. كان هناك اثنان من المطاريد أمام فتحة المغارة في المرة الماضية".

قال (فؤاد) في حسم: " هذا يعني أن طريقنا مفتوح. دعونا نصعد".

شعر (طارق) بالتوتر، وغمغم: " وماذا لو كانوا يختبئون داخله؟"

أجاب (فؤاد) وهو يشير لسلاحه: " أنا مستعد لأي مفاجأة".

هتف (بهاء) مستنكرًا: " هل ستقتلهم؟"

" -كلا. هناك طلقتين من المخدر القوي في مقدمة المسدس، والباقي طلقات حقيقية".

صعد (فؤاد) أولًا شاهرًا سلاحه بتحفز، وتبعه (طارق) و(بهاء) قبل أن يصعد (أحمد) في النهاية. بدا مدخل الكهف مخيفًا، وأشعة الصباح لا تخترقه. تقدم (فؤاد) بلا تردد، وهو يتلفت يمينًا، ويسارًا بحثًا عن أي أحدٍ قد يكون مختبئًا قبل أن يصل إلى مدخله، فيرمقه للحظاتٍ، ثم يدخله في شجاعة. غاب لدقيقةٍ قبل أن يسمعوا صوته من الداخل: " يمكنكم الدخول. المكان آمن".

لكن (بهاء) استوقفهم: " لحظة، المقبرة ملعونة كما تقولون، فماذا لو أصابتنا لعنتها؟"

كان أمرًا محتملًا. تبادلوا النظرات، وكأنما ينتبهون للمرة الأولى لهذا الأمر، لكن (فؤاد) لم يرغب في أن يوقفهم أمر كهذا، فقال بصوتٍ حاول أن يحمله بكل اللامبالاة: " حينها سنعرف بصورةٍ أكثر وضوحًا ما نواجهه".

دخلوا بترددٍ، ورأوا بدهشةٍ؛ كيف راح (فؤاد) يضيء مشاعلًا ناريةً مثبتةً بطول الجدران حتى أضاء المكان كله. بالطبع كان المطاريد هم من وضعوا تلك المشاعل. راحوا يتأملون الجدران الصخرية المصقولة في انبهار. وكان أكثرهم ذهولًا هو (طارق). الذي راح يتحسس النقوش الكثيرة التي تملأ المكان. قبل أن يهز رأسه بلا تصديقٍ، ويقول: " هل هذا ممكن؟"

سأله (فؤاد) وعيناه معلقتان بتلك الأشكال الغريبة من الثعابين، والحيات، والأسود، والضباع، والرجال الذين يمتلكون رؤوس حيواناتٍ، والتي تملأ كل شبرٍ في المكان: "ما معنى هذا؟"

اقترب طارق بعينيه من أحد النقوش، وقال، وهو يشير له:: "كلها تحذيرات، وتعاويذ حماية. انظروا لقد جمعوا كل الآلهة الرهيبة، والقوية في المكان؛ ليحموه. (امنتت، أنوبيس، رع، أتوم، أوزوريس، سخمت، حتحور، خنوم، حك)، كل هؤلاء كما أرى ليسوا ليحموا صاحب المقبرة، بل ليدفعوا شره، ويمنعوه من العودة للعالم. يا إلهي. لم أر مثل هذا الكم من التحذيرات التي تحرم تدنيس المكان، والعبث به في أي مقبرةٍ فرعونيةٍ أخرى. الأمر مذهل"!

هتف (بهاء) وهو يشير إلى نقوشٍ عربيةٍ بخطٍّ متعرج محفورة في أحد النواحي: " انظروا لهذه. إنه تحذير بالعربية"!

انطلقوا نحوه، وقرأ (أحمد) المكتوب: "شقي من دفعه الطمع نحو هذا المكان. ملعون من أحيا الشر القديم، وأعاد بعثه".

ثم تساءل بعدها قائلًا: " هل كتب هذا أحد المطاريد؟" ألقى (طارق) نظرةً على الكتابات المنحوتة بأداةٍ خشنة رجح أن تكون أحد الأحجار، وقال: " كلا. يمكنني أن أجزم أن تلك الكتابة قديمة تعود لقرونٍ عدة".

سأل (فؤاد): " ومن تعتقد أنه كتبها؟"

أجابه (طارق): " كما يبدو ليس المطاريد أول من اكتشف المكان، أو أطلق لعنته".

أشار (فؤاد) للممر الطويل الممتد أمامهم، وقال: " لندخل".

تحركوا بحذرٍ على ضوء المشاعل، وظلت النقوش الفرعونية تتردد في وتيرةٍ غريبةٍ حتى انتهوا عند الهوة العميقة المظلمة، والتي كان الباب الحجري للمقبرة نفسها خلفها. رمقوا الحفرة السوداء في توترٍ، وجرب (بهاء) أن يعرف؛ أين تنتهي؟. فألقى بحجرٍ صغيرٍ من الأرض داخلها. هوى الحجر، وأرهفوا السمع، لكنهم لم يسمعوا شيئًا. بدا وكأنها تمتد إلى باطن الأرض بلا نهاية. تبادلوا النظرات القلقة، وفكر (بهاء) في ما قد يخرج من تلك الحفرة الغائرة فجأة، ويهاجمهم. هل تكون فجوة تمتد إلى عالمٍ آخر يحوي وحوشًا أو شياطين، أم تراها بوابة للشياطين؟. اقشعر جلده، وتمنى لو لم يكن خياله خصبًا هكذا، أو مدمنًا لقراءة روايات الرعب التي شحذت مخاوفه من كل مجهول.

تحركوا بحذرٍ نحو المقبرة عبر الممر الصخري الضيق الذي يفصل الحفرة عن جدار الكهف، والذي لولاه لما كان ممكنًا دخول القبر، وكل منهم يفكر؛ ما الذي سيحدث لو انهار الطريق أسفل أقدامهم، وسقطوا في الحفرة؟.!

التصقت ظهورهم بالحائط، وكل منهم يقبض على كف زميله حتى وصلوا الجانب الآخر من الممر، فدخلوا المقبرة على الفور. طالعهم الظلام الذي بدده على الفور (فؤاد) بلهيب قداحته، راح يبحث عن المزيد من المشاعل النارية حتى وجدها، فأشعلها. وعلى ضوئها المتوهج؛ شاهدوا معالم المكان الرهيب. صرخ (بهاء) في فزع، وهو يرى جثث الأطفال المقطوعة الرأس، والنجمة الخماسية المرسومة بالطبشور على الأرض، ورؤوس الأطفال داخلها. مصفوفة في شكلٍ رهيب. وهتف (أحمد) وهو يغالب غثيانه: " من أقدم على فعل هذا الأمر البشع؟. إنهم وحوش".

بينما غالب (فؤاد) توتره، واندفع نحو الأجساد الساكنة الراقدة وسط دمائها المتخثرة، وقال: " لقد قتلوا في وقتٍ قريب".

أومأ (طارق) موافقًا، وقال: " طقوس سحرٍ أسود ملعون. لكن السؤال؛ من قام بهذا، ولماذا؟"

بدا سؤالًا بلا إجابة، فتحاشوا النظر للجثث. وانتقلت ابصارهم للمكان نفسه. بدت المقبرة مبهرةً بصورةٍ تفوق الوصف. آلاف الحلي الذهبية، والفضية، والتماثيل، والأواني، والقوارير، وكلها مكدسة على الأرض حول التابوت الحجري بلا انتظام.

فتحه (طارق) وقد استيقظ فيه عالم الآثار، وردد: " يا إلهي. إنها حتمًا تفوق ما وجدوه في مقبرة (توت عنخ آمون) بعشرات المرات. هذه المقبرة هي اكتشاف هذا القرن بل، والقرون القادمة كذلك. يا إلهي. ما كل تلك الآثار؟" .

بدا الانبهار على الكل حتى أنهم لم يشعروا بالوقت الذي يمضي، وعيونهم معلقة بالذهب. قبل أن ينتبه (أحمد) للجثث الثلاث التي جلست بجوار بعضها في وضع القرفصاء، وقد وضعت رؤوسها المذبوحة فوق أعناقها. ذهب الانبهار ثانيةً، وعاد الفزع، وهو ينبهم لها، فذهبوا إليه. وقال (بهاء) في نفور: " ما كل تلك الجثث المذبوحة في هذا المكان اللعين. لم أعد أحتمل. أريد أن أخرج".

تجاهلوه تمامًا، وانحنى (طارق) نحو الجثث. رأى العيون المحترقة المغلقة، والجلد المسود، والذي بدا، وكأنه محروق. نظر إلى الملابس التي تعود لعهودٍ مختلفة. رداء فرعوني، وزي روماني، وجلباب عربي. هؤلاء الجثث ينتمون لعهودٍ مختلفة. لكن لماذا جلسوا هكذا؟. ومن وضعهم في هذا الوضع الغريب؟. كان لا يعلم. سأله (فؤاد): " ما رأيك؟"

أجاب بحيرةٍ، وهو ينهض: " لا أدري. ربما كانوا لصوصًا. لكن من قتلهم؟"

التفت (بهاء) إلى التابوت الحجري الذي تم إزاحة غطائه قليلًا، وقال: " ربما فعله هذا".

كان يشير للمومياء. ارتجفوا من هول الفكرة قبل أن يقول (أحمد) بتوتر: " لكنها ميتة".

وفي الركن المقابل؛ كان هناك بعض الأردية الأخرى المكومة على الأرض. ثلاثة تنتمي لنفس زمن الرداء الفرعوني للجثة الأولى، واثنان من الملابس كانت رومانية، واثنان من الجلباب العربي. وكان الغبار الناعم يملأهما، وكأنما تم تعبئتهما به. بدا الأمر عجيبًا، وخاصة حين بدت إحدى العظام الصغيرة المتحللة أسفل أحد الأردية الرومانية. نهض (طارق) ونظر للجدران. ومنذ الوهلة الأولى؛ أدرك أنها ليست مقبرة معتادة. لا نقوش تصور الحياة الأخرى، ولا نقوش تصور الحياة اليومية القديمة، كما كان معتادًا في كل المقابر. فقط التحذيرات، والتعاويذ السحرية، واللعنات المصبوبة على رأس صاحب المقبرة. إنها مقبرة مخيفة بحق. وبينما تحرك (فؤاد) نحو التابوت الحجري، ونظر إلى المومياء القديمة بداخله، والتي بدت رأسها العارية واضحة من تلك الفجوة التي تم إزاحة الغطاء عنها. تقلصت أمعاؤه في توترٍ، وهو لا يدرى، ما سر ذلك الفزع المميت الذي اكتنفه، وهو ينظر للوجه الميتٍ الذي مازال محتفظًا بكل قسماته الرهيبة. كان صاحب التابوت أصلعًا، نحيفًا، حاد القسمات. وبدت عيناه المغلقتان، وكأنهما عينا رجلٍ نائم، وليس ميت، وشعر بهاجسٍ مرعبٍ يكتنفه. ماذا لو فتح صاحب التابوت عينيه فجأة؟. أبعد عينيه على الفور، وابتعد، وهو يبسمل كي يتمالك نفسه.

هنا انتبه (طارق) لذلك الجدار البعيد. وحين بلغه أدرك أنه قد عثر على بغيته. كان مغمورًا بكامله بالنقوش، والرسوم، والكتابات الهيروغليفية القديمة التي كانت تحيي

القصة المريعة لصاحب القبر. من حسن حظه؛ أنه يعرف تلك اللغة الرائعة القديمة. راح يترجم في شغف. سأله (أحمد) في إثارة: "ماذا تقرأ؟"، لكنه أشار له بكفه في غير لياقةٍ أن يصمت. تابعه الجميع في صمتٍ منتظرين أن ينتهي من ترجمته. ومضى الوقت ببطءٍ في المكان قبل أن يشعر (بهاء) بحركةٍ مفاجئةٍ خلفه، وحين نظر للوراء؛ شهق في عنفٍ، وقال: " لدينا زوار".

نظروا جميعًا نحو باب المقبرة، كان هناك (سليم) وحوله الكثير من رجاله الملثمين، وقد شهر الكل سلاحه، وقال (سليم):

" - لقد كنا بانتظاركم".

رفع (فؤاد) سلاحه بسرعةٍ نحوهم، فقال (سليم): " لا داعي للمقاومة يا حضرة الضابط. سيحيل الرجال جسدك لمصفاة قبل أن تطلق من سلاحك رصاصةً واحدة. لا داعي لإراقة المزيد من الدماء في هذا المكان الذي يحيا بالدماء".

نظر إلى (أحمد) الذي ظل صامتًا قبل أن يمد يده نحو (فؤاد): "سلاحك يا فؤاد بك"!

☆ ☆ ☆

ظل (خليفة) يتساءل عن سر هذه المكالمة الغريبة التي أتته في الصباح الباكر، وما هو الأمر الملح الذي لا يمكن تأجيله، حتى أنه غادر البيت في الصباح الباكر بعد جولات المساء التي كانت تتركه منهكًا كأقصى ما يكون.

غسل وجهه مرارًا ليفيق، وبالكاد كان قادرًا على إبعاد جفنيه عن بعضهما. لماذا الإصرار على اختيار تلك البقعة في أول الغابة للقاء؟. ولماذا لم يخبره في الهاتف بما يريده؟. كان لذكر (أحمد) في الحديث أثرًا كالسحر في نفسه، وخاصة حين أخبره أنه قد وجد حلًّا للخلاص من (أحمد)، وإزعاجه الدائم، لكن مناقشة تلك الأمور يجب أن تكون بعيدًا عن العيون. عشرات الأسئلة كانت تتصارع في عقله بلا جوابٍ في قلب رأسٍ ينبض بالصداع، والألم.

بلغ مشارف النجع، وتوقف في المكان المحدد. دار بعينيه في المكان، فلم يجد أحدًا حوله، كان يعلم أن أحدًا من النجع لن يغادر بيته قبل ساعتين على الأقل من الآن رغم الضياء، فالنجع صار يعيش في الخوف، وكان هذا الأمر يسعده في الواقع، هكذا كانت الأمور في الماضي السعيد، سادة وعبيد، أقوياء يملكون المال، والسلطة، والسلاح، وأتباع يخدمون أسيادهم. لم تؤرقه اللعنة التي أصابت أغلب رجال والده، فما يشعر به من قوةٍ، وما يقوم به من عجائبٍ أقرب للسحر كانت أشياء تروقه. وحتمًا سيأتي يوم تزول فيه تلك اللعنة، لكن أثرها في نفوس باقي النجع ستظل للأبد.

أخرج سيجارةً؛ ليدخنها حتى يتم اللقاء، وبعد أن أتمها تململ في نفاذ صبر. ليس ينتظر النهار كله ها هنا. وحين شعر بحركةٍ من خلفه التفت. ثم انطلقت الطلقة النارية التي أصابت عينيه؛ لتشق طريقها عبر مخه قبل أن تدفع مؤخرة الجمجمة في طريقها بعيدًا عن رأس الشاب الذي كان منتشي بالآمال قبل لحظة.

كان (أيمن) العبيط أول من عثر على الجثة ككل مرةٍ، فانطلق في النجع يصرخ كالعادة: " قتل خليفة." وفي بيت العمدة حمل الأتباع الجثمان المتفجر الرأس، وأرقدوه فوق حشائش الحديقة، ارتمي العمدة على الجثمان، وهو يحتضنه، وينتحب صارخًا: " ابني. خليفة. رد عليّ. كلمني. أخبرني بالجبان الذي فعلها يا ولدي".

بينما هرع الحاج (حمد) نحو البيت، واخترق حشد الرجال الصامت في وجوم، ورأى الجثمان الدامي، فضرب بعصاه في الأرض، وصرخ في غضب: " فعلَها ابن الحاج عبد الكريم. قتله أحمد".

ولولت الأم في ذهولٍ، وهي تقول في غلٍّ لرجال زوجها: " دم (الخلفاوية) كله لن يطفئ نار قلبي. أحضروا القاتل ذليلًا؛ لأنتزع قلبه من صدره، وأنهشه بأسناني؛ لتبرد ناري".

لكن الحاج (حمد) هتف في الرجال الذي ملأ الشر رؤوسهم، وأغشى عقولهم: " بل سأذهب أنا إلى هناك، ولا يقدم أحدكم على أي حماقةٍ حتى أعود".

قالها، وذهب برفقة أحد الرجال في سيارته. وفي منزل الحاج (عبد الكريم) لم يكن الخبر قد وصلهم بعد حين فتش الأب عن (أحمد) فلم يعثر عليه. تساءل في قلقٍ؛ تراه أين ذهب في الصباح الباكر هكذا؟. كان يخشى اندفاعه الذي يذكره بنفسه حين كان في مثل عمره. كان يعلم أن الفتى لن يتوقف إلا حين يفهم ما يدور حوله، لكنه كان يخشى كالموت أن يقحمه في هذا الأمر المهلك. كانت تلميحات أمه (آمنة) ماثلة أمام بصره لا تفارقه.

كان يخشى أن يفقد وحيده.

سمع صوت أمه قادمًا من حجرتها. استند على الجدار دون أن يرتدي الساق الصناعية، ودخل عليها. هنا كانت تنتحب، وتهتف: " لماذا يا أحمد؟. لماذا فعلت هذا؟" سألها في جنون: " وماذا فعل أحمد؟". أشاحت بوجهها بعيدًا، وراحت الدموع تتساقط من عينيها في هدوء. فكر أن يصرخ فيها لتخبره بما تعلمه، لكن القرع الثقيل على باب البيت أوقفه. كانت الطرقات متلاحقة لا تنذر إلا بمصيبة. هرع في قفزاتٍ متلاحقةٍ للخارج، لكن الخادمة العجوز في البيت (أم شحاتة) كانت قد فتحته، وأطل الحاج (حمد) من خلف الباب. كان وجهه كالحًا، وقد خلا من أي ود. أراد أن يرحب به، ويدعوه للدخول، لكن الكلمات اختنقت في حلقه الجاف كالحطب. ووجد الضيف يسأل:" أين أحمد يا حاج عبد الكريم؟"

أجاب بصوتٍ واهن:" ليس هنا، لكن ماذا حدث؟"

أجابه الحاج (حمد): " يبدو أن ابنك قد قتل (خليفة) ابن الحاج (حسنين). يبدو أنه قد نفذ تهديده. لماذا لم توقفه يا حاج عبد الكريم؟. لماذا لم تمنعه؟"

تهاوت ساقه السليمة أسفل منه مع تلك الكارثة الجديدة المنذرة ببحورٍ من الدم قد تفني النجع كله، وتذكر ما حدث بالأمس من هجوم ابنه على بيت العمدة بالسلاح، ومحاولته الحمقاء قتل (خليفة) هناك. تعال نواح العجوز داخل حجرتها في تلك اللحظة، فانقبض قلبه تمامًا، ودارت الأرض أسفل قدمه الوحيدة، فهوى.

☆ ☆ ☆

تحركوا معصومي الأعين، فلم يروا إلى أين يتجهون؟. راحت أيدي خشنة قوية ترشدهم إلى الطرق لوقتٍ طويل، هبطوا، وصعدوا، والتفوا، وتعثروا، وقفزوا، لأكثر من ساعةٍ، ونصف الساعة قبل أن يتوقفوا، ويسمعوا أحدهم يقول: " يمكنكم خلع العصابات من رؤوسكم، لكن لا تفكروا في الهرب." خلع كل منهم عصابته؛ ليروا سجنهم، مجرد فجوةٍ في قلب كهفٍ، أو مغارةٍ، وقد أغلق فتحتها قضبان طويلة، وسميكة من الحديد؛ بينما لم يروا خلف القضبان أي واحدٍ من المطاريد، كما لم يسمعوا أي أصواتٍ تنطلق من الخارج. تبادلوا النظرات العابسة في صمتٍ، ولم ينطق أحدهم. لاحظوا الذئب الضخم الذي جاء من خارج المكان، ورمقهم بتحفزٍ قبل أن يقبع على قائميه الخلفيين، ورأسه مصوب ناحيتهم. توتر (بهاء) و(طارق) وقد أدركا أنه ليس كلب؛ بينما لم يبال (أحمد) به، وهو يفكر في ما يحدث، وهل أقدم (سليم) على حبسه في تلك المغارة بعلم أبيه، أم أنه أخفى الأمر عنه؟. كان الاحتمال الأخير مخيفًا، فهز رأسه، وهو يحاول ألا يفكر فيه. أما (فؤاد) فقد فكر في لحظةٍ، وهو يتأمل الذئب إن كان هو نفسه الذئب الذي واجهه قبل أيام في الظلام. شعر أنه هو بالفعل. إذًا؛ فالمطاريد يستخدمونه، وربما كانوا هم من أرسلوه لمهاجمته في ذلك اليوم. ومن خلفه سمع (طارق) يدمدم في توتر: " هل يحرس هذا الذئب المكان؟."

لم يتلق إجابةً؛ بينما ثبت (بهاء) عيناه على (فؤاد)، وهتف بإحباط: " ذنبي في رقبتك وحدك، ولن أسامحك".

بدت علامات الهزيمة جلية على وجه (فؤاد)، وهو يلتفت برأسه إليه، ومازال بمكانه أمام القضبان، وقال: " إنني اعتذر"!

" - وما فائدة الاعتذار، ونحن على وشك الموت، هل سيعوض هذا أمي عن فقدها ابنها الأكبر، أم سيعوضني أنا عن أحلامي التي كنت أبحث عن تحقيقها؟"!

قالها بهاء ثم أطلق ضحكةً مختنقةً متهكمةً، وأكمل بمرارة: " لم أمت في قلب ميدان التحرير أثناء الثورة، وطلقات الرصاص تملأ الجو، لألقى حتفي في قلب الصعيد بيد المطاريد. يا للحظ! تفرح أمي لأني جئت إلى هنا، وابتعدت عن أحداث الثورة المشتعلة، والمظاهرات كي لا أعود إليها يوما مجرد جثةٍ، أو تراني مسجونًا؛ لألقى حتفي في المكان الذي اعتقدته آمنا!. كوميديا سوداء بحق"!

حاول (أحمد) طمأنته، وقال: " لن يموت أي أحد هنا يا دكتور. إنه مجرد وضع مؤقت"!

لكن نبرته المتوترة، وشت بعدم ثقته في ما يقوله. وعض (بهاء) شفته السفلى في غيظٍ قبل أن يركل الأرض بقدمه، ويهتف: " اللعنة".

أظلهم الصمت ثانيةً، وعقل (فؤاد) يفكر بجنونٍ في طريقةٍ ما للهرب من هذا المكان، وهل سيقتله هؤلاء المجرمين، أم ماذا سيفعلون؟. المنطق يخبره أنه لن يغادر هذا المكان حيًّا مع رفاقه، ليس بعد أن رأى المقبرة بعينيه، ربما ينجو (أحمد)

لقرابته من زعيمهم، لكنه شك أن يلقوا نفس المصير. كان عليه أن يفكر في وسيلةٍ ما للهرب، هز القضبان بيده فتحفز الذئب. بدت القضبان قوية محكمة. شعر أنه عار، وقد جردوه من سلاحه بعد أن فتشوه بدقه. الأمر معقد، وحتى لو نجح بوسيلةٍ ما في إزاحة تلك القضبان، فهناك الذئب، كيف سيتخطونه؟. وماذا لو كان هناك المزيد من الذئاب في الخارج؟. شعر أنه بحاجة للتدخين، مد يده في جيبه؛ ليكتشف أنهم لم يستولوا على سجائره، أو قداحته. أشعل سيجارةً، وأطلق دخانها في بطءٍ من بين الدخان نحو الذئب، ومن خلفه قال (طارق): " بالمناسبة، هؤلاء المطاريد ملعونون"!

نظروا جميعًا إليه، فأكمل في حماس: " هل رأيتم عيونهم الحمراء، إنه نزيف دموي، وهذا من علامات من تصيبه اللعنة".

قال (أحمد) في هدوء: " هذا متوقع. إنهم من عبثوا بالمقبرة مع الحاج (حسنين) ورجال عائلته، ومن الطبيعي أن تصيب اللعنة الجميع. لكن كيف عرفت؟"

" - العلامات، العين الدموية إحدى علاماتها. كل هذا مدون على جدران المقبرة، لقد نجحت في ترجمة أكثر المكتوب عليها".

وصمت لبرهةٍ، وأغمض عينيه؛ ليرتب أفكاره، وانتظره الباقون في صمتٍ قبل أن يقول: " المقبرة أعدت على عجلٍ كما يبدو. مجرد كهفٍ في قلب الجبل لا يمكن الوصول إليه، ثم حصنوه كعادتهم بالأرصاد، والتعاويذ. لا أدري؛ كيف فك هؤلاء المطاريد هذا السحر؟. لكنهم فعلوا. أما القدماء، فقد سجنوا، صاحب القبر فيه. ورغم عجلتهم؛ فإنهم قد قاموا بواجبهم. نقشوا التحذيرات خارج المقبرة، وداخلها. وقام بعضهم بقص الحكاية بإيجازٍ فوق سطح أحد الجدران. بالطبع لا مجال هنا لنقوشٍ تصور حياة الميت، ولا رحلته في العالم الآخر، ولا أي شيءٍ من تلك الأمور المعتادة. إنه رجل ملعون تمنوا أن تتوه روحه في العوالم للأبد".

سأله (فؤاد) ومازال يدخن:" هل هو نفس الساحر الذي حدثتني عنه؟"

أجابه (طارق) في حماس: " أجل. إنه هو بالفعل، وهذا هو الأمر المذهل. لقد اعتقدنا أنه مجرد أسطورة. لكنه بالفعل كان موجودًا. ساحر عاش في الدولة القديمة كما تتحدث النقوش، ظهر فجأة من مجاهل الشرق، والتحق بكهنة أحد معابد (رع) قبل أن تظهر قوى سحرية مبهرة؛ ساعدته في الظهور، ويبدو أنه وصل للملك بوسيلةٍ ما، فقربه إليه وكما تقول الكتابة على الجدران؛ أنه بدأ يظهر الجانب المظلم من شخصيته حينها. لقد سيطر على الفرعون، وقضى على قرى كاملة بشره، وبدأ في تكوين جيشٍ من أرواح الموتى، وكائنات الليل، والظلام، وراح يضم الكثير من الأتباع.

يبدو أن الكهنة كانوا يراقبونه منذ البداية، وخاصة حين أبدى ازدراءه لكافة الآلهة، والكهنة، وبدأ في حجبهم عن أعين الفرعون. وبالطبع كان لابد من أن يقوم هؤلاء الكهنة بشيءٍ ما لوقفه. إما لإنقاذ الدولة، كما كتبوا على الجدار، وإما لإنقاذ مكانتهم

التي راحت تتآكل من أسفلهم؛ ولهذا يبدو أنهم قد نجحوا بصورةٍ ما في الوصول إليه، وهزيمته قبل أن يقوموا بحبسه في مقبرة".

نظروا إليه متعجبين من حماسته؛ رغم حرج موقفهم، لكن (فؤاد) واصل طرح الأسئلة: " كانت أطرافه كلها مقطوعة. هل قاموا بتعذيبه؟"

"ربما، وربما رغبوا في أمرٍ آخر، ربما أرادو إفساد الجسد كي لا تهتدي إليه روحه بعد موته. لقد آمنوا أن الجسدَ السليم شرط لرجوع الروح ثانيةً في العالم الآخر الأبدي، وربما شوهوا الجسد لهذا، أيضًا ربما خافوا أنه ينجح بوسيلةٍ ما من الفرار من سجنه هذا، فقطعوا أوصاله كي يسلبوه قواه".

"لكن المفترض أنِ ساحرهم الملعون هذا قد عاش، ومات منذ آلاف السنين، فكيف يمكنه أن يعود ثانيةً، وما شأن ما يحدث في النجع به؟"

"إنها روحه التي ضلت جسدها. وربما هو شيطانه، وقرينه. سمها ما شئت، لكن قواه مازالت موجودة، ومؤثرة. إنها في المقبرةِ تنتظر من يقوم بفتحها، لكي تلعنه، وتستحوذ على جسده؛ لكي يعود الساحر ثانيةً. ولابد أن الساحر يتمتع كما نرى بقوى خارقة للطبيعة، لقد برع المصريون القدامى في السحر، ورغم هذا أعجزهم هذا الساحر، فلكم أن تتخيلوا مدى قواه. النقوش تتحدث عن لعنته التي تصيب الأحياء، وتلعنهم. وتفتح طريقًا لأرواح الموتى. يبدو أن هذا ما حدث للنجع. لعن كل من دخل المقبرة، وراح أعوانه يقتلون الأحياء في النجع؛ لتجنيد المزيد من الموتى. "

ورغم غرابة التفسير الذي يطرحه (طارق) إلا أن (أحمد) كان أكثر من يدرك؛ أن التفسير صحيح. الحكايات القديمة المنتشرة في النجع عن المقبرة الملعونة، والحكاية المتوارثة عما حدث في النجع منذ قرونٍ حتى أنهم قد أطلقوا عليه (نجع الموتى) تؤكد كلام عالم الآثار الشاب، أضف لهذا ما رآه بعينه في تلك المواكب المخيفة كل ليلة، وكيف كانت تعج بموتى النجع الذين هلكوا في الضباب؟. لذا قال (أحمد): "أنت محق في كل ما قلته، الحكاية نفسها نعرفها في النجع، وتتناقلها العجائز من القدم جيلًا بعد جيل محذرة من المقبرة الملعونة، وساحرها الرهيب".

أجابه (طارق) في حماس: " بالطبع تقول هذا لأنك من أهل النجع، ولابد أنك تعرف القصة المشهورة لنجع الموتى؟"

تناسى (بهاء) مخاوفه، وسأل: " ما حكاية نجع الموتى هذا؟"

هنا أجاب (أحمد) هذه المرة:" إنه اسم نجعنا قبل أن يطلق عليه (نجع الذئاب). إننا أبناء عائلة (دياب) في النجع، نُصر أنه قد أطلق عليه اسم (نجع الذئاب) نسبة إلينا، باعتبارنا أقدم عائلةٍ في النجع؛ بينما يرى أبناء العائلات المنافسة أن الأمر يعود لكثرة الذئاب في النجع، والجبل، ونجاح البعض في النجع في ترويضها رغم صعوبة أمرٍ كهذا، ما علينا من هذا، دعنا نعود لنجع الموتى"..

ثم ابتلع ريقه، وهو ينظر للذئب خارج القضبان، وقال: " لقد كانت جدتي أول من قصت لي الحكاية. فقبل قرونٍ؛ عبث أحدهم بالقبر الملعون. فهلك الحرث،

والدواب، وولد الأجنة مشوهين، ومات الكثير من قاطنيه. وبعد حين اختفى كل سكان النجع، ولم يبق هناك أي كائنٍ حيٍّ واحد. لا بشر، أو حيوانات، أو حتى نبات أخضر. يقولون أن الجثث المتفحمة كانت مبعثرةً في الطرقات دون أثرٍ لحريقٍ بجوارها. هاب النجع الجميع، وتحدث البدو الذين عاشوا بالجوار عن مواكب الأشباح، والموتى التي تجوب أطلاله الدارسة طوال الليل قبل أن يصير النجع بأكمله ساكنًا كالقبور في الصباح. كل من دنا في ذلك الوقت من النجع مات شر موتة. ولهذا تحاشاه الكل، وعدوه مكانًا ملعونًا، وحذروا الكل منه. احتاج الأمر بعض الوقت؛ لتختفي تلك المواكب دون أن يعلم أحد؛ لماذا أتت؟. وكيف ذهبت؟. لكن النجع ظل مهجورًا لسنواتٍ طويلةٍ قبل أن يعود إليه بعض سكانه القدامى الذين كانوا خارجه، حين أصابته اللعنة لسببٍ ما. هؤلاء هم من أعادوا الحياة إليه ثانيةً، وحين مضى الوقت دون أن يصيب سكانه الجدد أي ضرر؛ تناسى الباقون حذرهم، فهبطوا إلى النجع، وعمروه ثانية".

صمت بعدها قبل أن يبتسم بفخرٍ، ويقول: " كان أول من عاد للنجع؛ أحد أجداد عائلتنا. فدومًا كنا نحن سادة المكان".

أشعل (فؤاد) سيجارةً جديدةً، وهو يقول: " هل يعني هذا؛ أن الأمر يتكرر ثانيةً، وأن النجع قد ينتهي، ويموت أحياؤه مرةً أخرى".

أجابه (طارق): " هذا ما يحدث بالفعل يا فؤاد. لقد انطلقت اللعنة، وراحت تحصد الأرواح كما ذكرتكم. القصة الرهيبة القديمة تتكرر بحذافيرها".

"وماذا عن ذلك الساحر؟.. هل يعني هذا أنه قد عاد، ومن يكون؟"

"النقوش تتحدث عن عودته بعد دورة قمرٍ كاملة. هنا ستحل روحه في جسد أول بشري شقي وقع بصره على جثمانه في التابوت؛ ليستعيد قواه كاملة، ويبدأ في قيادة أعوانه ليهلك العالم الذي نعرفه".

اتسعت عينا (أحمد) وهتف بجزع:

"يا إلهي، هذا يعني أنه لم يعد أمامنا الكثير من الوقت. إنني أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي هبط فيه الضباب في النجع، لقد كان في اليوم الأخير من شهرٍ صفر، وغدًا هو اليوم الأخير في شهر ربيع الأول، وهذا يعني أن دورةً قمريةً كاملةً توشك على الانتهاء. مما يعني عودة ذلك الساحر اللعين. عليّ أن أخبر أبي بهذا، وعلينا أن نعرف؛ من كان أول من فتح التابوت؟. يجب أن نغادر المكان قبل أن ينتهي كل أمل. يجب أن يعلموا أي خطرٍ يهدد النجع كله".

قالها، واندفع إلى القضبان الحديدية، وأمسكها بقبضته، ودفع وجهه بينها، وصرخ: " يا سليم. رد عليّ. أريد أبي. أريد الحاج عبد الكريم".

هب الذئب من مكانه بتحفز، وفي اللحظة التالية؛ ظهر من المدخل البعيد للمغارة (سليم) وشخص آخر يسير بجواره، ويعرج بساقه الصناعية. اقترب من القضبان، وقبض عليه بكفيه، وقال: "أنا هنا بالفعل يا أحمد"!

☆ ☆ ☆

أطبق الصمت على الجميع من الناحيتين. زاغت عينا (أحمد) بين أبيه، و(سليم) في حيرةٍ، وغير تصديق، وصمت (فؤاد) و(بهاء) و(طارق) في ترقب، بينما ربت الحاج (عبد الكريم) على أعناق الذئاب التي راحت تدور حوله في احتفاءٍ، وكأنما ترحب بقدومه. في النهاية قال (أحمد) في غضب: " هل رأيت ما فعله (سليم)؟. لقد حبسني"!

"لم يفعل إلا ما أمرته به يا أحمد"!

"إذًا؛ فقد كنت تعلم؟"

قالها (أحمد) في ذهولٍ واستنكار، فأجاب أبوه في حزم: " ما كان عليك أن تتدخل في ما يدور، لقد عقدت الأمور بما فعلته، والأسوأ أنك قد ورطت غيرك في الأمر".

هنا تحدث (فؤاد) من خلف (أحمد)، وقال في هدوءٍ غريب: " هل يدرك كلاكما عاقبة ما قمتم به؟. لقد اختطفتم رجل شرطة؛ إنها جريمة لا قبل لكم بعواقبها مهما أوتيتم من قوة".

أجابه الحاج (عبد الكريم): " أنت هنا لحمايتك يا فؤاد بك، فمهما بلغ خيالك لن تدرك أبدًا أن الهلاك كان بانتظاركم لو واصلتم عبثكم".

"حمايتي من ماذا؟. هل تقصد المقبرة الملعونة، وساحرها الملعون الذي أطلقتم شره بفتحكم المقبرة".

"هذا يعني أنك تدرك أي شرٍّ نواجهه الآن يا فؤاد بك، ولو استمعت لصوت العقل؛ لأدركت أنه من الحكمة ألا يتورط المرء في أمرٍ كهذا".

عاد (أحمد) ليتكلم: "النجع سوف يهلك يا أبي لو لم نتحرك في الغد، نجع الموتى ليس خرافات كما كنا نعتقد، تلك المقبرة تحوي ساحرًا ملعونًا منذ زمن الفراعين، وهو في طريقه للعودة ثانيةً في الغد".

قالها، واتجهت يده نحو (طارق) مردفًا: " الدكتور (طارق) عالم آثار، ولقد قرأ النقوش التي تؤكد عودته بعد دورةٍ قمريةٍ واحدة؛ لو لم ننجح في إيقافه".

التفت الحاج (عبد الكريم) نحو (طارق)، وخاطبه:" وما الذي أخبرتك به النقوش غير هذا يا دكتور؟. هل هناك ما يشير لكيفية درء تلك اللعنة؟"

هز (طارق) رأسه بالنفي، وهو يجيب: " كل ماهناك تحذيرات لا تنتهي من تدنيس المقبرة، وحديث عن شر صاحبها، ربما كان هناك ما يشير إلى كيفية القضاء على تلك اللعنة، وربما عثرت على الحل لو عدت ثانيةً للمقبرة".

قال (سليم) هذه المرة في صرامة: " كلا، هذا يكفي، نعرف جيدًا؛ كيف نعتني بأمورنا؟"

هتف (أحمد) محتجًّا:" بل علينا أن نستمع إليه. إنه الوحيد القادر على ترجمة النقوش، وربما كان قادرًا على مساعدتنا".

أجابه أبوه، وهو يومئ برأسه رافضًا الفكرة: " لا مجال لأن نعرضه هو، أو غيره للخطر يا بني، إنه خطأنا، وعلينا أن نصلحه بأنفسنا".

" - إذًا؛ أطلقوا سراحنا".

قالها (فؤاد) في حزم، فأجابه الحاج (عبد الكريم):" بعد الغد يا فؤاد بك، حين ننتهي من المقبرة، حينها سنطلق سراحكم جميعًا".

هتف الدكتور (بهاء) في رجاء:" بل أخرجوني الآن، وأقسم ألا أتفوه بحرفٍ عما جرى، بل أقسم أن أغادر النجع كله، وألا أعود ثانيةً، ولو كان في هذا إقالتي من عملي، لقد اكتفيت تمامًا من هذا المكان المريع".

قال له (سليم): " ربما كنت صادقًا يا دكتور، ولن تتحدث أو تدس أنفك في الأمر ثانيةً، لكن ماذا عن فؤاد بك؟. هل أنت واثق أنه سيلتزم الهدوء، ولن يحاول التدخل؟"

رمقه (فؤاد) في تحدٍّ قبل أن يتمتم ببطء: " عملي أن أعلم كل صغيرةٍ، وكبيرةٍ في هذا المكان، وألا يحدث أي شيءٍ هاهنا بعيدًا عن نظري".

" - ولهذا نحتفظ بك هنا يا فؤاد بك، أنت وضيفك والدكتور (بهاء)، صدقني لا ضغينة هناك، وأنت هنا لحمايتك في المقام الأول".

قالها الحاج (عبد الكريم)، فرد عليه (فؤاد) ببرود: " أشكرك!. لكن احتجازي لن يمر بلا عقاب".

تجاهله الحاج (عبد الكريم)، ولم يعقب هو أو (سليم)؛ بينما عاد (أحمد) للحديث:" وماذا عني يا أبي؟. هل سأبقى هنا أنا الآخر محبوسًا مثلهم؟"

هز الحاج (عبد الكريم) رأسه في (أسى)، وأجاب:" أنت أول من سيظل هنا يا بني، وأخشى القول أن هذا قد يطول".

" -ماذا؟. ما هذا الذي تقوله يا أبي؟. هل هناك ما تخفيه".

جاء الدور على (سليم) في الكلام، فقال:" لقد قتل (خليفة) بن الحاج (حسنين)".

وقع الخبر على رأس (أحمد) كالصاعقة، فردد بلا وعي: " قتل خليفة؟! متى حدث هذا، ومن قتله؟"

"صباح اليوم، وهناك من يتهمك بقتله، ويطالب بالثأر له منك".

"لكنني لم أقتله، أقسم أنني لم أفعل".

قال الحاج (عبد الكريم) في أسى:" أنا متأكد من هذا يا بني، لكن الفتى قد قتل، وأنت الوحيد الذي هددته بالقتل قبلها، ثم اختفيت بعدها؛ ولهذا فأنت المشتبه الأول أمام (الخلفاوية)".

"لكنني لم أفعلها، يمكنني أن أذهب إلى (الخلفاوية) في عقر دارهم، وأقسم لهم أنني لم أفعل، لقد كنت برفقة هؤلاء مذ الصباح الباكر، يمكنهم أن يشهدوا على هذا".

"لا تسير الأمور هكذا يا بني، من قتله يدرك جيدًا عاقبة ما اقترفه، ويرغب حتمًا في إشعال حربٍ بيننا، وبين (الخلفاويه)، ولهذا أنت هنا؛ كي تظل في أمانٍ حتى تهدأ العاصفة، ونجد من فعلها".

عاد الصمت؛ ليخيم على الجميع للحظات، وبينما راحت عشرات الأفكار تتصارع في رأس (أحمد) وهو يفكر في (خليفة) الذي قتل، وهو يتساءل بلا جدوى عن من يكون قد فعلها، ظل أبوه يرمقه في إشفاقٍ، وقلبه مليء بالخوف عليه، لم يخبره بما تخشاه نفسه، لم يحدثه عن مخاوفه في أن يفقده، تلك المخاوف التي غذتها أمه (آمنة) بتلميحاتها المبهمة، ودموعها التي صارت لا تنقطع، تمنى لو يخبره أن السبب الحقيقي في احتجازه هنا ليس كل ما قاله، بل خشيته أن يصيبه أذى لو دس أنفه في شأن المقبرة الملعونة، في النهاية أمامهم في الغد معركة غير مضمون بأي حالٍ النصر فيها، وآخر ما قد يريده هو أن يشترك ابنه الوحيد في تلك المخاطرة. في تلك اللحظة؛ انتبه (أحمد) لشيءٍ أخيرٍ، فقال بحذر:

"وما شأنك بالمطاريد، أو المقبرة يا أبي؟ ولماذا أنت هنا الآن برفقة (سليم)".

أجابه (فؤاد) متهكمًا: " اعتقدت أنك أكثر ذكاءً من أن تطرح سؤالًا كهذا يا أحمد، ألم تدرك حتى اللحظة أن أباك يعمل مع المطاريد؟"

ابتلع (أحمد) ريقه في صعوبةٍ؛ بينما تبادل (سليم) النظر مع الحاج (عبد الكريم) قبل أن يقول الأول:

"لقد أخطأت يا فؤاد بك، الحاج (عبد الكريم) لا يعمل مع المطاريد".

وصمت لحظةً؛ ليرى أثر حديثه في وجوههم قبل أن يكمل:

"إنه زعيم المطاريد"!

☆ ☆ ☆

هوت كلمات (سليم) على رؤوس الجميع كالقنبلة، بدت المفاجأة للحظةٍ أكبر من الاستيعاب، هل يكون ذلك الرجل المسن ذو الإعاقة الدائمة هو الزعيم الخفي للمطاريد؟. كان (أحمد) أكثر الجميع ذهولًا، وهو يرمق أباه بعينين متسعتين، وخلجاتٍ ترتعش، وهو يمني نفسه بلا جدوى أن ينفي أبوه ما قاله سليم؟. لكن الأب ظل على حاله صامتًا. أشعل (سليم) سيجارةً، وهو يرمق الكل بعينين ميتتين كعادته، في النهاية؛ غمغم (أحمد) بغير تصديق" :

هذا غير حقيقي يا أبي، أليس كذلك؟"

حدق أبوه في عينيه في هدوء، وواصل الصمت لبرهةٍ قبل أن يقول في هدوء:" كان الأمر حتميًّا يا بني، لو لم أفعلها منذ عقود لفعلها أحد آخر، ولعدنا ثانيةً أسرى شرور المطاريد كما عانينا طويلًا قبلها".

"لا أصدق أنك قد أخفيت عني كل تلك السنوات هذا النبأ العظيم، أنت زعيم المطاريد؟! الرجل الصالح كبير أكبر عائلة في النجع، والذي لا يترك نافلةً، ولا فرضًا هو في الحقيقة زعيم أكبر تنظيمٍ إجرامي في الصعيد بأكمله!

والآن ماذا تنتظر مني يا أبي؟. أن أتقبل الأمر وأصمت، أم تراك تعتقد أن خبرًا كهذا سيجلب السرور لصدري؟

"لا أنتظر منك أيًّا من هذا، فقط كن ولدًا صالحًا، واستمع قبل أن تصدر أحكامك".

"بالطبع كلي شوق لأسمع، هيا أخبرني يا أبي؛ لماذا صرت هكذا؟"

تبادل الحاج (عبد الكريم) النظر مع (سليم) الذي تكلم هذه المرة:" لقد قتل المطاريد جدك"!

" - الكل في النجع يعلم هذا، ولقد انتقم رجال النجع منهم حينها".

عاد الحاج (عبد الكريم) للحديث، وقال: " لم تكن هذه هي البداية يا بني، لقد بدأ الأمر قبل زمنٍ بعيدٍ حين جذب الجبل الأشرار والمجرمين، بدا لوعورته، وصعوبة اختراقه ملاذًا آمنًا لهم، تجمع هؤلاء الأشقياء، وتحالفوا، وفي النهاية بدأت شمس المطاريد في البزوغ، راحوا يهددون الجميع، ويفرضون سطوتهم على كل شبرٍ في المكان، بالطبع قاومهم أجدادنا كثيرًا، ومات منا، ومنهم الكثير، لكن خسارتنا كانت دومًا هي الأفدح، في النهاية كانوا مجرد طغمة من الأوغاد لا ثمن لحياتهم، وكلما ذهب أحدهم جاء شقي غيره، بينما كنا نخسر في كل معركةٍ معهم خيرة أبنائنا، حتى مالت أغلب العائلات للرضوخ لبأسهم، رأى الكل أن الخضوع لهم، ومنحهم الإتاوات، والمال؛ خير من فقد الأبناء".

"وماذا عن كرامتنا يا أبي؟ أليس لها ثمن؟ ألا تستحق القتال، والموت في سبيلها؟"

"يا بني، كان الأمر أكبر مما تقوله، إنهم لم يقاتلونا حينها كالرجال وجهًا لوجه، بل كانوا كالضباع، يتربصون بنا، ويأتوننا حين غرة، يغيرون على المسافرين، ويقتلون الرجال، ويهلكون الدواب، ويحرقون الأرض، ويسممون الآبار، كان الأمر كالكابوس، خاصة وقد كان لهم حلفاؤهم داخل النجع".

"الخلفاوية بالطبع، أليس كذلك؟"

ابتسم الأب في أسى، وهو يجيب:" بلى، يبدو أنهم رأوا أن في تعاونهم مع المطاريد تعزيزًا لبأسهم في مواجهتنا، كنا وهم كحصانين في حلبة سبق، كنا نفوقهم بأسًا، وعددًا، وكانوا يفوقونا مالًا ودهاء، وحين اتحدوا مع المطاريد تقدموا السبق".

"وهل كان (الخلفاوية) من أوعزوا للمطاريد بقتل جدي؟"

"لا أظن هذا، فرغم كل العداوات القديمة التي تجمعنا؛ كان من المستحيل الإقدام على شيءٍ كهذا، فجدك هو كبير (الخلفاوية)، ولديه من الرجال، والمال، والقوة ما يشعل حربًا، في الحقيقة كان الأمر من تدابير القدر، أغار المطاريد حينها على النجع لتحصيل إتاوتهم ممن تأخر، وكان من بين هؤلاء جار ضعيف لجدك، لم يقدر

على دفع الإتاوة، فرأى هؤلاء الأوغاد أن يأخذوا طفله كرهينةٍ حتى يدفع، استنجد الرجل بجدك، فهب لنجدته، طالب المطاريد بترك الطفل متعهدًا بدفع المال عن الرجل، لكن كبير المطاريد سخر من جدك، وأمره أن يصمت، كانت الإهانة أكبر من أن يبتلعها جدك، فرفع سلاحه، وأردى ذلك الوغد من فوق حصانه".

"إذًا، فقد قتل جدي زعيم المطاريد؟"

"أجل، لكن رجال ذلك الملعون قتلوا جدك في نفس اللحظة، كنت في مثل عمرك حينها، وبالطبع لم أبق ساكنًا، رفعت السلاح، ورحت في جنونٍ اصطادهم، وأنا أصرخ في الرجال ألا يفلتوا أحدًا منهم، كنا نقاتلهم يومها للمرة الأولى وجهًا كوجه، وكان الغضب، والثأر هو ما يحركنا، يومها نجحنا في القضاء على أغلبهم، ومن بقي منهم هرب بعيدًا، ولم يعد للجبل مرةً أخرى".

بدت الحكاية مثيرة، وشعر (أحمد) بالفخر، وهو يسمعها من فم أبيه للمرة الأولى رغم أن تلك الحكاية كانت تتردد في النجع، وتحكيها العجائز كيومٍ عظيمٍ من أيام النجع، لقد كان أبوه بطل ذلك اليوم، ورغم حداثة سنه حينها، كان هو الرجل الذي قضى على المطاريد، حبس أنفاسه من الإثارة للحظةٍ قبل أن يقول، وقد عاوده الغضب: " وبعدها فكرتكم أن تحلوا أنتم محلهم، وأن تنشئوا أنتم عصابتكم بدلًا منهم".

أجابه (سليم) هذه المرة:" لم نفكر في شيءٍ كهذا حينها يا (أحمد)، لقد اعتقدنا يومها أننا قد قضينا عليهم، ومضت بضع أعوام قبل أن نعلم أن بعض اللصوص، والأشقياء القدامى قد بدأوا ثانيةً في تنظيم صفوفهم، واتخذوا الجبل مرةً أخرى، وكرًا لهم بمباركةٍ من (الخلفاوية) الذين أمدوهم بالمال، والسلاح".

قال الحاج (عبد الكريم) معقبًا: " لم يكن الصمت ممكنًا أمام أمرٍ كهذا، لقد انتهى الكابوس بخسارةٍ عظيمةٍ لنا، وهي فقدان جدك، ولم يكن مقبولاً أن نسمح لهؤلاء الضباع بالعودة ثانيةً، كنت حينها قد فقدت قدمي، وكان (سليم) حينها هو ساعدي الأيمن، فكرنا طويلًا في الحل، هل نصعد الجبل، ونطردهم منه، أم نحاول استمالتهم بالأموال؟"

هز (سليم) رأسه في رفضٍ، وقال: " لو طاردناهم، ونجحنا في تشتيتهم هذه المرة، فما الذي يمنع أن يعود غيرهم مرةً أخرى، والجبل كما هو لم يتغير، وهو يبدو كأفضل ملاذٍ، وأمنٍ مكان لأي رجل مطارد".

وتمتم الحاج (عبد الكريم) مكملًا:" كما كان من المستحيل؛ أن نضع أكفنا في يد هؤلاء الأفاقين الذين تسببوا في مقتل أبي؛ لهذا كانت فكرة استمالتهم بالمال كما يفعل (الخلفاوية) غير مقبولة".

هنا تقدم (فؤاد) الذي ظل صامتًا طوال الوقت، وهو يستمع للحكاية في فضولٍ، وقال معقبًا: " وكان الحل المنطقي هو؛ لماذا لا تنظمون أنتم المطاريد، وتكونون أنتم العصابة كي لا تكون هناك فرصة للآخرين؟"

ابتسم الحاج (عبد الكريم)، ونظر لـــ(فؤاد)، وهو يجيب:" هذا بالفعل ما فكرنا فيه، لماذا لا نصنع نحن المطاريد؟. ولماذا لا نقودهم بأنفسنا بدلًا من أن يفعل أحد آخر، على الأقل سنكون في مأمنٍ من شرهم هذه المرة".

أطبق الصمت على الجميع بعدها لبرهةٍ، والكل يحاول استيعاب الأمر، لم يبد الأمر معقولًا في رؤوس اغلبهم، وقال (طارق) مستنكرًا: " هل تعني أنكم عدتم لإنشاء، وتنظيم المطاريد فقط؛ كي لا يفعلها غيركم؟"

انتهى (فؤاد) من إشعال سيجارته في تلك اللحظة، ثم تولى الإجابة عن (سليم) والحاج (عبد الكريم) قائلًا: " أعتقد أنه لا حل آخر كان أمامهم في ذلك الوقت، بالطبع لا أوافق للحظةٍ على ما قاموا به، لكن أعي جيدًا مبرراتهم، الجبل كان، وسيظل مأوى لقطاع الطرق والمجرمين والهاربين من القانون، وهؤلاء كانوا دومًا مصدر تهديدٍ للنجع وإذلالٍ لأهله، إذًا الحل الوحيد هو أن يقودوهم بأنفسهم، على الأقل يأمنون شرهم، وتصير تحركات هؤلاء الأشرار أمام أبصارهم".

كانت كلماته منطقية حتى أن (سليم) هز رأسه موافقًا على كلماته؛ بينما جاهد (أحمد) ليتقبل تلك الفكرة، راعه أنه هو الآخر كان يتقبلها، فحاول بسرعةٍ أن ينتزع نفسه من التفكير في قبولها، وهتف: " ولماذا لم تخبر الجميع يا أبي، أنك الزعيم. لماذا جعلت (سليم) في الواجهة؟"

أشار أبوه إلى الساق المبتورة، وقال:" وهل يصلح رجل بساقٍ مبتورةٍ؛ ليقود ضباعًا لا تؤمن إلا بالقوة، لم أكن لأرهبهم لو حاولت يا بني، لقد كنت حينها كبيرًا للعائلة بوفاة أبي، وكنت قد تزوجت من أمك، وأنجبتك، كان من العسير أن أنتزع نفسي من كل هذا؛ لأذهب إلى الجبل، وأعيش بين الذئاب".

" - وكان (سليم) هو الرجل المناسب لهذا".

ربت الحاج (عبد الكريم) على كتف (سليم) الذي ظل وجهه جامدًا كقناع من الشمع، وهو يقول: " إنه ابن عمي، وأكثر الناس إخلاصًا لي، وقد تربينا سويًّا في كنف أبي، كما كان يمتاز بالبأس والقوة، لم يكن هناك ما يربطه بالنجع غيري، وقد فقد أبواه، وهو صغير، ولم يكن قد تزوج، عرضت عليه الفكرة، فوافق. أمددته بالمال، والسلاح، وبعض الرجال، ورحل إلى الجبل حيث راح يجمع الأعوان للعمل تحت إمرته، سمع الكل بخبره، وتجمع المطاريد من حوله ثانيةً، وصار أمام الجميع هو الزعيم لهم".

" - لكنك كنت من يقودهم في السر".

قالها (أحمد) متهكمًا، فأجابه (سليم) في صرامة: " لم أقطع أمرًا أبدًا بغير مشورة أبيك، إنه الكبير هنا، وفي النجع، وفي أي مكان".

هز (أحمد) رأسه، وصرخ بصوتٍ مخنوقٍ رافضًا الفكرة كلها:" لا أتخيل أن تلجأوا للشر فقط كي لا يقدم عليه غيركم. ولا أتخيل أن أبي من خطط لكل هذا".

اندفع (سليم) في غضبٍ حقيقي، وقد أظلم وجهه نحو الباب الحديدي، وضربه بكفه بقوةٍ كادت تقوضه، وهو يهتف: " تأدب في الحديث يا فتى مع أبيك، إنه كبيرك، وأبوك".

أشار له الحاج (عبد الكريم) بالهدوء، وهو يقول: " أي شرٍّ تتحدث عنه يا أحمد، إننا نحكم المطاريد منذ أكثر من عشرين عامًا، ومع هذا لم نقطع الطريق يومًا على رجلٍ واحد، لم نقتل أحدًا، ولم نفرض إتاوةً على أي مخلوق، ومع هذا نحمي النجع من أي دخيلٍ، أو عدو، أي شرٍّ هذا الذي قمنا به في هذا؟"

كان هذا صحيحًا، فبالفعل لم يقدم (سليم)، أو رجاله يومًا على اغتصاب حق أحدٍ ما في النجع، فقط كانت تدور بعد المناوشات من حينٍ لآخر، لكن الغرض منها ظل دومًا بسط النفوذ، واستعراض القوة، كل هذا يعلمه كل أحد. لكنه لا يدري لماذا يرفض فكرة أن أباه هو زعيم هؤلاء، ومن خلفه قال (فؤاد) في هدوء: " وماذا عن تجارة الآثار، والمخدرات؟. أليست أعمالًا إجرامية؟"

التفت إليه (سليم)، وقال ببرود: " علينا أن ننفق على الرجال، وأن نوفر لهم مصدر دخلٍ يبعدهم عن الإجرام أيها الضابط".

ردد (فؤاد) في عناد: " في النهاية عمل غير شرعي، ومال غير شريف".

ربما تراه هكذا، وربما نراه غير ذلك، هذا يعتمد على الزاوية التي تنظر بها للأمور".

أراد (فؤاد) مواصلة الجدال، لكن (أحمد) قاطعه قائلًا:" وماذا عن الخلفاوية؟ لماذا تحالفتم معهم، وكنتم في غنى عن هذا".

تنهد الحاج (عبد الكريم) قبل أن يقول في بطء:" وهل كنت تنتظر أن نقاتلهم حتى نبيدهم مثلًا".

" - ولِمَ لا؟ ألم يتسببوا في بتر قدمك؟ ألم يتحايلوا على قتلك؟ ألم يعاونوا المطاريد الذين قتلوا أباك. إنهم عائلة لا تعرف إلا الشر، وخير للنجع أن يحيا بدونهم".

ابتسم الحاج (عبد الكريم) في إشفاقٍ، وهو يتمتم:" لقد فعلوا ما هو أكثر مما ذكرت. قتلوا، وشردوا، وحبسوا، وأذلوا الكثير في النجع، إنهم أنذال، والنذل عبد إذا اتبع، فاجر إذا ملك. لكن هذا لا يعني أن يتقبل أحد في النجع فكرة طردهم منه، أو قتالهم. الدم يا بني، لا يتمخض إلا الدم، وكل نفسٍ تموت تورث لعنتها لمن قَتَل، ومن شَهِدْ ولم يتدخل. نزق الشباب واندفاعهم لا يفلح في الحكم لو حركه الغضب، وتوق الانتقام".

"وهل الصواب أن نشاركهم أعمالهم، ونتحالف معهم؟"

"نحن لم نتحالف معهم، لقد حصرناهم في مربعاتٍ محدودةٍ، وأضحت كل خطواتهم بعلمنا، صدقني يا بني، أقصى عقاب يمكن أن توقعه لأحد الثعالب، أو الضباع هو أن تحوله لحيوانٍ داجن".

في سره؛ أدرك (فؤاد) أن الرجل ورث كثيرًا من لقبه، الرجل ذئب عجوز بالفعل، ويدرك جيدًا ما يفعله، ولقد راقه دهاء الرجل كثيرًا. لكن هذا بالطبع لا يمنعنه أن يسأله عن مصيره، فقال بصوتٍ محايدٍ لا أثر للخوف في نبراته:

"والآن؛ ماذا ستفعلون بنا؟"

تمهل الحاج (عبد الكريم) في الإجابة: " لا شيء، سنطلق سراحكم بالطبع، ولكن ليس قبل مساء الغد، أمامنا عمل علينا أن ننهيه أولًا، وبعدها يمكنكم المضي".

همس (طارق) في فضولٍ، وترقب: " سوف تحاولون القضاء على لعنة المقبرة".

" - لا سبيل أمامنا غير هذا"!

هتف (طارق) في حماسٍ، وإثارة: "لماذا لا تصحبوني، يمكنني أن أكون مفيدًا، وأنا الوحيد القادر على قراءة الهيروغليفية، فالأمر لا يصدق، وتلك هي المرة الأولى منذ آلاف السنين التي نلاقي فيها لعنة حقيقية، سيكون مجدًا ما بعده مجد لو شهدت تلك الأحداث".

أجابه (سليم) في خشونة:" الأمر ليس نزهةً أيها الغريب. إننا نغامر بأعمارنا، ولا أحد يدري هل نعود من تلك المغامرة، وننجح، أم لا؟"

" - إنني أتقبل عاقبة الأمر مهما كانت، ولا أخشى"..

لكن الحاج (عبد الكريم) قاطعه في حزم: "كلا، الأمر هو شأننا فقط، ولن يصحبنا أحد، أنتم هنا ضيوفنا حتى الغد، وعندما نعود ثانيةً؛ سنتركم، وحتى لو لم نعد، فسوف يأتي من يخرجكم من هنا".

بدا أنه اتخذ قرارًا لا رجعة فيه، فاستسلم الكل للصمت قبل أن يغمغم (أحمد): " وماذا عني يا أبي؟"

أشاح أبوه بوجهه بعيدًا، وهو يقول: " لو لم نعد، فهذا يعني أن دورك قد أتى يا بني؛ لتخلفني".

قال (أحمد) بحذر: " أخلفك في ماذا يا أبي؟"

" - ستصير كبير للعائلة في النجع، وزعيمًا للمطاريد من بعدي".

وبينما امتقع وجه (أحمد) في غير تصديق، خفض من صوته، وهو يهمس في سره:" هذا لو ظل هناك نجع، وبشر حينها".



بدا المساء في تلك الليلة غير كل مرة، راحت عشرات ألسنة اللهب تضرب صفحة السماء المكفهرة فوق النجع بلا انقطاع، واهتزت الأرض أكثر من مرة. هبط الضباب مبكرًا هذا اليوم قبل حتى أن تختفي الشمس في الأفق، أو يكتمل الظلام، قبل أن تظهر المواكب الليلية للموتى، والملعونين، حيث راحوا يجوبون الشوارع كما اعتادوا كل يومٍ، وهم يرددون ترانيمهم الغامضة المخيفة، بدا أن هناك شيئًا

خطيرًا يوشك أن يحدث. كل واحدٍ في النجع شعر بهذا، لكن القليلين هم من أدركوا الحقيقة، إنها الليلة الأخيرة، وفي الغد سيبعث سيدهم الملعون ثانيةً. انقطعت الأنفاس خلف الجدران، والأبواب، وهبط الفزع في كل القلوب، وفي تلك الليلة كان من المستحيل على أيهم أن يعرف طريقًا للنوم، فحتى لو أراد هذا لم يكن هذا ليحدث مع كل الصخب الذي تمارسه تلك الكائنات الملعونة في الطرقات.

وفي منزل (مريم) أحكمت الفتاة غلق غرفتها بالمفتاح من الداخل، وراودها شعور ملح بالنشوة، شعرت بالنداء الغامض الذي يدعوها للحاق بركب الملعونين، والموتى، وهو يتردد في أعماقها، لم تشعر بالفزع ككل مرة، بدا وكأنها تنتمي بصورةٍ ما لما يحدث، وقفت أمام النافذة الزجاجية، وهي ترمق الضباب الكثيف الذي يغطي الفضاء بأكمله. مضت بضع دقائق قبل أن يظهر شبح أبيها الراحل من خلف النافذة، وهو يسبح في الفراغ، ويرمقها بعينين صفراوين ميتتين. لم يكن هناك مكان للفزع منه، وشعرت، وكأنها تنتظره؛ راحا يتبادلان النظر في صمتٍ لبعض الوقت، ثم راح فم أبيها المظلم يردد نفس الترانيم التي ترتفع من خلفه، وكالمسحورة وجدت نفسها تفتح فمها، وتردد نفس الأغنية الحزينة الغامضة التي يتغنى بها موكب الموتى، هنا ظهر (خليفة) من وراء أبيها، (خليفة) الذي قتل بالأمس، ثم دفنوه، بدا مختلفًا أمام عينيها، لم يعد واحدًا من الملعونين هذه المرة، بل صار من حشد الموتى، مثلما صار أبيها، راح جسده يسبح في الفراغ هو الآخر مثل شبح أبيها دون أن ترى الابتسامة الساخرة التي ظل يرميها بها من قبل.

لم يكن خليفة، وأبوها هما المهتمان بنافذتها فقط في هذا الوقت، فبعد برهةٍ ظهر العشرات من الموتى، والملعونين أمام بصرها. اصطفوا في صفوفٍ عده أمام منزلها، ونافذتها، وراحوا يرددون تراتيلهم الملعونة في قوة، شعرت (مريم) معها أن الجدران نفسها تهتز من قوتها. راحت ترفع عقيرتها بالتراتيل معهم. انشقت الصفوف الملعونة عن واحدٍ من الملعونين، تقدم نحوها، وهو يخطو بقدمين شبحيتين في الهواء، ويرتفع نحو نافذتها، تراجع شبح أبيها، و(خليفة) وامتلأت النافذة بكيان الرجل، كانت تعرف من يكون، لكن ملامحه حملت وجهًا أكثر قسوةٍ، وقد بدت عيناه الصفراوين أكثر شرًا من أي عينٍ أخرى من الملاعين، توقفت التراتيل بغتةً، وساد صمت بدائي مخيف. بدا وكأن الأصوات كلها تلاشت من العالم أجمع، وبكف تحمل أصابع ثلاث أشار نحوها، وجدت نفسها تتحرك نحو خزانة ملابسها، وتفتحها، ومن بين طيات ملابسها المرتبة؛ أخرجت الخنجر العجيب الذي أتاها من أحلامها، ثم عادت لتقف أمام النافذة، كشفت بعدها صدرها، فظهر الوسم الملعون، دارت الكف الشبحية، ورسمت دائرةً وهميةً خارج النافذة، فاستجابت لتلك الحركة بأن وضعت شفرة الخنجر على صدرها، وراحت تستكمل به حفر ذلك الوشم الملعون في صدرها.

العجيب أن جروحها العميقة التي راحت تحدثها لم تخلف أي أثرٍ للدماء، بل ولم يكن هناك أي ألم، فقط نشوة لا حد لها، ورغبة في إتمام ما تفعله، عادت التراتيل حينها مرةً أخرى، ولم تبالِ بالطرقات العنيفة التي كانت تحدثها أمها على بابها، وهي تناديها في رعبٍ، وقد رأت عبر نافذة الطابق السفلي أن الملاعين، وأشباح الموتى

يحاصرون منزلها، صرخ الطفل فزعًا، فأسدلت الستائر في فزع، وراحت تبسمل، وتحوقل في رعبٍ قبل أن يراودها شعور مبهم بأن ابنتها في خطر، فتحمل صغيرها، وتهرول على الدرج صاعدةً نحو حجرة (مريم) لتجد الباب مغلقًا، هنا راحت تناديها في جنونٍ، ولوعة، وتطرق الباب بلا هوادة، لكن (مريم) لم تجبها قط، ولم تفتح الباب، بل ولم تسمع حتى أي طرقاتٍ، أو صراخٍ تصدره أمها، أو أخوها الصغير، كل ما كان يملأ أذنيها في تلك اللحظة هو التراتيل الملعونة التي أضحت ترددها مع الموتى، وكل ما يملأ عينيها كان الكيان المهيب التي صارت تدرك الآن من يكون.

أتمت نقش الوسم على صدرها، فراح يتوهج بوهجٍ ناري منذر، هنا هز السيد رأسه في رضا من خلف النافذة الزجاجية التي ظلت مغلقَة، وللمرة الأولى؛ ابتسم وانفرجت شفتيه عن كلماتٍ قالها بنفس اللغة القديمة، لكنها فهمت ما يقول: " لقد حان الوقت أيتها الأميرة".

وفي اللحظة التالية؛ امتدت كفيها نحو زجاج النافذة، وفتحته على اتساعه، وكأنها تدعوه؛ ليدخل، فاتسعت ابتسامة السيد في رضا.



عوت الذئاب بالخارج، فلم يهتم، كان يدرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت، سنوات طالت أكثر مما ينبغي، وهو ينتظر، وها هي الليلة ستشهد النهاية، نهايته، أو نهاية تلك اللعنة إلى حين، كان أكثر من يدرك أن ذلك الساحر الفرعوني لا سبيل لدحره للأبد إلا بعدم الاقتراب من قبره، فطوال آلاف السنوات كانت روحه الغاضبة تحوم، وتتخبط في جدران محبسها في انتظار من يحررها، وكل بضعة مئات من السنين كان هناك من يتعثر بالقبر، مدفوعًا بالطمع في كنوزه الملعونة حينًا، أو مدفوعًا بقوى شريرة مجهولة كانت ترشده لمكان المقبرة أحيانًا أخرى، مرات عدة هلك النجع بسحر ذلك الساحر الملعون، وأتباعه، مرات عده تحول النجع لنجع للموتى لا مكان للأحياء فيه، وحتى قبل أن يكون النجع نجعًا؛ كان الهلاك دومًا حاضرًا، وكان أجداده دومًا بالجوار ينتظرون، كان ينتمي لعائلةٍ من الكهنة القدماء، عرف هذا منذ زمنٍ بعيد، علمه بالأحلام، والرؤى التي راحت تهاجم عقله حين بلغ الخمسين من عمره، علم أن جده الأعظم كان كبير الكهنة الذي نجح في هزيمة هذا الساحر الملعون، وحبسه في تلك المقبرة البعيدة، وتحصينها بالطلاسم، والتعاويذ، وبقوى غامضة امتلكها الأجداد، وتوارث أبناء العائلة المهمة العظمى، كان عليهم مراقبة القبر من بعيد كي يكونوا هناك لو عاد الساحر ثانية، كان الأخير من نسل هذا الكاهن الفرعوني، وكان دوره أن يدحر هذا الشر للمرة الأخيرة، لكن الزمن طال، والعمر قد تقدم به كثيرًا، فضعفت قواه، وهزل جسده ونحل، تخطى عمره الأعوام المائة بكثير، وصار الموت أدنى إلى روحه من أنفاسه التي يلتقطها، أدركه اليأس، وهو يرى في الصحف القديمة التي يمارس عليها السحر علامات قرب عودة الساحر، لكن الصحف لم تخبره بالزمن الفعلي لهذا. واليوم قد حان الوقت، وها هو في كهفه ينتظر رجال (سليم) كي يذهبوا به للمقبرة، يعلم أنه في كل الأحوال لن

يعود حيًّا، لكن هذا لا يهم الآن، لقد اشتغل لأعوام لا تحصى بالسحر، واتصل بكل القوى الشريرة والمظلمة، عبث بطلاسمٍ مهلكة، وحارب شياطين لا قبل لأحدٍ بها.

هذا عمل السحرة الحقيقيين في النهاية، والسحرة الحقيقيين قبيلة من البشر لا تبلغ أبدًا نهاية أجلها، فأكثرهم يهلك بسحره، أو بيد البشر من حوله.

كان يدرك أن أتباع ذلك الملعون يحومون حوله في تلك اللحظة، يحاولون مهاجمته، والفتك به، كان الظلام في المغارة حالكًا في الحقيقة، ولم يكن هناك من أي ضوءٍ في هذا العالم بقادرٍ على تبديد تلك الظلمة القادمة من أعماق الجحيم نفسه، ظلت عشرات الأشباح، والكيانات تزأر في أذنه متوعدةً، ومهددة، ولولا ذلك العلم الذي توارثه، وتلقنه من أشباح أجداده لهلك منذ اللحظة الأولى. شعر باقتراب رجال (سليم) وتناهت لأذنه أصواتهم القادمة من بعيد،

إذًا؛ فقد أتوا. كان عليه أن يخرج هو لهم، فتلك الأشياء الملعونة من حوله سوف تقضي عليهم في لحظةٍ لو اقتربوا من قلب المغارة، نهض من مكانه، وقبض على صولجان يحمل رأس صقرٍ من الذهب الخالص، ورفعه فوق رأسه، ثم أغمض عينيه، وراح يطلق تعاويذه، انبثق ضوء قوى من رأس الصولجان، صرخت الأشباح، وارتفع هسيسها، لكنه واصل تعاويذه، لا وقت لهذا الهراء الآن. مضت دقائق قبل أن يذهب الظلام تمامًا، ويحل في المغارة ضوء مبهر قادم من الصولجان الذي بيده، والذي صار كشمسٍ ساطعةٍ في تلك اللحظة، نظر إلى نفسه في مرآةٍ شاحبة على أحد الجدران، فأدرك أنه لم يعد الشيخ (عتمان)، كان رجلًا آخرًا من زمنٍ سحيق، رجل أوتي من علم الكهانة، والسحر ما لم يؤت أحد آخر مثله. الرأس صار أصلعًا يلمع بالزيت، والعينين واسعتين لا أثر للتجاعيد حولها، والأنف مستقيم، والفم مزموم بقسوةٍ، وحزم. سمع صوت الرجال بالخارج ينادونه باسمه، فهبط بالصولجان فخبا ضوؤه، واستعاد صورته الأولى، عاد ثانيةً لصورة الشيخ (عايد) الضعيف الهالك. تحرك بوهنٍ للخارج، وهناك أشار لهم أن يحملوا أغراضه التي أعدها، ثم امتطى حصانًا جلبوه له، ومازال صولجانه في يده، وانطلقوا بعدها في صمت، تتبعهم ذئابه.



أطبق على المكان صمت عجيب مفاجئ، وخلا من أي صمتٍ آخر غير أصوات تنفسهم، ودبيب أقدامهم داخل سجنهم الحجري، كان (فؤاد) أول من شعر بهذا، فهتف في رفاقه في حزم: " صمتًا، ولا تحدثوا أي صوت".

رمقه (طارق) و(بهاء) في دهشةٍ، وهمس الأول: " هل حدث شيء؟"

" - يبدو أنهم قد رحلوا، لا أسمع أدنى صوتٍ يشير لوجودهم في المكان".

رمقه (بهاء) في حيرةٍ، وهو يدير وجهه في المكان الخالي، وتمتم: " ربما ينتظرون بالخارج".

هز (فؤاد) رأسه في نفي، وهو يجيب:" كلا، فحتى حين كانوا بالخارج كانت الأصوات، والجلبة التي يحدثونها تصلنا إلى هنا. والآن لا يوجد أي صوتٍ آخر في المكان غيرنا".

انتبهوا لملاحظته في دهشةٍ، وحبس الجميع أنفاسهم في ترقب، وتجمدوا في مكانهم كالتماثيل، وأنصتوا، بالفعل المكان كان ساكنًا كالقبور، في تلك اللحظة رفع (أحمد) رأسه التي كان يحملها بين كفيه، وهو قابع في ركنٍ بعيدٍ من المكان، وقال: " لقد رحلوا من أكثر من ساعة، وقد رافقتهم الذئاب".

التفتوا إليه في دهشة، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتفوه فيها بكلمةٍ واحدةٍ منذ يوم كامل، وتحديدًا بعدما ذهب أبوه مع (سليم) وبعد أن اعترف له بأنه هو الزعيم الفعًلي للمطاريد، في البداية؛ راح يضرب الجدران بقدميه، وقبضتيه في جنونٍ، وغضبٍ، وثورة وغير تصديق، وهو يصرخ ويتساءل؛ لماذا أقدم أبوه على هذا؟. ولماذا أخفى عنه تلك الحقيقة كل هذا الوقت؟. قبل أن ينهار في ذلك الركن القصي من سجنهم، ويدفن رأسه بين كفيه، ويخلد للصمت. لم يحاول أحد تهدئته، وقد أدرك الكل أنه لا كلمات، أو مواساة قد تصلح للتخفيف عما يعانيه. أشار لهم (طارق) أن يدعوه وشأنه، ربما كان بحاجةٍ لبعض الوحدة؛ ليستوعب عقله ما علمه، وربما كان الوقت، والتفكير هو السبيل الوحيد ليهدأ، اعتزلوه تمامًا، ولم يحدثوه إلا مرة واحدة، حين عرض عليه (فؤاد) بعض الطعام الذي أتى به أحد المطاريد الملثمين، ومرره لهم عبر القضبان الحديدية. لكنه لم يهتم حتى بأن يلتفت إليه، أو يجيبه، فترك (فؤاد) التفاحة بجواره، وعاد لمكانه.

تمتم (بهاء) وهو ينظر إلى البقعة الخالية من الذئبين الشرسين اللذين يراقباهم: " يا إلهي، هذا صحيح، لقد ذهبت الذئاب، كيف لم ننتبه لهذا؟"

قال (طارق) في حذر: " ولكن أين ذهبوا؟"

أجابه (أحمد): " إلى المقبرة الملعونة، ألم يخبرنا أبي أنهم سيقومون بشيءٍ ما لكسر لعنتها اليوم؟".!

هتف (بهاء)، وقد عاودته مخاوفه:" وماذا عنا؟ هل سيتركوننا هنا للأبد".

غمغم (أحمد) في مرارةٍ، وتهكم:" لا تقلق يا دكتور، سيعودون حتمًا، على الأقل من أجلي".

غاب (طارق) في التفكير للحظةٍ قبل أن يقول:" لا أريد أن أثير خوفكم، لكنني أخشى أن يفشلوا، في الحقيقة أنا متأكد من هذا، فما حدث في النجع، وما قرأته مدونًا على جدران مقبرة هذا الساحر الفرعوني يخبراني أن الأمر أكبر منهم، أعتقد أنهم سيستعينون بأحد الدجالين، وأغلب هؤلاء أفاقين في العادة".

أدار (بهاء) وجهه بينهما قبل أن يقول بحذر:" وماذا لو فشلوا، وعاد ذلك الساحر اللعين كما تقولون، وسيطر عليهم أو أهلكهم، من سيأتي ليطلق سراحنا حينها؟"

لم يهتم أيهما بإجابته؛ رغم أنها قد أشعلت في نفسيهما خوفًا مبهمًا من أن يحدث شيء كهذا، بالفعل من سيطلق سراحهما لو فشل المطاريد في سعيهم للسيطرة على لعنة هذا الساحر الفرعوني القديم؟ كان احتمالًا مخيفًا.

أما (فؤاد) فقد راح يقبض على قضبان باب سجنهم الحجري، وهو يدير رأسه نحو الفناء الخارجي للمغارة ليتيقن إن كان أحد هناك، هنا تناهى لأذنيه صوت أقدام خافتة تدب على الصخر من بعيد. أشار لهم بكفيه ليصمتوا، ثم هبط (فؤاد) نحو الأرض، واتخذ وضع السجود، وألصق أذنه بالأرض الحجرية الباردة للحظة قبل أن يرفعها، ويقول لهم: " هناك من يعدوا نحونا، صوت قدميه المتردد على الصخور يشير لهذا".

أرهفوا السمع، فسمعوا صوت القدمين المقتربة، رمقوا مدخل المغارة المظلم في ترقبٍ، ومضت نحو الدقيقة قبل أن يظهر ذلك الشخص القادم إليهم، وهتف (فؤاد) في ذهولٍ حقيقي فور أن رآه: " أنت؟"!

كان الصول " فوزي"، الذي قال لهم: " أجل، يا فؤاد بك".

" - وكيف عرفت بمكاننا؟ هل أخبرك أحد، أم تراك تعمل أنت الآخر مع المطاريد؟"

ابتسم (فوزي) في تهكم، وقال:" أنا آخر من قد يعمل مع المطاريد يا فؤاد بك، سل أحمد بن الشيخ عبد الكرًيم، وسيخبرك بهذا، أليس كذلك يا أحمد؟"

قالها، ودون أن ينتظر إجابة سؤاله؛ أخرج مسدسه من طيات ملابسه، وأطلق النار بعدها على الباب في سخاء.

☆ ☆ ☆

كان المطر غزيرا حين بلغوا المقبرة الملعونة. دخلها أولا رجلان من المطاريد الملثمين، ثم الحاج حمد الذي بدا السخط على وجهه والتوتر، وهو يسند الحاج حسنين الذي بدا كدمية آلية تدب على الأرض ولا تشعر بأي شيء مما حولها. ثم دخل الحاج عبد الكريم وبقى في الخارج الشيخ عايد بصحبة سليم. أمر الشيخ عايد ذئابه أن تقبع بالخارج وأن تنتظر، قبل ان يهوى على اذانها المنتصبة بفمه ويهمس لها بشيء ما، ثم ينظر للسماء الملبدة للحظة فانطلق لسان رهيب من البرق شق صفحة السماء فارتعدت، قبل ان يدوي الصوت الهادر. نظر الشيخ عايد الي سليم دون أن يبالي بالرياح العاصفة التي تكاد أن تقتلعه من مكانه وهتف بصوت قوي: " هل أتيت بكل من دلف القبر في المرة الأولى"

اومأ له سليم وهتف بصوت أقوى ليتغلب على هدير المطر وزئير الرياح: " فقط كان هناك خليفة ابن الحاج حسنين وقد قتل، كما حبست باقي الرجال في مغارة بعيدة كما أمرت، رغم أني لا أعي سبب هذا"!

اتكأ الشيخ على صولجانه الغريب ودخل المغارة فلحقه سليم وأجابه دون أن يلتفت نحوه: " لا تبق خنجرا مشهرا خلف ظهرك يا بني وأنت تقاتل"

"لكنهم رجالي، وولائهم لي وحدي"

"كان هذا فيما مضى، لكن الرجال بما فيهم أنت صرتم أتباع قوى ملعونة قديمة لا ترحم، وفي كل لحظة تمضى يحكم ذلك الملعون "عج حور أب" سيطرته على أتباعه. كان علينا أن نؤمن أنفسنا من المفاجآت، أم تحب أن نقاتله في الداخل ونجد رجالك فوق رؤوسنا وهم يقاتلونا"

ثم التفت نحو سليم وقد بلغوا الدرجات الحجرية التي غاصت نحو قلب المقبرة ونظر الي عينيه الحمراوين المتوهجتين على ضوء المشعل الناري الذي يحمله وقال: " هل أنت متأكد يا بني أنك كنت أول من نظر في التابوت حين فتح؟"

في تلك اللحظة كان عقل سليم مشتتا بشدة وألم عنيف يجتاحه، كان يقاوم رغبة ملحة تطالبه أن يقتل الرجل العجوز الذي يقف امامه، لكنه عاد ليسبح بذاكرته نحو الماضي حين فتح التابوت، رأى رجله الذي مات بغتة وقتها قبل يتذكر العينان المتوهجتان كالجمر والظلال التي انطلقت منها. نفض كل الأفكار عن رأسه وهتف: " كنت أنا أول من نظر الي داخل التابوت"

"وهل تراودك الأحلام المخيفة التي ترى نفسك فيها رجلا آخرا ينتمي للماضي"

"إنها لا تفارقني"

صمت الشيخ عايد ومازال يتأمله قبل أن يتمتم: " وهل تدرك ما عليك القيام به؟"

"لا تقلق، أعلم جيدا ما أنا مقدم عليه، ولا أبالي"

"عليك أن تموت لنتغلب على هذا الشر"

"لا يهاب الموت غير الضعاف والحمقى، أما رجل ظل طوال ثلاثين عاما يعبث مع الموت وينتظره في كل لحظة فلن يجبن لو أتاه. ربما وهنت نفس الرجل القوي بداخلي وملت وربما أضحى الموت طريقها للخلاص من كل هذا الشقاء"

"سيكون علي أحد ما أن يفعلها بيده"

"سأفعلها بيدي، لن يمس عنقي الا خنجري"

هبطا لأسفل واتجه الشيخ عايد نحو الهاوية، قبع بجوارها في وضع القرفصاء حيث تمدد امامه الشيخ عثمان مقيدا ومكمما، لكنه رغم هذا ظل يقاوم، أخرج من جرابه قلائد حجرية سوداء معلقه في خيوط سوداء وناولها لهم وهو يقول: " ارتدوا هذه كي تقيكم ولو قليلا من شر هذا الساحر الملعون"

ارتدى الجميع القلادة وقام أحد الملثمين بوضعها على عنق الحاج حسنين الذي ظل واقفا في جمود وذهول. كان هذا حاله مذ علم بمقتل وحيده، ولم يستبعد أحد أن يذهب هذا الأمر بعقله. أخرج الشيخ عايد أربعة تماثيل من جرابه تمثل أربعة من القطط القابعة على قوائمهما الخلفية. وصفها حوله في زوايا أربع وتغضن وجهه وهو يقول ويشير بإصبعه نحو حجرة المقبرة التي تلي الهاوية السوداء: " تذكروا مهما رأيتم أنني في صفكم وأن العدو الحقيقي لنا جميعا داخل تلك الحجرة"

لم يجبه أحد، فدق بصولجانه على الأرض وأغمض عينيه وبدأت شفتاه في التحدث بلغة قديمة للغاية نسيها العالم، كان يتحدث نفس اللغة التي يرتل بها حشد الموتى والملعونين اناشيدهم الملعونة كل ليلة، توهج الصولجان واشتعلت أعين التماثيل في الوقت نفسه، وأمام الجميع انبعث حول الرجل العجوز دخان ابيض قبل أن يرتفع جسده لنصف متر فوق الأرض وكأنما تلاشت الجاذبية من حوله. في تلك اللحظة شعر كل من ارتدي القلادة الحجرية بها وقد صارت كقطعة من الجليد وهي تتمدد فوق صدرهم وتتسع لتغطي الوسم اللعين فوق الصدور، هنا جاء الألم الذي شق صدروهم جميعا، ألم رهيب أجبرهم على التلوي والصراخ، بدأت الكثير من الرسوم التي فوق الجدران في التوهج، وانطلقت عشرات الهمسات الغامضة من قلب الفوهة. نجح الشيخ عتمان في تحرير فمه من كمامته في تلك اللحظة وصرخ فيه:" لن تنجح أيها العجوز الملعون، السيد يراك وينتظرك هذه المرة"

انزاح الضباب عن وجه الشيخ عايد، كان يحمل وجه رجل آخر، صار يحمل وجه كاهن فرعوني قديم اصلع الرأس مشدود القسمات، لكن عيناه في تلك اللحظة صارتا بيضاوين تماما، وهتف بقسوة في وجه الرجل المقيد" : كنت تعلم ما أنت مقدم عليه أيها التعس وقدتهم نحو الهلاك، والان ستكون دمائك ثمنا لجرمك، نحن بحاجة لأضحية بشرية لإتمام الطقوس وستكون أنت تلك الاضحية"

أطلق الشيخ عتمان ضحكة ساخرة صاخبة واراد أن يتكلم ثانية لكن كف الشيخ عايد تحركت فاختفي فم الرجل المقيد من وجهه وقد حل مكانه طبقة غريبة من الجلد. اتسعت الرجل في رعب بينما واصل الشيخ عايد القاء تعاويذه، ومازال جالسا في الهواء، ظهرت من حوله ظلال سوداء فانطلقت التماثيل التي تحمل هيئة القطط خلفها في خفة وراحت تلاحقها وكلما ادركت أي من تلك الظلال كانت تلتهمها، هنا انبعث النداء الرهيب من قلب المقبرة التي غمرها ضوء لهبي رهيب. " اقتلوه"

وفي اللحظة التالية نزع الرجال جميعا القلائد الباردة عن اعناقهم وتوهجت عيونهم بالضوء الأصفر اللهيب واندفعوا نحو الشيخ عتمان، في حين واحد ولم يتخلف الا الحاج عبد الكريم الذي ظل يرمق ما يحدث في غير تصديق ورعب والحاج حسنين الذي ظل اسير شروده الغريب، قفز رجلي المطاريد وسليم فوق جسد الشيخ عايد في وقت واحد، أشار بصولجانه المتوهج نحو احدهم فحملته قوى غامضة بعيدا وضربت جسده في الجدار، وأشار بكفه الأخر نحو الرجل الثاني فطار جسده هو الاخر في الهواء كذلك، لكن سليم نجح بجسده القوي في تقيده من الخلف بينما نجح الحاج حمد في تخليص الصولجان المتوهج من يده فتلاشى وهجه. هنا هوى جسد الرجل العجوز على الأرض وقد استعاد هيئته، في نفس اللحظة الذى برز فيها الكثير من الثعابين السوداء ذوات الأعين الصفراء المشقوقة من الهوة المظلمة، طاردت بعض الثعابين تماثيل القطط الأربع ونجحت في اقتناصها وابتلاعها، بينما اتجه ثعبان هائل نحو قدمي الشيخ عايد الضامرتين فالتف حولهما واعتصرهما بقوة، فصرخ الرجل العجوز في ألم لا يوصف وصوت عظامه المهمشة يدوي في المكان، صرخ الشيخ عايد في ألم ورجاء: " قاوموه، لا تدعوه يتغلب عليكم. ستكون النهاية لو لم تفعلوا"

لم يبد على وجوهم أثر لما قال وهم يراقبون الثعبان الذي راح يزحف في بطء حول جسد العجوز الضامر ويعتصره بقوى هائلة، تحرر فم الشيخ عتمان من السحر الذي طمسه فصرخ في شماته:" لا أحد يغلب السيد أيها الأحمق، حرروني يا رجال"

ضاقت أنفاس الشيخ عايد ونظر في يأس الي صولجانه الملقى بعيدا عنه، لو كان في يده لنجا بلا شك، وصرخ مرة أخيرة في وجه الرجال الذين يرمقونه في خواء وقال بوهن حقيقي ويأس:" حرروني أرجوكم، لا تستسلموا لشره"

وارتفع الراس الضخم للثعبان الأسود وتوهجت عيناه كمصباحين صغيرين وهو يطلق فحيحا رهيبا ظافرا، واتسع فمه عن اخره وقد تراجع رأسه للخلف ثم انطلق في سرعة نحو رأس الشيخ عايد الذي اتسعت عيناه في رعب وقد أردك النهاية.



رغم ان طلقة النار دوت كألف قنبلة في المكان المغلق الا ان الشيخ عايد لم يشعر بصوتها أبدا، ولدهشته فتح عينيه ليجد نفسه وقد تحرر بغتة من الثعبان الذي كان يعتصره، كان الثعبان ملقى الي جواره وقد انفجر رأسه بينما وجد في مدخل المكان فؤاد وطارق وبهاء وفوزي قبل ان يظهر احمد برفقة مريم، كان فؤاد من اطلق النار على الثعبان، حيث ظفر به من الطلقة الأولى، وقال في ذهول: " ما الذي يجرى هنا"

أتته الإجابة مع انقضاض سليم ورجاله والشيخ حمد عليهم، مع بروز المزيد من الثعابين من الهوة المظلمة، تراجع الكل في رعب امام هذا الهجوم المزدوج وصرخ طارق حين نجح ثعبان في الالتفات حو قدمة واعتصاره، ووجد بهاء نفسه مقيدا بين ذراعي أحد الملثمين ودفع فوزي بالحاج حمد بعيدا عنه، بينما أطلق فؤاد النار في صدر الملثم الاخر الذي حاول الفتك به، قبل أن يطلق المزيد من طلقات مسدسه نحو ثعبان كاد أن يصل اليه حتى اصابه، وهو يصرخ في رفاقه: " تراجعوا نحو السلالم بسرعة واهربوا" كان القول سهلا، لكن المخيف ان الدرجات الحجرية كانت تعج هي الأخرى بالمزيد من الثعابين السوداء، كان الحصار محكما فصرخ بهاء في فزع وهو يلتصق بجسد طارق: " يا الهي، سنهلك جميعا"

التصق فؤاد وبهاء وطارق واحمد ومريم وفوزي ببعضهم في توتر ورعب وقد التفت الثعابين حولهم في دائرة من كل جانب. وارتفعت رؤوسها في الفراغ وهي تستعد للانقضاض، لكن صوت الشيخ عايد انطلق ثانية بغتة وهو يصرخ بتعويذة جديدة بعد أن نجح في التقاط صولجانه. عاد جسده ليرتفع وتوهج الصولجان كمصباح قوي، ولدهشة الجميع تجمد سليم والحاج حمد والرجل الباقي بينما راحت الثعابين في التلاشي كأنما يذوبها الضوء المنبعث من الصولجان، ورغم الالمه الرهيب وقدميه المهشمتان والدوار العنيف الذي يكتنفه الا ان الشيخ عايد قاوم كل هذا وصرخ في القدمين الجدد دون ان يهتم بمعرفة من هم: " لا تتجمدوا هكذا واحيطوا اعناقهم بتلك القلائد، هيا بسرعه"

فهم فؤاد وأحمد وفوزي ما يطلبه فانطلقوا بسرعة نحو القلائد السوداء الملقاة على الأرض واحاطوا بها اعناق الرجال المجمدين، فعادت لتتمدد ثانية فوق صدورهم وهي تغطي وسمهم المتوهج فخرج الملعونين من شرودهم وقد استعادوا الألم الرهيب الذي يشق صدروهم. ومن الخلف تقدم الحاج عبد الكريم نحو احمد وهو يصرخ في جزع: " ما الذي اتي بك أيها التعس، ولماذا أتيت بمريم"

لم يجبه أحمد، وقد عقد لسانه ما حدث لهم للتو، في الواقع كانت مريم هناك امام المغارة حين بلغوا المغارة، أصابه الذهول حين رآها في المكان، وسألها ما الذي اتي بها إلي هنا، لكنها بدت وكأن عقلها في مكان آخر ولم تجبه، لم يكن ليتركها بالخارج بمفردها وخاصة وهو يرى الذئاب التي ترمقهم بتحفز، رغم انها لم تفكر في مهاجمتهم، وقرر أن يصحبها معه للداخل.

هتف فؤاد وهو يشيح بسلاحه المشهر في الفراغ: " أي جنون يحدث هنا"

لكن الشيخ عايد لم يعبأ بتساؤله وهو يرفع خنجرا حجريا من جرابه ويرفعه عاليا وهو يردد طلاسمه بتلك اللغة القديمة الغير مفهومة ويستعد ليهوي به نحو عنق الشيخ عتمان الذي راح يصرخ في رعب. صرخ فؤاد محذرا وهو يصوب مسدسه نحوه: " اياك ان تفعلها"

لكن فوزي قبض على يده التي تحمل السلاح ورفعها بقوة نحو السقف وهو يقول: " لا تتدخل يا فؤاد بك، لا تفسد الامر"

كانت أصابع فوزي كالفولاذ حتى ان فؤاد افلت المسدس فهوى على الأرض فركله فوزي بقدمه بعيدا لتبتلعه الهاوية، وهو يقول: " ربما كانت جريمة لكنها امر لا مفر منه"

رمقه فؤاد في ذهول دون أن ينطق وارتفع صوت الشيخ مرة جديدة، غلف وجهه الضباب ثانية، وراح يغمر المكان، وبينما تألقت النقوش على الحائط شعر الجميع انهم لم يعودا بمفردهم في هذا المكان، ومن بين الضباب الكثيف الذي حد الكثير من قدرة عيونهم على الرؤية، رأوا الظلال الغريبة الغير ادمية، ظلال تحمل رؤوس حيوانات وصقور، كانت تحمل وجوهها لم يرها احد الا في وجوه التماثيل الفراعنة القديمة أو نقوش مقابرهم ومعابدهم. ومن الفراغ راحت التعاويذ تتردد من كل مكان. تراجع الكل بظهورهم في رعب حتى التصقوا بالجدران بينما هوى الشيخ عايد بالخنجر الحجري على عنق الشيخ عتمان فانتفض الجسد المذبوح واصدر العنق المبتور خوار قبل ان يدفعه الشيخ عايد نحو الهاوية، وهو يصرخ: "الأن يا سليم"!

أدرك سليم ما يقصده فاندفع مترنحا نحو حجرة التابوت، أراد رجله ان يتبعه لكن الشيخ عبد الكريم أشار اليه ألا يفعل، وامام التابوت وقف سليم في حزم، رمق الجسد المغطى بلفائف الكتان وهو يقاوم نبضا عنيفا في رأسه وألما لا يحتمل في صدره وبداخله تردد النداء المحذر، " لا تفعلها"

لكنه قاوم كل هذا واخرج خنجره من جيبه وبلا تردد مرره بقوة على عنقه، تقلصت خلجاته للحظة ثم هوى جوار التابوت بلا حراك.

لم يحدث أي شيء، لم تختف الهوة ولا اختفى باب المقبرة، فقط انسحب الضباب بسرعة نحو صولجان الشيخ عايد الذي استعاد وجهه القديم ثانية واختفت تلك الكيانات الطيفية التي حضرت مع الضباب. كان هناك خطئا ما، وهتف الحاج عبد الكريم: " ماذا يحدث يا شيخ عايد"

"لم يكن سليم اول من اطل على تابوت "عج حور أب" لم يكن هو الجسد الذي ستحل روح الساحر فيه"

"إذا من يكن؟"

جاءه الجواب هذه المرة من فم الحاج حمد الذي أخرج مسدس صغير من طيات صدره وصوبه نحو الجميع وهتف: " لا يهم كل هذا الآن، لقد انتهى وقت هذا العبث"

ومن مدخل المغارة حيث ينتهي الدرج الحجري برز رجلان ملثمان وهما يصوبان رشاشين آليين نحو الجميع، وابتسم الحاج حمد في ظفر وقال: " لماذا لا ترحبون برجالي؟"

☆ ☆ ☆

أرهق الألم الشيخ عايد فلم يتكلم، بل اغمض عينيه في قوة وهو يجاهد ليحافظ على وعيه ولا يفقده، بينما قال الحاج عبد الكريم في استنكار: " ماذا تفعل يا حاج حمد، هل تهددنا بسلاحك، أم تراك انت من شاهد ما بداخل التابوت"

بدا الحاج حمد مضطربا واهنا لكنه ظل يصوب سلاحه نحو الجميع وهو يجيب: " لنقل أنني لا أرغب ان تواصلوا عبثكم هذا، لن أسمح لكم بإغلاق المقبرة مهما حدث، هل تخيلت أنني أحمق مثلكم كي أدع كل هذا الذهب"

"ذهب ملعون يا رجل، سيهلكنا جميعا"

"بل كنز قارون الذي سيجعل مني أغنى الجميع، إنها الفرصة التي أنتظرها طوال عمري"

صرخ فيه الحاج عبد الكريم في عضب:" أفق يا رجل، لقد أصابك الخبال فلم تعد قادرا على تقدير الأمور، ألا ترى ما نواجهه، هناك ساحر سوف يقتلنا جميعا، لو لم نوقفه"

"لنقل أنني سأقبل بالمخاطرة"

هنا تحرك أحمد نحوه في غضب وهو يهتف: " ومن سيسمح لك بهذا؟"

"مكانك يا أحمد، رجالي متحفزون ولو تقدمت خطوة واحدة، فستكون نهايتك"

واصل أحمد التقدم وهو يقول: " النهاية واحدة في كل الأحوال، سواء قتلتني أنت ورجالك، أم انتظرت قليلا لأصاب بلعنة هذا الساحر الذي يحشد جيشا من الموتى"

اطلق أحد الرجلين المسلحين بالنار أسفل قدمي احمد فتوقف، وواصل الحاج حمد الحديث قائلا:" يبدو أن كل شباب هذه الأيام يتسمون بالحمق، لقد كان خليفة متهورا أحمقا مثلك تماما، لكنه قد نال ثمن حماقاته الآن"

رمقه فوزي في تشكك قبل أن يقول: " لقد قتلته، أليس كذلك؟"

"إنها العبقرية يا بن الديابة، لقد كان (خليفة) مجرد طفل أحمق يستعد ليقود البلدة من بعد أبيه، فتى غشيم كان ليضيع كل شيء بغبائه وتهوره، لقد بنى أجدادي مجد الخلفاوية، وبدلا من أن أرث حقي في العمودية خلفا لأبي اغتصب ابن عمي هذا حقي، ولسنوات طوال كان علي أن أحتمل دور الرجل الثاني، ثم جاء خليفة وصرت الرجل الثالث، لقد سئمت كل هذا الخنوع والذل، وحان الوقت لأسترد حقي"

هنا صرخ الحاج عبد الكريم في جزع: " فقررت أن تقتل خليفة"

"إنها العبقرية يا (عبد الكريم) ، ابنك هدده أمام الجميع بالقتل ولما مات لم يعد أمام الكل الا (أحمد) لاتهامه، من قد يشك في عم القتيل العجوز ويتهمه بشيء كهذا، وفي نفس الوقت ذهب موت خليفة بعقل (حسنين)، انظروا إليه، لقد صار حطام رجل، وقد ذهب عقله، ولم يعد هناك من يصلح لقيادة البلدة والعائلة غيري"

هنا تحدث الحاج حسنين وكأنما أفاق م حلم بعيد: " أنت قتلت (خلفية) يا (حمد)؟"!

"وستلحق به عما قليل يا بن عمي. لا تقلق"

غمغم فؤاد في هدوء غريب: " وبالطبع سيصير الموت مصيرنا جميعا، وقد اعترفت بكل هذا أمامنا"

"أصبت أيها الضابط. مذ رأيتك وانا أدرك أنك داهية"

قال فوزي في برود: " وكيف ستفسر لأهالي النجع قصة موتنا؟"

"الأمر يسير، لقد انهارت المقبرة فوق رؤوس الجميع وكنت الناجي الوحيد"

قال أحمد في استخفاف: "حجة سخيفة لن يصدقها أحد، وبخاصة المطاريد الذين ستقتل زعيمهم، بالطبع انت لا تعرف الزعيم الحقيقي للمطاريد"

اتسعت ابتسامة حمد في استخفاف وقال: " هل تقصد أباك؟ إنه زعيم المطاريد، رغم أن لا أحد يعلم هذا، لكنني أدركت هذه الحقيقة منذ وقت طويل"

"هل ستخبر المطاريد بتلك القصة السخيفة وهل تعتقد أنهم سيصدقون؟"

جاءت الإجابة على لسان أبيه في ضيق: " لقد انتهي أمرهم هم الآخرين، يا بني"

رمقه الجميع في ذهول، فأكمل: " لقد أصابتهم اللعنة كما أصابت الباقين، وقد طالبنا الشيخ عايد بحبسهم في مكان واحد كي لا يستعين بهم الساحر الملعون، فحبسهم

سليم في واحدة من مغاراته"

وأكمل (حمد) حديثه وقال: " ولهذا لم يعد القضاء عليهم بحاجة لأكثر من قنبلة يدوية صغيرة تهد المغارة فوق رؤوسهم"

اجتاح أحمد حنق لاحد له فصرخ: " كان هذا غباء لا يحتمل"

ضحك الحاج حمد وقال: " غباء بالفعل لكنه في صالحي، والأن ليتلو كل منكم الفاتحة على روحه، لقد حان الوقت، وسأبدأ بهذا العجوز المأفون الذي جئتم به من قبره"

كان الحاج حمد منهمكا بالحديث مع الجميع فلم ير شفتي الشيخ عايد اللتان كانتا تتمتان بشيء ما، ولهذا شعر بذهول لاحد له حين التفت اليه فوجد الأخير يبتسم في قسوة، وقبل أن يصل اصبعه لزناد المسدس حرك الشيخ عايد صولجانه نحوه، فاذا بسلاحه يطير من يده في غمضة عين، ويهوى هو الاخر في الهاوية، وفى نفس اللحظة صرخ الرجلان المسلحان حين هاجمها ذئبا الشيخ عايد من الخلف. زمجرت الذئاب وهي تنهش عنقا الرجلان في وحشية دون أن يجد أيهما الفرصة لاستعمال سلاحه ضد الذئاب. في نفس اللحظة التي برز فيها ثلاثة ذئاب ضبابية من صولجان الشيخ (عايد) انطلقت كلها في آن واحد نحو (حمد) وفي لحظات تعالى صراخه وهى تنهشه في وحشية لاحد لها.

وبينما انشغل الجميع بما يحدث تحركت مريم في حذر من خلف الجميع حتى صارت بجوار الشيخ عايد الذي كان يراقب ذئابه الشبحية، وفي اللحظة التالية ظهر خنجر صغير في يديها كانت تداريه في طيات ملابسها، كان نفس الخنجر الملعون الذي أتاها عبر أحلامها من قبل، وبلا تردد هوت به على ظهر الشيخ عايد، الذي التفت إليها في ذهول قبل أن يسمع الحاج (حسنين) وهو يقول: " لقد انتهت رحلتك الطويلة أيها الكاهن.. انتهت بهزيمتك"

☆ ☆ ☆

كان الذهول لا حد له، واطبق على المكان صمت بدائي عجيب، راحت العيون تتطلع في غير فهم الي مريم والحاج حسنين والشيخ عايد الذي إنهار جسده على الأرض وقد انسابت مادة سوداء لزجة من ظهره بدلا من الدماء، لاحظ الكل كذلك عينا الحاج حسنين اللتان صارتا في تلك اللحظة مشقوقتان وراحتا تشعان ببريق أصفر، وكان أحمد أول من قطع الصمت حين هتف: " أنت يا مريم؟"!

ضحك الحاج حسنين في خشونة وأجاب: "لقد صارت منا يا أحمد، ألم ترى الوسم على صدرها، لقد اختارها سيد الموتى لتكون زوجته حين يعود"

بدت مريم جامدة كالموتى ولم تنطق بينما قال الحاج (عايد) في وهن: " إذا لقد كنت أنت"

أجابه الحاج حسنين: " لم يكن سليم أول من نظر إلى داخل التابوت، لقد كنت بجواره، وبينما انشغل هو في تلك اللحظة برجله الذي مات، ظفرت أنا بالنظرة

الأولى"

سعل الشيخ (عايد) فتناثرت الدماء من جانب فمه فلم يقدر على الكلام، بينما اقترب منه الحاج (حسنين) وواصل الكلام. " لقد افنيت عمرك كله يا كاهن (رع) الأحمق في ملاحقتي، وبدلا من أن تستمتع بخلودك الذي ظفرت به بعد التخلص مني، واصلت ملاحقتي ومراقبتي عبر القرون، كانت حماقة أن تبدد كل هذا العمر الطويل في ملاحقة رجل قتلته بالفعل في يوم ما، والآن قد انتهى الأمر، وها أنا سأعود وها أنت ستهلك، إنه خنجر أمنون لو كنت تعلم، السلاح الوحيد القادر على قتلك"

لم يتمالك الباقون أنفسهم فاندفعوا نحو الحاج حسنين في محاولة يائسة أخيرة للسيطرة عليه، لكنه رمقهم بغضب ورفع ذراعيه بقوة فاجتاحتهم رياح عاتية اقتلعتهم من أماكنهم وقذفت بهم نحو الجدران فانهاروا أسفلها في إعياء، بينما أغمض حسنين عينيه وبصوت لا ينتمي إليه راح يصرخ بتعاويذه، أظلم المكان، ومن الهاوية انبعثت الأصوات الرهيبة لحشد الموتى من أتباعه، وفي لحظة ظهر في المكان الحشد الرهيب لأشباح الموتى، أمسك حسنين بكف مريم وقال لها وهو يقودها نحو حجرة التابوت: " هيا بنا يا اميرتي، لقد حان الوقت" وبينما اختفى في الحجرة ارتفعت الصرخات الرهيبة، حين هاجمت الاشباح الباقين، تراجع بهاء في رعب نحو الجدار من خلفه، لكنه شعر بمن يقبض عليه من ظهره وحين التفت كان أخر ما رآه قبل أن يفقد رأسٍه هو الوجه البشع الذي اقتلع رأسه بمخالبه، وغطى الحاج حسنين وجهه بكفيه وهو يقرا القرآن ثم انهار مكانه وقد عجزت قدماه عن حمله، واندفع رجل سليم الباقي في شجاعة نحو حشد الموتى فاختفى جسده تماما في لحظة قبل ان يطير جسده للخلف ويرتطم بالجدار ويسقط اسفله وقد فقد وعيه، وشعر أحمد بقبضة باردة تعتصر قلبه، فنظر أمامه ليرى أحد الموتى وقد عبرت ذراعه الشفافة صدره واعتصرت قلبه، بينما وجد طارق نفسه طائرا في الجو قبل أن يهوي في الهاوية المظلمة وهو يطلق صرخات لا تنتهي من الفزع، أما فؤاد فقد وقف في مكانه ونظر الي الأشباح في يأس للحظة ثم اغمض عينيه وهو ينتظر النهاية، لكن الجدران راحت ترتج بغتة، ولدهشة الكل رأى الكل جسد الشيخ عايد وهو يسبح في الفضاء رغم ألامه وصولجانه يومض بقوة، فتراجعت حشود الموتى أمام ضوء صولجانه، وبقوة صرخ:" تراجعوا يا كائنات الظلال، عودا لجحيمكم أيها الملاعين"

ومن كل مكان بزرت الاطياف الضبابية، التي رأوها من قبل، راحت تهاجم الموتى الذين راحوا يطلقون صرخات مريعة وهم يعودون ثانية لقلب الفجوة السوداء.
ووسط كل هذا هتف الشيخ عايد: " الوقت قد ولى، ليحلقه احدكم وليقتله قبل أن تعود اليه كل قواه"

أدركوا مقصده فاراد أحمد أن يندفع الي حجرة التابوت لكن أبوه قبض على كتفه هذه المرة وهو يقول: " ليس أنت يا بني، إنه دوري هذه المرة"

صرخ أحمد وهو يحاول تخليص نفسه من قبضته: " كلا يا أبي ستموت لو ذهبت"

"وانت كذلك ستموت، لو كان لأينا أن يموت فهو أنا، لم يخلق الآباء يا بني ليشيعوا أبنائهم الي الموت، بل ليموتوا ويفنوا ليحيا الأبناء"

أراد أحمد أن يحتج فصرخ فيهم الشيخ عايد: "لا وقت لهذا، الوقت ينفذ والشمس غادرت الافق بالفعل"

احتضن الحاج عبد الكريم ابنه قبل أن يطلقه وقال بسرعة: " هناك أمر أخير، لقد أصبحت زعيما للمطاريد من بعدي" ثم أشار للملثم الراقد جوار الجدار وقد فقد وعيه جراء المواجهة السابقة مع الموتى وأردف:" سيرشدك هذا الرجل لمكانهم فحررهم ثم قدهم، إنها وصيتي الأخيرة فلا تخالفها".

ظهرت مريم في تلك اللحظة واندفعت نحوهم كالمجنونة وهي تلوح بخنجرها في وجوههم، فاندفع احمد نحوها وتحاشى انقضاضتها وحاول السيطرة عليها، كانت تقاتل في شراسة، وبدا جليا أنه غير قادر علي السيطرة عليها تماما فاندفع فؤاد نحوه ليعاونه بينما أسرع الحاج عبد الكريم نحو حجرة التابوت فوجد فوزي في اثره وهو يقول: " ستحتاجني يا بن العم، لتنتهي من هذا، لن تتمكن من فعلها بمفردك"

لم يعقب الحاج (عبد الكريم) هذه المرة، ودلفا الحجرة سويا، كان الحاج حسنين في تلك اللحظة راكعا على قدميه أمام التابوت واشباح مخيفة تدور حوله وحول التابوت. هنا هتف فوزي: " على بركه الله"

قالها واندفع نحو جسد الحاج حسنين ليقيده، فالتفت اليه الأخير ولطمه بقوة رهيبة، لكن فوزي تحملها في بسالة، وراح يكيل له اللكمات القوية محاولا السيطرة عليه، هرول الحاج عبد الكريم ليساعده وانحنى نحو السكين الذي ذبح به سليم نفسه، وخلصه من يده ثم هب ليقاتل به حسنين، وفي ذعر لاحد له رأى جثة الساحر وهي تغادر التابوت وتقبض على عتق فوزي الذي نجح في السيطرة على جسد الحاج حسنين ثم ترفعه لأعلى قبل أن تهشم العنق بكفها العظمية المتحللة، ورغم ألم صدره الذي طارده في تلك اللحظة الا أن الحاج عبد الكريم اندفع بكل قوه نحو الحاج حسنين الذي بدا شاردا في تلك اللحظة ثم هوى بالخنجر على رقبته من الخلف. صرخ الحاج حسنين وأطلقت المومياء صرخت شنيعة قبل أن تضرب الحاج في صدره فتهشم ضلوعه.

ارتج المكان بغتة وتزلزل، وراحت الأحجار في التهاوي، وفي الخارج هتف الشيخ عايد في أحمد وفؤاد ومريم التي فقدت وعيها ورجل المطاريد الأخير: " هيا اذهبوا قبل أن تهلكوا. سنهار المكان"

حمل أحمد مريم واندفع نحو الدرج الحجري، بينما تبعه فؤاد ورجل المطاريد الباقي على قيد الحياة وراحا يتسلقان بصعوبة متحاشين الأحجار التي راحت تنهمر فوق رؤوسهم متجاهلين كل الصرخات المريعة التي ظلت تنبثق من قلب المغارة. هوى جسد الشيخ عايد في الهاوية هو الاخر ليلحق بمن سبقه، وظل المكان يرتج لبعض الوقت وقد غمره الغبار تماما، ظل هذا الصخب لبعض الوقت ثم همد كل شيء مرة واحدة. اختفى باب المغارة واختفت الهوة العميقة وعاد للمكان سكونه القديم.

☆ ☆ ☆

راح فؤاد يبكي بغتة، تذكر بهاء وصديقه طارق اللذان هلكا من دقائق أمام بصره فراح يصرخ في جنون: "أنا من تسبب في قتلهما، أنا من جئت بهما الي هنا"

لم يحاول أحد مواساته أو تهدئته، كان الكل مهموما بمصيبته، كان أحمد يبكي على اباه وكل من فقدهم في منذ قليل مثل فوزي وسليم، وبدت مريم مذهولة وهي تنظر الي الجميع في فزع وكأنها تتساءل كيف جئت الي هنا؟ بينما راقب رجل المطاريد الباقي على قيد الحياة الأفق فوق النجع وقد راحت الغيوم من فوقه تتلاشى وتتبدد. ظلوا في أماكنهم لوقت طويل دون أن يفكروا في مغادرته، وبعد حين غمغم الملثم محدثا أحمد: "والآن ماذا سنفعل يا سيد الجبل؟"

التفت الأعين كلها في تلك اللحظة نحو أحمد، تمنى فؤاد لو يرفض أحمد التركة، وازدادت دهشة مريم وهي ترى الرجل الملثم من المطاريد ينادي حطيبها بسيد الجبل، بينما تنهد أحمد قبل أن يشد من قامته ويقول في قوة:" لنحرر الرجال اولاً"

☆ ☆ ☆

على الفراش رقدت (آمنة).. أغمضت عينيها وراحت أنفاسها تتلاحق في وهن. في تلك اللحظة غابت ككل مرة في عوالم أخرى من الضياء. (ترى الخضر) وتشارك (المرسي أبو العباس) كراماته، وتشهد معجزات الاولياء. كان قلبها ملتاعا وهي تفكر في وحيدها. وفي اللحظة التالية وجدت نفسها أمامه. كانت تراه..

كان جلس في ظلام شديد جوار كومة من ثرى جثث قديمة، وقد احتضن ساقيه ودفن وجهه فيهما في ألم ويأس. كان خائفا فابتسمت. ومن العدم ظهر شعاع من النور فرأى أمه أمامه. ابتسم هو الأخر ومد كفه نحوها، فذهبت إليه بخطى شابة، وهمست: "أنا معك يا ولدي فلا تخاف. لقد جئت لأصحبك. لن نفترق ثانية بعد اليوم"

"لم يكن أحمد إذا يا أمنة"

"لقد كان أنت منذ البداية، شعرت بهذا فخفت أن ترى هذا في عيناي"

هنا احتضن كفها في رضى وابتسم قبل أن يغلق عينيه بعدها للأبد.

وفي الحجرة كف الصدر الواهن عن حركته، وتوقفت الدماء عن الاندفاع، وانطبعت ابتسامة فرحة في وجه الراس المتغضن الميت ل(آمنة). وقد بدا على وجهها رضا النهايات السعيدة..

هنا صرخت كوثر في لوعة:

" -ماتت آمنة"!

(تمت بحمد الله)

صدر للكاتب:

1 -الجثة الخامسة: (رواية) دار نون 2014

2 -عهود الدم: (رواية) دار نون 2015

3 -الشيخ الأسود (رواية) دار نون 2016

4 -الأعمال الكاملة لـ (لافكرافت): (ترجمة) دار نون 2016

نجع الموتى..

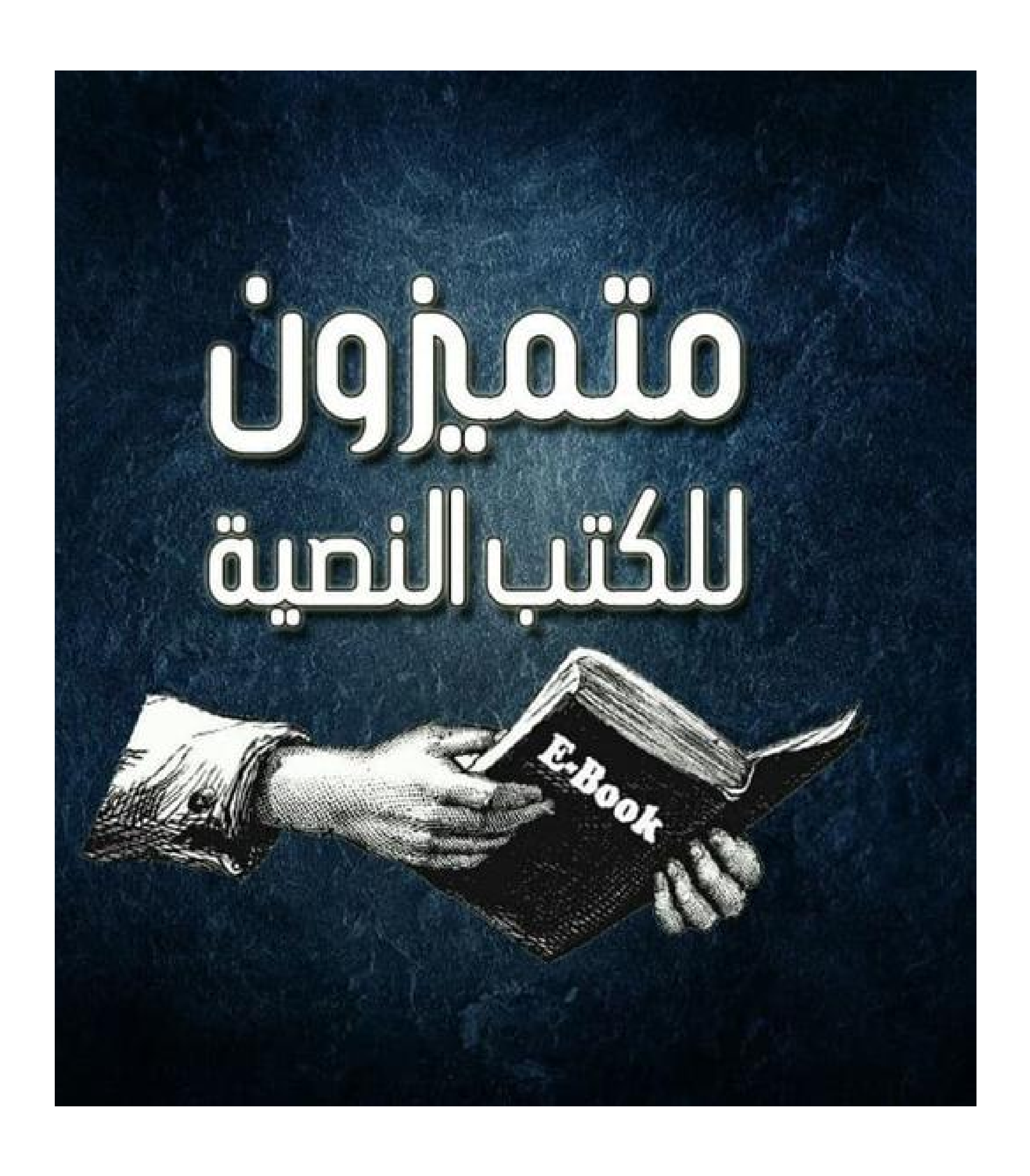
لم يتخيل الرائد فؤاد حين أصبح مسئولا عن نقطة شرطة هذا النجع البعيد الرابض في قلب الجبل، أن يواجهه كل تلك الأسرار القديمة الملعونة والمهلكة.

بينما ظلّ أحمد بن الحاج عبد الكريم دياب، ينقب عن الحقيقة، ماذا يحدث في النجع؟

ومن مهجعها الذي لم تفارقه منذ ثلاثين عامًا، كانت (آمنه) تحذرهم بيأس، الحكاية المنسية ليست خرافة يهمس بها العجائز وليست واحدة من قصص الجدات حول النار!

راحت آمنة تهمس بيأس:

"الموتى حين يعودون، لا يرحمون!"


متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك القنـــــاة – Link

فهرس المحتويات: